موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

المجلد الأول

الدكتور

محمد راتب النابلسي

مؤسسة

الفرسان

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

الطبعة الأولى
2014 م /1435 هـ

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع
الأردن – عمان – العبدلي
هاتف 00962 6 5607386
فاكس 00962 6 5653470
صندوق بريد 240664 عمان 11124 الأردن

Al Fursan Est.
Publishers & distributors
Jordan – Amman – Abdaly
Tel : 00962 6 5607386
Fax: 00962 6 5653470
P.O. Box 240664 Amman 11124 Jordan

E-mail: alfursan111@yahoo.com

الكتاب: موسوعة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى من الكتاب والسنة
4 مجلدات
المؤلف: الدكتور محمد راتب النابلسي
التخريج والتدقيق: بلال نور الدين
المراجعة النهائية: بلال نور الدين
الخطوط: الخطاط / يعقوب إبراهيم
الإشراف العام: م. حسن صالح

مؤسسة
الفرسان
للنشر والتوزيع

ISBN: 9789957570576 ردمك
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: 3 / 1 / 2014

مقدمة الكتاب

الحمد لله الملك القدُّوس السَّلام المؤمن، المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصوّر، له الأسماء الحسنى، يُسبِّح له ما في السماوات وما في الأرض، وهو العزيز الحكيم... وبعد:

قبل أكثر من عشرين سنة، تفضَّل الله عليَّ بإلقاء درس أسبوعي في مسجد العثمان بدمشق العامرة، وخلال سنوات عدَّة قمت -ولله الفضل والمنة- بشرح أسماء الله الحسنى في مئة درس، وقد اخترت هذا الموضوع إيماناً مني بأنَّ العقيدة أخطر شيء في الدين، فإن صحَّت صحّ العمل، وسلم الإنسان وسعد في الدنيا والآخرة، وأنَّ الأسماء الحسنى والصفات الفضلى لها موقع الصدارة في العقيدة، لأنَّ أصل الدين معرفة الله، ومن المعلوم أنَّ إحصاء الأسماء الحسنى وجمعها من الكتاب والسنّة، قضية لها من الأهميَّة والمكانة في قلوب المسلمين ما لا تعدلها مكانة، وهو ما تتطلَّع إليها نفوس الموحدين، وتتعلق بها ألسنة الذاكرين، ويرتقي الطالبون من خلالها مدارج السالكين، قال ابن القيم: «فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي أحصى جميع العلوم، إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها»[1].

---

(١) بدائع الفوائد، ١/ ١٧١.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف:١٨٠].

وقال تعالى أيضاً: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء:١١٠].

وقد أذيعت هذه الدروس في كثير من الإذاعات الإسلامية في شتى بقاع العالم مرات عديدة.

ثم صدر كتاب (موسوعة أسماء الله الحسنى) في ثلاثة أجزاء عام ٢٠٠٢، حيث فُرِّغت الدروس المسجلة وتم تنقيحها عدة مرات.

وقد طبع الكتاب بضع عشرات من الطبعات، حيث تلقاه القراء في العالم العربي والإسلامي بقبول حسن، كما تلقته الجاليات الإسلامية في العالم الغربي بقبول وثناء.

وقد نقحت الموسوعة في طبعاتها الكثيرة السابقة، وهذا يؤكد ضعف الإنسان فقد كتب القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني يقول: إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابه في يومه إلا قال في غَدِهِ: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليل على استيلاء النقص على معظم البشر[1].

(١) استدراك: هذا القول للقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني (٥٢٩-٥٩٦هـ/ ١١٣٥-١٢٠٠م) بعث به إلى العماد الأصفهاني (٥١٩-٥٩٧هـ/ ١١٢٥-١٢٠١م) الذي انتقده في كلام استدركه عليه. انظر: «شرح إحياء علوم الدين» للإمام المرتضى الزبيدي، ١/ ٣. «أبجد العلوم» لصديق بن حسن القنوجي، ص٥٢. التقسيم السابع، «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة، ١/ ١٤.

وكنت قد طلبت من إخوتي القراء بدءاً من الطبعة الأولى، والطبعات التي تلتها، أن يقدموا لي أثمن هدية وهي ملاحظاتهم القيمة، ونقدهم البنّاء، وأكدت لهم أنه ما من أحد أصغر من أن يَنقُد، وما من أحد أكبر من أن يُنقَد، إلا رسول الله ﷺ وقد استجاب عدد كبير من الإخوة القراء، فأرسلوا رسائلهم من داخل سورية ومن خارجها..

وقد تلقيتها بموضوعية وامتنان، وقد أفدت منها، لأن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «أحب ما أهدى إليّ أصحابي عيوبي»، علماً بأن الذي يقبل النصيحة ليس أقل أجراً من الذي يسديها.

وكنت حينما شرحت أسماء الله الحسنى في الكتاب السابق قد اعتمدت على الحديث الشريف الذي ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لله تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مِئَةً إلاَّ واحِداً مَنْ أحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ»[١]. وما أدرج بعده من أسماء الله الحسنى، وهي ما جمعه راوي الحديث الوليد بن مسلم[٢] من الأسماء كتفسير شخصي وباجتهاد منه لحديث الأسماء الآنف الذكر الذي أخرجه البخاري ومسلم، وهي الرَّحمنُ الرَّحيمُ المَلِك القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيمِنُ العَزيزُ الجَبَّارُ المُتكَبِّرُ الخالِقُ البَارِئ المُصوِّرُ الغَفَّارُ القَهَّارُ الوَّهابُ الرَّزَّاقُ الفتَّاحُ العَليمُ القَابِضُ البَاسِطُ الخافِضُ الرَّافِعُ المعزُّ المذِلُّ السَّميعُ البَصيرُ الحَكَمُ العَدْلُ اللَّطِيفُ الخَبيرُ الحَليمُ العَظيمُ الغفورُ الشَّكُورُ العَلِيُّ الكَبيرُ الحَفيظُ المُقِيتُ الحَسيبُ الجَليلُ الكَريمُ الرَّقيبُ المُجيبُ الواسِعُ الحَكِيمُ الوَدُودُ المَجِيدُ البَاعِثُ الشَّهِيدُ الحق الوَكِيل القَوِيُّ المَتِينُ الوَلِيُّ الحَميدُ المُحْصِي المُبْدِئُ المُعيدُ المُحْيي المُميتُ الحَيُّ القَيُّومُ الواجِدُ الماجِدُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ القَادِرُ المُقْتَدِرُ المُقَدِّمُ المُؤَخِّرُ الأوَّلُ الآخِرُ الظَّاهِرُ البَاطِنُ الوَالِي المُتَعالِي البَرُّ التَّوابُ المنتَقِمُ

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧)، والترمذي (٣٥٠٦)، وابن ماجه (٣٨٦٠).

(٢) وهي الرواية التي أخرجها الترمذي برقم (٣٥٠٧).

العَفُوُّ الرَّؤُوف مالِكُ المُلْكِ ذو الجَلالِ والإكْرام المُقْسِطُ الجَامِعُ الغَنِيُّ المُغْنِي المَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الهَادِي البَدِيعُ البَاقِي الوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُور.

وقد كنت رجوت الله تعالى أن يمكنني من شرح الأسماء الحسنى في دروس مصورة، بعد أن شرحتها في دروس مسجلة، حتى تأخذ طريقها إلى الفضائيات بعد أن أخذت طريقها إلى الإذاعات، وقد استجاب الله تعالى الدعاء، فيسّر لي شرح الأسماء الحسنى في دروس مصورة حيث درّست الأسماء الحسنى في مسجد الحمد في دمشق، وذلك في درس يومي عقب صلاة الفجر خلال عام ٢٠٠٨، وقد تم تصوير تلك الدروس وعرضها في الفضائيات العربية والمواقع الالكترونية ولله الحمد والمنّة.

ولم أعتمد في هذا الشرح على الأسماء التي جمعها الوليد بن مسلم، والتي اشتهرت على ألسنة الناس فيما بعد، وذلك لوجود اختلاف بين العلماء في ثبوت بعضها مثل (المانع، المعز، المذل ، الضار، النافع ، الرشيد، الصبور) إذ إن أمثال هذه الأسماء لم ترد في الكتاب أو السّنة، ومن المعلوم أنه لا يجوز تسمية الله تعالى بغير ما سمّى به نفسه، فالله تعالى يعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء، وهذا من أفعاله جل جلاله، ولكن لا يصح تسميته بالمعزِّ أو المذلِّ.

وقد ألف أكثر من عالم في إثبات الأسماء الواردة في الكتاب وصحيح السنة، ومن هؤلاء الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في كتابه (القواعد المثلى) حيث جمع تسعة وتسعين اسماً؛ واحداً وثمانين اسماً من كتاب الله تعالى، وثمانية عشر اسماً من السنة الصحيحة وهي:

الله، الأحد، الأعلى، الأكرم، الإله، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، البارئ، البر، البصير، التواب، الجبار، الحافظ، الحسيب، الحفيظ، الحفيّ، الحقّ، المبين، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، القيوم، الخبير، الخالق، الخلاق، الرؤوف، الرحمن، الرحيم، الرزاق، الرقيب، السلام، السميع، الشاكر، الشكور، الشهيد، الصمد، العالم، العزيز، العظيم، العفو، العليم، العلي، الغفار، الغفور، الغني، الفتاح، القادر، القاهر، القدوس، القدير، القريب، القوي، القهار، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المتعالي،

المتكبر، المتين، المجيب، المجيد، المحيط، المصور، المقتدر، المقيت، الملك، المليك، المولى، المهيمن، النصير، الواحد، الوارث، الواسع، الودود، الوكيل، الولي، الوهاب، الجميل، الجواد، الحكم، الحيي، الرب، الرفيق، السبوح، السيد، الشافي، الطيب، القابض، الباسط، المقدم، المؤخر، المحسن، المعطي، المنان، الوتر.

إلا أن الشيخ ابن عثيمين لم يجزم بكون الحفيِّ اسماً من أسماء الله الحسنى لعدم وروده في القرآن مطلقاً.

وممَّن بحث في الموضوع ذاته الدكتور محمود الرضواني الذي أثبت هذه الأسماء الواردة أعلاه إلا أسماء (العالم، الحافظ، الحفيّ، المحيط) ولكنّه أثبت أسماء أخرى من السنة الصحيحة لم يثبتها الشيخ ابن عثيمين رحمه الله وهي (السّتّير، الرّازق، الدّيان، المالك، المسعّر).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنّ أسماء الله تعالى غير محصورة بعددٍ معين، لقوله ﷺ: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» [الحديث رواه أحمد وابن حبان والحاكم].

وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب لا يمكن لأحدٍ حصره، ولا الإحاطة به.

وأما قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة» فلا يدلُّ على حصر الأسماء بهذا العدد.

ولم يصح عن النبي ﷺ تعيين هذه الأسماء، قال ابن حجر رحمه الله تعالى في «فتح الباري»: ليست العلة عند الشيخين (البخاري ومسلم)، تفرد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه والاضطراب، وتدليسه واحتمال الإدراج.

ولما لم يصح تعيينها عن النبي ﷺ فقد اختلف السلف في تعيينها على أقوال عديدة، يجمع بينها الاتفاق على العدد الأكبر من هذه الأسماء لا سيما التي وردت في القرآن الكريم.

وقد اخترت بتوفيق الله، وبعد الاطّلاع على الدراستين السابقتين اعتماد الأسماء التي أوردها الدكتور محمود الرضواني، وشرحتها في مئتي درس مصوَّر ولله الحمد.

وقد سلكت في شرح هذه الأسماء الحسنى والصفات الفضلى أسلوباً جديداً يعتمد على آيات الله في الآفاق، وعلى آيات الله في النفس البشرية، ويعتمد على أفعال الله الدالة على ألوهيته، ووحدانيته، وكماله، ويعتمد على ما في الكتاب والسنة من تعريفات وشروح لأسمائه جل جلاله، بحيث تغدو آيات الله الكونية، والتكوينية، والقرآنية، مضيئة وموضِّحة لهذه الأسماء، بالإضافة إلى ما ورد عن العلماء والسلف في شرح هذه الأسماء.

وبعد عرض الدروس لمرات عديدة لمعت فكرة هذا الكتاب، وهو (موسوعة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى من الكتاب والسّنّة) وكانت خطوات إعداده على النحو الآتي:

١- جمع كامل المادة حول شرح الأسماء الحسنى من الكتاب السابق ومن الدروس المصورة الجديدة.

٢- تقسيم الكتاب إلى ثلاثة أقسام موزعة على أربعة أجزاء:

القسم الأول: الأسماء التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وعددها ثمانية وسبعون اسماً، وقد رتبتها بحسب ورودها في ترتيب المصحف وهي: الرّحمن، الرَّحيم، الرَّبّ، المالك، القدير، العليم، الحكيم، التَّوَّاب، السَّميع، العزيز، الواسع، الرَّؤوف، الشَّاكر، الإله، الغفور، القريب، الحليم، الحيُّ، القَيُّوم، العليُّ، العظيم، الحميد، الوهَّاب، الوكيل، الرَّقيب، الحسيب، الشَّهيد، العفوُّ، المقيت، القاهر، الخبير، اللطيف، الغنيُّ، المولى، النَّصير، الحفيظ، القويُّ، المجيد، الواحد، القهَّار، الكبير، المتعالي، الوارث، الخلَّاق، البصير، الحقُّ، المبين، الفتَّاح، الشَّكور، المجيب، الغفَّار، الوليُّ، الرَّزَّاق، المتين، البرُّ، المقتدر، المليك، الأوَّل، الآخر، الظَّاهر، الباطن، الملك، القدُّوس، السَّلام، المؤمن، المهيمن، الجبَّار، المتكبِّر، الخالق، البارئ، المصوِّر، القادر، الكريم، الودود، الأعلى، الأكرم، الأحد، الصَّمد.

القسم الثاني: الأسماء التي ورد ذكرها في السنة وعددها اثنان وعشرون اسماً وهي: الجميل، الجواد، الحكم، الحييُّ، الرَّفيق، السُّبُّوح، السَّيِّد، الشَّافي، الطّيِّب، القابض، الباسط، المقدِّم، المؤخِّر، المحسِن، المعطي، المنَّان، الوِتر، الرَّازق، المسعِّر، المالك، الدّيّان.

القسم الثالث: بعض صفاته وأفعاله جل جلاله، وهي: الإرادة، العدل، البقاء، عالم الغيب والشهادة، الله نور السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام، الاصطفاء، التسخير، المنع، النفع والضر، فالله خير حافظاً، قائماً بالقسط، البعث، تأخير العقوبة، ذو انتقام، الجمع، الإحصاء، يدبِّر الأمر، يهدي من يشاء، يضلُّ من يشاء، يحيي ويميت، يعزُّ ويذلُّ، يخفض ويرفع، يبدئ ويعيد، يؤتي الحكمة.

٣- تقسيم كلِّ بحث إلى عناوين فرعية بحيث يبدأ كل اسم بعرض الآيات والأحاديث التي ورد فيها الاسم، ومن ثم التعرف على طرف من معنى الاسم، ومن ثم نصيب المؤمن من هذا الاسم، كما وردت في بعض الأسماء عناوين أخرى مثل: (آثار الاسم في الكون، إضاءات على الآيات التي ورد فيها الاسم ومشتقاته) إلى غير ذلك.

٤- التنقيح الشامل لمادة الكتاب لغوياً وشرعياً مع تخريج الأحاديث الشريفة، ونسبة الأقوال والقصص والأشعار إلى أصحابها.

وبذلك يكون هذا الكتاب نتاج أكثر من عشرين سنة من البحث في هذا العلم الجليل، كما أنه نتاج أكثر من ثلاثمئة درس مسجل ومصور ألقيت في مساجد دمشق.

ولا بد من أن أشكر في نهاية المطاف، كل الإخوة الكرام الذين ساهموا بشكل أو بآخر في إخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود، فأنا أحبهم وأجلّهم، وأخص بالشكر (الأستاذ بلال نور الدين) فقد بذل جهداً مشكوراً في هذا الكتاب الجديد، كما أشكر مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع على حرصها على إتقان الإخراج والطباعة، بل أشكر كل من أسهم بشكل أو بآخر في إخراج هذه الموسوعة الجديدة أو التي سبقتها وقد تجاوز عدد طبعاتها عشرين طبعة.

ثم إني أدعو الله جل وعلا أن يجزي عنا سيدنا محمداً ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين، بشيراً ونذيراً، خير ما جزى نبياً عن أمته، وأن يجزي صحابته الكرام، وأهل بيته الأخيار، والطيبين الطاهرين، الهادين المهديين، أمناء دعوته، وقادة ألويته، ما هم أهله، وأن يجزي الله والدَيْنا، ومشايخنا، ومن علَّمَنا، ومن له حق علينا، خير الجزاء.

وفي الختام أعوذ بك يا رب أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني، وأعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك، وأعوذ بك من فتنة القول كما أعوذ بك من فتنة العمل، وأعوذ بك أن أتكلف ما لا أحسن، كما أعوذ بك من العُجب بما أحسن.

الدكتور محمد راتب النابلسي
الثلاثاء ١٢ ربيع الأول ١٤٣٥هـ
الموافق ١٤/ ٠١/ ٢٠١٤م

تمهيد

أرجو القارئ الكريم قبل أن يشرع في قراءة موسوعة أسماء الله الحسنى، أن يقرأ هذا التمهيد ليُلِمَّ بعدد من الحقائق المتعلقة بمضمون هذه الموسوعة، كمعنى الإحصاء الذي جعله النبي ﷺ سبباً لدخول الجنة، والدعاء بأسماء الله الحسنى الذي جعله الله تعالى سبباً للاستجابة، وكيف أن الفهم العميق لأسماء الله الحسنى جعله الله تعالى سبباً لفهم القرآن الكريم، وفهمه والعمل به سبب النجاة في الدنيا والآخرة، ومعرفة أسماء الله الحسنى سبب لتعظيم الله المنجّي من عذاب الله، ومعرفة أسماء الله الحسنى سبب للتحرّر من سيطرة العباد وقهرهم، ومعرفة أسماء الله الحسنى باعث قوي على التوبة النّصوح، التي هي سبب لسعادة الدّارَيْن، وهذا ما سأعالجه في هذا التمهيد للكتاب.

* * *

لقد أودع الله في الإنسان قوّة إدراكيّة، وميّزه بهذه القوّة عن بقيّة المخلوقات، وهٰذه القوّة الإدراكيّة تستلزم طلب الحقيقة، فقد خلق فيه حاجة عليا للمعرفة، وما لم تلبَّ هذه الحاجة العليا، وما لم يبحث الإنسان عن الحقيقة، وما لم يبحث عن سرّ وجوده، وعن غاية وجوده، وعن أفضل شيء يمكن أن يفعله في وجوده فقد هبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به.

إنّ أصل الدين معرفة الله، وفضل معرفة الله على معرفة خَلقه كفضل الله على خلقه، وكم هي المسافة كبيرة جداً بين أن تعرف شيئاً من مخلوقات الله وأن تعرف خالق السماوات والأرض، فعَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «فَضْلُ كَلَامِ الله عَلَى كَلَامِ خَلْقِهِ كَفَضْلِ الله عَلَى خَلْقِهِ» [رواه الدارمي في سننه].

فلذلك ما من معرفة تعلو على أن نعرف الله عز وجل:

هناك نقطة مهمّة جداً: يمكن أن تتعرف إلى الله، ويمكن أن تضعف معرفتك بالله، وتكتفي بالتعرف إلى أمره ونهيه، لكنّ الحقيقة الصارخة أنك إذا عرفت الآمر، ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، بينما إذا عرفت الأمر، ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر.

الصحابة الكرام قلّة، وقد وصلت راياتهم إلى أطراف الدنيا، لأنهم عرفوا الله، وحينما اكتفينا بمعرفة أمره، ولم نصل إلى معرفته المعرفةَ التي تحملنا على طاعته كما ترون حال العالم الإسلاميّ اليوم فإننا لسنا ممكَّنين، والله عز وجل يقول: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى ﴾ [النور:٥٥].

نحن لسنا مستخلَفين، ولسنا ممكَّنين، ولسنا آمنين، والكرة في ملعبنا، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم:٥٩].

إذاً: الفرق واضح بين الرعيل الأول من الصحابة الكرام الذين عرفوا الله، وطبقوا منهجه، فاستحقّوا وعود الله عز وجل، وبين واقعنا اليوم.

قال بعض العلماء: هناك علم بخلقه، وهو من اختصاص الجامعات في العالم، أية جامعة تذهب إليها فيها كليات العلوم، والطب، والهندسة، والصيدلة، وما إلى ذلك، هذا علم بخلقه، والعلم بخلقه أصل صلاح الدنيا، والمسلمون مفروض عليهم فرضاً كفائياً أن يتعلموا هذه العلوم كي يكونوا أقوياء، لذلك العلم بخلق الله أصل في صلاح الدنيا، والعلم وصف ما هو كائن، هناك ظواهر فلكية، ينتج عنها علم الفلك، وهناك ظواهر فيزيائية، ينتج عنها علم الفيزياء، وهناك ظواهر كيميائية، ينتج عنها علم الكيمياء، وظواهر نفسية خلاصتها علم النفس، وظواهر اجتماعية أنتجت علم

الاجتماع، وهكذا... فالعلم مختص بما هو كائن، وهو علاقة مقطوع بها بين متغيرين، تطابق الواقع، عليها دليل، هذا هو العلم.

وهناك علم بأمره، وهو فرض عين على كل مسلم، ولا بد من أن يتعلمه كلّ إنسان، لتأتي حركته في الحياة مطابقة لمنهج الله عز وجل وهو أصل في العبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

وهناك علم به جل جلاله، علم بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، وهذا هو موضوع كتابنا

العلم بأمره وبخلقه يحتاج إلى مدارسة، إلى مدرس، إلى كتاب، إلى وقت، إلى مطالعة، إلى مذاكرة، إلى مراجعة، إلى أداء امتحان، إلى نيل شهادة، ولكنّ العلم به يحتاج إلى مجاهدة.

أنت حينما تلتزم، وحينما تأتي حركتك في الحياة مطابقة لمنهج الله عز وجل عندئذ يتفضل الله علينا جميعاً فيمنحنا وميضاً من معرفته جل جلاله، فلذلك العلم بخلقه يحتاج إلى مدارسة، وعلم بأمره يحتاج إلى مدارسة أيضاً والعلم بخلقه وبأمره أصل في صلاح الدنيا، ومن أجل قوة المسلمين، والثاني أصل في قبول العبادة، لكن العلم به يحتاج إلى مجاهدة، فبقدر ما تضبط جوارحك، بقدر ما تضبط حركاتك وسكناتك، بقدر ما تضبط تطلعاتك وبيتك وعملك، بقدر ما يتفضل الله عليك بأن يمنحك شيئاً من معرفته.

وسائل العلم بالله جل جلاله

أولاً: آياته الكونية: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

لذلك من أجل أن نعرف الله عز وجل لا بد من أن نتفكر في مخلوقاته، والآية واضحة جداً، وفيها إشارة إلى أن المؤمن يتفكر في خلق السماوات والأرض تفكراً مستمراً، والفعل المضارع ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يدل على الاستمرار، فمن أجل أن أعرف الله ينبغي أن أتفكر في مخلوقاته.

هذا الكون ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله، وقد قيل: الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، والنبي ﷺ قرآن يمشي؛ لأنّ كلَّ ما في الكون يعد مظهراً لأسماء الله الحسنى.

ترى في الكون رحمة، إذاً: الله رحيم، ترى في الكون حكمة، إذاً: الله حكيم، ترى في الكون قوة، والله قوي، ترى في الكون غنى، والله غني.

إن قرأت آية فيها أمر، تقتضي هذه الآية أن تأتمر، وإن قرأت آية فيها نهي، تقتضي هذه الآية أن تنتهي، وإن قرأت آية فيها وصف لحال أهل الجنة تقتضي هذه الآية أن تسعى لدخول الجنة، وإن قرأت آية فيها وصف لحال أهل النار تقتضي هذه الآية أن تتقي النار، وإن قرأت قصة أقوام سابقين تقتضي هذه الآية أن نتعظ، وأن نبتعد عن كل عمل سيء يفعله هؤلاء.

وإذا قرأت آية فيها إشارة إلى الكون، إلى خلق الإنسان، ماذا تقتضي هذه الآية؟ تقتضي هذه الآية أن تتفكر في خلق السماوات والأرض.

ثانياً: النظر في أفعال الله: قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾ [النحل:٣٦].

الطريق الثانية في معرفة الله: أن تنظر في أفعاله، فالله عز وجل فعّال لما يريد، وأفعاله متعلقة بالحكمة المطلقة.

ثالثاً: تدبر القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد:٢٤].

إذاً هناك آيات كونية تقتضي منا التفكّر، وهناك آيات قرآنية تقتضي منا النظر، وهناك آيات تكوينية (أفعاله) تقتضي النظر وأخذ العبر.

إذا: يمكن أن نرمز إلى الإسلام بمثلث فيه أربع مساحات، المساحة الأولى: مساحة العقيدة، وأخطر شيء في الإسلام العقيدة، لأنها إذا صحّت صحّ العمل، وإذا فسدت فسد العمل.

بالمناسبة، الإسلام يقدم للإنسان تصورات عميقة ودقيقة ومتناسقة للكون والحياة والإنسان، لمجرد أن تقرأ القرآن الكريم فأنت أمام منظومة تصورات عميقة ودقيقة ومتناسقة، تعرف سرّ الحياة الدنيا، ما حكمة المرض؟ ما حكمة المصائب؟ لماذا الموت؟ وماذا بعده؟ من أين جئت؟ وإلى أين أنا ذاهب؟

لذلك إذا شرد الإنسان عن الله، وتوهم أفكاراً معينة، وآمن بها قد يفاجأ مفاجأة صاعقة، أن هذه الأفكار غير صحيحة، أما حينما يؤمن بالله، ويؤمن بمنهجه، والمنهج يقدم له تفسيراً عميقاً دقيقاً متناسقاً لحقيقة الكون، ولحقيقة الحياة الدنيا، ولحقيقة الإنسان عندها يفلح.

المساحة الأولى مساحة العقيدة، فالخطأ في الميزان لا يُصحَّح، بينما الخطأ في الوزن لا يتكرر، فأفضل ألف مرة أن تقع في خطأ في مفردات المنهج من أن تقع في خطأ في أصل التصوّر.

فما من انحراف في السلوك إلا بسبب انحراف في العقيدة، ولو أن العقيدة لا يتأثر بها السلوك فاعتقد ما شئت، ولكن ما من خطأ في العقيدة إلا وينعكس خطأ في السلوك.

المساحة الثانية في المثلث مساحة العبادات، والأصل في العبادات الحظر، ولا تشرع عبادة إلا بالدليل القطعي والثابت، لأن العبادات قربات إلى الله.

والمساحة الثالثة مساحة المعاملات، فسيدنا جعفر رضي الله عنه لما سأله النّجاشيّ عن الإسلام قال: «أَيُّهَا المَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ المَيْتَةَ، وَنَأْتِي

الفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الجِوَارَ، يَأْكُلُ القَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ الله إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى الله لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الجِوَارِ، وَالكَفِّ عَنْ المَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ اليَتِيمِ، وَقَذْفِ المُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ الله وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ»

[أحمد عن أم سلمة].

إذاً: الإسلام مجموعة قيم أخلاقية، من هنا قال ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»

[متفق عليه عن ابن عمر].

فالإسلام بناء أخلاقي، والعبادات الخمس هي أركان هذا البناء لا يقوم إلا بها، لذلك قال ابن القيّم رحمه الله تعالى: الدّين كلُّه خُلُق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين[1].

المساحة الرابعة مساحة الأخلاق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:٤].

ما لم تكن متمسكاً بمكارم الأخلاق، ما لم تكن منصفاً، ما لم تكن متواضعاً، ما لم تكن رحيماً فلن تقطف ثمار هذا الدين.

وإن دراسة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، لزيادة الإيمان وتقويته، هذه الدراسة تنتمي إلى المساحة الأولى وهي العقيدة بينما تنعكس آثارها الإيجابية على باقي المساحات من عبادة ومعاملة وخلق.

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٠٧.

من هنا يقول العالم الجليل ابن القيم رحمه الله تعالى: «العلم بأسمائه وإحصائها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم»[(١)].

لو أنّ إنساناً يحمل أعلى شهادة في الفيزياء النووية، فإذا ما انتهى أجله انتهت هذه الشهادة، لكن إذا تعرف إلى الله فإنه ينتفع بهذه المعرفة في حياته وبعد الموت وإلى أبد الآبدين، لهذا كلّ علم ممتع، لكن ما كل علم ممتع بنافع، والعلم النافع قد يكون غيرَ مسعد، إلا أنك إذا تعرفت إلى الله فهو علم نافع ممتع مسعد في الدنيا والآخرة.

«إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»

أخرج البخاري في صحيحه، عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ لله تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مئةً إلا واحِداً مَنْ أحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ».

يتضح من هذا الحديث أن أصل الدين معرفته، (فمن أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه، والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه، وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنك أحوج شيء إليه، وأنت عنه معرض وفيما يُبعدك عنه راغب)[(٢)].

النبي ﷺ يقول: «من أحصاها»، فالإحصاء يختلف عن العدّ، لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم:٩٤]، فمن أحصاها فقد استوفاها، أي: أنه لا يقتصر على بعضها، لكن يدعو الله بها كلِّها، ويثني عليه بجميعها، فيستوجب الجنّة، أو

(١) بدائع الفوائد١/ ١٦٣.

(٢) الفوائد، ابن قيم الجوزية ١/ ٤٧.

من أطاق القيام بحقّ هذه الأسماء، والعملَ بمقتضاها، وهو أن يعقل معانيها، فيُلزِم نفسه بواجبها، ومن معاني «أحصاها»: أنه عرفها على وجه التفصيل، لأن العارف بها لا يكون إلا مؤمناً، والمؤمن يدخل الجنة، وقيل: أحصاها: يريد بها وجه الله وإعظامه، وقيل: معنى أحصاها: عمل بها، فإذا قال: «الحكيم» مثلاً سَلَّم لله في جميع أوامره، في جميع أفعاله، لأن جميعها مقتضاها الحكمة، وإذا قال: «القدوس»، استحضر كونه منزهاً عن جميع ما لا يليق بجلاله، وقال بعض العلماء: معنى أحصاها، أي: سلك طريق العمل بها، فليوطِّن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها، وما كان يختص بالله تعالى: كالجبار والعظيم فيجب على العبد الإقرار بها، والخضوع لها، وعدم التحلي بصفة منها، وما كان فيه معنى الوعد نقف منه عند الطمع والرغبة، وما كان فيه معنى الوعيد نقف منه عند الخشية والرهبة، فهذا معنى أحصاها وحفظها، ويؤيده أن من حفظها عدّاً، وأحصاها سرداً، ولم يعمل بها، يكون كمن حفظ القرآن، ولم يعمل بما فيه، وقال بعضهم: ليس المراد بالإحصاء عدّها ليس غير، لأنّه قد يعدّها الفاجر، وإنما المراد العمل بها.

وقال أبو العباس بن مَعْدٍ: يحتمل الإحصاء معنيين أحدهما: أن المراد تَتبُّعها من الكتاب والسنّة، حتى يحصل عليها، والثاني: العمل بها، وتمام الإحصاء أن يتوجه إلى الله تعالى من العمل الظاهر والباطن بما يقتضيه كل اسم من الأسماء، فيعبد الله بما يستحقّه من الصفات المقدّسة التي وجبت لذاته، قيل: من حصلت له جميع مراتب الإحصاء حصل على الغاية، قال أبو الحسن القابسي: أسماء الله وصفاته لا تُعلم إلا بالتوقيف من الكتاب أو السنّة أو الإجماع، ولا يدخل فيها القياس، ولم يقع في الكتاب ذكر عدد معين، وثبت في السنّة أنها تسعة وتسعون، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ﴾ [الأعراف:١٨٠].

قال أهل التفسير: من الإلحاد في أسمائه تسميتُه بما لم يرد في الكتاب أو السنّة الصحيحة. وأشار ابن القيم رحمه الله إلى أن الإحصاء مراتب، وذكر بأنه لو قررنا أن المعنى هو حفظها، فحفظ القرآن الكريم على سبيل المثال معروف ثواب حفظه، كما قال

ﷺ: «مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة» [رواه البخاري، من حديث عائشة]، فلو افترضنا أنَّ منافقاً حافظٌ للقرآن؛ لكنه لا يُحِلّ حلاله ولا يحرِّم حرامه، فهل ينفعه حفظه للقرآن؟ وهل تنفعه تلاوته للقرآن؟ فالقرآن حُجَّة للمرء أو عليه، فكذلك هذه الأسماء حينما تكون مجرد حفظ فقط لا ينفعه حفظها، لكن يحفظها، ويتأمل معانيها، ويُلزِم نفسه بمتقضياتها.

* * *

لقد أمر الله تبارك وتعالى عباده بأن يدعوه بأسمائه فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، وفي القرآن الكريم في مواضع عدة أخبر الله سبحانه وتعالى عن جمع من أنبيائه أنهم يدعونه عز وجل بأسمائه وصفاته، كقوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء:٨٣]، ونرى ذلك في السنّة، فيما نقل عن النبي ﷺ من أدعية دعا بها، أو أمرنا أن ندعو بها، نجد كثيراً من النصوص فيها الدعاء بالأسماء والصفات، ومن ذلك قوله ﷺ:

«ما أصاب أحداً قط هم، ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله عز وجل همه، وأبدله مكان حزنه فرحاً»، قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات؟ قال: بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن [رواه أحمد والبزار وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه والحاكم بسند صحيح من حديث ابن مسعود].

والدعاء بأسماء الله وصفاته ينبغي أن يتناسب مع ما يدعو به المسلم، كما قال أحد العلماء: «يطلب بكل اسم ما يليق به، تقول: يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكم لي، يا رزّاق ارزقني».

وقال ابن القيم: «يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً بذلك الاسم، ومن تأمل أدعية الرسل وجدها مطابقة لهذا».

* * *

حين تتأمّل كتاب الله عز وجل لا تكاد تفقد الحديث عن الأسماء والصفات؛ ففي كل سورة من السور، بل في كلّ صفحة من الصفحات، تجد سرداً لأسماء الله عز وجل، أو صفاته، أو حديثاً عن عظمة الله سبحانه وتعالى، وأحياناً تأتي تعقيباً على آية من الآيات في وعد، أو وعيد، أو حكم شرعي أو عن أنبيائه ورسله، أو حديثاً عن المكذبين الضالين، فلماذا هذا الحديث المستفيض في القرآن الكريم عن الأسماء والصفات؟ أليس هذا موحياً بأهمية الأسماء؟ ثم أليس موحياً بأن هناك واجباً آخر ينبغي أن نسعى إلى تحقيقه؟ وألا نقف عند مجرد الإثبات وحده، وهو أمر مهم، بل الانحراف فيه ضلال. ثم إننا كثيراً ما نجد الآيات تختم بالأسماء والصفات، وهي تختم ختماً مناسباً بمعنى ما دلت عليه الآية. وروى عبد الله بن مالك عن الأصمعي قال:

سمع الفرزدق رجلاً يقرأ (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم)، فقال: لا ينبغي أن يكون هذا هكذا! قال: فقيل له: إنما هو (عزيز حكيم) قال: هكذا ينبغي أن يكون.

وروي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: (والله حكيم عزيز) والأعرابي لا يحفظ القرآن فقال الأعرابي: ما أراها أُنزلت كما تقول! فقال القارئ: (والله عزيز حكيم) فقال الأعرابي: نعم! عزَّ فلما عزَّ حكم، لهذا تجد ختم الآية مناسباً لمعناها ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة:٣٨] إذاً ختم الآيات بالأسماء والصفات يعطينا دلالة على الارتباط بين الاسم والصفة، وبين ما سبق في الآية، ثم تجد عجباً حينما تتأمل الفرق بين ما قد يبدو لنا أنها أسماء مترادفة، وهي ليست كذلك، فأحياناً يأتي ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣] وأحياناً ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٥]

وبينهما فرق دقيق، وأحياناً ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٢٦] وأحياناً ﴿عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء:١٢] وبينهما فرق دقيق، ولو قرأت في كتب التفسير لوجدت عجباً في ذلك.

* * *

ومعرفة الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى سبب لتعظيم الله سبحانه وتعالى، ذلك أنَّ المسلم الذي يعلم أن الله حليم كريم، وأنه عزَّ وجل غفور رحيم، وأنه شديد العقاب، بطشه شديد، وكيده متين، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون، وحينما يعلم أن الله سميع بصير، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، حين يعلم هذه الأسماء وتلك الصفات، فإنه يزداد تعظيماً له سبحانه وتعالى، ويزداد خضوعاً له، فيسعد بقربه في الدنيا والآخرة.

* * *

فالمسلم حينما يعلم أسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، يستهين بالمخلوقين، ويشعر أن المخلوق لا يساوي شيئاً، بل انظر إلى أثر هذا الأمر عند هود ﷺ، حينما عاداه قومه ردَّ عليهم مستهيناً بجبروتهم ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود:٥٣] فعلم هود ﷺ أنهم قوم لا يعرفون إلا منطق التحدي، فقال لهم متحدياً:

﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٤-٥٦].

إن علمه بأن نواصي العباد بيد الله هو الذي دفعه إلى أن يستهين بجبروتهم وبطشهم. وحين يدرك المسلم أن نواصي العباد بين يدي الله عز وجل يشعر أن المخلوق

لا يساوي شيئاً؛ فلا يمكن أن يتوجه إلى المخلوق، ولا يرجو منه نفعاً ولا نوالاً، ولا يخشى منه منعاً ولا بطشاً.

* * *

حينما يعلم المسلم أن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها، وحينما يعلم أن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل فأعطيَه؟ هل من داعٍ فأستجيبَ له؟ هل من مستغفر فأغفرَ له؟ حتى ينفجر الفجر[١]، حينها يقبل على الله عز وجل، ويتوب إليه، ويشعر أن الله رحيم رؤوف وأنه سيقبل التوبة.

أرجو الله جل وعلا أن يوفق قرّاء هذه الموسوعة لمزيد من معرفة الله تعالى فهي أصل الدين، ولمزيد من الالتزام بأمره ونهيه، فهو أصل العمل الصالح، وهما أصل سعادة الدارين.

---

(١) أصل الكلام حديثان في صحيح مسلم.

الأسماء الثابتة في القرآن الكريم

الرحمن

اسم الله الرحمن ورد في القرآن والسنة كما في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١].

وفي قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤].

وقد ورد هذا الاسم في خمسة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم، اقترن في ستة منها باسم الرحيم، ولم يقترن بغيره في بقية المواضع، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر٢٢].

وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصلت:٢].

ومما ورد في السنة المطهرة: «الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ فَفَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ وَفَرَسٌ لِلْإِنْسَانِ وَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ، فَأَمَّا فَرَسُ الرَّحْمَنِ فَالَّذِي يُرْبَطُ فِي سَبِيلِ الله فَعَلَفُهُ وَرَوْثُهُ وَبَوْلُهُ وَذَكَرَ مَا شَاءَ الله، وَأَمَّا فَرَسُ الشَّيْطَانِ فَالَّذِي يُقَامَرُ أَوْ يُرَاهَنُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا فَرَسُ الإِنْسَانِ فَالفَرَسُ

يَرْتَبِطُهَا الإِنْسَانُ يَلْتَمِسُ بَطْنَهَا فَهِيَ تَسْتُرُ أي أودعت فيه النطفة في بطنه، أي لقح» [أحمد عن ابن مسعود].

وهناك حديث آخر يقول النبي ﷺ: «الخيل ثلاثة، فهي لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر» [البخاري و مسلم عن أبي هريرة].

أيُّ إنسان يقتني مركبة يستر بها أهله الملتزمين المطبقين لمنهج الله عز وجل فهي له ستر، وهناك إنسان يسخر هذه المركبة لخدمة الناس فله أجر، وهناك إنسان يرتكب فيها المعاصي والآثام فله وزر، فالمركبة إما أنها ستر أو أجر أو وزر.

وفي الحديث القدسي: «أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت له اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» [البيهقي عن عبد الرحمن بن عوف].

وفي حديث آخر: «قل أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن» [رواه أحمد عن عبد الرحمن التميمي].

هذه نماذج من الآيات والأحاديث التي ورد فيها اسم الرحمن منفرداً أو مقترناً بالرحيم.

من معاني اسم الله (الرحمن)

الرحمن في اللغة، صفة مشبهة وهي أبلغ من الرحيم، الرحمة في حقنا ـ بني البشر ـ رقة في القلب تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وتكون بالمسامحة واللطف أو المعاونة والعطف، والرحمة تستدعي مرحوماً فهي من صفات الأفعال، هذا في اللغة.

أما إذا قلنا الله جلّ جلاله هو الرحمن، فالرحمن اسم يختص بالله عز وجل، ولا يجوز إطلاقه في حق غيره، والرحمن سبحانه هو المتصف بالرحمة العامة الشاملة.

الرحمة تفتح باب الرجاء والأمل، وتثير مكنون الفطر، وتبعث على صالح العمل، وتدفع أبواب الخوف والنقمة، وتشعر الشخص بالأمن والأمان، الله رحيم، والله جل

جلاله سبقت رحمته غضبه، ولم يجعل من واسع رحمته إلا جزءاً يسيراً، والله عز وجل يقول: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، كلمة رحمة جاءت نكرةً، وهذا تنكير تقليل، والنبي ﷺ أرحم الخلق بالخلق، ومع ذلك: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾.

أما الله عز وجل: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الكهف:٥٨].

إذاً سبقت رحمته غضبه، ولم يجعل من واسع رحمته إلا جزءاً يسيراً في الدنيا، يتراحم به الناس ويتعاطفون، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها.

هناك حيوان اسمه البطريق، طائر يعيش في القطب الجنوبي، يجتمع حوالي عشرة آلاف بطريق في قارة متجمدة، الرياح الباردة سرعتها مئة كيلو متر في الساعة، والحرارة خمسون تحت الصفر، يجتمعون هناك في هذا الوقت العصيب، الأنثى تضع بيضة، يضعها الذكر على قدميه، ويبقى واقفاً لا يتحرك، ولا يأكل، ولا يشرب أربعة أشهر، لأن هذه البيضة لو وقعت من على رجليه على الثلج لفسدت لذلك يحافظ عليها ويغطيها بفروه أربعة أشهر، ولا يأكل شيئاً، ولا يشرب شيئاً، وفي حوصلته كمية غذاء تكفي هذا المولود الجديد، يضع كمية من الغذاء في فم البطريق الصغير، إلى أن تأتي الأم من البحر وتتولى متابعة العناية بهذا البطريق، شيء لا يصدق أن كائناً يرعى هذه البيضة أربعة أشهر لا يأكل ولا يشرب شيئاً، والله تعالى لم يجعل من واسع رحمته إلا جزءاً يسيراً في الدنيا يتراحم به الناس، ويتعاطفون، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه: «جعل الله الرحمة مئة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» [البخاري عن أبي هريرة].

«قدم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي فإذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال النبي ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله وهي تقدر على ألا تطرحه، فقال ﷺ: لله أرحم بعبده من هذه بولدها» [البخاري عن عمر بن الخطاب].

حديث بليغ، تصور امرأة على التنور كلما وضعت رغيفاً تأخذ ابنها تضمه وتشمه، هل يعقل أن تطرح هذه المرأة ولدها في التنور؟ الله عز وجل فيما أخبر به النبي ﷺ أرحم بعبده من هذه الأم بولدها.

الرحمة التي دلّ عليها اسم الرحمن رحمة عامة، تظهر مقتضى الحكمة في أهل الدنيا، فمن رحمته أن الله عز وجل أنعم علينا لنذكره، ولكن كثيراً من الناس جاحدون، قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧٣].

نعمة الليل والنهار، لا تُقدَّر بثمن، الإنسان إذا لم ينم اضطربت حياته، وجعل الله الليل سكناً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان:٤٨].

الرحمة التي دلت عليها هذه الآيات رحمة عامة بالناس أجمعين.

هذا الاسم خصّه تعالى وقرنه باستوائه على العرش، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥].

وفي آية ثانية: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان:٥٩].

وفي الحديث: «فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن» [البخاري عن أبي هريرة].

هل سألت خبيراً عن الله عز وجل؟ هل من علم يعلو على أن تعرف الله؟ أن تعرف خالق السماوات والأرض؟ أن تعرف أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى؟

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان:٥٩].

هذا أمر، وكلُّ أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك.

لا يوجد صفة لها شمول كصفة الرحمة، أنت لطيف لأنك رحيم، كريم لأنك رحيم، منصف لأنك رحيم، أكثر الصفات الكاملة تنبع من الرحمة، لذلك قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

والمعنى: يا محمد بسبب رحمة استقرت في قلبك من خلال اتصالك بنا كنت ليناً لهم، فلما كنت ليناً لهم التفوا حولك، ولو كنت منقطعاً عنا لامتلأ القلب قسوة، ولانعكست القسوة غلظة، فانفضوا من حولك، هذه الآية يحتاجها كلُّ أب، كلُّ معلم، كلُّ داعية، كلُّ مدير، كلُّ إنسان له منصب قيادي، تتصل بالله، يمتلئ القلب رحمة، تنعكس الرحمة ليناً، يلتف الناس حولك، فإذا انقطع الإنسان عن الله امتلأ القلب قسوة وانعكست القسوة غلظة فانفض الناس من حوله.

الاسم هو الرحمن، وقد عدَّ بعض العلماء هذا الاسم: اسم الله الأعظم لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء:١١٠].

الرحمن كما يقول العلماء: «اسم مشتق من الرحمة»، والرحمة تستدعي مرحوماً كما أنَّ العلم يقتضي معلوماً، وليس هناك مرحوم إلا وهو محتاج، فالإله لا يكون مرحوماً، إنه راحم، أما المخلوق فهو مرحوم لأنه ضعيف، ولأنه عاجز، ولأنه فقير لأن قيامه ليس بذاته بل قيامه بغيره، إذاً هو مرحوم، والعبد مرحوم لأنه عبد، والرب راحم لأنه رب، وأيُّ إنسان خرج عن دائرة العبودية ينسى أنه في حاجة ماسة إلى رحمة الله عز وجل، وهؤلاء الذين قالوا: استغنينا عن رحمة السماء من قبل، جاءتهم سبع سنوات عجاف، ما دمت عبداً فأنت مفتقر إلى الله عز وجل، ما دمت عبداً فلا بد أنك بحاجة إلى الرحمة، اللهم ارحمنا فإنك بنا رحيم، ولا تعذبنا فإنك علينا قدير.

الرحمة التامة والرحمة الناقصة

الرحمة التامة ما توافرت فيها الإرادة والعمل.

الشخص الذي تنقضي بسببه حاجة المحتاج، من غير قصد أو إرادة وعناية بالمحتاج، لا يسمى رحيماً، قد تنقضي حاجتك عن طريق شخص فهذا الشخص ما أراد أن يرحمك، ولا يريد أن يرحمك، ولن يريد أن يرحمك، لكنه بشكل أو بآخر جاءت الرحمة عن طريقه دون أن يدري، وهذه الجهة، ولو أنَّ الرحمة جاءتك عن طريقها، لا تسمى رحيمة لأن من لوازم الرحيم أنه يريد أن يرحم، لذلك قالوا: «رب ضارة نافعة».

أحياناً يسوق الله لك الخير على يدي شخص وهو لا يريد، بل هو يريد أن يوقع بك الأذى، لكن الله سبحانه وتعالى يجعل هذه الإرادة الخبيثة في صالحك، إذاً الشخص الذي تنقضي بسببه حاجة المحتاج من غير قصد ولا إرادة ولا عناية بالمحتاج هذا الشخص لا يسمى رحيماً، من عناصر الرحمة أن فاعلها يريد الرحمة، هذا ينقلنا إلى موضوع مهم وهو أنك أحياناً لسبب ما لا تريد أن ترحم، فلست رحيماً، أجل، لست رحيماً إلا إذا أردت وفعلت.

إذاً: والذي يدعي أنه يريد قضاء حاجة المحتاج ولا يقضيها إن كان قادراً على قضائها لا يسمى رحيماً، لأنه لم يقضِها، ولو أراد إذاً وتمت الإرادة لوفّى بها، وإن كان عاجزاً فقد يسمى رحيماً باعتبار هذا الشعور الإنساني، لكن هذه الرحمة ناقصة لأنها لم تتوج بالعمل.

إذاً من خلال هذا التعريف يتضح أنك لن تكون رحيماً، أي: لن يرضى الله عنك، ولن تكون عندَ الله مقبولاً، ولن تكون عند الله محظياً، ولن يرفعك الله في درجات القرب إلا إذا أردت وفعلت، أردت أن ترحم الناس وفعلت ما أردت، لذلك قالوا: «المعروف بالتمام».

أحياناً تُعَزِّي مصاباً، وتتباكى أمامه، وتعبِّر عن مشاعرك الإنسانية ولا تفعل شيئاً وهو مصاب، فما قيمة هذه المشاعر؟! وما قيمة هذه الأحاسيس؟! وما قيمة هذه

الدموع؟! ما قيمة هذه المصافحة الحارة إن لم تفعل من أجله شيئاً؟!لكن ما الذي يأسر قلبه؟ إحسانُك...

فلذلك هذه المشاعر التي يحسُّ بها الإنسان إن لم يتبَعْها عمل طيب مع القدرة عليه فلا قيمة لها، فقيمتها بما يتبَعُها من عمل طيب، هذه المشاعر لا قيمة لها ولا يؤخذ بها يوم القيامة، لذلك:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنِ اسْتَعاذَ بالله فأعيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَكُمْ بالله فَأَعْطُوهُ، ومَنِ استجارَ بالله فأجيرُوهُ، ومَنْ آتى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فكافِئُوهُ، فإنْ لَمْ تَجِدُوا فادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلمُوا أنْ قَدْ كافَأْتُمُوهُ» [سنن النسائي].

أي: إنَّ هذه العبارات الحارة هذه العبارات الرنانة، العبارات الدافئة إن لم يتبَعْها بذل وعطاء وعناية مع القدرة على ذلك فلا قيمة لها، أحياناً يأتي الابن لزيارة أمه يقبِّل يدها ويقبِّل قدمها وينصرف إلى بيته وإلى أولاده وإلى زوجته، ولا يقدم لأُمِّه شيئاً إلا هذه العبارات المعسولة، هذا العمل لا يعتدُّ به، لأنه مبني على موقف ذكي، وليس موقفاً فيه تضحية مادية.

قال العلماء: إنما الرحمة التامة أن تُفيض عطاءَك على المحتاج، أن تريد وأن تفعل حتى تسمى رحيماً.

الله سبحانه وتعالى رحيم، إذا قضيت حاجات الناس، مثلاً لك أقرباء أسبغت عليهم مما أعطاك الله عز وجل، أعطيتهم بعض الحاجات في أوقاتها المناسبة، في أيام الشدة كنت معهم، فهذا الذي يرقى بك عند الله عز وجل.

الرحمة العامة والرحمة الخاصة

الرحمة العامة ما أصابت المستحِقَّ وغيرَ المستحِقِّ، أحياناً تهطل أمطار غزيرة، هذه الأمطار تفيد الناس جميعاً، فهذه الرحمة العامة، لكن الرحمة الخاصة لا ينالُها إلا المستحق.

أضرب لكم مثلاً يقرِّب المعنى، أب له خمسة أولاد، كل هؤلاء الأولاد يأكلون الطعام على المائدة، وكلهم يلبسون ثياباً، وكلهم ينامون على أسِرّة وثيرة وفي غرف دافئة، الأب يعطي كل أولاده بالتساوي فرحمته عامة، لكن أحد هؤلاء الأولاد على قُرب شديد من الأب فهو يَبَرُّ أباه براً شديداً، وإخلاصه لأبيه كبير، وذو وفاء متميز، فالأب أحياناً يخصّ هذا الابن بأشياء خاصة.

مؤمن، وغير مؤمن، تأكل وتشرب، وتستمتع بالطعام والشراب والماء البارد والدفء والبرودة والمناظر الطبيعية، وتستمع بالأهل والأولاد، وفي كل بيت أولادٌ صغار، والآباء يستمتعون بأبنائهم الصغار بحركاتهم وسكناتهم ولكن أن يتجلى الله على قلبك، وأن يملأ قلبكَ نوراً، وأن يقرِّبكَ إليه، هذه رحمة خاصة، هذه لا ينالُها إلا المستحق، فلله في خلقه رحمة عامة ورحمة خاصة، الرحمة العامة ينالها كل الناس، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة:١٢٦].

يعني أن تستمتع بالحياة، وأن تأكل ألذَّ الطعام، وأن تسكن في بيتٍ مريح، وأن تكون لك زوجة تروق لك، وأن يكون لك دخلٌ وافر، وأن تشعر أنكَ متفوق على الناس، فإياكَ أن تظن هذه رحمة، لأن الله «يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب»[1]، هذه رحمة عامة ينالُها كلُّ الناس

تأكل وتشرب وتستمتع بالأهل والأولاد والطعام والشراب والبيت المريح والدفء والمكانة والسُّمعة، والتألق، والنجاح، والتفوق، فليسَ هذا إيثاراً في الحقيقة، الإيثار أن يخُصَّكَ الله برحمةٍ خاصة: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف:٢٢].

---

(١) قطعة من حديث رواه أحمد في مسنده والصحيح أنه موقوف.

الرحمة الخاصة أن يتجلّى الله على قلبك، فتمر عليك ساعة لا تعدلها الدنيا وما فيها، «إني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» [البخاري من حديث ابن عمر].

أيها الأخ الكريم: اسأل نفسك هذا السؤال، عطاؤك من الله من أي نوع، قد يكون العطاء من نوع عطاء قارون، ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص:٧٦]، وقد يكون عطاؤك من نوع عطاء فرعون، ولكن الحكمة أن يكون عطاؤك من نوع عطاء سيدنا موسى، وسيدنا يوسف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف:٦].

هناك اجتباء، وهناك تقريب، وهناك مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهناك نور يقذفه الله في قلبك، فترى به الخير خيراً والشر شراً، هناك شعور أن الله يحبك، هناك مشاعر لو وزعت على أهل بلد لأسعدتهم.

إن رجلاً من إخواننا الكرام ذهب لأداء فريضة الحج، ولما عاد، قال لي كلمة وأظنه صادقاً فيما يقول، قال لي: والله ليس في الأرض من هو أسعد مني.. إلا أن يكون أتقى مني، وهو فقير ولا يملك من الدنيا شروى نقير، ومع ذلك أقسم بالله أنه ليس في الدنيا من هو أسعد منه إلا أن يكون أحدٌ أتقى منه، هذه الرحمة الخاصة، يعني قد يعطيك المال ويجعل قلبك ممتلئاً بالقلق، قد يعطيك الصحة وتكون أشقى الناس، قد يبوِّئك أعلى مكانة في المجتمع ولا تكون عند الله مقبولاً، حينما قال النبي ﷺ لسيدنا معاذ بن جبل قال: «يا معاذ! والله إني لأحبك» [رواه أحمد].

هذا عطاء ثمين؛ أن يحبك سيد الخلق ﷺ فهنيئاً لك ويقول ﷺ لسعد أيضاً: «يا سعد ارْمِ فداك أبي وأمي» يجمع له أبويه [البخاري من حديث علي]، «هذا خالي فليُرِني امرؤ خاله» [الترمذي من حديث جابر].

إذا كانت لك مع الله مودة، سَهَرُ الليالي، غضُّ البصر، إنفاق الأموال، حضور مجالس العلم، في الأجواء الباردة والطرقات الصعبة، حينما تسعى بشدة على رجليك إلى مجلس علم، حينما تتفقد اليتامى والفقراء والمساكين في ظلمات الليل، حينما تشمر وتنهض للعمل الصالح، حينما تقدم شيئاً ثميناً لأخيك المؤمن، كما قال ﷺ: «ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب لي من أن أعتكف في المسجد شهراً» [الطبراني في الكبير والأوسط والصغير من حديث ابن عمر]. هذه الجهود المتتابعة، المتراكمة، الكثيرة المديدة، هذه الجهود تتوج بالسعادة، لو جلست مع أناس مقطوعين عن الله عز وجل لرأيتهم مقهورين، لرأيتهم ضائعين، لرأيتهم شاردين، لرأيتهم حائرين، رأيت أمرهم فُرُطاً، رأيتهم متشككين، رأيتهم متشائمين، رأيتهم متمزقين، ترى الدنيا عندهم عريضة، لكن الله حرمهم من سعادة القُرب.

وما أكثر ما ذكرت هذه الواقعة وكررتها: هذا الذي وقع في منزلق طفيف فوقع في الحجاب عن الله عز وجل، فصار ينتظر مصيبة بحسبها يعلم، فلما تأخرت المصيبة ناجى ربه فقال: يا رب لقد عصيتك ولم تعاقبني، فوقع في قلبه: أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدرِ ألم أحرمك لذة مناجاتي؟!

هذه الجهود لها مردودها الطيب، فمثلاً شاب في مقتبل الحياة من المسجد إلى البيت إلى العمل، في حين أن بقية الشباب في سهراتهم المنحطة وفي أفلامهم الخسيسة وفي مزاحهم الرخيص، وفي لعبهم للقمار، وفي إطلاق كلمات السوء في الطرقات للفتيات، أنت من البيت إلى المسجد ومن العمل إلى المسجد، من تلاوة القرآن إلى حديث رسول الله، ومن خدمة زيد إلى خدمة عبيد، هذا الإنسان مع هذه الجهود الكبيرة، عندئذ يجعل الله قلبه مستقراً لرحماته.

لذلك جاء في الحديث «أولياء الله تعالى الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى» [أخرجه ابن المبارك في الزهد، والنسائي في الكبرى من حديث ابن عباس]، بمجرد أن تقع عينك على مؤمن صادق الإيمان يحس الناظر برعشة في قلبه، كأنه تذكر الله عز وجل، هذا الموضوع يُذكِّرُنا بمعيّة

الله العامة والخاصة ما دُمنا قد تحدثنا عن رحمة الله العامة، العامة موجودة لجميع الناس، العامة أن تتنفس الهواء وتشرب الماء وتأكل الطعام، وتنام على فراش، والقلب منتظم والرئتان والكليتان، والعضلات والأعصاب، والأولاد في البيت والزوجة كذلك والعمل مريح، هذه رحمة عامة، هذه يستوي فيها المؤمن وغير المؤمن في الأعم الأغلب، وقد تجد غير المؤمن متفوقاً كثيراً في هذه الأنواع على المؤمن، ولكن الرحمة الخاصة، حينما يُلقي الله في قلبك نوراً، حينما يُعلِّمُكَ الله، حينما يُلهِمُكَ الله سواء السبيل، حينما يُلْهِمُكَ الله رشدك، حينما يُقيِّض الله لك مَن حولك لتكون معهم في معيّة وفي صحبة طيبة، حينما يجعل الله بِرَّكَ في مواقعه وعند أهل الحِفاظ لا عند أهل الجحود، هذه رحمة الله عز وجل، هذا يذكرنا بمعيّة الله العامة ومعيّته الخاصة، وذكرت من قبل أن الله مع كل مخلوق كائناً من كان بعلمه بدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد:٤].

مع المؤمن والكافر، والملحد، والشقي والسعيد، والعاصي والطائع، والنظيف والطاهر، مع كل هؤلاء، لكن هناك آيات: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة:١٢٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة:١٢].

الفوز كل الفوز أن تنال معيّته الخاصة، وأن تنال رحمته الخاصة لا رحمته العامة فحسب، لو أن أباً له ابن عاقّ وقاسي الكلمات وحاد النظرات، هو متجهّم دائماً، يردُّ الكلمة بعشر كلمات، يأتي وقت الطعام تقول له بلسان المبغض: اجلس كُل، كُل لكني

لا أحبك، خُذْ ما تريد، خذ كل هذه الحاجات، لكن الابن البار له مع هذا الإكرام نظرةٌ حانيةٌ من أبيه لا تقدر بثمن، نظرة حانية منه، كلمة رضي الله عنك، هذه من قلب ممتن، هذه لا يعدلها شيء، فليس الفوز في أن تنال رحمته العامة فحسب كأن تستنشق هواء، وتأكل وتشرب وتنام وتتزوج، وتعمل وتكسب المال، هذا قدر مشترك بين جميع الناس، لما روي عن النبي الكريم ﷺ: «إن الله يؤتي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يؤتي الإيمان إلا من أحب»[1] [أخرجه أحمد في «مسنده» من حديث ابن مسعود].

لكنَّ الشيء الذي يجب أن تسعى إليه هو رحمته الخاصة، بأن يُعلِّمَكَ، وأن يُلقي في قلبك نوراً، وأن يُعلِّمَكَ من تأويل الأحاديث، أن يُلهِمَكَ الحِكمة، أن تضع الشيء المناسب بالقدر المناسب في الوقت المناسب في المكان المناسب مع الشخص المناسب، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة:٢٦٩].

أن يُعلِّمَكَ وأن يؤتيك الحكمة، وأن يرزُقَكَ طيباً، وأن يستعملك صالحاً، وما أكثر ما أذكّر إخوتي وجلسائي بالفكرة التالية: إن رأيتُ إنساناً له عمل شريف يخدم به المسلمين أقول له: «إذ أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك».

لك مهنة شريفة مشروعة، تخدم بها الناس، تتقاضى أجراً معتدلاً، تنصحهم، هذا عمل شريف، وظفك الله في بعض الوظائف الدينية، جعلك تعلم الناس التجويد، فهذا جميل، جعلك تعلم الناس الفقه فهذا أجمل، جعلك تعلم الناس القرآن، وجعل الخير على يديك، فهذه قاعدة، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، انظر عملك، هل أساسه الرحمة بالناس أم الإضرار بهم، أساسه بث الأمن في الناس أم سلب الأمن من الناس، أساسه العطاء أم الأخذ، أساسه الطمأنينة أم القلق، أساسه أن ترحم أم أن تقسو؟ هناك أشخاص لو عُرضت عليهم مبالغ فلكية،

---

(١) الصحيح أنه موقوف على ابن مسعود.

على أن يكونوا في أعمال تقوم على إيذاء الناس لا يرضون... بل يقول أحدهم: معاذَ الله، الله الغني، الله الكريم، أنا أعيش على آلام الناس، أنا أبني مجدي على أنقاضهم، أأبني غناي على فقرهم، وأبني طمأنينتي على قلقهم، وأبني حياتي على موتهم؟!... معاذَ الله، الله الغني.

إذاً: الرحمة الخاصة مشروطة بالطاعة والمجاهدة وبذل المال ومعاونة الضعيف ورحمة اليتيم، ومعاونة الأرملة، وتفقّد الجيران وحضور مجالس العلم وغض البصر والذِّكر والتلاوة، هذه قنوات تصلك من خلالها الرحمة الخاصة، وتشعر أنك إنسان متميز، لك عند الله مكانة، هذه المكانة تتبدى في اللُّطف، وفي الحِفظ وفي الرعاية، لذلك قالوا: معية الله الخاصة: النصر والتأييد والحفظ والتوفيق، تشعر بها، تلمسها بيديك، فحينما يكون شخص أثيراً عند شخص ذي مكانة تراه يشعر بشعور عجيب كأنه فوق الناس جميعاً، فهو قريب من شخص مهم، وإذا التقطتْ له صورة بصحبة تلك الشخصية ازدهى نفْساً وتعاظمَ ويقول مثلاً: البارحة كنا معاً على العشاء، فكيف إن كانت لك مع خالق الكون مودة؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

كيف إذا كان اللسان طلقاً في ذكر الله، كيف إذا كان البيان ساطعاً في فهم كلام الله أو في تفسير كلام الله عز وجل، فيا أيها الإخوة القراء الكرام: رحمة الله الخاصة، تحتاج إلى مجاهدة، لذلك قال إبراهيم بن أبي عَبْلَة: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى»[1].

فروق بين رحمة الله لعباده ورحمة الناس لبعضهم

الإنسان إذا رَحِمَ إنساناً يقول لك: تمزَّق قلبي لمنظره وبؤسه، فقد ترى طفلاً صغيراً واقفاً على قارعة الطريق الساعة الحادية عشرة في البرد الشديد ليبيع الخُبز أو

(١) قال الحافظ ابن حجر في تسديد القوس: هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة اهـ.

غيره، ألا تشعر برحمة؟ ألا تُحِسُّ بتمزق؟ أين أهله؟ لعلهم محتاجون فالواجب التخفيف عن هؤلاء، وهذه رحمة. إن المسلم إنسان يمتلئ قلبه بالرحمة ويدرك أنه من لا يَرحم لا يُرحم... فإذا شعر رجل أنه سبب في شقاء الآخرين أو أنه يستطيع أن يخفف عن الآخرين آلامهم وبؤسهم ثم لم يفعل هذا الشعور يشقيه إلى الأبد.

التعليق: الإنسان عندما يقف أمام حالة بائسة يُحسُّ أنه يكاد يتفطَّر قلبُهُ، يُحِسُّ أنه يتمزق في أعماقِهِ، يحسُّ بمشاعر رحمةٍ معينة، يا ترى رب العالمين، هل تعتريه هذه المشاعر، لا!! هو منزّه عن هذا لأنه إله، لكنه يرحم كلَّ خلقه.

والشيء الثاني: عندما يرحم الإنسان مخلوقاً معذّباً فإنما يرحمه حتى يريح نفسه مما اعتراه من مشاعرٍ منغِّصة، فهذا ضعف فيه، لكنَّ الله عز وجل يرحم لمصلحة المخلوق لا لمصلحة الراحم، نقطتان مهمتان إن الله سبحانه وتعالى مُنزّهٌ عن مثل هذه المشاعر التي تعتري الرحيم من بني البشر، وحينما تندفع لرحمة مخلوق فاندفاعك هذا كي تستريح، إذاً هذه الرحمة معلولة، أنت بهذا العطاء تبتغي راحة نفسك، لكنَّ خالق الكون يرحم مخلوقاته ليرحمهم، لا يرحمهم ليتخلص من شعور محض اعتراه، فالله عز وجل منزّه عنه.

الفرق بين الرحمن والرحيم

قال بعض العلماء: الرحمن اسم من أسماء ذاته والرحيم في أفعاله، وبعضهم قال: الرحمن في الدنيا والآخرة، على كلِّ القضية تحتاج إلى تفصيل وإيراد أمثلة، أُم وأب، وابن يده اسودّت، هذا مرض الموات وعلاجه قطع يد الابن، الأُم ترفُض أشدَّ الرفض أن تُقطَع يده، الأب يصر أشدَّ الإصرار على قطع يده فأيهما أشدُّ رحمة؟ الأم تبكي وتصرخ، الأب ساكت مُصِرّ على قطع يده، لأن الأب عالم بالعقابيل والأم مُصِرَّة على عدم قطع يده، والحقيقة أن الأب أشد رحمة لأنه بهذا الضرر المحدود ينفع كامل البدن، فيخلصه من أن يسري الداء ويتفشى في سائر الجسم، أما الأم فرحمتها المؤقتة بابنها قد تودي به وتورده المهالك.

يقول الله عز وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام:١٤٧].

تقتضي رحمة الله أن يعالج عباده الشاردين، الله رحمن ومع أنه رحمن يسوق لعباده من الشدائد ما يحملهم على طاعته.

وقد قيل: إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراعي الهلكة.

إذن هو يعذبكم كي تؤمنوا وتشكروا، فإذا آمنتم وشكرتم حققتم الهدف من وجودكم، لأن الله سبحانه وتعالى سخَّر هذا الكون تسخير تعريف وتكريم، فأي شيء خلقه الله عز وجل يدلك على الله، وأي شيء خلقه الله عز وجل هو تكريم لك تنتفع به، فهناك هدف نفعي و هناك هدف إرشادي، فالذي عرف الله من خلال هذا الكون حقق الهدف الإرشادي، والذي انتفع بهذا الذي خلقه الله عز وجل حقق الهدف التكريمي.

قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم:٤٥].

وفي الحديث: «عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل» [رواه احمد والبخاري وأبو داود عن أبي هريرة].

آية أخرى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ﴾ [مريم:٧٥].

وأحياناً تقتضي حكمة الله عز وجل أن يمده برحمة، بعلم، وآية أخرى: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [يس:٢٣-٢٤].

وهذا سؤال كبير جداً، يقول أحدهم: يا أخي الله رحيم، وهذه الزلازل وهذه الفيضانات، وهذه المجاعات، وهذه الحروب الأهلية في العالم، وهذا القهر، وهذا الفقر، وهذه الأمراض الخطيرة، يحتار في أمرها المرء، فهذه كلها التي تؤذي عينك مصدرها من الرحمن، لأنَّ الرحمن يشَمل الدنيا والآخرة، الإنسان إذا مرض فهذا من مصائب الدنيا فقط؛ فالفقر مؤلم، والمرض مؤلم، والحرمان مؤلم، والقهر مؤلم، والذُّلُّ مؤلم، أما إذا كان هذا الحرمان سبباً لعطاء مديد، إذا كان هذا الإضرار سبباً لنفع طويل، إذا كان هذا القبض سبباً لبسط كثير، فهذا إذاً ضُرٌّ لمنفعة؛ لذلك إذا رأيت شيئاً مؤذياً فاعلم أن الله سبحانه وتعالى يضرّ لينفع، ويأخذ ليُعطي ويبتلي ليجزي، ويُذل ليُعز، ويقبض ليبسط لذلك أجمل كلمة قالها بعض العلماء: «الشر المطلق لا وجود له في الكون»، ما معنى الشر المطلق؟ الشر الذي يبتغى لذاته.

الأب الطيب العالم الذي يمتلئ قلبه رحمة يصر على قطع يد ابنه، يتلافى الضرر الأكبر بالضرر الأصغر، هذا المثل يجب أن يكون واضحاً جداً عند الإخوة القراء الأكارم؛ كل أنواع المصائب في الدنيا، كل أنواع الرزايا كل أنواع الابتلاءات، هذا كله ضرر أقل تلافياً لضرر أشد، هل هناك آية قرآنية تؤكد هذا المعنى؟ قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة:٢١].

الله عز وجل رحيم ورحمن، رحيم يمتعك بالصحة، رحيم يمنحك المال، رحيم يوفر المأوى، رحيم يبثّ فيك الراحة النفسية، لكنه رحمن ينظر إلى آخرتك فيأخذ بيدك للعمل الصالح، وينظر إلى هذه الحياة الأبدية لتسعد بها، التي سوف تحياها، ولمصلحة هذه الحياة الأبدية ربما يُذهِب كلَّ مالك.

ذات مرة قال لي شخص وأقْسَم: أن له بيتاً تزيد مساحته على خمسمئة متر، وله حدائق يقوم على أمرها والعناية بها موظفون، وما أدخل إلى بيته فاكهة إلا بكميات كبيرة، وعنده طباخ وعنده خدم وعنده حشم وله ثلاث مركبات، وله تجارة واسعة

وعنده معمل ألبسة، وبعد حين رأيته في بعض أحياء دمشق الفقيرة، قال: أنا أنام على طاولة التفصيل وآكل من هذه العلبة، بلا صحن، كيف سُلب ماله كلُّه... قصة طويلة فإزاء هذه الواقعة هل نحن أمام رحمن أم رحيم؟ رحمن، لأنَّ هذا الشيء لمصلحة آخرته، كان لا يصلي، وكان يشرب الخمر، ويعتدي على أعراض الناس باعترافه الشخصي، فأراد الله عز وجل أن يرُدَّهُ إليه، سلبه كل المال. والله الذي لا إله إلا هو، كل قصة تسمعها، تعد هي بنفسها بياناً إلهياً، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

فكأن هذه الحادثة تُجسّد هذه الآية، لذا أيها القارئ الكريم إن من الحكمة أن تأتي ربَّك طوعاً، وأن تأتيه راغباً، وأن تأتيه مختاراً، وأن تأتيه بمبادرة منك، أن تأتيه وأنت صحيح، أن تأتيه وأنت شاب، أن تأتيه وأنت ذو مكانة، أن تأتيه وأنت في وظيفتك لا بعد التقاعد، بعد أن ولّت الدنيا وأصبحتَ هرماً، يتنقل من مسجد إلى مسجد لعله يبحث عن مكان مريح، وأنت في كامل عافيتك البدنية والمالية، اغدُ إلى بيت الله، واسعَ إلى مرضاة الله.

رحمن الدنيا والآخرة، من أجل سعادتك في الآخرة قد يصرف عنك الدنيا كلها، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، لكن ادعُ الله عز وجل أن يرزقك الدنيا والآخرة، والدعاء القرآني: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١].

إنَّ الله عز وجل يقول: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧].

إن أحد العلماء له كلمة رائعة جداً يقول: «لعلك تقول ما معنى كونه تعالى رحيماً وكونه أرحم الراحمين؟!... والرحيم لا يرى مبتلى ولا مضروراً ولا معذباً ولا مريضاً وهو يقدر على إماطة ما بهم إلا ويبادر إلى إماطته، والرب سبحانه وتعالى قادر على

كفاية كل بلية، ودفع كل فقر وغُمَّة، وإماطة كل مرض، وإزالة كل ضر، والدنيا طافحة بالأمراض والمِحن والبلايا، وهو قادر على إزالتها جميعها»، لماذا لا يفعل؟... هنا السؤال... كم مصيبة في الأرض، كم ضائقة، كم من حالات صعبة جداً، والله قادر وبيده كل شيء، كن فيكون، الجواب: إنَّ الطفل الصغير قد تَرُقُّ له أمه فتمنعه من عمل جراحي، والأب العاقل يحمله عليه قهراً، الجاهل يظن أن الرحيم هي الأم دون الأب، والعاقل يعلم أن إيلام الأب إياه بالعلاج من كمال رحمته وعطفه وتمام شفقته.

الرحيم مع الجهل عدو في صورة صديق، أحياناً يقول الأب: سأدع ابني يسرّ في حياته، فيبعَثُه إلى بلد غربي ويعطيه مالاً وفيراً، أب ميسور: اذهب يا بني وانبسط، هذا عدو... إذا عاد الابن زانياً أو عاد شارباً للخمر أو عاد وهو يحتقر أمَّته، ويرى أن أولئك الذين كان عندهم هم الذين يحيون وحدهم في هذه الدنيا، وانتهى دينه إلى ضياع، فهذا الأب عدو في صورة صديق، وكل إنسان يدعوك إلى أن تستمتع بالدنيا ولكن على حساب طاعة الله عز وجل فهذا عدو بصورة صديق.

لذلك ربنا عز وجل يقسو أحياناً لمصلحة آخرتك، قد يقول قائل: مصيبة، نعم؛ لأنها تصيب الهدف، وأنا أقول دائماً: الله عز وجل إذا أراد أن يداوي مخلوقاً يعلم كيف يداويه ومن أي زاوية أراد أن يداويه، من المكان الصعب، من المكان الحرج، من حيث هو مطمئن، يؤتى الحذر من مأمنه، لا ينفع حذر من قدر.

طبيبُ قلبٍ في أمريكا عدَّ الجريَ هو الوقاية التامة للقلب، وألّفَ كتباً، ودبج مقالاتٍ وأجرى محاضرات وهو يجري في اليوم ساعتين أو أكثر، وكأن الجري إله يحميه من كل مرض، إلا أنه مات وهو يجري.

الجري مفيد جداً، وليس هذا خطأً، لكن حينما ألّهَ الجري، وعدّه هو السبب الكافي والشافي، فالله عز وجل خيّبَ ظنه.

ترى أحياناً إنساناً باختصاصه يصاب، ما هو السبب؟ لأنه متّكل على اختصاصه، متّكل على علمه، متّكل على خبرته، فجاءه من مكان طمأنينته، من مكان أمنه.

الله سبحانه وتعالى خلقك للآخرة، لذلك يمكن أن يضحي لك بدنياك كلها، من أجل آخرتك، لكن أنت إذا كنت مُفلحاً وموفقاً اطلب منه، واضرع إليه أن يجمع لك بين الدنيا والآخرة، ائته طوعاً، ارغب فيما عنده حتى يُطمئِنكَ في الدنيا والآخرة، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [البقرة:٢٠١].

إن الآية التالية يجب ألا تبرح أذهانكم، أبداً: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾.

فالله غني لماذا يُفقرك؟ لماذا يضيّق عليك، إنه لا يفعل ذلك إلا حُبّاً بك ورحمة بك ودفعاً بك إلى باب عبوديته.

الكلمة اللطيفة كما قال بعضهم: الألم القليل إذا كان سبباً للذةٍ دائمة ليس شراً بل هو خير.

قالوا: الرحيم هو الذي يريد الخير للمرحوم، وليس في الوجود شرٌّ إلا وضمنه خير، لا يوجد في الكون شرٌّ مطلق.

مثلاً فتح البطن عمل مزعج، إنسان أدخل المستشفى فأحضر الطبيب مشرطاً وفتح اللحم، نفر الدم، أخذتَ الملاقط، لقطتَ الأوعية كلها، أتيتَ بالمشدات شددْتها، دخلتَ إلى الزائدة واستأصلتها، هذا عمل ظاهره فيه قسوة ودماء، ولكن باطنه رحمة، لأنها إذا أُهملت ثم انفجرت حدثت مشكلةٌ كبيرةٌ جداً، إذا أصيب إنسان بالتهاب الزائدة فيبادر ذووه مباشرةً إلى المستشفى، أرحم الناس وأقرب الناس يقول: مباشرةً إلى المستشفى هناك فتح بطن، وقطع، ووصل، وخياطة، وتخدير، طبعاً هذه الرحمة ما دُمتَ تفهم أن كل المصائب التي تأتي هي من نوع فعل الطبيب الرحيم فأنت على حق.

وبعد، هناك سؤال يلح علينا: إن خَطَرَ لك نوع من الشر لا ترى وراءه خيراً، أو خَطَرَ لك أنّ تحصيل ذلك الخير كان ممكناً دون اتباع أساليب الإيلام فماذا تفعل؟!

اتَّهم عندئذٍ عقلك القاصر، وقل: أنا فهمي محدود، وعقلي قاصر عن رؤية الغد، مستحيل أن تكون مصيبةٌ بالأرض بلا سبب، أو بلا خير ضمنيٍّ، أو بلا هدف نبيل، أو بلا غاية عظمى، لكن الشر المطلق لذات الشر فهذا شيء لا يمكن أن يكون له وجود في الكون كله، فكل شيء وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وإرادة الله عز وجل متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته متعلقة بالخير المطلق، والدليل: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران:٢٦].

«بِيَدِكَ الخَيْرُ»، لم يقل والشر، الإعزاز خير، الإذلال خير، إيتاء المُلك خير، سلب المُلك خير، أما إذا قلت: إن هذا الشر لا خير وراءه، قالوا: فإنّ هذا مما تقصر العقول عن معرفته.

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي
ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد

إذا آتى الله شخصاً علماً وبصيرةً، وآتاه قدرةً على تفسير المصائب تفسيراً يليق بذات الله عز وجل وأسمائه الحسنى، فهو راضٍ بقضائه وقدره، ويرى يد الله تعمل في الخفاء، ويرى يد الله فوق أيدي الناس، فإذا ابتعد الإنسان عن التوحيد وقع في آلام لا تُحتمل، كما روي أن النبي ﷺ قال: «إذا كانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيارَكُمْ، وأغْنِياؤكُمْ سُمَحَاءَكُمْ، وأُمورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ من بَطْنِها، وإذا كانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ، وأُمُورُكُمْ إلى نِساءِكُمْ فَبَطْنُ الأرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا» [سنن الترمذي من حديث أبي هريرة].

إن الإنسان إذا لم يوحِّد يقع في شقاء لا نهاية له، والتوحيد ألا ترى مع الله أحداً، وأن ترى كل شيء ينتهي إلى خير، «بِيَدِكَ الخَيْرُ»، وأن تدعو الله عزَّ وجل أن يرحمك في الدنيا والآخرة، وأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

نصيب المؤمن من اسم الله (الرحمن)

أيها القراء الكرام: من أفضل أنواع الدعاء أن تطلب من الله رحمته، لأن الله خلقنا ليرحمنا، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود:١١٩].

فمريم بنت عمران دعت باسم الرحمن عندما تمثل لها جبريل بشراً سوياً، وبشَّرها بعيسى قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم:١٨].

أي إن كنت تقياً تتقي الله، وتخشى الاستعاذة، وتعظمها، فإني عائذة بالرحمن منك، يعني إن كنت تقياً فأنا أستعيذ بالله منك، إن كنت تعرف معنى الاستعاذة، ومعنى أن الله موجود، ويجيبني أستعيذ بالله منك.

النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد دين لأداه الله عنك؟

قل يا معاذ: اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطيهما من تشاء، وتمنع منهما من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك [رواه الطبراني في الصغير عن أنس بن مالك بإسناد جيد].

ومن الأدعية القرآنية: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة:٢٨٦].

ومن أفضل الدعاء للوالدين: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء:٢٤].

كلمة يا رب ارحمني، أو يا رب ارحم فلاناً كلمة واسعة جداً، تبدأ من صحتك، إلى زوجة صالحة، إلى أولاد أبرار، إلى سلامة، إلى راحة نفسية، إلى ثقة بالله، إلى حكمة، إلى سعادة، إلى رضا، يعني عطاء الله المطلق يسمى رحمة الله فاسأل الله عز وجل أن يرحمك.

ثانياً: ينبغي أن يمتلئ قلب المؤمن بالرحمة، الدليل: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

من صفات المؤمن أن قلبه رحيم، ومن صفات المنقطع عن الله أن قلبه قاسٍ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الزمر:٢٢].

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ ﴾ [البقرة:٧٤].

ثالثاً: لا ترقى عند الله إلا إذا كانت الرحمة عامة، أقول لكم كلمة: إن لم ترحم الخادمة في البيت كما لو أنها ابنتك فأنت مقصر، إن لم ترحم زوجة ابنك في البيت كما لو أنها ابنتك فأنت عنصري، بطولة المؤمن أن يرحم كلَّ الخلق، أما كلُّ الناس فيرحمون أولادهم وأهليهم.

وفي الحديث الشريف: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء» [أبو داود عن عبد الله بن عمرو].

وأخيراً فقد جاء في الحديث: «إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن» [مسلم عن ابن عمر].

هذا من جهة التسمية، فقد تسمى به كثير من المسلمين، وعلى رأسهم عبد الرحمن ابن عوف وهو من العشرة المبشرين بالجنة هاجر الهجرتين، وشهد بدراً وأحد، والمشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ.

اللهم ارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، اللهم ارحمنا فإنك بنا راحم ولا تعذبنا فإنك علينا قادر والحمد لله رب العالمين.

الرحيم

اسم الله الرّحيم ورد في القرآن الكريم وفي السّنّة الصّحيحة، ورد مطلقاً أي غير مضاف، ومعرفاً بـ (الـ) التعريف، ومنوّناً، واسم الله الرّحيم اقترن مع اسم الله الرّحمن في ستة مواضع في القرآن الكريم.

كما اقترن مع اسم التَّواب، والغفور، والرّؤوف، والودود، والعزيز، وذلك لأنّ الرَّحمة التي دلّ عليها اسم الرَّحيم رحمة خاصة، بينما اسم الله الرّحمن يدلّ على الرَّحمة العامّة، للتّوضيح: عندنا مدرسة وعام دراسيّ، في أثناء العام الدراسيّ جميع الطلاب دون استثناء يتمتّعون بميزات عامة، كلُّهم لهم مقاعد، لهم مقاصف خاصّة بهذه المدرسة، لهم أعطيات، لهم تعويضات، وهناك متابعة، فالمقصر يحاسب ويؤدب، ويستدعى والده، العطاءات واحدة للجميع، ويوجد تأديب و متابعة و عقوبات، لكن بعد أداء الامتحان هناك تكريم للناجحين، فاسم الله الرحمن يشمل كل الخلائق، المؤمن، والكافر، والملحد، والمستقيم، والمنحرف، أمَّا اسم الله الرحيم فيشمل الذين آمنوا بالله ورسوله واستقاموا على أمره، وحققوا الهدف الذي من أجله خُلقوا.

لذلك اسم الله الرَّحيم يؤكِّد رحمته الخاصَّة بالمؤمنين، ذكرت من قبلُ أنَّ الأب يُطعم كلَّ أولاده، يكسوهم جميعاً، كلُّ ابن له غرفة خاصَّة، لكنَّ الابن البارَّ له معاملة خاصَّة، فيها ودٌّ، و فيها حبٌّ.

الله عزَّ وجلَّ رحمن في الدّنيا لكلِّ الخلق، لكنّه في الدّار الآخرة رحيم بالمؤمنين.

نأتي إلى الآيات التي ورد فيها اسم الرَّحيم، منها قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ [الفاتحة:١].

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ②﴾ [فصلت:٢].

الرحمن رحمن الدّنيا، والرّحيم رحيم الآخرة: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:٥٨].

كلُّ أنواع المصائب ما هي في الحقيقة إلا معالجة إلهيّة من اسم الرّحمن، رحمن الدنيا، لكن بعد انتهاء الدنيا، ودخلنا في الدّار الآخرة، فالله عز وجل رحيم بعباده المؤمنين الذين استجابوا، وأنابوا، وأقبلوا، وتوكّلوا.

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:٥٨].

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر:٤٩].

هذا في القرآن الكريم، أما في السنة: «يا رسول الله علمني دعاءً أدعو به في صلاتي، فقال ﷺ: قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم» [البخاري عن أبي بكر الصديق].

«كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرة رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم» [أبو داود من حديث ابن عمر].

من معاني اسم الله (الرحيم)

الرحيم في اللغة من صيغ المبالغة، على وزن (فعيل) بمعنى فاعل، رحيم بمعنى راحم، سميع بمعنى سامع، قدير بمعنى قادر، فالله عز وجل رحيم أي راحم بعباده المؤمنين، إذاً هذا الاسم دلّ على صفة الرحمة الخاصة التي ينالها المؤمنون، فالرحمن الرحيم بُنيت صفة الرحمة الأولى على (فعلان) رحمن، لأن معناه الكثرة، يعني اسم الله الرحمن يشمل كل الخلائق دون استثناء، فرحمته وسعت كل شيء، وهو أرحم الراحمين، وأما الرحيم فإنما ذكر بعد الرحمن لأن الرحمن مقصور على الله عز وجل، لا يمكن أن يسمى إنسان باسم الرحمن، لكن يوجد إنسان رحيم.

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣].

لذلك قال ابن عباس: هما اسمان رقيقان أحدهما أرقُّ من الآخر.

والرحمة الخاصة التي دلّ عليها اسم الرحيم شملت عباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، فقد هداهم إلى توحيده، وعبوديته، وهو الذي أكرمهم في الآخرة بجنته، ومَنَّ عليهم في النعيم برؤيته، ورحمة الله لا تقتصر على المؤمنين فقط، بل تمتد لتشمل ذريتهم من بعدهم تكريماً لهم، قال تعالى في نبأ الخضر والجدار: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢].

إذاً: الرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين، وتمتد إلى ذريتهم من بعدهم، والآية الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور:٢١].

قال علماء التفسير ألحقنا بهم أعمال ذريتهم.وفي الحديث الشريف: «أفضل كسب الرجل ولده» [أخرجه الطبراني عن أبي بردة بن نيار].

إذا وفق الله إنساناً إلى تربية أولاده، أعمال أولاده الصالحة، وأولاد أولاده، وأحفاده، وأحفاد أحفاده إلى يوم القيامة في صحيفته، فالإنسان مجبول على حبّ

وجوده، وعلى حبّ سلامة وجوده، وعلى حبّ كمال وجوده، وعلى حبّ استمرار وجوده، واستمرار وجودك يكون بتربية أولادك، التقيت مرة بعالم جليل من علماء دمشق قال لي: عندي ثمانية وثلاثون حفيداً، أربعة عشر منهم أطباء، وأكثر من عشرة أحفاد من حفاظ كتاب الله، أي إن الخير العميم الذي ينال المؤمنين يمتد إلى ذريتهم من بعدهم.

أحد علماء دمشق وهو خطيب من الخطباء الكبار توفي رحمه الله، أُقيم له العزاء في الجامع الأموي، وفي اليوم الثالث وقف ابنه وألقى خطبة كأبيه، فقلت في نفسي: لم يمت ذلك العالم مادام ترك من يخلفه من بعده، فكل إنسان إذا وفقه الله وربى ابنه، فإن الأجر الذي يناله الأب لا يعلمه إلا الله، مرة قابلت شخصاً له ابن صالح جداً، أقسمت له بالله أن هذا الابن الصالح في الميزان المادي أغلى من مليار مليار دولار، لأن هذه الأموال مهما كثرت فإنك تتركها وتموت، أما الابن فيبدأ عطاؤه بعد الموت.

«إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» [مسلم عن أبي هريرة].

أيها القراء الكرام: إن اسمي الله جلّ جلاله الرحمن الرحيم يجتمعان في معنى واحد وهو تعلقهما بالمشيئة، فاسم الله الرحمن اقتضى أن يسوق لعباده بعض العذاب، والدليل: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٧].

واسم الله الرحيم يقتضي التكريم، اسم يقتضي التأديب في الدنيا، واسم يقتضي التكريم في الآخرة، يفترق الاسمان (الرحمن والرحيم) من جهة تعلقهما بالحكمة، الحكمة تقتضي أن يساق العذاب لمن شرد عن الله في الدنيا، والحكمة تقتضي أن تكون رحمة الله لمن استجاب له في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود:١١٩].

خلق عباده ليرحمهم، خلقهم ليسلمهم، خلقهم ليسعدهم، خلقهم ليعطيهم، الله عز وجل بيده الخير.

أسباب تحصيل الرحمة الخاصة

الرحمة الخاصة لها أسباب، أولها في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٢].

إذاً طريق رحمة الله طاعة الله ورسوله

وفي آية أخرى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام:١٥٥].

إذاً تطبيق منهج الله وتقوى الله من أسباب تحصيل رحمة الله الخاصة.

ومن أسباب تحصيل رحمته جل جلاله قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد:٢٨].

يكفل لكم رحمته مرتين، مرة في الدنيا ومرة في الآخرة، وفي قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن:٤٦].

جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، ويقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «في الدنيا جنة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة» إنها جنة القرب.

اسم الله الرحيم يدل على ذات الله، كما يدل على صفة الرحمة الإلهية، فهو يدل على الذات والصفة معاً، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدخان:٤١-٤٢].

وفي آية ثانية: ﴿۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف:٥٣].

بشكل أو بآخر إن لم تقل من أعماق أعماقك ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أقرب إلى الله مني، فأنت لم تذق جنة الدنيا، يقول إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه -أي من السعادة والسرور- لجالدونا عليه بالسيوف» [البداية والنهاية لابن كثير].

ويقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ماذا يفعل أعدائي بي؟ بستاني في صدري، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي؟».

أين وجد سيدنا إبراهيم الجنة؟ وجدها وقد ألقي في النار: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء:٦٩].

أين وجد أصحاب الكهف الجنة؟ في الكهف. أين وجد سيدنا يونس الجنة؟ في بطن الحوت، أي إذا كان الله معك فمن عليك؟

فَلَيتَكَ تَحلو والحَياةُ مَريرَةٌ وَلَيتَكَ تَرضى وَالأَنامُ غِضابُ
وَلَيتَ الَّذي بَيني وَبَينَكَ عامِرٌ وَبَيني وَبَينَ العالَمينَ خَرابُ
وليت شرابي من ودادك سائغ وشربيَ من ماء الفرات سراب
إذا صحّ منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

إن لم تقل أنا أسعد الناس على بيت صغير، ودخل محدود، وعدة علل بالجسم، ومتاعب في الدنيا، مع كل هذه المتاعب والحياة الخشنة إن لم تقل أنا أسعد الناس بمعرفة الله، والإقبال عليه، ومحبته، فأنت لم تذق طعم حلاوة الإيمان، ولم تذق طعم القرب في الدنيا.

وفي آية أخرى ورد فيها اسم الرحيم يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص:١٦].

يتضح من هذه الآية أن الإنسان أحياناً تزل قدمه، لكن الفرق كبير جداً بين من يعصي الله كبراً واستعلاءً واستكباراً ومن يعصي الله غلبة.

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور:٢٨].

فالصحة رحمة، وراحة البال رحمة، والزوجة الصالحة رحمة، والأولاد الأبرار رحمة، والسمعة الطيبة رحمة، والتيسير رحمة، والسكينة رحمة، والتجلي رحمة، والقرار السديد رحمة، والنظرة الثاقبة رحمة، والموقف الحكيم رحمة، والرضا عن الله رحمة، وامتلاك الحكمة رحمة، وامتلاك الرؤية الصحيحة رحمة.

وفي الحديث الشريف: «صلى بنا رسول الله ﷺ على رجل من المسلمين، فسمعته يقول: اللهم إن فلان بن فلان في ذمتك، وحبل جوارك، فقه من فتنة القبر ومن عذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحمد، اللهم فاغفر له وارحمه، إنك أنت الغفور الرحيم» [أبي داود عن واثلة بن الأسقع].

يعني من أعظم الأدعية أن تقول في دعائك يا رب إنك أنت الغفور الرحيم، الغفور عفو عما مضى، والرحيم عطاء، أنت أحياناً تنظف الإناء مما علق به من قاذورات، ثم تملؤه شراباً لذيذاً، فالرحيم عطاء والغفور مسامحة.

«اللهم ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا، وقلوبنا، وأزواجنا، وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، وأتمها علينا» [أبو داود من دعاء ابن مسعود].

ومما ورد في الرحمة الخاصة التي تضمنها اسم الله الرحيم قوله تعالى في شأن موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ﴾ [الأعراف:١٥١].

ويقول تعالى عن أيوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣].

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «تهجد النبي ﷺ في بيتي فسمع صوت عبّاد يصلي في المسجد، فقال: يا عائشة أصوت عبّاد هذا؟ قلت: نعم، قال: اللهم ارحم عبّاداً» [البخاري عن عائشة].

إذا رحم الإنسان الله عاش في سعادة، عاش في توفيق، عاش في هيبة، إذا أحب الله عبداً ورحمه ألقى محبته في قلوب الخلق.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾ [البقرة:٢١٨].

المؤمن يبذل ماله، ووقته، يربي أولاده، ينصح للمسلمين، يقدم خدماته، لماذا يفعل هذا؟ يرجو رحمة الله، يرجو عطاء الله، أنا أضرب مثلاً بسيطاً لو أن ملكاً كلف معلماً أن يعطي ابنه بعض الدروس، فهذا المعلم أفقه ضيق جداً بعد عشرة دروس قال للابن أين الأجرة؟! قال له: كم تريد؟ قال له: كل درس بألف ليرة، بعد دقيقة جاءه، وقال: هذه عشرة آلاف، لكن هذا المعلم لو لم يطلب من الابن لأعطاه الأب بيتاً، ومركبة، ودخلاً مستمراً، عطاء الملك يتناسب مع الملك، فعندما لا يتحرك الإنسان إلا بالأجر، لا يلقي كلمة إلا بالأجر، لا يقبل أن يؤدي نصيحة إلا بالأجر المسبق، يكون لا يعرف الله، فحياة المؤمن مبنية على العطاء، بالتعبير المعاصر استراتيجيته العطاء، الهرم البشري الكبير يقع على قمته زمرتان، الأقوياء والأنبياء، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، لذلك المؤمن من أتباع الأنبياء، يبني حياته على العطاء، يسعد إذا أعطى: ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾ [الإنسان:٩].

علاقة المؤمن بهذا الاسم

علاقة المؤمن بهذا الاسم الرحيم هو امتلاء القلب برحمة الولاء للمؤمنين، ورقة الوفاء لهم التي تدفع إلى حبّ المؤمنين، أنت مسلم، ويجب أن يكون ولاؤك للمؤمنين ولو كانوا ضعافاً وفقراء، وينبغي أن تتبرأ من الكفرة والملحدين ولو كانوا أقوياء

وأغنياء، تجد إنساناً أحياناً يذهب إلى الغرب فيستغرِب، ينتمي إليهم، يتمنى قوتهم، يتمنى نصرهم، يزدري أمته، مثل هذا الإنسان انتهى، لأن أحد أركان الإيمان الولاء والبراء، أن توالي المؤمنين، أن تحمل همهم، أن تتألم لآلامهم، أن يبكيك حالهم المأساوي، لا أن تشمت بهم.

إذاً المؤمن الموحد بهذا الاسم الرحيم ينبغي أن يمتلئ قلبه برحمة الولاء، ورقة الوفاء التي تدفع إلى حبّ المؤمنين، وبغض المنحرفين، وأسوتنا في ذلك هو سيد الخلق أجمعين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨].

المؤمنون وضعهم لا يرضي الآن، كبا بهم الجواد، اجتمعت عليهم المصائب، أعلن العالم كلُّه حرباً عليهم، وأنت توالي المؤمنين، تدافع عنهم، تحمل همهم، تتألم لآلامهم، تفرح لانتصارهم.

كان النبي ﷺ رحيماً بأصحابه، رفيقاً، حبيباً، قريباً، صديقاً: «أتيت النبي ﷺ في نفر من قومي، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيمًا رفيقاً، فلما رأى شوقنا إلى أهالينا، قال: ارجعوا، فكونوا فيهم، وعلموهم وصلوا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمّكم أكبركم» [البخاري عن مالك بن الحويرث].

قال النبي ﷺ ذات يوم في خطبه: «أهل الجنة ثلاثة، ذو سلطان مقسط، متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال» [مسلم عن عياض].

معظم الناس الذين شردوا عن الله خطهم البياني صاعد صعوداً حاداً، وعند الموت هذا الخط الصاعد ينهار انهياراً مريعاً، عند الموت فقد كل شيء، فقد ماله، أهله، مكانته، أولاده، بيته، مركبته، مكتبه التجاري، فقد كل شيء، إلا أن المؤمن خطه البياني صاعد صعوداً مستمراً، والموت نقطة على هذا الخط الصاعد، لذلك حينما أرى إنساناً محسناً في الدنيا أدعو له بهذا الدعاء، أقول له: اللهم اجعل نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة.

اقرؤوا هذه الآية: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف:٣٢].

كان ﷺ يقول: «اللهم لا عيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَةِ» [من صحيح البخاري عن أنس بن مالك].

يقول لك: شخص معه وكالة مادة غذائية، أرباحه اليومية مليون ليرة، مليون يومياً ماذا يأكل؟ له وجبة طعام صغيرة، هذا هو رزقه، وكسبه سيحاسب عليه، يعني لا تفرح بالكم، افرح برحمة الله عز وجل هكذا علمنا الله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف:٣٢].

نحن نقبل على الله إذا عرفنا أسماءه الحسنى، والطريقة الفعالة للتقرب منه أن تتخلق بكمال مشتق من كمال الله، فإذ أردت رحمة الله فارحم خلقه، إذا أردت عدل الله كن منصفاً، إن أردت عطاء الله كن معطياً، تقرب إلى الله بكمال مشتق من كماله.

والحمد لله رب العالمين.

الرَّبّ

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:٥٨].

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ:١٥].

ولعل هذا الاسم هو أقرب الأسماء الحسنى إلى الإنسان، لأن الله عز وجل يربينا، يربي أجسامنا ويربي نفوسنا ويربي عقولنا، عن طريق آياته الكونية، وعن طريق آياته التكوينية وعن طريق آياته القرآنية.

من معاني اسم الله (الرب)

الربُّ في اللغة هو المالك، هو السيِّد، هو المُنعم، هو المربِّي، ولعل أقرب المعاني إلى الإنسان أنه المربِّي، ولا يطلَقُ غيرَ مضافٍ إلا إذا توجه إلى الله تعالى(الرب) أما إذا أُضيف فإنه يتوجه إلى الله تعالى أو إلى عباده، كقولنا: ربُّ الدار، أي: صاحبها.

ويقال: عالمٌ ربَّانيٌّ، أي: راسخٌ في العلم، إنسان ربانيٌّ، أي: كلُّ حياته محصورة في معرفة الله وذكره وخدمة عباده، فالربَّاني هو الذي لا يتحرَّك إلا وفق منهج الله، لا يقف موقفاً، ولا يُعطي، ولا يمنع، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يصل، ولا يقطع، إلا وفق مرضاة الله، وكما يقول سيدنا علي ﷺ: الناس ثلاثة... عالمٌ ربَّانيّ، ومستمعٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رَعاع أتباع كلِّ ناعق، لم يَسْتَضِيئُوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق.

لفظ الربّ مشتقٌّ من التربية، فالله سبحانه وتعالى مربٌّ ومدبِّر لخلقه، المربي له صفتان أساسيتان... أنه مُمِدّ، وأنه يرعى، فالذي يمدُّنا بما نحتاج إليه هو ربُّنا، والذي يُمدُّ أجسادنا هو ربُّنا، والذي يربِّي نفوسنا، ويهدينا إلى صراطه المستقيم، ويُلْجئنا إلى بابه هو ربُّنا.

قال العلماء: وإذا أُدخِلت -ال- على كلمة رب اختصَّ الله تعالى بها، الرب هو الله لأنها للعهد، أي: الربّ المعهود ولا ربَّ سواه.

الله سبحانه وتعالى مالك المُلك، مالك المالك والمملوك، فما معنى قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢].

الرب من معانيه أنه خالقٌ ورازقٌ، وكلُّ ربٌّ سواه غير خالقٍ وغير رازقٍ.

الأب يربِّي أولاده، لكن لم يخلقهم ولم يرزقهم، فإذا قلنا: فلان مُرَبٌّ، والأب مرَبٌّ، والمعلِّم مُرَبٌّ، أي: يقدِّم توجيهات، يتابع، يحاسب، يضيِّق، يشدد، يكافئ، يعاقب، أما إذا قلنا: الله ربُّ العالمين، أي: خلقنا وأمدَّنا ووجَّهنا.

لذلك أنت في نعمٍ ثلاث... نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والإرشاد، أَوْجَدَكَ ولم تكن شيئاً مِن قبل، وأمدَّك بما تحتاج إليه، ثم هداك إليه وأرشدك.

والحقيقة أن كل واحد منا، وبشكلٍ موسَّع؛ كل مؤمن يتحدث عن ربوبيَّة الله الشيء الكثير، فيقول لك: فعلت كذا فأدَّبني، فعلت كذا فكافأني، دعوته فاستجاب لي، ظلمت فظُلِمتُ، اعتديتُ فاعتُدي علي، أكلت مالاً مشبوهاً فأتلف الله مالي... كلُّ

واحد فيما بينه وبين الله يعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى يحاسبه حساباً دقيقاً، هذه هي التربية الروحية، ففي سورة الفاتحة قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾.

فالله عز وجل قوي، وقدير، وعليم، وجبار، ومتكبِّر، وقاهر، أما أنت فعبد، فالله عز وجل ربُّك وهو الذي خلقك ورزقك ودلَّك عليه... قال الله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء:٧٨-٨٢].

نظام الأبوة يوضح معنى الربوبية

يعدُّ نظام الأبوة من أكبر الآيات الدالة على عظمة الله، ذلك أن الأب أو الأم لا تكون سعادتها إلا بسعادة أولادهما، نظام الأبوة يدل على الله، والدك يتمنى أن تسبقه، يتمنى أن تتفوق عليه، لا يسعده إلا سلامتك وسعادتك لذلك قال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ [البلد:١-٣].

يعني لو تصورنا أن مؤسسة ضخمة أرادت أن تعين موظفاً، هذا الموظف يخضع للتجريب، في هذه الفترة التجريبية تُحصَى عليه أخطاؤه، فإن كانت بحجم غير مقبول رُفض، لكن لو أن مدير المؤسسة أراد أن يوظِّف ابنه، ما الذي يحصل؟ ليس القصد هنا إحصاء الأخطاء، ولكن القصد أن يربي ابنه، فعند كل خطأ يُوَجِّهه، يعلمه، يحاسبه، هذا شأن الأب.

ما معنى كلمة رب ببساطة؟ البدهي أن الأب يهيء لأسرته بيتاً، ثمّ يهيء لهذا البيت أثاثاً، ويهيء لهذا البيت طعاماً وشراباً، إن رأى ابنه مريضاً سارع إلى معالجته وأشرف على إعطائه الدواء، وإن رأى بيد ابنه حاجةً ليست له يسأله، يحقق معه، وقد يعاقبه.

يمكن أن نفهم معنى اسم الرب ببساطة من أب عالم، من أب رحيم، من أب يسعى لإمداد أولاده بكل ما يحتاجون، ويسعى لتربية أجسامهم، وتربية عقولهم،

وتربية نفوسهم، وتربيتهم تربية اجتماعية، وتربيتهم تربية بدنية، وتربيتهم تربية جنسية، هذا الأب الحاني العالم الرحيم الذي لا يقلقه إلا مصير أولاده، لا يقلقه إلا سعادتهم، إلا إيمانهم، إلا سموهم، يمكن أن نفهم معنى هذا الاسم من مفهومات الأبوة والبنوة لذلك ليس عجيباً أن يكون نظام الأبوة آية دالة على عظمة الله.

من آثار اسم (الرب) في خلقه

أشار الله عز وجل في آيات كثيرة إلى مفهوم الربوبية قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

أعطاه القوام المنساب، الأجهزة المناسبة، الحواس المناسبة، النسج المناسبة، الخصائص المناسبة، أعطى كل شيء خلقه التام ثم هدى.

لو اخترنا مخلوقاً من أحقر المخلوقات على الإنسان إنه البعوضة، البعوضة في رأسها مئة عين، وثمانية وأربعون سناً في فمها، وثلاثة قلوب في صدرها، قلب مركزي وقلب لكل جناح.

هي بحاجة أن ترى الأشياء لا بألوانها، ولا بحجمها، ولا بشكلها، إنها ترى الأشياء بحرارتها، أعطى الله البعوضة ما يشبه جهاز استقبال حرارياً.

وفوق ذلك فهي تقوم بتحليل دم الإنسان إذ ما كل دم يناسبها تحلل الدم أولاً، ثم تمتصه ثانياً، وقد ينام أخوان على سرير واحد يستيقظ الأول وقد ملئ بلسع البعوض والثاني لم يصب بشيء.

ولأن دم الإنسان لا يسري بخرطومها بسبب لزوجته فهي تميع الدم قبل امتصاصه.

ولكي لا تقتل أثناء امتصاص الدم فإنها تخدر مكان لسعتها.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٥٠].

وفي خرطومها ست سكاكين، أربع سكاكين تحدث جرحاً مربعاً، وسكينان تلتئمان على شكل أنبوب لامتصاص الدم، وفي أرجلها محاجم إذا وقفت على سطح أملس كالزجاج، وفي أرجلها مخالب إذا وقفت على سطح خشن.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

قس على ذلك قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين:٤].

أعطاك عينين من أجل أن تدرك البعد الثالث، بعين واحدة ترى الطول والعرض، بينما ترى البعد الثالث من خلال عينين، أعطاك أذنين من أجل أن تعرف جهة الصوت، قد ينطلق بوق مركبة من على يمينك يدخل هذا الصوت إلى الأذن اليمنى قبل اليسرى بفارق واحد على ألف وستمئة وعشرين جزءاً من الثانية، يوجد بالدماغ خاصة تكشف تفاضل الصوتين فيكتشف أن البوق من الجهة اليمنى، فيعطي الدماغ أمراً بالانتقال إلى الجهة اليسرى.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٥٠].

لكل شعرة شريان، ووريد، وعصب، وعضلة، وغدة دهنية، وغدة صبغية.

في شبكية العين مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط، مئة وثلاثون مليون بمليمتر وربع يعني بواقع مئة مليون مستقبل ضوئي في كل مليمتر مربع من أجل أن تميز بين ثمانية ملايين لون.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٥٠].

الدماغ يتكون من مئة وأربعين مليار خلية استنادية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد.

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات:٢١].

ينمو عظم الإنسان ويصل إلى الحد المناسب ويتوقف النمو، يعبر العلماء عن هذه الحالة بنوم الخلية العظمية، يكسر العظم بعد سبعين سنة فتستيقظ الخلية العظمية وترمم هذا الكسر.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه:٥٠].

لم يجعل لك في الشعر أعصاب حسٍّ وإلا فأنت مضطر إلى أن تذهب إلى المستشفى وتخدر تخديراً كاملاً كي تحلق شعرك.

نحن نفهم الأشياء فهماً سطحياً، لو تعمقنا في خلقنا لرأينا عظمة الله عز وجل، معنى الرب أعطاك كل ما تملك، الطفل الصغير ليس في حليب أمه حديد، جعل الله في طحال المولود كمية حديد تكفيه لسنتين إلى أن يأكل.

أعطى الطفل الرضيع منعكس المص؛ لمجرد أن يولد يلتقم ثدي أمه ويحكم الإغلاق ويسحب الهواء فيأتيه الحليب.

جهازه الهضمي ممتلئ بمادة شحمية عند الولادة، وفي أول يومين لا يأتيه الحليب بل تأتيه مادة مذيبة للشحم.

الرب جل جلاله أعطاك كل ما تحتاجه من أجهزة، من أدوات، من نسج، من خصائص، ثم هدى، هداك إلى مصالحك، أنت تمشي ولكي لا تقع أودع في أذنك الوسطى جهاز توازن؛ ثلاث قنوات فيها سائل وهناك أشعار فوق السائل فأنت إذا ملت يمنة يبقى السائل مستوياً، يمس الجدار المائل، تتحسس الأشعار، لولا جهاز التوازن لما رأيت إنساناً يمشي على قدمين، والدليل لن تستطيع أن توقف الميت على قدميه، لأنه فقد التوازن، لولا جهاز التوازن لاحتجت إلى قاعدة استناد واسعة جداً للتوازن أثناء وقوفك ومشيك.

هناك قرص لحمي ينزل مع الجنين، في هذا القرص شيء لا يصدق، تجتمع في هذا القرص دورة دم الأم مع دورة الجنين، ولا يختلطان، ولكل دم زمرة، ومعلوم عند الأطباء

أن الدم إذا اختلط بدم من زمرة أخرى ينحل فوراً، لو أن دم الأم والابن اختلطا لماتت الأم والجنين فوراً، لا يختلطان، بينهما غشاء هذا الغشاء سماه الأطباء الغشاء العاقل، يأخذ الأوكسجين من دم الأم يضعه في دم الجنين، وكأنه يقوم بدور جهاز التنفس، ثم إنه يأخذ المواد السكرية من دم الأم فيطرحها في دم الجنين، فيقوم بدور جهاز الهضم، ثم يأخذ الأنسولين من دم الأم فيطرحه في دم الجنين، فيقوم بدور البنكرياس، الآن أصبح عند الجنين سكر وأوكسجين وأنسولين، يحترق السكر عن طريق الأوكسجين بوساطة الأنسولين فالجنين حرارته سبع وثلاثين، ناتج الاحتراق ثاني أكسيد الكربون يأتي الغشاء العاقل يأخذ ثاني أكسيد الكربون من دم الجنين ويضعه في دم الأم، فجزء من تنفس الأم هو ثاني أكسيد كربون الجنين، ثم يأخذ هذا الغشاء عوامل مناعة الأم وينقلها إلى دم الجنين، والغشاء العاقل يختار الغذاء المناسب، البروتين، الشحوم، السكريات، الفيتامينات، المعادن، أشباه المعادن، وكأنه عالم من علماء التغذية وهذه النسب تتبدل ساعياً وينفذها، لذلك سماه الأطباء الغشاء العاقل، ولو سلمت مهام الغشاء العاقل إلى مجموعة أطباء في قمة التفوق لمات الجنين في ساعة واحدة.

كلما ازددت فهماً بآيات الله في خلقه ازددت تعظيماً لله عز وجل وخشية له وخضوعاً له.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾

[طه:٤٩-٥٠].

الحوت وزنه مئة وخمسون طناً، خمسون طناً دهناً، وخمسون طناً عظماً، وخمسون طناً لحماً، ويُستخرج من الحوت تسعون برميلاً زيت سمك، و يرضع وليده ثلاثمئة كيلو غرام في الرضعة الواحدة.

أنت حينما تتفكر في خلق السماوات والأرض تجد نفسك أمام عظمة الله وكأن التفكر في خلق السماوات والأرض أقرب طريق إلى الله، وأوسع باب تدخل منه على

الله، ولا تنسَ هذه الآية: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٤٩-٥٠].

وقال الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾ [الرحمن:١٧-١٨].

هناك ظاهرة لا ينتبه لها إلا القليل... افتح تقويماً وقلِّب أوراقه وافتح على يوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني مثلاً فتجد أنَّ شروق الشمس عند الساعة الخامسة وسبع دقائق، وهذا التقويم معمول به من خمسين سنة، ويمكن أن يكون من مئة سنة وهو صالح للمليون سنة قادمة، فحركة الأفلاك بمعشار الثانية: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٤﴾ [غافر:٦٤].

فثبات حركة الأفلاك، دليل واضح على أن حركتها وسكونها بيد الله تعالى. حتى إنَّ أضخم ساعة في العالم موجودة في العاصمة لندن -بيج بن- تضبط على نجم، فقد تؤخَّر أو تُقدَّم في السنة عدة ثوانٍ فقط، فعلام تضبط؟ إنها تضبط على نجم معين وهو أدقُّ منها، تضبط عليه، فهو مضبوطة حركته، إذ أمره إلى الله سبحانه، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ فإذا كان للإنسان بيتٌ مشرفٌ على جهة الغرب أو جهة الشرق يقول لك: في الشتاء تشرق الشمس من ههنا، وفي الصيف تشرق من ههنا، فهناك مسافة كبيرة جداً بين المشرقين، فالقوس الذي يسع أقصى هذا المشرق وأقصى ذاك المشرق على مدار الفصول قوسٌ واسعٌ جداً، فهو في آية... ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾.. هو الذي جعل الشمس تشرق وجعلها تغيب، أما ربُّ المشرقين فيعني النهاية العظمى صيفاً والعظمى شتاءً.

إذا كان بيت الإنسان يطل على الغرب فإنه يرى الشمس تغيب في الشتاء بالاتجاه الغربي الجنوبي، أما في الصيف فاتجاهها غربي تقريباً، السبب في ذلك أن الشمس تكون

في فصل الصيف عمودية، أما في فصل الشتاء فتدخل إلى أقصى الغرب لأنها تكون في هذا الفصل مائلة... فمن جعلها هكذا! لو أنها كانت دائماً عمودية لكنا في صيفٍ دائم، لو أنها مائلة دائماً لكنا في شتاءٍ دائم، أما أن تتنوع بين العمودية والمائلة فهو سبحانه الذي جعلها هكذا.

هذا معنى ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾، أما إذا قال الله عز وجل: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المعارج:٤٠].

فكل يوم لها شروق معين، يتحرك على مدار العام من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال وبالعكس، كل يوم لها زاوية تشرق منها.

تربية الله تعالى لنفوس عباده

الآن، انظر إلى الأب الكامل العالم الرحيم الحاني، كيف أنه يتابع أولاده متى جاء؟ متى خرج؟ مَن صديقه؟ لماذا تأخر؟ إنها المتابعة، ماذا قال الله عز وجل عن هذه المتابعة: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد:٣٣].

تصور طبيباً مرّ على مريض، طلب التحليل، وجد الضغط مرتفعاً، يعطي توجيهاً أن أوقفوا الملح مثلاً، يرى أن هناك فقر دم يعطي توجيهاً بإعطائه أدوية فيها حديد، دائماً الطبيب يتابع حالة المريض، وكل نقص أو زيادة في التحليلات هناك قرار يتخذه.

ومن معاني الربوبية أن الله تعالى خالق كل شيء وحده، يتفرد بالخلق ولا خالق إلا الله.

وكمال الخلق يدل على كمال التصرف، وفي هذا الكون آيات باهرات دالة على قيوم الأرض والسماوات.

ولأن الله تعالى رب فهو يربي عباده بسياسة حكيمة فيبدأ بهدايتهم عن طريق الهدى البياني، وأكمل موقف لهذا الهدى البياني أن تستجيب، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤].

فإن لم تستجب فهناك تأديب تربوي وهذه هي المصائب في حقيقتها، قال تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [السجدة:٢١].

أما إذا لم يستجب الإنسان عن طريق المصائب فإن الله تعالى يخضعه لمرحلة أقسى إنها الإكرام الاستدراجي، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام:٤٤].

أما المصائب التي يسوقها الرب لعباده فيحتاج فهمها إلى إيمان، فمصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، فالله عز وجل يسوق لنا من الشدائد ما يدفعنا إلى بابه، وهو غني عن تعذيبنا، لكن النبي ﷺ يقول: «عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ» [البخاري وأبو داود، واللفظ لأبي داود عن أبي هريرة].

أؤكد لكم أنك إذا دخلت مسجداً ورأيت فيه جمعاً غفيراً فاعتقد جازماً أن عدداً كبيراً من هؤلاء كان إقباله على الله عز وجل عقب معالجة حكيمة.

مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، أحياناً لك عند الله مرتبة، عملك لا يكفي كي تنالها، لا بد من أن يسوق الله لك بعض الشدائد حتى يرفع مقامك عنده، إذاً للمؤمنين الآية الكريمة: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٦-١٥٧].

مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، دفع إلى باب الله؛ ورفع لمقام المؤمن عند الله.

لكن مصائب الذين شردوا عنه مصائب ردع أو قصم، هؤلاء زمرة أخرى.

أما الأنبياء فمصائبهم مصائب كشف، إذ هناك كمالات عندهم لا يمكن أن تظهر إلا عن طريق الشدائد، كما أن النبي ﷺ مشى على قدميه إلى الطائف ليدعو

أهلها إلى الله فبالغوا بتكذيبه، وبالسخرية منه، وأغروا صبيانهم أن ينالوا منه، حتى سال الدم من قدميه الشريفتين، وحتى ألجؤوه إلى حائط.

ثم مكنه الله من أن ينتقم منهم، فجاءه ملك الجبال، وقال له: «إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [متفق عليه عن عائشة].

يجب أن نفهم فهماً عميقاً أن ما يسوقه الله عز وجل لعبده المؤمن من مصائب ما هو في الحقيقة إلا رسالة من الله، والدليل في هذه الآية: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص:٤٧].

«من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر»، أوضح هذه المسألة بمثل: لو أن طالباً في الصف الرابع الابتدائي قال لأبيه مرة: أريد أن أترك المدرسة، فالأب ببساطة ما بعدها بساطة قال لابنه: كما تريد يا بنيّ، لا مدرسة، لا وظائف، لا معلم، لا شدة، لا تكليف، شعر أنه أفضل من أي طفل آخر في الأرض، نشأ على العطالة والبطالة، وارتياد الملاهي، ودور السينما، وصحبة الأراذل، فلما كبر وجد نفسه بلا عمل ولا وظيفة ولا شهادة ولا زوجة ولا بيت فحقد على والده، وقال له مرة: يا أبتِ، لمّا قلت لك: لا أريد أن أدرس لمَ لمْ تضربني، لما لم تسق لي بعض الشدة، لذلك حينما يكشف الله عز وجل لنا يوم القيامة سرَّ هذه المصائب التي ساقها لنا ليحملنا على طاعته، والإقبال عليه، والنجاة من النار، تذوب نفوسنا محبة له.

حينما تؤمن بالله إيماناً عميقاً تكتشف أن هذه المصيبة وراءها حكمة بالغة.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن:١١].

أي يهدي قلبه إلى حكمة هذه المصيبة.

الحقيقة أن كلمة (رب)... ذات خصائص جمة؛ فمن خصائص التربية العلم والرحمة، ومن خصائص التربية القدرة، فهو يعلم، وهو على كل شيء قدير وهو رحيمٌ بنا، أما معنى قول الله عز وجل في سورة الفاتحة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ فهو أنه خالق الأكوان وجميع العوالم التي خلقها، فالعلاقة بين خالق الأكوان وجميع العوالم علاقة تربية أي خلقٌ وإمداد وإكرام وعناية، علاقة حب، علاقة عناية، فأحياناً يكون هناك علاقة محاسبة بين شخصين، أو علاقة انتقام، أو علاقة قسوة.

وأوضح مثل: علاقةُ أيةِ أمٍّ على وجه الأرض بابنها علاقة حب، علاقة رحمة، علاقة صلاح، فإذا قلنا: الله ربُّ العالمين، أو ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ أي أنَّ الله سبحانه وتعالى هو خالق الأكوان، وما سوى الله عوالم، والعلاقة بين الخالق والعوالم التي خلقها علاقة رحمة، فالرحمة عطاء فيها علم، وفيها قدرة، وفيها جمال، وفيها لطف، وفيها عناية.

لذلك يقول عامر بن عبد الله: «والله لو كُشِفَ الغطاء ما ازددتُ يقيناً»، والحقيقة أنك لن تكون على نحوٍ يَرضى الله عنك إلا إذا أيقنت بربوبيَّته لك.

لقد سمعت ذات مرة كلمة ما زالت عالقة بذهني.. فقد كان إنسانٌ يصيح في الطريق ويبدو أنَّ لديه مشكلة ما، فصاح غاضباً وقال: إذا لم يكن له أب أليس له رب؟! هذه الكلمة تركت في نفسي أثراً كبيراً، فالمربي هو الله، قد تجد يتيماً تولاَّه الله بالعناية ففاق كلَّ الأطفال الذين ربَّاهم أهلوهم.

من معاني قوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾

وفي الفاتحة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾... وكلمة ربّ العالمين لا تعني أنه ربُّ الإنسان فقط، الإنسان أحياناً ولضيق نظره، ولضيق أفقه، ولمحدوديته يظُنُّ أنَّ الله له وحده، أو له ولإخوانه، أو له ولجماعته، أو له ولمسجده، ألا فاعلم أنّ ربَّنا عز

وجل لكلِّ عباده، لكلِّ المؤمنين فهو ربُّهم، لكلِّ الناس، لكل الحيوانات، لكل النباتات، لكلِّ الجمادات، لكل العوالم، إنه ربُّهم، وهو رب كل شيء.

يقولون: عالَم الحشرات، عالَم النبات، عالَم الأسماك، عالَم الأطيار، عالَم الفضاء الخارجي، عالَم الأرض، عالَم الجبال، عالَم البحيرات، عالَم البحار، كلُّ المخلوقات المتجانسة اسمُها عالَم، واللهُ ربُّ العالمين... ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾.

وفي سورة الأنعام قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام:١٦٤].

ما من كلمةٍ في اللغة أوسع شمولاً وأكثر استغراقاً من كلمة شيء... فالذرة شيء، وجزئيات الذرة شيء، النواة شيء، والكُهيرب -الإلكترون- شيء، المدار شيء، الفيروس شيء، عوامل المرض -وهي أقل من الفيروس- شيء، الشمس شيء، المجرات شيء، الكون شيء، ما من كلمةٍ في اللغة أوسع شمولاً ولا أكثر استغراقاً من كلمة شيء... قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ﴾.

فإذا أردت أن تقيم علاقة طيبة؛ أتُفَضِّلُ أن تقيمها مع شرطيّ وتسترضيه، وأنت تعرف أن عمله محدود بساحة من الساحات وهو فقط ينظم شؤون السير، ولا يملك أي شيء آخر، أم تقيمها مع ملك يملك البلاد كلها بخيراتها وبمواردها، وبثرواتها وسائر شؤونها... أيهما تتخذ وليّاً لك؟!! ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ﴾... ليس ربَّ الناس، بل هو رب العوالم، ربُّ المخلوقات جميعاً.

فربما ينام أحد في خيمة في البادية، وقد يخاف من وجود أفعى تتسلل إليه ليلاً، وهذا ممكن جداً في الصحراء، ولا بد أن ينام لأنه متعب مرهق، فينام متوكلاً على الله. وأنت حينما تنام على من تتوكل؟ تتوكل على رب العالمين، هذه الأفعى بيد الله عز وجل

وهو الذي يحول بينها وبينك إن توكلت عليه حق التوكل، وأنت حينما تتعامل مع خالق الكون فكلُّ المخلوقات بيده... ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وفي سورة الأعراف قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ [الأعراف:٥٤].

كأنَّ هذه الآية أشارت إلى تعريف الربوبية... أحياناً نصنع طائرة ونبيعُها، فنحن صنعناها. أما أمرها الآن فبيد مَن اشتراها، قد يستخدمها لعدوان، أو يستخدمها لنقل، أو يستخدمها في أعمال الاستطلاع، أو يجعلها على أرض المطار جاثمة، أو يخفيها، الذي اشتراها هو الذي يملك أمرها، نحن صنعناها ثم بعناها، لكنَّ الله سبحانه وتعالى، ولله المثل الأعلى، أي شيءٍ خلقه بيده، بملكوته... ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾.

هناك معنى آخر... فهذا الشيء الذي خلقه الله عز وجل: صلاحُ أمرِهِ وكل أحواله منوطٌ بخالقه، التوجيه الذي يسعده هو توجيه خالقه، التوجيه الذي يحفظه هو توجيه خالقه... ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي ينبغي أن تتبع أمر الذي خلق.

فالمعنى الأول ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي خَلقَهُ ويأمرُه دائماً، أي: أمره بيده، تحت سيطرته، في قبضته، في ملكوته.

المعنى الثاني أن هذا الشيء الذي خُلق لا يصلُح ولا يستقيم أمره إلا إن اتبع أمر الذي خلق... ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ ربُّ العالمين هو الذي ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.

وقال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾ [التوبة:١٢٩].

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ هو الرب، أي ما من حركةٍ، ولا سكنةٍ، ولا خفضٍ، ولا إعزازٍ، ولا إذلالٍ، ولا قبضٍ، ولا بسطٍ، ولا سكينةٍ، ولا خوفٍ، ولا قلقٍ، ولا طمأنينةٍ إلا بيده ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: يكفيني.

إذا أعطينا إنساناً إيصالاً نقدياً مفتوحاً وموقَّعاً وتركنا له الخيار في أن يضع فيه ما يشاء من المبالغ، فلو سجل مليوناً أو ألف مليون أو مليون مليون كلُّه نافذ، أفمن يملك هذه الورقة المفتوحة والذي سجل فيها أكبر رقمٍ حتى لو كان رقماً فلكياً... كمن يفرح بعدد من الليرات التي ترن في جيبه؟ لا يستويان ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾...

فإذا قال المؤمن: «حَسْبِيَ اللهُ» فأنت مع القوي، ومع الغني، ومع الرحيم، فأنت مع الخالق، ومع القديم، ومع الأبدي، أنت مع من بيده كلُّ شيء... «حسبي اللهُ» ونعم الوكيل.

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٣].

قرأت عن سيدنا الصديق أنه: ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، لأن الله حسبه، ومن كان الله حسبه كفاه أمر الدنيا كلِّها.

فقد قال الله سبحانه في أهل الكهف: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف:١٣-١٤].

أنت حينما تكون مع إنسان فإن هذا الإنسان محدود مهما علا شأنه، لكن حينما تكون مع الخالق فهو ربُّك وهو ربُّ السموات والأرض، ولن يُسْلِمك لغيره أبداً.

ذات مرة هاجت عاصفة شديدة جداً ولعل سرعتها كانت تزيد على مئة كيلومترٍ فاقتلعت مئات البيوت المحمية... ولكن حدثت حادثة شديدة الغرابة. والمفارقة فيها غريبة، بيتان متلاصقان، فالقوس الأول ملتصق بالقوس الثاني، وهذه البيوت مزروع

بداخلها أشجار ذات ثمار، الثمار في أيام البرد ترتفع أسعارها ارتفاعاً كبيراً، فحجم إنتاج البيت مئتا ألف من الليرات تقريباً، وهذه العاصفة الهوجاء هبَّت فاقتلعت أحد البيتين وأبقت الآخر، والبيتان لأخوين أحدهما صالح والآخر شرير، فالشرير اقتلِع بيته وأُتلف محصوله، وأصبح بيته أنقاضاً على بُعد أمتار من مكانه، وهذا الشيء يكاد لا يصدَّق؛ فالعاصفة عاصفة والمنطقة واحدة بل إن البيتين متلاصقان، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾.

أي ربُّك الذي يرعاك؛ بيده الرياح، بيده العواصف، بيده الأعاصير، بيده الأمطار، بيده إنبات النبات، بيده مسببات الأمراض، بيده الفيروسات، كل شيء بيده... ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ أي إله تعبده يكون دون الله عز وجل، فأحياناً يكون دوناً بدرجة أو بدرجتين أو بثلاث أو بأربع، أما إذا وازنا بين جهةٍ قوية تمحضها ودَّك وخالق الكون فليس هناك نسبة تجمع بينهما ﴿مِن دُونِهِۦ﴾... فالله عز وجل فوق الخلق جميعاً، وخلقه لا شيء إزاءه، لذلك قالوا: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾.

الرب هو الله، والربُّ هو المُصْلِح، والربُّ هو السيد، والربُّ هو المدبِّر، والربُّ هو الجابر، الربُّ هو القائم... ويقال لمن قام بإصلاح شيءٍ وإتمامه: ربَّه يرُبُّه فهو ربٌّ له، والرب هو المعبود.

في بعض التفاسير شرحت كلمة «رب العالمين» بما يشعر أنها تعني الثناء المطلق على الله، مثلاً هناك إنسان جلاد، عمله أن يجلد الناس، وهناك مربٍّ، وهناك سارق، وهناك معتدٍ أثيم، أما إذا دخلت إلى مدرسة، فمدير المدرسة ماذا يمثِّل الأذى أم الخير؟ طبعاً الخير، والتربية والتعليم والتهذيب، وتفقُّد الطلاب، ورعايتهم، رعاية سلوكهم

وأخلاقهم وصحتهم وعلمهم ورعاية علاقاتهم الاجتماعية، فمدير مدرسة ومدير مشفى كلاهما منصب خيري فيه خيرية وفيه رحمة، لكن قد يكون السجَّان له وظيفة ثانية قد يجلد، قد يعذب، فعلاقة السجَّان مع السجين علاقة تعذيب لا علاقة رعاية، علاقة ترويع، علاقة قهر.

فالمعنى الذي أريد أن أقوله: كلمة ربِّ العالمين هي ثناءٌ مطلق على الله.. رب العالمين أي: هو خالق، رب العالمين، أي: هو رازق، رب العالمين، أي: مُمِدٌّ، رب العالمين، أي: رحيم، رب العالمين، أي: عليم، رب العالمين، أي: قدير، رب العالمين، أي: محب، رب العالمين، أي: رؤوف، فالخلق والرزق والإمداد والعلم والرحمة والقدرة والحب والإكرام والرأفة كلها جمعت بكلمة رب العالمين.

فقد قال بعض المفسرين: «كلمة رب العالمين تعني الثناء المطلق على الله»، فإذا قلت ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فإنك تثني على الله عز وجل.

وبعد فتربية الله لعباده تأخذ منحيين اثنين: تربية خلْقيَّة، وتربيةٌ شرعية تعليمية.

فأنت عموماً والجو برد قارس وابنك الذي تحبه بلا معطف، تذهب وتشتري له معطفاً، هذه تربية خَلْقِيَّة، يحتاج إلى غرفة خاصة، يحتاج إلى نفقات، يحتاج إلى كتب، يحتاج إلى أقساط، يحتاج إلى أشياء ثانوية... فتعطيه إياها، هذه كلها تربيةٌ خلقية... لكن إنْ رأيته يكذب فإنك تؤدبه، إنْ رأيته لا يصلي فإنك تأمره بالصلاة، إنْ رأيته يلهو بأشياء سخيفة فإنك تنهاه عنها، أنت الآن عملك شرعي.

يوجد تربية خَلْقِية وتربية شرعية، فربنا عز وجل يربي أجسامنا بإمدادها بما تحتاج إليه، ويربي نفوسنا بتزكيتها لتكون أهلاً لجنته، فتربية الله تربيتان، لذلك ليس لغير رب الناس جهةٌ يمكن أن تشرِّع للعبادة أبداً، العبادة لرب العالمين.

وإليك معنىً آخر... قالوا: الله عز وجل يربي نفوس العابدين بالتأييد، ويربي قلوب الطالبين بالتسديد، ويربي أرواح العارفين بالتوحيد، ويربي الأشباح بوجود

النِّعَم، ويربي الأرواح بشهود الكرم، الأرواح يربيها، والأشباح يربيها بالطعام والشراب، والعارفون يربيهم تربية رفيعة جداً، كلما ارتقى الإنسان يحاسب حساباً دقيقاً، فقد يُحاسَب على ابتسامة.

في مستوى الدكتوراه في بعض الجامعات، إذا أخطأ المتقدم لنيل هذه الشهادة في مناقشته بكلمة يعيد العام ويؤخَّر إلى عامٍ قادم، كلما ارتقى مستواه يحاسب حساباً أدق، فالعارفون بالله لهم حساب دقيق، كلما ارتقى الإنسان في سُلَّم الإيمان يحاسب على الخطرات، وكلما هبط مستواه يحاسب على الكبائر.

أيضاً من معاني الربوبية قالوا: «إصلاح أمور العباد، وهذا مشتق من ربَّيْت الأديم... أربُّه فأنا أصلحه»، فالله سبحانه وتعالى يصلح أمور الواجدين بقديم عنايته، ويصلح أمور قومٍ يستغنون بعطائه، ويصلح أمور الخلق جميعاً.

الآية الكريمة تقول: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء:١١٣].

﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾... ربَّاك وساقك إلى مجالس العلم، ساقك إلى طاعته، ألقى في قلبك محبته، حبب إليك الإيمان وزينه في قلبك، وكرَّه إليك الكفر والفسوق والعصيان، هذه تربية.

إذا كان أب يسمع وابنه تكلم كلمة بذيئة أمامه، فضحك له، فإن الولد يكررها ويتفوّه بما هو أفحش منها وأسوأ، أما إذا تكلم كلمة بذيئة فنهره وزجره، فإن هذا الابن لن يعود إلى الكلام البذيء أبداً، وإذا وجده يقرأ القرآن كافأه وشجعه، فالمكافأة والعقاب تربية، والحق أن أول صفة من صفات المربي، أن يُكافئ المحسن وأن يُعاقب المسيء، وربنا عز وجل بمجرد أن تفكر في التحرُّك نحوه تجده شرح لك صدرك، ألقى في قلبك السكينة والطمأنينة، وتيسرت أمورك وعاملك معاملة جديدة وأشعرك أنه

يحبك، ولمجرد أن ترتكب معصيةً يلقي في قلب العاصي الضيق والكآبة والحيرة، فالله يربينا عن طريق قلوبنا.

عَنْ عائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطاعَتِكَ» فقيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ الله -قَالَ عَفَّانُ: فَقَالَتْ لَهُ عائِشَةُ:- إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وطَاعَتِكَ» قالَ: «وَمَا يُؤْمِنُنِي! وإِنَّما قُلُوبُ العِبادِ بَيْنَ أُصْبُعَي الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ إذا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ -قال عَفَّانُ- بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أصابعِ الله عَزَّ وجَلَّ» [مسند الإمام أحمد].

فأنت حينما تتخذ قراراً حكيماً في صالح إيمانك يشرح الله لك صدرك، وحينما تنحرف قليلاً عن طريق الحق يملأ قلبك ضيقاً وقلقاً وحيرةً؛ فالقضية إذاً دقيقة جداً في بيان مسالك المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٦].

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

[آل عمران:١٩١-١٩٥].

لا بد من تعقيبٍ أخير على اسم الله: «رب العالمين»، صدِّقوني أنَّ أحدكم إذا شعر أنَّ الله يتابعه، ويحاسبه على حركاته وسكناته، ويعاقبه سريعاً ويؤدِّبه سريعاً فهو في موطن عناية مشددة، أما إذا ارتكب الإنسان المعاصي ولم يحاسبه الله عز وجل ولم يتابعه فاعلموا أنه خارج العناية الإلهية؛ لأنَّ الله علم فيه انحرافاً شديداً، وتمرداً وعتواً وإصراراً على انحرافه فأوكله إلى نفسه، فأحدنا إذا كان الله يؤدِّبه ويحاسبه ويحصي عليه أنفاسه، ويحاسبه على كلمةٍ أو على نظرةٍ، أو على حركةٍ لا ترضيه، ويؤدِّبه سريعاً، فهذا محضُ ربوبية الله عز وجل، وفي هذا الإنسان خير كبيرٌ وهو مطلوبٌ لرحمة الله، والله عز وجل يؤهِّله لرحمته.

عَنْ عَبْدِالله ﵁: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِهِ، وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قُلْتُ: إِنَّ ذَاكَ بِأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: أَجَلْ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، إِلاَّ حَاتَّ الله عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ» [أخرجه أحمد والبُخاري و«مسلم»].

هذه تربية الله لنا، وليعلم كل مؤمن أن المصائب كلَّها لو كُشفت حكمتها لكم لكنتم في درجةٍ من قبولها لا توصف، فأنا أعرف أُناساً كثيرين سببُ توبتهم، وسببُ دخولهم في حظيرة الإيمان، وسببُ سعادتهم وتوفيقهم مصيبةٌ ساقها الله لهم فأرجعتهم إلى الله، قال تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [السجدة:٢١].

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾... بالدنيا ﴿ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾... بالآخرة... ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.. فلنفهم: أن الله إذا ساق لنا بعض الشدائد فهذا من أجل أن نتوب إليه، لذلك ورد في القرآن الكريم... ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾... في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة:١١٨].

أي إن الله تعالى ساق لهم الشدائد ليحملهم بها على التوبة، فإذا قلنا: تابوا فتاب عليهم، أي قبل توبتهم، أما إذا قلنا: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾ أي أنَّ الله ساق لهم الشدائد ليحملهم بها على التوبة.

ملخَّص البحث... إذا ساق الله لأحدنا بعض الشدائد فليعلم علم اليقين أنه مطلوب لرحمة الله، وأن فيه خيراً، وأنه في العناية المشددة... فإذا رأى الطبيب مريضاً مصاباً بالسرطان من الدرجة الخامسة، والمرض منتشر في كل أحشائه، فبماذا ينصح المريض؟ يقول له: ليست هناك مشكلة فكل ما شئت... وإذا سأله المريض عن نوع من حبوب الدواء هل يتناوله؟ فيجيبه: كيف ما تريد وتحب، وعلى حسب راحتك... فتجده متساهلاً معه كثيراً لأنه لا يرجى شفاؤه، أما إذا كان مريضاً بالتهاب في المعدة تجده ثائراً عليه فيما إذا تناول طعاماً غير مناسب، فإذا كان هناك أملٌ في الشفاء فتجد الطبيب يعامله بشدةٍ بالغة، أما إذا لم يكن هناك أملٌ في الشفاء فتجده يترك له الأمور، فإذا كان الله يتابع الإنسان فمعنى ذلك أن الله يحبه وهو في العناية المشددة.

لذلك... إذا أحبَّ الله عبده عجَّل له بالعقوبة... إذا أحبَّ الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن شكر اقتناه... إذا أحبَّ الله عبده جعل له وازعاً من نفسه.

فالمؤمن لا يتضجر ولا يتأفف من تضييقٍ من الله عز وجل، فهذا التضييق محض رحمة، ومحض إكرام، وهو النعمة الباطنة كما فسَّرها المفسِّرون... ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾... في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠].

المالك

اسم الله «المالك» ورد في القرآن الكريم مضافاً، وإن كانت الإضافة تحمل معنى الإطلاق في الملكيّة، ولكنّه ورد أيضاً في السّنّة النّبويّة مطلقاً، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ [الفاتحة:٤].

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [آل عمران:٢٦].

كل شيء يُملك هو مالكه، أما المُلك فيراد به عالم الشهادة غالباً، أو الحياة الدنيا بصفة عامة، والملكوت يراد به في الأعمّ الأغلب عالم الغيب أو عالم الآخرة، والله عز وجل مالك المُلك والملكوت، يعني مالك عالم الدنيا وعالم الآخرة، مالك عالم الشهادة، وعالم الغيب، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:١٥٨].

الآن إذا كان الحق سبحانه وتعالى مالكاً لعالم الغيب والشهادة وما فيهما كما بينت الأدلة السابقة، فهو المالك إذاً على سبيل الإطلاق، أزلاً وأبداً.

وقد ثبت ذلك عند مسلم عن أبي هريرة حين ورد اسم «المالك» في الحديث الصحيح مطلقاً، فقد قال ﷺ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسم عند الله رجلٌ تَسَمَّى مَلِك الأَمْلاك، لا مالك إِلا الله» [متفق عليه عن أبي هريرة].

من معاني اسم الله (المالك)

«المالك» في اللغة اسم فاعل، وفعله ملك، يملك، فهو مالك، والله عز وجل مالك الأشياء كلّها، مالكها ومصرّفها، في عالم الإنسان قد تملك بيتاً، ولا تنتفع منه.

لكنّ ملكية الله جلّ جلاله مطلقة، مالك الملك، مالك كل شيء خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً.

إنّ ملكية الله جلّ جلاله لعالَم الغيب وعالَم الشهادة، للدنيا والآخرة ملكيّة مطلقة، إذاً مالك الأشياء كلِّها ومصرّفها على إرادته، لا يمتنع عليه منها شيء، آلاف الأشياء قد نملكها ملكاً ظاهراً ولا نملك التصرّف فيها، لأن مالك الشيء في كلام العرب هو المتصرّف فيه والقادر عليه.

وقد قرأ نافع وحمزة (مَلِكِ يوم الدين) بغير ألف، وقد قرأ عاصم والكِسائيّ: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ ﴾.

والله عز وجل مالك المُلك، ملكه عن أصالة واستحقاق، لأنه الخالق الحيُّ القيُّوم الوارث، علة استحقاق الملك أمران، الأول: صناعة الشيء و إنشاؤه واختراعه، فالعاقل يعلم عقلاً أن المخترع له براءة الاختراع، والمؤلف له حق الطبع والنشر، وفي الحديث: «من أحيا أرضاً مَيْتَةً فهي له» [البخاري عن عمر بن الخطاب].

والله ما من تشريع حضاري، ما من تشريع يقلب الأرض القاحلة جنة كهذا التشريع.

أرض جرداء حفر إنسان فيها بئراً، واستخرج ماءً، وشجّرها، وزرعها، وسوَّرها، لو طبقنا هذا التشريع النبوي بشكل واسع لانقلبت بلادنا جنات خضراء.

الأمر الثاني: حق التصرف في الملك، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤].

ويقول تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف:٥١].

والنبي ﷺ يقول: «كانَ الله ولم يكن شيءٌ قَبْلَهُ وكان عَرْشُهُ على الماءِ، ثُمَّ خَلَقَ السماوات والأرضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكرِ كُلَّ شيء» [أخرجه البخاري والترمذي عن عمران بن الحصين].

ولأن الله ملك كل شيء في عالم الشهادة والغيب، فدوام الحياة علة أخرى لاستحقاق الملك، لأن الموت يوجب انتقال الملكية من جهة إلى جهة، أما الله عز وجل فحيّ باقٍ على الّدوام، وهو الوارث الباقي بعد فناء خلقه، فعلّة الخلق، وعلّة دوام الحياة توجبان أن الله مالك كل شيء، أزلاً وأبداً، دنيا وآخرة، شهادة وغيباً.

ومعلوم أنّ كلّ من على الأرض ميّت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

وقوله أيضاً: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت:٥٧].

ولما كانت الحياة وصفاً لذات الله عزّ وجلّ فالله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران:١٨٠].

من معاني (مالك الملك) جل جلاله

نعود إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

المُلك هو الكون. والكون ما سوى الله؛ والكون ممكن الوجود، وما سوى الله هو المُلك. لكنَّ السؤال لِمَ جاء المُلك مفرداً؟ مع أن هناك سماوات، ومجرات، ومذنبات، وثقوباً سوداء، ومسافات بينيّةً شاسعة، والأرض فيها أودية، وجبال وصحراء وسهول وطيور وحيوانات وإنس وجن.

خلقٌ كثير لا يعلمهم إلا الله: في البحار وحدها أكثر من مليون نوع من السمك. كل هذا الكون سماه الله مُلكاً بلفظ المفرد فما حكمة ذلك؟ الحكمة أن الكون كلّه متناسق بعضه مع بعض، كل جزء فيه يعمل للمجموع، لأن الله سبحانه وتعالى صنعه؛ فالحيوان للإنسان، والنبات للحيوان، والتراب للنبات، والماء للتراب، وحجم الأرض يتناسب مع طاقة الإنسان، وسرعتها حول نفسها تتناسب مع إمكاناته وهكذا... أهم كلمة في هذا الكون أنه وحدة متكاملة والله سبحانه وتعالى مالك الملك وأمره نافذ فيه. يقول تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى:٥٣].

قد يسأل سائل: بيَدِ من كانت حتى آلت إليه؟ الحقيقة: هي إليه أولاً وآخراً؛ ولكن أهل الدنيا والمشركين والكفار، والفجار، والمنافقين، وضعاف الإيمان، يرون في الأرض آلهةً كثيرة؛ مراكزَ قوى، وأشخاصاً أقوياء، يأمرون فيُطاعون، ويدمرون، يعطون... يرفعون... يخفضون... أما المؤمن فلا يرى إلا الله في الدنيا، يرى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

يرى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

يرى أنه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر:٢].

يرى أنه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

يرى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر:٦٢].

يرى: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هود:١٢٣]. فهذه رؤية المؤمن، لا يرى مع الله أحداً، وهذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لكن العصاة والمشركين والكفار يرون أشخاصاً أقوياء إرادتهم نافذة فيحسبونهم أنداداً، أما الحقيقة فهي أنه لا ينفذ في كون الله إلا إرادة الله. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ [الرعد:٤١].

﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف:٢٦].

فالمؤمن الصادق لا يرى مع الله أحداً، يرى صوراً ودُمىً تُحرَّك في الخفاء، لكن الله هو كل شيء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد:٣].

لذلك: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٥٣].

حتى الكفار يوم القيامة يرون أن الأمور كلها بيد الله. أما المؤمنون فهم وحدهم الذين يرون هذه الحقيقة في الدنيا، الكفار تغيب عنهم هذه الحقيقة فيرون الأمور بيد زيد أو عبيد.

التابعيُّ الجليل الحسن البصريّ استدعاه والي البصرة عمر بن هبيرة في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وكان قد جاءه البريد يحمل توجيهاً؛ إنْ نَفَّذه، أغضب الله سبحانه وتعالى، وإن لم ينفذْه أغضب الخليفة يزيد، وربما عزله من منصب الولاية. فوقع في حيرة شديدة فسأل الحسن البصري، فأجاب الحسنُ البصري جواباً جامعاً: إنّ الله يمنعك من يزيد، ولكنّ يزيد لا يمنعك من الله. بمعنى أنه إذا غضب أهل الأرض جميعاً عليك والله راضٍ عنك، فلن يستطيعوا أن يفعلوا لك شيئاً يضرّك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أهدي إلى النبي ﷺ بغلة أهداها له كسرى فركبها ثم أردفني خلفه، ثم سار بي مليّاً، ثم التفت فقال: يا غلام! قلت: لبيك يا رسول الله! قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في

الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد الناس أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جهد الناس أن يضرّوك بما لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر، فإن في الصبر على ما تكرهه خيراً كثيراً، واعلم أنّ مع الصبر النصر، واعلم أنّ مع الكرب الفرج، واعلم أنّ مع العسر اليسر» [أخرجه الحاكم في «المستدرك» وقال: هذا حديث كبير عالٍ من حديث عبد الملك بن عمير عن ابن عباس].

فملخص الملخص: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. ومعنى مالك الملك؛ أن هذا الكون العظيم تحكمه إرادة واحدة نافذة فيه هي إرادة الله، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس:٢٤].

أتاها أمرنا -لا أمرهم- يقال مثلاً: الدولة الفلانية عندها قنابل نووية كافية لتدمير الأرض خمس مرات الآن هي في الحضيض، في الوحول، هي الآن متفتتة، كل أنواع السقوط في هذه الدولة، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ [يونس:٢٤].

فهذا المُلك العظيم؛ فيه إرادة واحدة نافذة؛ هي إرادة الله. بربِّك أيها المؤمن؛ إذا أيقنت هذا اليقين هل تتوجه لغير الله؟ هل تخشى غير الله؟ هل ترجو غير الله؟ هل تطمح إلى غير الله؟ هذا هو التوحيد؛ طرقه كلها تؤدي إلى الله عز وجل.

يقول العلماء: مالك المُلك؛ هو الذي تنفذ مشيئته في مملكته كيف يشاء وكما يشاء؛ إيجاداً وإعداماً، إبقاءً وإفناءً، والمُلْكُ هنا بمعنى المملكة، والمالك؛ بمعنى القادر التام القدرة. والموجودات كلها مملكة واحدة؛ لأنها متناسقة مرتبطة بعضها ببعض فحجم الأرض متناسب مع الإنسان، فمثلاً لو وجدت قفلاً في بيت، ووجدت مفتاحاً في مكان آخر؛ وهذا المفتاح فتح ذاك القفل، تقول: كلاهما من مصنع واحد، طالما هناك انسجام بينهما.

أحياناً يشتري أحدنا قطعة لسيارته، تأتي هذه القطعة في مكانها الصحيح بالميليمترات. معنى ذلك؛ أن المعمل واحد. والذي صنع واحد، والذي أعطى القياسات واحد. فهي وإن كانت كثيرة من وجه؛ إلا أنها وحدة واحدة، الكون كله يعمل بالتنسيق، فالانسجام دليل وحدة الخلق.

هناك كلمة واسع، وهناك كلمة واحد؛ وقد وصف الله ذاته بهما، فما معنى كل منهما: خمسة آلاف مليون إنسان كل واحد يحمل قزحية عين تختلف عن الأخرى؛ من أجل ذلك صنعت أقفال لا تفتح إلا على قزحية العين. لأن إنساناً واحداً في الأرض لا يمكن أن يشبهك في قزحية عينك، معنى ذلك أن الله واسع. كما أن لكل إنسان رائحة جلد لا يمكن أن يشركه فيها أحد من الخلق، وأساس عمل الكلب البوليسي رائحة الجسم، ونبْرَة الصوت كذلك؛ إذ لا يمكن أن تتشابه في الأرض نبرتان، فأصبح لدينا قزحية العين، ورائحة الجلد، ونبرة الصوت، وبصمة اليد، وبلازما الدم، كذلك اكتشفوا الآن مليارين ونصف وحدة نسيجية. يعني أن هناك واحداً فقط في الأرض وحدته النسيجية تشبه وحدتك، وبصمة اليد -هذه الأنملة- فيها مئة نقطة بين جزيرة، وخليج، ورأس، ونتوء، وفرع، وغصن، ولو تشابهت سبع صفات في بصمتين لكانتا لإنسان واحد؛ وبصمة اليد توقيع. فهذه الاختلافات كلها تعني أن الله واسع. بالمقابل تجد أن شركة أدوية تصنع دواءً في بلد ما كندا مثلاً؛ فإذا استعمل هذا الدواء شخص من استراليا نفعه هذا الدواء؛ ما معنى هذا؟ إنه يدل على أن الخلق واحد في البنى الأساسية، وفي الخصائص، إذاً هناك وحدة في الخلق. تجد طبيباً درس الجراحة ببلد ما، أمريكا مثلاً يقول في اختصاصه: إن العصب الفلاني على بُعد ٢ سم من مكان كذا... بالتفاصيل الدقيقة ثم يجري عملية جراحية لإنسان ما بالخليج مثلاً في عروقه وأعصابه كما درسها هذا الطبيب في أمريكا، وتكون النتيجة كما لو أجراها لشخص في أمريكا، وأقرب من هذا وجوه البشر فلكل سماته الخاصة به؛ وكل واحد منا له شكل وطريقة في العيش، فهذا يدل على سعة الخلق وحينها تكون الأجهزة واحدة؛ القلب واحد، والرئتان، المعدة، الأمعاء، الشرايين، الأوردة، الأعصاب، العظام، خصائص العظام؛

زمن التحامها، الطبيب مثلاً من مصر ودرس في روسيا، والمريض في إفريقيا والبنية لدى الجميع واحدة. معنى ذلك أنه يوجد قواعد عامة في الجسم.

فالله عز وجل واحد واسع، أما لو قلت لمهندس ما: ارسم لنا بناء فيمكن أن يرسم مخططاً وآخر وآخر ثم يتوقف. ومثل ذلك هندسة السيارات يرسمون شكلاً بيضوياً ثم شكلَ زوايا حادة ثم يعودون للشكل البيضوي. أي أن طاقة الإبداع محدودة عند البشر. أما في صنع الله؛ فإذا نظرت في أنواع أوراق الأشجار في الأرض تجد أموراً لا تصدق؛ أوراقاً إبرية، وأوراقاً دائرية، وأوراقاً مسننة، وأوراقاً مفلطحة، أوراقاً خضراء مشربة بلون آخر مثلاً، وأوراقاً واسعة، وأوراقاً صغيرة، وأوراقاً كبيرة، وتلك تحمل الألوان الجذابة؛ فلو نظرت في أنواع الأوراق، لأخذك العجب العجاب.

أيها القارئ الكريم: الله عز وجل مالك الملك؛ أي: تنفذ مشيئته في ملكه كما قال العلماء. وقيل: مالك الملك؛ هو المتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا رادَّ لحكمه، ولا معقب لأمره. والوجود كله من جميع مراتبه، مملكة واحدة لمالك واحد وهو الله تبارك وتعالى.

لو لاحظت البشر في كيفية تملُّكهم لوجدت أصنافاً شتى، فإذا قلنا: فلانٌ يملك هذا البيت وأجَّرَهُ، فهو يملك عينه ولا يملك منفعته، المستأجر تجده يملك المنفعة وليس العين المؤجرة، فإذا كنت تملك المنفعة والعين يعني البيت؛ لكنك قد لا تملك المصير؛ بحيث إنه لو صدر قانون استملاك، فإن البيت يضيع من يدك. فهناك مُلك عين، ومُلك منفعة، ومُلك مصير. أما إذا قلنا: الله مالك الملك؛ فهو مالك الوجود خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً، مثلاً: بلد يبيع بلداً آخر مجموعة طائرات. كان المعمل مالكاً للطائرات؛ فلما باعها تملكها شاريها. وأصبحت هذه الطائرات بأمر شاريها. لكن الله عز وجل يقول: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾ [الزمر:٦٢].

كلمة مالك الملك تعني: ما شاء في هذا الملك كان، وما لم يشأ لم يكن، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع. هذا هو معنى مالك الملك.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

إذا أعطى الله عز وجل الملكَ لإنسان، يعطيه الهيبة؛ فكلهم يخافونه؛ فإذا أراد أن ينزع منه الملك، ألغى هيبته؛ فكلهم يجترئ عليه.

دخل يزيد بن أبي مُسْلم، كاتبُ الحجاج، على سليمانَ بن عبد الملك، فازدَراه ونَبَت عينه عنه، فقال: ما رأت عيني كاليوم قطُّ، لعن الله امرأ أجَرَّكَ رَسَنَه، وحكّمك في أمره. فقال: يا أمير المؤمنين! لا تَقُلْ ذلك؛ فإنك رأيتَني والأمر عني مُدْبر، وعليك مقبل، فلو رأيتني والأمر عليّ مقبل، وعنك مُدْبر، لاستعظمتَ مني ما استصغرتَ، واستكبرتَ ما استقللت. وكان يزيد رجلاً دمياً قبيحاً تقتحمه العين، لقد زلت قدمه فنزع الله عنه الهيبة فالإنسان إذا نزع الله منه الهيبة صار شخصاً تافهاً، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

إذاً الإعزاز خير والإذلال خير، الإعطاء خير والمنع خير، والإيتاء خير والسلب خير؛ فكل هذا خير. وفي الحديث: «عَجَبا لأمر المؤمن! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتْهُ ضَرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له، وليس ذلك لغير المؤمن» [أخرجه مسلم عن صهيب الرومي].

مثال على ذلك: تجد الأب يقسو على ابنه في الصغر، كي يصنع منه رجلاً في المستقبل، كل هذه الشدة من الأب هي لصالح الابن، وكل هذه الشدة جعلت منه إنساناً متفوقاً.

يقول أحد المفسرين: مالك الملك؛ هو المَلِكُ الحقيقي، المتصرف بما شاء وكيف شاء؛ إيجاداً وإعداماً، إحياءً وإماتةً، تعذيباً ورحمةً، من غير مشارك ولا ممانع.

لكن هناك وقفة عند كلمة مالك الملك، وهي: هل تملك سمعك؟ هل تملك بصرك؟ هل تملك قوتك؟ هل تملك أعصابك؟ هل تملك سيولة الدم؟ هل تملك نمو خلاياك؟ فأنت إذا أصابتك جِلطة دموية، أوْدت بحياتك. فهذا بسبب تجمّد نقطة في الدم، وكذلك نمو الخلايا العشوائيّ، إذاً أنت لا تملك شيئاً من جسمك، وإنما يعطيك الله صحّة طيّبة كي تستمتع بها، فهو سمح لك بالاستمتاع بها ولكنه هو المالك لها. فكلمة مالك الملك تعني؛ أنك لا تملك شيئاً، لأنك لو أصبت بخلل بسيط في القلب، أودى هذا بحياتك؛ فأنت لا تملك شيئاً من جسدك، ولا تملك دماغك. كذلك أعرف شخصاً معرفة جيدة وهو من الأفراد المرموقين في البلد، أنه خرج مرة من بيته فنسي عند عودته أينِ يسكن! حتى تذكر بيت ابنه فدَلَّه ابنه على بيته. فسبحان الله هناك بعض الحالات فيها عِبَر بالغة، مثلاً موت مفاجئ، يموت الإنسان بلا أي سبب. أعرف شخصاً اشتغل لمدة خمسين سنة وجمَّع ثروةً طائلة، وبعدها اشترى بيتاً في المَصيف، وأصبح يشتغل إلى الظهر فقط ليتمتع ببيته هذا، وفي أحد الأيام ذهب إلى المصيف وهناك خطر بباله أن يهتف إلى ابنه، فوقع ميِّتاً على الأرض دون أي سبب قبل المهاتفة. إذاً لا يمكن للعبد أن يكون مالكاً مطلقاً.

قال سفيان بن عيينة: بينا أنا أطوف بالبيت إذا أنا برجل مُشرِف على الناس حسن الشَّيب فقلنا بعضُنا لبعض: ما أشبه هذا الرجل أن يكون من أهل العلم! قال: فاتّبعناه حتى قضى طوافه وصار إلى المقام فصلى ركعتين، فلما سلم أقبل على القبلة فدعا بدعوات، ثم التفت إلينا فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا له: وماذا قال ربنا يرحمك الله؟ قال: قال ربكم: أنا الحيُّ الذي لا يموت، أدعوكم إلى أن تكونوا أحياء لا تموتون، ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا: ماذا قال ربنا؟ حدثنا يرحمك الله! قال: قال ربكم: أنا الذي إذا أردت شيئاً كان، أدعوكم إلى أن تكونوا بحال إذا أردتم شيئاً كان لكم (وهو إجابة الدعاء). قال ابن عيينة: ثم ذهب فلم نره.

فالإنسان إذا أطاع الله يكون موته تُحفَةً وعرساً، وموته انتقالاً من الدنيا التي هو سعيد بها بمعرفة الله إلى جنة الله في الآخرة، لذلك من الأدعية اللطيفة: اللهم اجعل نعمك علينا متصلة بين الدنيا والآخرة. فالخط البياني للمؤمن في صعود، وموته نقطة على هذا الخط.

لو أنك أعرضت عن الدين وعن الآخرة وعن منهج الله؛ فمهما كسبت من المال ومن المناصب، فكل هذا نهايته قبيحة وتجعلك في قلق. نعم هناك صعود، لكن هناك سقوط بعد الصعود، والموت هو السقوط. لكن المؤمن في صعود ليس بعده سقوط، وهذا الشعور لا يوصف -طمأنينة للمستقبل- المؤمن مطمئن، تمشي في طريق سالكة إلى جنة الله، تمشي على طريق تنتهي بك إلى الجنة. أما أهل الدنيا، فالطريق عريضة، ولكنها تنتهي إلى حفرة سحيقة، وفيها وحوش كاسرة وقلق دائم، لذلك فالمبالغة في النعيم، والمبالغة في الانغماس باللذات؛ عملية تعويض لما يصيبه من قلق وخوف. وهناك من أهل الدنيا من يبالغ بالرفاه والاعتناء بمظاهر الحياة وكأنه سيعيش مئات السنين. هناك قلق وخوف أساسه الشعور بأنّ بَعْدَ هذا الصعود سقوطاً. أما المؤمن فهو مرتاح من هذا القلق؛ لأن حياته صعود بلا سقوط، ونمو بلا تراجع، وسعادة بلا شقاء، وحياة بلا موت.

إن أطعتَ الملك، كنت في معية الملك. وإن أطعت الغني، كنت مع الغني. وإن أطعت القوي، كنت مع القوي. لذلك قالوا: إذا أردت أن تكون أغنى الناس، فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك. إذا أردت أن تكون أكرم الناس، فاتق الله. وإذا أردت أن تكون أقوى الناس، فتوكل على الله. فأنت قوي بالله، وغنيّ بالله، وكريم بالله، وعزيز بالله، أما إن لم تكن مع الله؛ فعزٌّ بعده ذلٌّ، وغنى بعده فقر، حياة بعدها موت، وسعادة بعدها شقاء وهوان.

حينما تؤمن أن الله مالك المُلك، مالك الدنيا والآخرة، مالك عالَم الغيب وعالَم الشهادة، مصيرك إليه، وأمرك إليه، بيده رزقك، بيده حياتك، بيده التوفيق، بيده النصر، بيده النجاح، بيده التفوق، بيده السعادة، بيده الرضا، بيده كلّ شيء، هذا هو التوحيد.

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

أحد أكبر أسباب العذاب النفسي أن تتوهم أن مع الله إلهاً آخر، التوحيد يعطيك الراحة النفسية، التوحيد يعطيك الشجاعة، التوحيد يعطيك عزة النفس، التوحيد يبعدك عن استجداء مديح الناس، التوحيد يجعلك متماسكاً، التوحيد يجعلك عزيزاً.

اجعل لربك كلَّ عزك يستقر ويثبت
فإذا اعتززت بمن يموت فإنَّ عزّك ميّت

ولما ذكر الله ملكيته للأشياء، وأنه هو الذي يمنحها لمن يشاء، ذكر من لوازم المُلك القدرة، فالقدرة من لوازم ملكيته، فالمالك قدير، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

مرة كنت في بلد عربي، وحدثني طبيب، قال: لي زوجة على وشك الولادة والوضع عسر جداً، فاستشار أعلى طبيب في هذا البلد، فقال له: القضية سهلة، فلما طلب منه أن يستشير غيره أرغى وأزبد، وقال: ليس في هذا البلد كلِّه طبيب في مستوى علمي، ثم ارتكب هذا الطبيب خطأً لا يرتكبه طالب طبّ، وقد نُزعت من هذا الطبيب شهادته لأول مرة في هذا البلد العربي منذ استقلاله.

ولو أنك عالم لكن حينما تعزو هذا إليك ينزعه الله منك، والقصص كثيرة، قد يغدو الإنسان فقيراً بعد أن كان غنياً، قد يغدو ضعيفاً ملقى في غياهب السجن بعد أن كان قوياً.

أنت في حاجة ماسة إلى درسين، درس بدر ودرس حنين، في بدر قال الصحابة: الله، فنصرهم، وفي حنين قالوا وهم قمم البشر، ومعهم سيد البشر: نحن فوكلهم الله إلى أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ [التوبة:٢٥].

اعتدوا بكثرتهم فلم ينتصروا.

من هو سيد أهل العفاف؟ سيدنا يوسف، ماذا قال؟ قال: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ [يوسف:٣٣].

من هو سيد الموحدين؟ سيدنا إبراهيم، قال تعالى: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٥].

فأي شيء يُملك، أو أي شيء تتوهم أنك تملكه يمكن أن ينزع منك.

يقول تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك:١].

سمعك بيده، بصرك بيده، عقلك بيده، يكون الإنسان سيد البيت، أب، أولاد، بنات، أصهار، كنائن، مكانة، تجارة، يختل عقله، يذهب أهله إلى أقرب الناس إليهم يتوسطون لإيداعه في مستشفى المجانين، عقلك بيده، سمعك بيده، حركتك بيده، زوجتك بيده.

النبي ﷺ ماذا يقول؟ قل يا محمد لأصحابك: ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [الأعراف:١٨٨].

فإذا كنت لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً فمن باب أولى أنني لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً، سيّد الخلق، وحبيب الحق، وسيّد ولد آدم، الذي اصطفاه على كل الأنبياء والرّسل، والذي أقسم بعمره الثمين، والذي ما خاطبه باسمه أبداً، (يا أيّها النبي)، (يا أيها الرسول)، هذا قمة البشر، ومع ذلك: ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾.

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٥].

نصيب المؤمن من اسم الله (المالك):

علاقة المؤمن بهذا الاسم اعتقاد وسلوك، فالمؤمن ينبغي أن يعتقد أنه عبد في ملك سيده، وكلما تواضع العبد لربه رفعه، هل هناك من إنسان رفع الله ذكره كرسول

الله؟ وكان في أعلى درجات العبودية لله، علاقة المؤمن بهذا الاسم أن يعتقد أولاً أنه عبد في ملك سيده، مستخلف في أرضه، أمين على ملكه، قد ابتلاه الله فيما أعطاه، أعطاك قوة، أعطاك مالاً، أعطاك ذكاءً، أعطاك طلاقة لسان، أعطاك علماً، أنت ممتحن فيما أعطاك.

الآن هذا الإنسان أيرد الملك إلى المالك، أم ينسب للمخلوق أوصاف الخالق؟

فيتكبر على العباد بنعم الله، ويتعالى عليهم بما منحه الله وأعطاه؟ فالموحد الصادق يتحرى في قوله وفعله توحيد الله في اسمه «المالك»، لا يتوكل إلا عليه، ولا يلجأ إلا إليه، لعلمه أن أمور الرزق بيده، وأن المبتدا منه والمنتهى إليه.

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس:٣١].

ماذا قال قارون؟ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص:٧٨].

ماذا قال فرعون؟ ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف:٥١].

ماذا قال أهل وجماعة بلقيس؟ ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل:٣٣].

ماذا قال إبليس؟ ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:١٢].

أربع كلمات مهلكات: أنا، ونحن، ولي، وعندي.

المؤمن الموحد لله بهذا الاسم «المالك» ينبغي أن يعرف نفسه، وينبغي أن يعرف حقيقتها، وحقيقة النعم وملكيتها.

سألوا راعٍ يرعى الإبل، لمن هذه الإبل؟ قال: هي لله في يدي، الإنسان مهما عرف نفسه حقّ المعرفة، فإنه إلى المالك الأوحد أذلُّ من كلِّ ذليل.

أعرف رجلاً ذهب إلى باريس وجاء بشهادة عليا، تسلم منصب معاون وزير لوزارة مهمة جداً، ويحمل شهادة عليا، وله زوجة تروق له، ومنزل بأرقى أحياء دمشق، ومركبة فاخرة، فقد بصره، فقال لأحد أصدقائه: والله أتمنى أن أجلس على الرصيف، وأتكفف الناس، وأن يردّ الله لي بصري.

التذلل إلى الله عِزٌّ، يرفع شأنك، يعلي قدرك، يلهمك السداد في القول والعمل، يطلق لسانك، كن عبد الله، فعبد الله حرّ، إن لم تكن عبداً لله فأنت حتماً عبد لعبد لئيم، إن لم تكن عبداً لله تنبطح أمام القويّ، تتذلّل أمامه، أما إن كنت عبداً لله فأنت في عزّ ومنعة.

والمؤمن إذا آمن باسم الله «المالك» يشكره على ما أعطاه وأولاه، ويصبر عند المنع، لذلك قال ابن عطاء الله السكندري: (ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء)

الملك الحقيقي أن تملك نفسك وهواك، والدليل، سيدنا يوسف ماذا قال في القرآن: ﴿ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾ [يوسف:١٠١].

بعض علماء التفسير قالوا: حينما تملك نفسك وهواك، فأنت مِلِك.

ومرة قال أحد زعماء بريطانيا الذي حقق نصراً في الحرب العالمية الثانية: ملكنا العالم ولم نملك أنفسنا.

أحد الشيوخ قيل له: أوصنا، قال: كن ملكاً في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة، قال: وكيف؟ قال: ازهد في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة، استغنِ عن الرجل تكن نظيره، احتج إليه تكن أسيره، أحسن إليه تكن أميره.

سُئل الحسن البصري رحمه الله تعالى: بمَ نلت هذا المقام؟ قال: (باستغنائي عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمي) ولو جاء وقت استغنى الناس فيه عن علم العالم، واحتاج هو إلى دنياهم، فقد سقط علمه.

المؤمن يعتقد يقيناً أنَّه مملوك لسيِّده ومالكه جلَّ جلاله فيتواضع لله ويتذلَّل بين يديه ويملك نفسه ويمنعها من الوقوع فيما حرَّمه المالك جلَّ جلاله.

القدير

ورد اسم (القدير) في القرآن الكريم وفي السّنّة النّبويّة، ففي القرآن ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة:٢٠].

وفي قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم:٥٤].

وفي قوله تعالى: ﴿ ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة:٧].

وورد أيضاً في أكثر من ثلاثين موضعاً في القرآن الكريم (إن الله على كلّ شيء قدير)، كقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

وفي الحديث الشريف في قوله ﷺ: «لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ اللَّهُمَّ لا مانِعَ لِمَا أعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ» [رواه البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة].

من معاني اسم الله (القدير)

الله عز وجل قدير، وقدير صيغة مبالغة من اسم الفاعل قادر.وقد اشتقّ اسم (القدير) إمّا من التّقدير، وإمّا من القدرة، فالإنسان يكون عالماً، إذاً: عنده تقدير، و أحيانا يكون قويّاً إذاً: عنده قدرة، وأحياناً تلتقي مع إنسان بأعلى درجات العلم، لكنَّه لا يملك أن ينفّذ ما يطمح إليه، وقد تجد إنساناً آخر في أعلى درجات القوَّة، ولكن لا يعلم ماذا يفعل، فهو إمّا قوي لا يعلم، وإما عالم لا يقدر.

الإنسان قد يقدِّر إنساناً ولا يحبُّه، وقد يحبُّ إنساناً ولا يقدِّره، يكون الأب، وتكون الأم أحياناً بأعلى درجات الحبِّ، لكن لم يتح لها أن تكون مثقَّفة ثقافة عالية، لها ابن يحمل أعلى شهادة، يحبُّ أمَّه حبّاً لا حدود له، لكن في ميزان العلم لا وزن لها، وقد يلتقي مع عالم كبير لكنَّه لئيم، فيقدّر علمه، ولا يحبُّه، لكن الذات الإلهية بقدر ما تعظّمها فإنّك تحبُّها.

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨].

بالجلال تعظِّمه، وبالإكرام تحبُّه.

فالله عزَّ وجلَّ قدير، من التَّقدير، يعني أنَّه ذو علم، وقدير من القدرة، فبقدر ما تطمئنُّ إلى علمه فإنّك تطمئنُّ إلى قدرته.

للتقريب: طبيب يتفقّد مرضاه، وقف عند مريض، قرأ اللائحة الطّبيّة، رأى الضغط مرتفعاً، وهو طبيب، أعطى أمراً، وأمره نافذ، أن يوقفوا الملح في الطَّعام، فأمره نابع من سلطته، وقراءة التقرير نابعة من علمه أنَّ الضغط مرتفع، والضغطُ المرتفع خطر، فأعطى أمراً بمنعه من تناول الملح في وجباته الرئيسيّة.

الله عز وجل له قضاء وقدر، القضاء علم، والقدر تقدير، وهذا الاسم يدور مع الإنسان في كل شؤون حياته، الله عزَّ وجلَّ علم من إنسان كبراً، فهيَّأ له معالجة حكيمة، ووضعه في موقف مهين، وحينما يُهان يتألّم أشدَّ الألم، ثم يلقي في رُوعه أنَّ هذه الإهانة

بسبب الكِبر الذي يظهر منك، فالله عز وجل قدير يعلم، وقدير يملك القدرة كي يعيده إلى الصَّواب.

الله عزَّ وجلَّ مع عباده يعلم أحوالهم ويعالجهم، وكما يقول العوام: العين بصيرة واليد قصيرة، هذا شأن الإنسان، وقد يكون الإنسان قديراً، لكنَّه جاهل، قدير جاهل، متعلم ضعيف، لكنَّ الله قدير، قدير بعلمه، قدير بقوَّته.

إذا لُذت به فأنت في مأمن، وأنت في راحة، وأنت في طمأنينة.

إنّ أسماء الله كلَّها حسنى، وصفاته كلَّها فضلى، والإنسان في أصل فطرته، مفطور على حبِّ القدير

طبيعة النَّفس تقتضي أنَّها لا تتَّجه إلّا لمن توقن أنّه يعلم، ويقدر.

والله عزَّ وجلَّ إن تكلَّمت فهو يسمعك، وإن تحرَّكت فهو يراك، وإن أضمرت شيئاً فهو يعلمه، يسمعك إذا دعوتَه، ويراك إذا توجَّهتَ إليه، ويعلم سرَّك وجهرك، وفضلاً عن ذلك فالإنسان لا يتَّجه إلى جهة إلا إذا أيقن أنَّها تسمعه، وأنَّها قادرة على أن تلبِّيه.

لو أن إنساناً بحاجه إلى مبلغ ماليّ فإنّه لا يذهب إلى إنسان فقير مثله، لأنَّ هذا مضيعة للوقت، بل يذهب إلى من يغلب على ظنّه أنّه يملك مالاً يُقرضه.

وأنت أيّها المؤمن تدعو من يسمعك، وتدعو من هو قادر على حلِّ مشكلتك، وتدعو من يحبُّك، فالقويُّ الذي يعاديك لا تتَّجه إليه، بل تتَّجه إلى قويٍّ يريد أن يرحمك، فلمجرد أن تدعو الله عزَّ وجلّ فأنت مؤمن بوجوده، ومؤمن بسمعه وبصره وعلمه، ومؤمن بقدرته ومؤمن برحمته.

لذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ [الفرقان:٧٧].

عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠].

قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ» [الترمذي].

تصوَّر شابّاً سيق إلى الخدمة الإلزاميّة، ووالده قائد الجيش، وفي الجيش عريف، ومساعد، وملازم، وملازم أول، ورائد، ومقدم، وعقيد، وعميد، كلُّ هذه الرُّتب مهما علت فهي تحت قبضة أبيه، فإذا هدَّده عريف فبكى فهو غبيٌّ جدّاً.

حينما يؤمن الإنسان بقدرة الله فأيّ قويٍّ هو في قبضة الله، كلُّ ما حولك بيد الله، كلُّ مَن حولك بيد الله، كلُّ مَن فوقك بيد الله، كلُّ مَن تحتك بيد الله، لا يمكن أن يُقبَل خوف وفزع، وهلع وانهيار مع الإيمان بالله، بل إنَّ الإيمان بالله أصلٌ في الصّحّة النّفسيّة، فالتّماسك والقوّة والمعنويّات المرتفعة، ومواجهة الأخطار بثبات، ورباطة جأش كلُّها تحتاج إلى الإيمان. الله عزَّ وجلَّ يريدك أن تثق به، يريدك أن تكون مطمئناً لقدرته ورعايته.

إذا توهَّم الإنسان توهُّماً أنَّ الله لا يعلم ما يجري فهذا يناقِض إيمانه بالله، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩].

وإذا توهَّم أنَّ الله لا يقدر أن يدمِّر أعداءه فهو واهم، وهذا يناقِض إيمانه بالله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

وإذا توهَّم أنَّ الله لا يعنيه ما يجري في الأرض فهو واهم، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤].

وإذا توهَّم أنَّ أعداء المسلمين يفعلون شيئاً ما أراده الله فهو واهم، لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال:٥٩].

يجب أن تؤمن أنَّ الله يعلم، وهو قادر، ويعنيه ما يجري في الأرض، وهؤلاء أعداؤه لا يستطيعون أن يتحرَّكوا إلا بإذنه، ولن يتفلَّتوا من قبضته.

إذاً: هناك حكمة بالغة فيما يجري، ولصالح المسلمين، ولكن هذه نعمة من النّعم الباطنة، وليست نعمة ظاهرة، قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠].

قدرة الله عزَّ وجلَّ مطلقة، تعلَّقت بكلِّ ممكن، فلو أنَّ الإنسان أصيب بمرض عُضال فيقين المؤمن أنَّ الله على كلِّ شيء قدير، ولو كان وحيداً وأعداؤه كُثُر.

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء:٦١-٦٢].

سيّدنا يونُس دخل إلى بطن الحوت، وفي البحر، وفي الليل: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

هل من مصيبة أكبر من أن يجد الإنسان نفسه فجأة في بطن حوت؟ وحينها عَقَّبَ الله تعالى على هذه القصة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ .

قلبها إلى قانون، لئلا تتوهم أن هذه قصة قد وقعت ولن تتكرَّر، لئلا يغدو كتاب الله تاريخاً، فقد أراده الله قوانين ثابتة لكلِّ زمان ومكان.

وفي كثير من الآيات ورد اسم (القدير) مع اسم (العليم) لأنَّ العلم من لوازم القدرة.

جراح بيده مبضع، أهمّ شيء علمه، هنا عصب، هنا وريد، هنا شريان، فعلم الجرَّاح بخلق الإنسان يجعله قديراً على إنجاح العمليَّة.

والقدرة قد تكون عشوائيَّة، لكن إذا رافقها علمٌ فإنّها تغدو قدرة واعية، هذا في الإنسان، فكيف بالواحد الدّيّان.

لذلك أقول دائماً: إنَّ أمَّة قويَّة خطَّطت لبناء مجدها على أنقاض الشُّعوب، وبناء رخائها على إفقار الشُّعوب، وبناء قوَّتها على إضعاف الشُّعوب، وبناء غناها على إفقار الشُّعوب، وبناء عزَّتها على إذلال الشُّعوب، إنَّ هذه القوَّة الغاشمة نجاح خططها على المدى البعيد يتناقض مع وجود الله: «وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ».

وفي الحديث الشّريف: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني منهما شيئا أذقته عذابي ولا أبالي» [أخرجه أحمد، وأبو داود وابن ماجة عن أبي هريرة، ابن ماجة عن ابن عباس].

لذلك ورد في بعض الأحاديث: «فَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى الْمَغْفِرَةِ فَاسْتَغْفَرَنِي غَفَرْتُ لَهُ وَلَا أُبَالِي» [الترمذي عن أبي ذر].

الأصل هو العلم، أن تعلم أنَّ أسماء الله كلَّها حسنى، وأنَّ صفاته كلَّها فضلى، هناك من يدعو: يا ربِّ لا نسألك ردَّ القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه، وهذا الدّعاء فيه إشكال، بل قل: يا ربِّ اصرف عني البلاء كلَّه، اطلب من الله كلَّ شيء.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب:٣٨].

القدر هو الفعل، والمقدور هو العلم، والله عز وجل عليم قدير.

الله عز وجل يعلم أن فلاناً من الناس مستقيم فيُقَدِّر له توفيقاً، ويطَّلع على إنسان كاذب فيقدِّر له علاجاً، فمجمل القضاء والقدر أنَّ الله يعلم، ويقدِّر لهذا الإنسان ما يناسبه.

وفي الحديث: «ولكل شيء حقيقة، وما بلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه» [أخرجه أحمد، والطبراني عن أبي الدرداء].

نصيب المؤمن من اسم الله (القدير)

اسم (القدير) يملأ النَّفس طمأنينة، وثقة بالله عزَّ وجلَّ.

هو (القدير) وشأن العبد أن يكون مفتقرا إلى الله عزَّ وجلَّ، وأن يعترف بضعفه أمام الله عزَّ وجلَّ.

فما لم يفتقر العبد إلى الله، وما لم يمرِّغ جبهته في أعتاب الله، وما لم يتذلَّل إلى الله فيما بينه وبين الله فلن يستطيع أن يأخذ من كمال الله جلّ جلاله.

ليس مع الإيمان مرض نفسيٌّ، وليس مع الإيمان إحباط، وليس مع الإيمان شعور بالإخفاق، وليس مع الإيمان يأس، هذه كلُّها أعراض الإعراض عن الله عزَّ وجلَّ، أمَّا المؤمن فيعلم علم اليقين أنَّ أمره كلَّه بيد الله، وأنَّ الخير كلَّه من عند الله، وأنَّه لا رافع،

ولا خافض، ولا مُعِزَّ، ولا مُذِلَّ إلا الله، وأنَّه لا معطي، ولا مانع إلا الله، والله عزَّ وجلَّ قبل أن يأمرك أن تعبده طمأنك، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

لا تحلُّ مشكلاتنا بأن نعلم أنَّ الله خالق السموات والأرض فحسب، لا تحل مشكلاتنا إلا بالإيمان بأنَّ الأمر كلَّه بيد الله.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤].

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف:٢٦].

آيات التَّوحيد تملأ النَّفس طمأنينة، هو قدير، وأنت ضعيف، هو أقوى من أعدائك، أقوى من كلِّ قوَّة في الكون، هو خالق السَّماوات والأرض.

﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

لو أنَّك رأيت وحوشاً كاسرة جائعة مفترسة مخيفة، لكنَّها مربوطة بأزمَّة محكمة بيد جهة قويّة حكيمةٍ رحيمةٍ عادلةٍ، فعلاقتك ليست مع الوحوش، بل مع من يملكها، ويقدر على حمايتك منها، قال تعالى: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

عندما يوحِّد الإنسان يمتلئ قلبه أمناً، وأماناً، وتفاؤلاً، وبشراً، الأمر بيد الله، ولا يُعقل ولا يُقبل أن يسلمك الله إلى غيره، ثم يأمرك أن تعبده.

وحينما يُشرك الإنسان يؤتى من مَأمَنِه، وأحياناً يتفوَّق طبيب باختصاصه تفوقًا كبيرًا، وقد يتوهَّم أنَّه لن يصاب بالأمراض التي اختصَّ فيها، فيصاب بمرض من صلب اختصاصه جزاء له على اعتداده بنفسه ونسيانه لربّه، وفي الحديث الشّريف أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ «لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ

المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اللهمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ» [البخاري عن المغيرة بن شعبة].

لا ينجيك من الله أن تكون ذكيّاً، ولا أن تكون ذا خبرة عالية، لا ينجيك، من الله أن تكون لك جماعة إسلاميّة، لا ينجيك من الله خطة وضعتها بإحكام، بل ينجيك استقامتك على أمره وإحسانك إلى خلقه.

العليم

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، وأول هذه المواضع في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة:٣٢].

وقد ورد هذا الاسم مقترناً في الكتاب والسنة بأسماء كثيرة، ورد مع اسم السميع

ومع اسم الحكيم، ومع اسم العزيز، ومع اسم الحليم، ومع اسم الخلاق، ومع اسم القدير، ومع اسم الفتاح، ومع اسم القوي.

أما في السنة، فورد أيضاً في نصوص كثيرة منها ما رواه أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «أعوذُ بِالله السَّميعِ العليمِ من الشَّيطانِ الرجيم، مِنَ هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ» [أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري].

إن تكلم الإنسان فالله سميع، وإن تحرك فالله بصير، وإن أضمر شيئاً فالله عليم.

أقرب شيء إليك قلبك، وخواطرك، وسرّك، وباطنك، والله عز وجل يحول بينك وبين قلبك، وبينك وبين سرّك، وبينك وبين باطنك، بل هو أقرب إليك من حبل الوريد.

من معاني اسم الله (العليم)

«العليم» في اللغة من صيغ المبالغة، وهو على وزن (فعيل) من فعل علم، يعلم، ونقول: هذا الرجل عالم، وعليم، وعلّامة، وصيغ المبالغة تأتي بمعنى الكمّ، أو النوع، فأدقّ شيء الله به عليم، وكلّ شيء الله عزّ وجلّ به عليم.

تعريف العلم

العلم في أوضح تعاريفه: علاقة ثابتة بين شيئين، مقطوع بصحتها، تطابق الواقع، عليها دليل.

مقطوع بصحتها: أي ليست وهماً، ولا شكاً، ولا ظناً

تطابق الواقع: فإن لم تطابق الواقع فهي الجهل بعينه، من هو الجاهل؟

إذا تصورنا أن الإنسان وعاء، وعاء الجاهل ليس فارغاً، لكنّه ممتلئ بمعلومات خاطئة، فالجهل عدم مطابقة الواقع.

حينما يتألّق ضوء أحمر في لوحة البيانات في سيارتك، فإنّ الجهل أن تتوهمه تألقاً تزيينيّاً، والعلم يقول لك هو تألق تحذيريّ، فالذي يفهم التألّق على أنه تزييني جاهل، وهذه معلومة لكنّها غير صحيحة.

لذلك أخطر شيء في حياة الإنسان كما قال الواحد الديّان: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

طالب توهم أن المعلم قبل الامتحان بيومين وبهدية بسيطة سيعطيه الأسئلة، فما درس أبداً، هو يظن نفسه ذكياً وفالحاً بهذه الطريقة، قبل يومين طرق باب الأستاذ وقدم له الهدية، وطلب منه الأسئلة، فتلقى صفعة على وجهه.

عليها دليل: فإن لم يكن عليها دليل كان تقليداً.

هذا هو تعريف العلم، ونعود الآن إلى اسم العليم، فهناك أسماء لله تعالى يجوز أن يوصف بها الإنسان، من هذه الأسماء اسم «العليم» فسيدنا يوسف قال: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف:٥٥].

وقد قال الله عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ [يوسف:٦٨].

لكن كم هو الفرق بين علم الإنسان وعلم الواحد الديّان؟ شتان بين علم مقيّد محدود، وعلم مطلق بلا حدود، سبحانه وتعالى كامل في علمه، وطلاقة وصفه، علمه فوق كل علم، قال تعالى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف:٧٦].

فالله عز وجل عليم بما كان، وعليم بما يكون، وعليم بما سيكون، وعليم بما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لم يزل عالماً، وعلمه أزليّ وأبديّ، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء، أحاط علمه بجميع خلقه، أحاط علمه بجميع الأشياء، ظاهرها، وباطنها، دقيقها وجلّها.

أعظم كرامة كرامة العلم

الآن سأحدثكم عن حقيقة نحن في أمس الحاجة إليها: ما من مؤمن على وجه الأرض يخطِب ود الله بتوبة، بطاعة، بعمل صالح، بأداء عبادة، بتلاوة قرآن، بإطعام جائع، بإرشاد ضالّ، ما من عبد يخطِب ودّ الله عز وجل إلا كرّمه الله بكرامة، هناك كرامة تيسير، وهناك كرامة توفيق، وكرامة تأييد، و كرامة نصر، و كرامة انشراح صدر، وكرامة أمن، ولكنَّ أعظم كرامة على الإطلاق هي كرامة العلم.

طفل صغير عقب العيد جاء عمّه إلى البيت، قال له: يا عمي أنا أملك مبلغاً عظيماً، مئتي ليرة، كلمة عظيم حينما قالها طفل قدّرناها بمئتي ليرة، فإذا قال مسؤول كبير في دولة عظمى: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، فإننا نقدره بمئتي مليار دولار، الكلمة نفسها، قالها طفل فقدّرناها بمئتي ليرة، وقالها مسؤول كبير في دولة عظمى

فقدّرناها بمئتي مليار دولار، فإذا قال ملك الملوك، ورب السماوات والأرض: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣].

إذا سمح الله لك أن تتعرف إليه، إذا سمح الله لك أن تعرف أسماءه الحسنى، وصفاته الفضلى، إذا سمح الله لك أن تعرف سرّ وجودك، وغاية وجودك، إذا سمح الله لك أن تعرف حقيقة الدنيا، فإنك تكون بذلك قد حصلت كرامة من أفضل أنواع الكرامات.

أعطى الله عز وجل الملك لمن لا يحبه، ولمن يحبه، أعطى الملك لفرعون وهو لا يحبه، وأعطى الملك لسيدنا سليمان، وهو يحبه، أعطى المال لمن لا يحبه لقارون، وأعطى المال لمن يحبه لسيدنا عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، أما الأنبياء ماذا أعطاهم؟ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [القصص:١٤].

اسأل نفسك: هل نصيبك من الله من نوع نصيب الأقوياء، أم الأغنياء، أم الأنبياء؟

العلاقة بين اسمي العليم والقدير، واسمي العليم والشكور

هناك اسمان من أسماء الله الحسنى (العليم، القدير) إن تحققا استقمت على أمر الله، إذا أيقنت أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، تستقيم على أمره، قد تركب مركبة والإشارة حمراء، وأنت مواطن عادي، والشرطي واقف، وقانون السير صارم، لا يمكن أن تخالف، لأن علم واضع قانون السير يطولك، وقدرته تطولك، إذاً لن تعصيه. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢].

إذاً بمعرفة اسمي العليم والقدير تستقيم على أمره، وبمعرفة اسمي العليم والشكور تحسن إلى خلقه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧].

هذا العمل الصالح، هذه الصدقة، هذه الخدمة، هذا العطاء يعلمه الله وسيشكرك عليه، إذاً تدفع، بالعلم والقدرة تستقيم، وبالعلم والشكر تحسن، فإذا استقمت وأحسنت حققت الهدف من وجودك.

الفرق بين علم الله تعالى وعلم الإنسان

لو أن رجلاً عبقرياً اخترع آلة فائقة، عظيمة النفع، وجاء من بعده أجيال ودرسوا هذه الآلة، وعرفوا دقائق صنعها، واكتشفوا العلاقات فيما بين أجزائها، واكتشفوا القوانين التي على أساسها بنيت هذه الآلة، علم الجيل اللاحق الذي بحث، ودرس، واستنبط يختلف اختلافاً كلياً عن علم العبقري الذي اخترع الآلة، علم المخترع سبق وجود الآلة، لكن علم الدارس جاء بعد وجود الآلة، وجاء استنباطاً من دقائقها. هذا المثل ضربه الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه (إحياء علوم الدين).

علم الله سابق للوجود، علم الله أصل للوجود، بينما علم البشر لاحق للوجود، بل هو مكتسب من الوجود، فرق كبير بين علم الله، وعلم خلقه، علمك أيها الإنسان مستنبط من الوجود، مستنبط من القواعد التي قعّدها الله عز وجل، مستنبط من القوانين التي قنّنها الله عز وجل، مكتسب من الخصائص التي خصّصها الله عز وجل، علم الله عز وجل أزليّ أبديّ، أما علمك فحادث وطارئ.

علم الله هو الذي وضع هذه القوانين، هو الذي خصّص هذه الأشياء بخصائصها، هو الذي سنّ هذه السنن.

من قنّن أن البذور لا بدّ منها لاستمرار الوجود؟ لو أن الله خلق مليار، مليار، مليار، مليار، طنّ من القمح وانتهى القمح، من أين للإنسان بالقمح؟ فكرة البذور من خلقها؟ فكرة الزواج والإنجاب من خلقها؟ نحن نستنبط لكن الله خلق، وقنّن، قعّد القواعد، سنّ السنن. فرق كبير بين أن توجد شيئاً من العدم، ومن غير مثال سابق، وبين أن تكتشف خصيصة في شيء موجود، من هنا نقول: إنّ الله عزّ وجلّ خلق كلّ شيء من لا شيء وعلى غير مثال سابق.

بل إننا إذا سمّينا الإنسان خالقاً فهذا من المجاز قال الله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون:١٤].

فإذ سميناه خالقاً تجاوزاً فهو صنع شيئاً من كلّ شيء وعلى أكثر من مثال سابق، فالغواصة صنعت تقليداً للسمكة، والطائرة صنعت تقليداً للطائر، بل هناك موسوعة علمية تتحدث عن الطيور فتقول: إن أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطائر.

علم البشر لاحق للوجود، كسبي، وعلم الخالق سابق للوجود وسببي، العلم الإلهي سبب وجود الأشياء، تعلّق علمه بهذا الشيء، وتعلّقت إرادته، تعلّقت قدرته، فكان هذا الشيء.

الطائرة تحمل ثمانمئة راكب، ما الذي يحملها؟ إنه الهواء، ومن خلق الهواء وخصائصه؟ إنه العليم جلّ جلاله، أمّا الإنسان فقد صنع وفق خصائص الهواء طائرة، ووفق قوانين الماء باخرة.

حينما أنشأ مهندس قديماً جسراً، فلما جاء الصيف تصدع هذا الجسر، ذلك لأن الحديد تمدد، إذاً استنبطوا أن هذا الحديد يتمدد بالحرارة، واكتشفوا قانون التمدد بالحرارة، فصاروا في المراحل القادمة إذا أقاموا جسراً أو أنشؤوا بناءً يتركوا فواصل تمدد، فنقول: علم البشر كسبي وعلم الله قديم.

وضعوا وقوداً سائلاً في شاحنة، هذا الوقود خاص بالطائرات، فلما سارت هذه الشاحنة تحت الشمس المحرقة، اشتعل هذا الوقود بفعل الشمس المحرقة، إذاً هذا الوقود يمكن أن يشتعل دون أن تمسه النار بفعل حرارة الشمس الملتهبة، لذلك صنعوا لهذه الشاحنة التي تحمل الوقود السائل الخاص بالطائرات طبقة ثانية لتكون عازلاً لحرارة الشمس... فعلم البشر إذاً مكتسب...!

إنَّ كل حقيقة وصل الإنسان إليها، إنما هي عن طريق التجارب، وعن طريق الخطأ والصواب، وأكبر دليل أنك إذا دخلت معرض سيارات وتأملت سيارة صُنعت

عام ألف وتسعمئة واثني عشر، ووازنت بينها وبين سيارة صُنعت في عام ألفين وأربعة عشر، ترى البون شاسعاً؛ العجلات دون هواء، الإضاءة بالفوانيس، علبة تبديل السرعة غير موجودة، سرعة واحدة للمركبة، وازن بين مركبةٍ صُنعت قبل مئة عام تقريباً ومركبة صُنعت قبل عام، تتيقن أن علم البشر علم كسبي، ولكن علم الله أزلي.

إذاً فرق كبير بين أن تقول الله جل جلاله عليم، وفلان عليم.

من آثار اسم الله العليم في خلقه

الكون كله، والكون ما سوى الله أثر من آثار «العليم»، ولنأخذ جسم الإنسان وحده، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات:٢١].

إنه أقرب آية إلينا، ويمكن من خلال جسم الإنسان أن تصل إلى ملايين الأدلة القاطعة على علم الله.

لو أن الواحد منا وضع على طرف أصبعه شيئاً من لعابه، ومسّ ملحاً، وجاء بمكبّر، هذه الذرّة من الملح تساوي حجم البويضة التي يُخلق منها الإنسان، والحوين المنوي أو النطفة أقل حجماً بكثير (واحد بالمئة من حجم البويضة) وفي اللقاء الزوجي يخرج من الزوج من ثلاثمئة إلى خمسمئة مليون حوين منويّ، وتحتاج البويضة إلى حوين واحد، كيف يدخل هذا الحوين إلى البويضة؟ في رأس الحوين مادة نبيلة مغلّفة بقشرة رقيقة، إذا اصطدم الحوين بالبويضة تتمزق القشرة، والمادة النبيلة تذيب جدار البويضة فيدخل، هذه البويضة تتكاثر إلى عشرة آلاف جزء، دون أن يزيد حجمها، لأنها تسير بقناة فالوب، فلو زاد حجمها لامتنع سيرها، ما الذي يحركها؟ في أرضية هذه القناة أشعار، تتحرك نحو الرحم، تنتقل هذه البويضة إلى الرحم، قال تعالى: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور:٣٥].

إنها ذرّة بحجم ذرّة الملح ملقحة بحوين لا يرى بالعين، بعد تسعة أشهر تجد طفلاً، له رأس، وجمجمة، ودماغ، وشعر، وعينان، وأذنان، وأنف، وشفتان، ولسان،

ويدان، ومفاصل، وعظام، عضلات، وجلد، وقلب، وشرايين، وأوردة، ومعدة، وأمعاء، وكليتان، وكبد، وبنكرياس، ما هذا؟!

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان:١١].

الدماغ يحوي مئة و أربعين مليار خلية سمراء استنادية لم تعرف وظيفتها بعد، مغطى بأربعة عشر ملياراً من الخلايا القشرية، في الدماغ المحاكمة، وفيه الذاكرة، في الدماغ مركز الرؤية، ومركز السمع، ولا يزال الدماغ عاجزاً عن فهم ذاته، ولم يستخدم معظم العباقرة من إمكانات الدماغ إلا جزءاً يسيراً.

أنت أيها الإنسان تتبدل خلاياك كل خمس سنوات تبدلاً كاملاً، جلدك يتبدل، شعرك يتبدل، عظامك تتبدل، عضلاتك تتبدل، أي شيء في الجسم يتبدل كل خمس سنوات، لأن أطول عمر خلية في الإنسان هي الخلية العظمية وعمرها خمس سنوات، وأقل خلية عمراً خلايا بطانة الأمعاء، وعمرها ثمان وأربعون ساعة، ولحكمة بالغةٍ لا تتبدّل خلايا الدماغ، ولو تبدلت لخسرت اختصاصك، وخبراتك، ومعارفك، وطاقاتك.

أما العين فآية أخرى تدل على العليم جل جلاله، القرنية طبقة شفافّة شفافيّة تامّة، ما السرّ في أن القرنية وحدها من بين كل خلايا الجسم تتغذى بطريقة خاصة، لو غُذيت بالطريقة العامة طريقة الأوعية لرأيت ضمن شبكة ولتعذّرت الرؤية الواضحة، القرنية وحدها تتغذى عن طريق الحلول، أي أن الخلية الأولى تأخذ غذاءها وغذاء جارتها، والغذاء يتسرب عبر الغشاء الخلوي، لولا هذا الاستثناء لما رأيت رؤية شفافة تماماً.

﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل:٨٨].

العصب الشّمّيّ يتفرع إلى عشرين مليون عصب، وفي كل عصب سبعة أهداب، هذه الأهداب مغمسّة بمادة تتفاعل مع الرائحة، مِن تفاعل المادة مع الرائحة يتشكل شكل هندسي، هو رمز هذه الرائحة، هذا الشكل ينتقل إلى الدّماغ، إلى الذاكرة الشّمّيّة،

وفيها عشرة آلاف بند، يعرض هذا الرمز على هذه البنود بنداً بنداً فحيثما كان التطابق اكتشفت أن في الطعام نعنعاً مثلاً، من خلال الرائحة.

وأنت غارق في نومك، يجتمع اللعاب في فمك، تذهب رسالة إلى الدماغ، أن قد زاد اللعاب في الفم، فيأتي أمر من الدماغ للسان المزمار فيغلق فتحة التنفس، ويفتح فتحة المريء، فتبتلع لعابك، وأنت نائم، هذه الآلية من خلقها؟.

هيكلك العظمي فوقه عضلات، وتحته عضلات، وزن الهيكل العظمي مع العضلات التي فوقه تضغط على ما تحته، تحته يوجد عضلات وفيها أوعية دموية، الأوعية تنضغط فتضيق لمعتها، الإنسان وهو يقظ يشعر بالتنميل، ثم يفقد الحسّ، و سبب ذلك أن التروية ضعفت، وأنت غارق في النوم الأوعية ضُغطت، ضاقت لمعتها، قلت التروية، تذهب رسالة إلى الدّماغ، هناك مراكز إحساس بالضغط، يأتي الأمر فتتقلّب، بعد ربع ساعة يأتي أمر معاكس فتتقلّب، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٨].

تمشي في بستان، ترى ثعباناً، ما الذي يحصل؟ صورة الثعبان تنطبع على شبكية العين إحساساً، ثمّ تنتقل الصورة إلى الدماغ، إلى مركز الرؤية، في مركز الرؤية تُقرأ الصورة في ضوء ملفات الثعبان من أين جاءت هذه الملفات؟ من الدراسة، من قصص سمعتها، من مشاهدات شاهدتها، تتجمع هذه في ملف واحد أو مجلد واحد هو الثعبان، في ضوء هذه الملفات تقرأ هذه الصورة.

والدماغ يدرك الخطر، وهو ملك الجهاز العصبيّ، وله زميلة اسمها الغدّة النخامية، وهي ملكة الجهاز الهرمونيّ، يلتمس الدماغ وهو ملك الجهاز العصبيّ من الغدّة النخاميّة وهي ملكة الجهاز الهرموني أن تواجه هذا الخطر، هذه الملكة عندها وزير داخلية اسمه الكظر تأمره أن يواجه الخطر، فيرسل أمراً إلى القلب، فيرتفع النبض إلى مئة وثمانين نبضة، ويرسل أمراً آخر إلى الرئتين فيرتفع وجيبهما، فالخائف يلهث،

ويصدر أمراً ثالثاً إلى الأوعية الدموية المحيطية فتضيق لمعتها، ليتوافر الدم إلى العضلات، فالخائف يصفرّ لونه.

ويرسل أمراً رابعاً إلى الكبد فيطلق كميّة سكر إضافية، فلو فحصنا دم الخائف لكان السكر فيه مرتفعاً.

وأمر خامس إلى الكبد ليفرز هرمون التجلّط، وهذا كله يتم في ثوانٍ معدودة، فالخائف يزداد نبض قلبه، ووجيبه رئتيه، ويصفرّ لونه، ويزداد السّكر في دمه، ويصبح دمه لزجاً.

الرحم يتقلّص قبل الولادة تقلصاً خفيفاً متزامناً لطيفاً، حتى يخرج الجنين من الرّحم، فإذا خرج تقلّص الرّحم تقلصاً حادّاً وقويّاً حتى يغلق آلاف الأوعية الدموية التي انقطعت، لو انعكس التقلّص فكان العنيف قبل الولادة، واللطيف بعد الولادة لماتت الأم وجنينها.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠﴾ [عبس:٢٠].

بين الأذنين ثقب، والطفل في رحم أمه الدم ينتقل مباشرة من أذين إلى أذين وطريق الرئتين مغلق، لأنه لا يوجد هواء، بعد الولادة يفتح الطريق، تأتي جلطة تغلق هذا الثقب.

هذه ملامح من علم الله في خلق الإنسان فإذا قرأت أن الله عليم فالكون كله، والمخلوقات كلها أثر من آثار علم الله.

أشرف العلوم

وبعد، فها نحن بصدد سؤال يطرح نفسه: ما أشرف العلوم؟ أو كيف تكتسب العلوم شرفها؟

إذا كان عند أحد علم بطريقة كسر أقفال المحال، هل تحس أن هذا العلم شريف؟ لا، فهذا سارق.

إذا كان عنده علم بوسائل تزوير العملة، عنده أجهزة معقدة وآلات تصوير ملونة وورق خاص، ودرس هذا الفن، وعنده كتب وحضر دورات في هذا المجال، فهل تُعظِّمُ هذا العلم، تزوير العملة مثلاً؟!

فلان يعلم عن أمراض القلب أشياء كثيرة، لأن الناس بحاجة إليه، فأنت ترى أن هذا العلم مفيد، فهو أعلى، إذاً فمن أين يكتسب العلم شرفه؟ من شرف المعلوم، فكلما شرُف المعلوم شرُف العلم.

إذا كان عند أحد معلومات دقيقة عن المغنين والمغنيات، وعن أوقات استيقاظهم، وعن أوقات نومهم وعن مسَّاجهم، وعن أغذيتهم، وعن قضاء أيام عطلاتهم، فهل تحترمه؟!

أريد أن أؤكد أنه لا يرتفع العلم إلا إذا ارتفع المعلوم، إذا اعتمدنا هذا المبدأ فما هو أعظم العلوم؟ العلم بالله.

«فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» [رواه الترمذي من حديث أبي سعيد].

تعلمنا الفيزياء والكيمياء والرياضيات والطب والهندسة والفيزيولوجيا والمورفولوجيا و... إلخ، وعرفنا الله، هذه كلها مخلوقات، والله هو الخالق، إذاً أشرف علمٍ أن تعرف الله؛ لأن شرف العلم من شرف المعلوم ولا موضوع للعلم أعظم من ذات الله عز وجل.

وبعد، فأن تعرف الطريق الموصل إلى الله، علم شريف، أن تعرف أمر الله، علم شريف، أن تعرف الأحكام الشرعية التي استنبطت من القرآن، علم شريف، أن تعرف أمراض القلب وكيف يسمو هذا القلب إلى ربه، هذا علم شريف، إذاً أشرف العلوم أن تعرف الله، ويليها في الدرجة العلوم الموصلة إلى الله، ثم العلوم المباحة التي تقدم النفع للإنسان.

ولتعلم من ثم أن في الكون حقيقة واحدة هي الله، وأي شيء يوصلك إليه فشرفه من شرف غايته، فإذا تعلمت العربية كي تفهم كلام الله بدقة، فشرف هذا العلم مقتبسٌ من شرف الهدف النبيل.

نتابع الموضوع: الإمام الغزالي قال: «هناك علم بالله، وعلم بأمره، وعلم بخلقه»، العلم بأمره وبخلقه علمان شأنهما كشأن أي علم، يحتاجان إلى مدارسة وكتب وإلقاء ودروس، وحقائق وحفظ وتذكّر، وهذه العلوم تبقى في الذاكرة، لكن العلم بالله له طبيعة أخرى، هذا العلم من أثره السمو بالنفس والارتقاء بها إلى الله، العلم بالله لا يأتي بالمدارسة، بل يأتي بالمجاهدة، ولا يبقى في الدماغ بل يسمو بالنفس، ثمنه باهظ ونتائجه باهرة جداً، إذاً العلم بالله أشرف العلوم.

الحديث عن علم الله في القرآن الكريم

أولاً: ورد العلم في القرآن بمعنى إثبات العلم لله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان:٣٤].

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

تكلم شاب يوماً عند الشعبي بأمر فقال الشعبي: ما سمعنا بهذا، قال الشاب: كل العلم سمعت؟ قال الشعبي: لا، قال الشاب: فشطره؟ قال الشعبي: لا، فقال الشاب: فاجعل هذا في الشطر الذي لم تسمعه، فأفحم الشعبي.

فمن يحيط بالعلم؟ يظلّ المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل، إذا قلتَ: إني عالم فأنت جاهل، بكل تواضع، بكل صراحة، لذلك أنا أتمنى من الذين لهم رغبات علمية جامحة، ويحضرون مجالس علم، ويحرصون على فهم كلام الله وعلى فهم السنّة المطهرة، أتمنى عليهم إذا تحدثوا عن أنفسهم أن يقولوا: نحن طلاب علم، هكذا الأدب، ولقد سمعت هذه الكلمات من علماء كبار يقول أحدهم: «أنا طالب علم».

المحور الثاني: أن الله عالم قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن:٢٥-٢٧].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فاطر:٣٨].

المحور الثالث: الله علاّم الغيوب، كلمة علاّم على وزن فعّال، صيغة مبالغة يعني: كثير العلم.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [التوبة:٧٨].

المحور الرابع: الأعلم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف:٢١].

إذاً الله عز وجل أثبت العلم لذاته، ووصف نفسه بأنه عالم، وأنه علام، وأنه الأعلم.

أمية محمد ﷺ وسام شرف بحقه

رئيس جامعة من الجامعات، طُلب منه إحداث قسم دراسات عليا في كلية الشريعة فقال رئيس الجامعة: لماذا الدراسات العليا يا طلاب الشريعة ونبيّكم أميّ، فأجابه عميد الكلية: ولكنه يوحى إليه وحينما يوحى إلينا نستغني عن كل الجامعة، لذلك قال العلماء: الأمية صفة كمال في حق رسول الله ﷺ، وصفة نقص في حق غيره، إذا قلت عن إنسان: هو أميّ يعني أنه جاهل، أما إذا قلت عن النبي الكريم ﷺ: هو أميّ يعني أنه تنزه عن علم البشر، تنزه عن ثقافة عصره، تنزه عن معطيات الأرض، وعلّمه الله.

أحياناً يكون أحد الناس خريج جامعة فيتفاخر قائلا: أنا معي «بورد» من أمريكا، وفلان يقول: معه «إف. آر. إس» من إنكلترا، وآخر يقول: معه «أكريجيه» من السوربون، يعطيها اسماً مفخماً يمطها قليلاً، وبعضهم يفتخر بالأستاذ الذي علّمه، وأشرف على شهادته، فإذا افتخرنا بأن فلاناً أستاذنا، ونحن علّمنا فلان، ونحن علّمْنا فلاناً، فإني أجلس إلى المثقفين الذين يفتخرون بأساتذتهم، فأقول: فمن علم النبي ﷺ؟! الله سبحانه وتعالى خالق الكون علّمه، فحسبه هذا العلم وذاك الشرف ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣].

يـــا أيهـــا الأمـــي حســـبك رتبـــةً   في العلـــم أنْ دانـــت لـــك العلـــماء

كذلك؛ يأتي إنسان عبقري ذكي جداً فيقتطف خمسين حديثاً من أحاديث رسول الله ﷺ يدرسها ويحللها ويدرس صياغتها، وبلاغتها، مضامينها، أبعادها، مدلولاتها، ثم يُمنح درجة الدكتوراه، فموضوع شهادته بل حجمها خمسون حديثاً من أحاديث رسول الله ﷺ، أصبح بعدها دكتوراً في الشريعة، يقول: أنا أحمل الدكتوراه، يكتب: دكتور في الشريعة، حتى يعرف الناس قدره.

إذاً: الأمية في حق رسول الله ﷺ كمال، وفي حق غيره نقص، قال الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت:٤٨].

نصيب المؤمن من اسم العليم؛

قال أبو الجلد: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء قل لقومك: ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي وتظهرونها لي؟ إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أني أراكم فَلِمَ تجعلوني أهون الناظرين إليكم؟!

وكان وهب بن الورد يقول: خف الله على قدر قدرته عليك، واستحي منه على قدر قربه منك، وقال له رجل: عظني! فقال: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك.

وكان بعض السلف يقول: أتُراك ترحم مَن لَمْ تَقِرَّ عَيْنَيْهِ بمعصيتكَ حتَّى عَلِمَ أن لا عينَ تراه غيرَكَ، وقال بعضهم: ابن آدم إنْ كنتَ حيثُ ركبتَ المعصيةَ لم تَصْفُ لك من عَيْنٍ ناظرةٍ إليك، فَلَمَّا خلوت بالله وحده صَفَتْ لك معصيتُه ولم تستحي منه حياءَك من بعض خلقه؟ ما أنت إلا أحدُ رجلين: إن كنتَ ظننت أنه لا يراك فقد كفرتَ، وإن كنتَ علمتَ أنه يراك فَلَمْ يَمْنَعْكَ منه ما منعَكَ مِن أضعفِ خلقه لقد اجترأت عليه.

إذا كنت لا تعلم أن الله يراك فهذا ضعف في الإيمان كبير، وإذا علمت أن الله يراك لِمَ جعلت الله عز وجل أهونَ الناظرين إليك، قال الله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النساء:١٠٨].

لذلك: اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وقال بعض العلماء: «إنّ حال المراقبة أن تشعر أن الله معك دائماً، وهذا الشعور يورثك الخشية والاستقامة»، ونعود إلى آية طرحناها في هذا الدرس: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢] ولن تستقيم على أمره إلا إذا أيقنت أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك.

وأخيراً المراقبة: هي التعبد بأسمائه: الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير، فمن عقل هذه الأسماء، وتعبَّد بمقتضاها، حصلت له المراقبة.

الحكيم

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في كثير من الآيات، وفي كثير من الأحاديث الشريفة، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ [البقرة:١٢٩].

هذا الاسم، ورد مقترناً في أغلب المواضع باسم العزيز، كقوله تعالى: ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) ﴾ [آل عمران:٦].

وقد ورد أيضاً مقترناً باسم الخبير، وكذلك باسم العليم والواسع.

﴿ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) ﴾ [النساء:١٣٠].

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) ﴾ [الفتح:١٩].

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾ [الممتحنة:١٠].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾ [يوسف:٦].

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾ [هود:١].

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠ ﴾ [النور:١٠].

﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾ [فصلت:٤٢].

﴿ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١ ﴾ [الشورى:٥١].

«الحكيم» جاءت وصفاً لقرآنه الكريم.

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾ [يونس:١]

يعني نظم محكم، هناك إعجاز علمي، بلاغي، بياني، إخباري، تشريعي، يعجز البشر عن أن يأتوا بآية واحدة من آيات الله عز وجل.

أيضاً الحكمة قُرنت بكلمة الكتاب ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [البقرة:١٢٩].

فإذا قرنت الحكمة بالكتاب فتعني سنة النبي ﷺ ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ القرآن ﴿ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ بيانه وتفصيله، من قبل المعصوم ﷺ.

أما في السّنّة ففي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً إلى النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا كَمَا خُلِقُوا» ثُمَّ قَرَأَ ﴿ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤ ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

«وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى مِنْ الخَلَائِقِ إِبْرَاهِيمُ وَيُؤْخَذُ مِنْ أَصْحَابِي بِرِجَالٍ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ» ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١١٨ ﴾ [المائدة:١١٨].

من معاني اسم الله (الحكيم)

«الحكيم» في اللغة صيغة مبالغة، على وزن فعيل، بمعنى فاعل، يعني حكيم بمعنى مُحكِم، أحكم الصنعة أتقنها، والفعل حكم يحكم، حكماً، وحكومة.

و «الحكيم» يأتي على عدة معانٍ:

منها الإحاطة، فلان أحكم قبضته على هذا المشروع، أي سيطر عليه، وأحاط به علماً، الإحاطة والمنع، حكم الشيء منعه، وسيطر عليه وأحاط به، حكمة اللجام قطعة من الحديد تُوضَع في فم الحصان فتلجمه.

«الحكيم» الذي يحكم الأشياء، ويحسن دقائق الصناعات ويتقنها، حكيم في صنعته، صنعة متقنة جداً، يقول أحدهم: أحكمته التجارب، أي علمته التجارِب، فأصبحت خبراته متراكمة.

«الحكيم» هو الذي يُحكم الأمر، فيضبطه، ويقضي فيه، وأمره نافذ فيه.

«الحكيم» هو المدرك لدقائق الأمور، يبيّن الأسباب والنتائج.

«الحكيم» هو الحاكم؛ كأن تقول قدير بمعنى قادر، وعليم بمعنى عالم، واستحكم الرجل؛ أي ابتعد عن كل ما يضره في دنياه وآخرته.

الحكيم هو الذي يتنزّه عن فِعل ما لا ينبغي، يعني هو الذي يضع الشيء المناسب بالقَدر المناسب وفي الوقت المناسب وبالمكان المناسب، فهذا معنى الحكيم، إذ لا نستطيع أن ننطق بكلمة ولا حرف زيادة عما يجب، فأحياناً نضع الشيء المناسب ولكن بحجم غير مناسب، وأحياناً أخرى نضع الشيء المناسب بالقدر المناسب وفي وقتٍ غير مناسب، وكذلك أحياناً نضع الشيء المناسب بالقدر المناسب وفي الوقت المناسب وفي مكان غير مناسب، فالحكيم هو الذي يفعل ما ينبغي بالقدر الذي ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي وبالمكان الذي ينبغي، فهذا هو الحكيم.

أما الله جل جلاله فهو «الحكيم» يعني أنه متصف بحكمة حقيقية، عائدة إليه، وقائمة به، كسائر صفاته، بحكمته: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى:٢-٣].

من آثار اسم الله (الحكيم) في خلقه

«الحكيم» هو المحكم لخلق الأشياء على مقتضى حكمته، لماذا جعل الله لنا عينين؟ لِمَ لم تكن عيناً واحدة، بالعين الواحدة ترى الطول والعرض، ترى السطوح ولا ترى الحجوم، أمّا بالعينين فترى البعد الثالث، ترى العمق، فمن حكمة الله عز وجل أنه جعل لنا عينين.

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ ﴾ [البلد:٨].

ومن الحكمة أن جعل لنا أذنين، بأذن واحدة لا تعرف جهة الصوت، أما بالأذنين فيأتي الصوت من جهة اليمين، فيدخل إلى الأذن اليمنى قبل اليسرى، بفارق يساوي ١/ ١٦٢٠ جزءاً من الثانية، فتدرك جهة الصوت.

«الحكيم» لم يجعل في أظافرك أعصاب حسّ، ولو جعل فيها أعصاب حس لاضطررت إلى عملية جراحية لقصّ الاظافر.

«الحكيم» جعل لك قلباً ينبض ذاتياً، ولو ترك النبض إليك فالنوم يعني الموت.

كل شيء في الكون يدل على حكمته جلّ جلاله، وأحد أكبر أسباب الإيمان بالله دليل الحكمة، الطفل الصغير فُتح ثقب بين أذنيه، وهو في رحم أمه اسمه ثقب بوتال، عند الولادة تأتي جلطة من «الحكيم» تغلق هذا الثقب، ولو لم تغلق لمات البشر بـ (داء الزرق)

الفم ليس فيه شعر، لكنّ الأنف فيه شعر، الشعر بالأنف ليصطاد المواد العالقة بالهواء، أما الشعر بالفم فيزعج في الطعام والشراب، الحديث عن الحكمة يحتاج إلى عمر مديد، أحد أكبر أدلة وجود الله عز وجل دليل الحكمة.

الماء ليس له لون، لو أن له لوناً للوّن كلّ أطعمتنا، لخرجنا من جلدنا من هذا اللون، لو أن له رائحة لكانت هذه الرائحة في كلّ ما نأكل، أيضاً لم نحتمل ذلك، ليس له لون، ولا طعم، ولا رائحة، شديد النفوذ، يتبخر بدرجة معينة، لا ينضغط، لو وضعت متر مكعب من الماء وفوقه وزن يزيد على مئة طن فإنه لا ينضغط ولا ميلي واحد، وهذا الماء إذا تمدّد ليس في الأرض قوة تقف في وجهه.

لذلك أحدث طريقة لاقتلاع الرخام أن تحفر أنفاق ضيّقة تملأ بالماء، ويبرّد الماء، فهذا التبريد يدفع هذه الكتلة من الصخر أن تنفصل عن أصل مكانها، خصائص الماء فيها حكمة بالغة، خصائص الهواء، الهواء يحمل بخار ماء، لولا أنه يحمل بخار ماء لما كانت أمطار، ولما كانت حياة.

الدم الذي تنبض به عروقك فيه ملح بنسبة سبعة بالألف إلى ثمانية، إذا قلّت النسبة عن هذا الرقم تنكمش الكريّات ويموت الإنسان، وإذا زادت تنفجر الكريات، من جعل نسبة الملح في الدم ثابتة؟ الفضل لله عز وجل، إذ إن الكلية إذا زادت نسبة الملح في الدم تفرز الزائد، وإذا قلّت تحتفظ وتدخر، فالكلية هي التي تَزِن السائل الدموي أو البلازما بميزان دقيق.

هناك هرمون التجلّط يفرزهُ الكبد، وهرمون التمييع، من إفراز الهرمونين معاً؟ ومن ثبات النسبة بينهما ثباتاً دقيقاً تنشأ ميوعة الدم وسيولته، وقد قيل: لو زاد هرمون التجلط على الحد الذي رسمه الله عز وجل لأصبح الدم كالوحل في الأوردة والشرايين ولمات الإنسان، ولو زادت نسبة هرمون التمييع على حدها الذي رسمه الله عز وجل لنزف دم الإنسان كله من جرح صغير.

لي صديق توفي رحمه الله تعالى، زرته في المشفى، فوجدت أمام فمه لصاقات طبية لا أبالغ قرابة ثمانية سنتمتر، فقلت: خيراً إن شاء الله، قال: عندي نقص في الصفائح الدموية، والصفائح الدموية تماماً مثل أحجار البناء، إذا حصل ثقب في البناء تسده، وهذا سببه رعاف أذهب معه الصفائح لديه، وكلما أزلت اللصاقات فالدم ينزف، إذ لم

يبقَ في دمه صفائح دموية، وفي الميلمتر المكعب عادةً سبع مئة الف صفيحة تقريباً، وهذه الصفائح تسد أي خرق في الأوعية.

إذاً: ما هذه الحِكمة؟ وهذه معلومات قديمة؛ وإخوتنا الأطباء الذين يدرسون حديثاً، يعرفون أشياء عجيبة، إنها حكمة الله الخالق البارئ.

إذاً: معنى الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه، هذا معنى قول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك:٣].

وبعد، انظر ترَ النملة في أكمل وضع، والذبابة بأكمل وضع، والفيل بأكمل وضع، والمجرّة بأكمل وضع، والذرة بأكمل وضع، وأي مخلوق بأكمل وضع هذا معنى الحكيم وهذا هو المعنى الأول، الحكيم المُحكم.

وتفسير هذا الاسم: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة:٧].

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار:٥-٨].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين:٤].

هذا معنى الحكيم وسِرُّ الحكيم: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان:٢].

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

ويسألونك مثلاً: هل قست ضغط عينك؟ ما ضغط العين؟ إنه شيء متقن، إذ بالعين سائل، وهذا السائل لا بد أن يتجدد، فكيف يتجدد؟ يصب عليه مورد وله فتحة في أسفله، فإذا سُدت هذه الفتحة تحتقن العين، ويزداد ضغطها فتضيق لمعة الشرايين المغذية لها، وأطباء العيون يقيسون ضغط العين.

والدقة بالغة جداً، فلقد حدثني أخ طبيب؛ أنهم في أثناء عمليات القلب المفتوح يعطون بوتاسيوم بنسب دقيقة جداً فلو زادت لمات المريض فوراً، وقال لي: لو كنا نقوم بعملية لمريض وشخصت عيناه ومات فقد يقال: هناك خطأ بالبوتاسيوم، أو هناك شوارد بالدم.

إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة

مقولة دقيقة عميقة قطعية تملأ القلب راحة، واستلاماً، وأمناً، وطمأنينة، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمة الله متعلّقة بالخير المطلق.

إذ لا يليق أن يقع في ملك الله ما لا يريد، ومعنى أراده الله؛ أي سمح به، قد يسمح بوقوع شيء لحكمة بالغةٍ بالغة، مع أنه لم يأمر، ولم يرضَ، ومعنى الحكمة المطلقة أن الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، وأن الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، فالشر المطلق لا وجود له في الكون، بل هو يتناقض مع وجود الله.

متى لا يكون الإنسان حكيماً؟ حينما يأتيه ضغط لا يحتمل، فيتكلم بكلام أو يتصرف بتصرف مناقض للحكمة، وقد يقع تحت إغراء شديد، فيفقد مع الإغراء الحكمة، وقد يكون جاهلاً فيفقد مع الجهل الحكمة، هل يمكن، أو يعقل، أو يقبل أن تكون الصفات صفة الإغراء الشديد، أو الضغط الشديد، أو الجهل، هذه الصفات هل يقبل عقل أن تنسحب على الله عز وجل؟ مستحيل!

إذاً الله عز وجل حكيم حكمة مطلقة.

يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: «الشريعة عدل كلها، حكمة كلها، مصلحة كلها، رحمة كلها، فأية قضية خرجت من الحكمة إلى خلافها، من المصلحة إلى المفسدة، من الرحمة إلى القسوة، من العدل إلى الجور، ليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل»، ما معنى الدين؟ الدين الذي تدين له النفوس، تخضع له الفطر، تستسلم له العقول، هذا دين الله.

الله عز وجل خالق السماوات والأرض، وكمال الخلق يدل على كمال التصرف فأي شيء لا تقبله الفطر السليمة، ولا العقول الراجحة، هو غير صحيح، لأن الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي، الحق ما جاء به النقل الصحيح، وليس الضعيف، وقبله العقل الصريح، وليس التبريري، وارتاحت له الفطرة السليمة، وليست المشوّهة، وأقره الواقع الموضوعي، وليس المزوّر هذا هو الحق.

الإنسان نسبي، لكن الله جلّ جلاله مطلق، بمعنى: قاض أصدر ألف حكم، خمسة أحكام ليست عادلة، هو عند الناس عادل، عن غير قصد، لكن في الأعم الأغلب هو قاضٍ عادل، أما الإله العظيم لو ظُلم في ملكه عصفور فليس عادلاً، عدله مطلق، رحمته مطلقة، حكمته مطلقة، فكل أسمائه حسنى، وكل صفاته فضلى.

أذكر قصصاً كثيرة: مدرسة رياضيات أرادت أن تتوظّف، وافقوا لها على عقد في بلد عربي، عُينت في بلدة، المديرة فرزتها لتدريس مادة التربية الإسلامية، اعترضت، لأنها مختصة بالرياضيات، قالت لها المديرة: إما أن تدرسي هذه المادة، وإما أن أُنهي عقدك، دخلت إلى الصف كي تدرس التربية الدينية، الدرس الذي ينبغي أن يُدرس عن حجاب المرأة المسلمة، وهي في الأصل ليست محجبة، قرأت الآيات، تأثرت، أين هي من هذا الحكم الشرعي؟ فبكت، ثم طلبت من الطالبات أن يعفينها من إلقاء الدرس وراجعت حساباتها، وكان هذا التكليف غير الحكيم من قبل المديرة سبب هدايتها، خطأ المديرة وظّف لمصلحة هذه المدرّسة.

فتاة نالت شهادة ثانوية وهي تبحث عن وظيفة، هناك مسابقة لوظيفة معلمة فتقدمت إليها، فطولبت بشهادة صحية فتوجهت إلى مستشفى حكومي لتفحص صدرها، فجاءت النتيجة أنها مصابة بمرض السل! بكت وبكت وبكى من حولها، ومن حولها خافوا من العدوى فابتعدوا عنها، وتركوها تأكل وحدها، وأعطوها أدوات خاصة بها، وتوجّسوا منها خيفة، وازدادت بهذه العزلة ألماً إلى أن قررت أن تتوب إلى

الله وأن تصلي وأن تتحجب، ثم راجع أخوها المستشفى بعد حين، فإذا هم يعتذرون إذ هذه النتيجة ليست لها بل لغيرها، فهي سليمة! خطأ الموظف، إذاً وظفه الله عز وجل كي تتوب هذه الفتاة.

كل واحد منا يعرف آلاف القصص، في حياته، بعلاقاته بمن حوله، بمشاهداته، من خلال أقربائه، لكن معظم هذه القصص يعرف آخر فصل فيها، القصة التي تعرف آخر فصل فيها لا معنى لها إطلاقاً، لكن كل واحد منا أيضاً عنده عدة قصص، من أول فصل إلى آخر فصل، هذه القصص القليلة التي يعرفها من أول فصل إلى آخر فصل تتبدّى فيها حكمة الله، ويتبدى فيها عدله، ورحمته، هذه القصص يمكن أن تروى، لكن كل القصص الأخرى كهذه لكن نحن لا تعرف المقدّمات، كلّ واحد منا في تعامله مع ربه يرى عدله المطلق، رحمته المطلقة، لكن الإنسان أحياناً يرى حادثاً في نهاية المطاف يا ترى ما الحكمة؟ لا يعلم، أما المؤمن شأنه في موضوع الحكمة أنه موقن يقيناً تاماً، قطعياً لحكمة الله، مع أنه قد لا يعرفها.

مرة شخص سألني أنه يوجد شخص جاء إلى السوق ليكسب رزق أولاده، سمع إطلاق رصاص مدّ رأسه فإذا برصاصة تصيب عموده الفقري، ويُشل فوراً، قال لي: ما الحكمة من هذا؟ قلت له: أنا موقن بحكمة الله، لكن لا أعرف تفسير هذا الذي حدث.

بعد عشرين يوماً إنسان من الإخوة الكرام قال لي: لنا جار يسكن فوقنا، اغتصب بيتاً لأولاد أخيه الأيتام، وبذلوا كل ما بوسعهم كي يسترجعوا البيت من عمهم، فرفض فاحتكموا إلى أحد علماء دمشق، واستدعاه، ورفض بوقاحة أن يرد البيت لأولاد أخيه الأيتام قال لهم هذا العالم: لا يليق بكم أن تشكو عمكم إلى القضاء، اشكوه إلى الله، هذا الحدث كان الساعة التاسعة مساءً هو نفسه الذي مدّ رأسه ليرى من أين أتى إطلاق الرصاص فجاءت رصاصة استقرت بعموده الفقري بعد اثنتي عشرة ساعة.

الإنسان المشاهِد يعجب من هذا الذي حدث، لكن لو تعمقت في هذه القصة، وفي فصولها الأولى لعرفت أن كل شيء وقع أراده الله، وأن كل شيء أراد الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ ﴾ [إبراهيم:٤٢].

يوظف الله عنفهم وظلمهم للخير المطلق، والدليل: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص:٤-٦].

إذاً الشرّ المطلق لا وجود له في الكون لأنه يتناقض مع الخير المطلق، لأنه يتناقض مع وجود الله، فالله عزّ وجلّ يوظّف شرّ البشر لصالح البشر، بل ما من طاغية يطغى، أو يسمح الله له أن يكون طاغية إلا ويوظّف الله طغيانه لخدمة دينه، ولخدمة المؤمنين دون أن يشعر، أو يريد، وبلا أجر، وبلا ثواب.

نصيب المؤمن من اسم الله (الحكيم)

الحقيقة أن الحكمة أكبر عطاء إلهي، أنت بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة الثانية، ومن دون حكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى، أنت بالحكمة تتدبر معيشتك بدخل محدود، ومن دون حكمة تبدد الأموال الطائلة، أنت بالحكمة تقلب الأعداء إلى أصدقاء، ومن دون حكمة تجعل الأصدقاء أعداء.

لذلك قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٩].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص:١٤].

ولقد اجتمعت مرةً مع شخص يحمل شهادة الدكتوراه في التربية والدكتوراه في العلوم الفيزيائية، فحسبته جمع المجد من طرفيه دكتوراه في التربية، ودكتوراه في العلوم الفيزيائية، وفي أثناء اللقاء أخبروني: أنه لا يصلي، وهو في الخمسين، والله الذي لا إله إلا هو سقط من عيني كما يسقط النجم إلى الأرض، أوَ كلُّ هذا العلم وأنتَ لا تصلي؟ فهذا الإله العظيم ألا يستحق أن تعبده؟

يقول الإمام الغزالي: «من عرف جميع الأشياء، ولم يعرف لله عز وجل لا يستحق أن يسمى حكيماً».

وأنا بدوري أُعبِّر عن هذا المعنى على النحو التالي: إن الذكاء ذكاءان، فذكاء جزئي وذكاء شمولي، فهذا من حيث الذكاء الجزئي طبيب متبحّر في العلوم دقيق الفهم لّماح الحِكم، قوي الحافظة، ولكنه يعصي الله لأنه لم يُفكِّر فيما بعد الموت، ولأنه لم يفكر فيمن خلقه، ولأنه لم يفكر في منهج هذا الخالق العظيم، ولأن لم يطمح إلى مرضاة الله عز وجل، ولأنه لم يرَ عظمة الخلق ولم يرَ من خِلالها عظمة الخالق، فهو مدموغ بالغباء ولو كان من أذكى الأذكياء.

إذاً من الحقِّ أن نقول: هناك ذكاء جزئي يتعلق بالجزئيات، وهناك ذكاء شمولي يتعلق بالكليات، فمن غفل عن ربه وخرج عن منهجه وانغمس في الشهوات، ولو كان في اختصاصه في القمة، وفي فرعه العلمي في الأوج، ولو حصَّلَ أعلى الشهادات، فإن دمغة الغباء سمته الأولى.

الناس على ما هو معروف يهنِّئ بعضهم بعضاً دائماً، فتهنئةٌ بشراء منزل، وتهنئة بنيل منصب، وتهنئة بنيل شهادة علمية، وتهنئة بمولود، وتهنئة بزواج، وتهنئة بشراء مركبة، وتهنئة بسفرة ببعثة إلى خارج بلدك... أما أنا فوالله لا أرى أن كلمة التهنئة تقال على حقيقتها إلا إذا اصطلحتَ مع الله حقاً وصدقاً.

لذلك هناك عقل، وهناك ذكاء، الذكاء متعلق بالجزئيات، إنسان يحمل اختصاصاً نادراً، يحمل اختصاصاً في الفيزياء النووية، في الكيمياء العضوية، في الرياضيات الفلكية، اختصاصات نادرة، تدر على صاحبها أمولاً طائلة، فالذكاء متعلق بالاختصاصات المحدودة أما العقل متعلق بالكليّات.

قد تحمل أعلى شهادة، باختصاص نادر، لكن لأنك لا تصلي، لأنك لا تعرف الله، لأنك لا تعمل لآخرتك فلست عاقلاً، أقول أنت ذكي ولكن لست عاقلاً.

لذلك قالوا: ما كل ذكي بعاقل، تكون عاقلاً إذا عرفت الله، عرفت سر وجودك وغاية وجودك.

«رأس الحكمة مخافة الله تعالى»، إن لم تخف الله عز وجل فأنت لا تعرف من الحكمة شيئاً.

«الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» [أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس]، فالعاجز يعيش لحظته، ويعيش حظوظه، وميوله، ورغباته، أما الكيِّس فيعيش حياة ما بعد الموت، يُعِدُّ لها منذ الآن.

«ما قلَّ وكفى خير مما كثُر وألهى» [رواه أحمد في مسنده من حديث أبي الدرداء]، يعني ما يكفيه لا ما يطغيه، ولا ما يلهيه، أجل، ما يكفيه، إذ غاية كل حاجتك أن تكون صحيح البدن مكتفياً، تقطُن في بيت، الحاجات الأساسية فيه موفورة! هذا هو الغِنى، أما أن تفهم الغِنى أن يزداد الرقم الذي تملك، فهذا ليس هو الغِنى.

قال ﷺ: «من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في بدنهِ عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» [ابن ماجه والترمذي من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري].

كُن ورعاً تكن أعبدَ الناس، وكُن قَنِعاً تكن أشكر الناس، و«من حُسن إسلام المرء تركُهُ ما لا يعنيه» [ابن ماجه والترمذي من حديث أبي هريرة]، و«السعيد من وُعِظَ بغيره» [ابن ماجه من حديث عبدالله بن مسعود]، و«الصمت حِكَم وقليلٌ فاعِلُهُ» [البيهقي في شعب الإيمان، موقوف من قول لقمان

الحكيم]، و«القناعة كنز لا يفنى»، و«الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله» [البيهقي في الآداب مرفوعاً وموقوفاً عن عبدالله بن مسعود]، والحقيقة هذه الحِكم مبذولةٌ بين أيدينا، فيمكن أن تشتري كتاباً في الحديث الشريف، فتجد الحكم كلها فيه ولكن بين أن تقتني الكتاب وتقرؤه شيء، وأن تعيش هذه الحِكمة شيء آخر، البطولة أن تعيش هذه الحِكم، وأن تطبقها إلى واقع ومشاعر ومواقف وسلوك.

فالمؤمن الحق حكيم، ومن أين يستقي حِكمَتَهُ؟ من معرفته بالله... فإن كان لديك آلة معقدة جداً، ولديك تعليمات دقيقة عنها فأنت تكون حكيماً لو نفذت هذه التعليمات التي هي من عند الصانع، القضية سهلة جداً، وإذا قرأت القرآن وفهمته، وفهمت السنّة المطهرة فأنت بمجرد أن تُطبّق أمر الله عز وجل وأمرَ النبي ﷺ فأنت حكيم، فمثلاً، غضُّ البصر حكمة بالغة، فأنت إذ غضضتَ بصرك عن محارم الله فلا بد أن تبقى في حياتك امرأة واحدة وليس مسموح لك غير زوجتك والحكمة تقول: إنك تُقبل على هذه الزوجة إقبالاً يجعل الود بينكما متنامياً، فلو كانت لك منافذ أخرى لنشأت في البيت بعض المتاعب الزوجية.

وهناك نقطة مهمة جداً، وهي قاعدة في المنطق وهي: «الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به» فيمكن أن نأتي ببدوي ونعطيه سيارة من أحدث السيارات، وهو سائق ماهر، يتمتع بسرعتها وتكييفها وصوتها الناعم، وبكل ميزات هذا السيارة وهو لا يفقه شيئاً من أساليب صناعتها، واليوم صار عند كل الناس أجهزة متقدمة كثيرة، فالذي عنده مكيّف مثلاً هل يعرف مبدأ عمله؟ إنه يكتفي بأن يضغط المفتاح ثم يقول لك: تكيّفنا، والذي عنده براد هل يعرف مبدأ عمله؟ ومن يركب طائرة وهي خلاصة علم البشرية كلها؛ وكل من سافر فيها يقول لك: حلقنا على ارتفاع أربعين ألف قدم، وأكلنا طعاماً ساخناً، ورأينا الغيوم... فالانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، فأنت لمجرد أن تطبق أمر الله عز وجل سواء أعرفت حكمتَه أم لم تعرف؟ أتعمقت في تحليلها أم لم تتعمق؟ تقطف ثمارها كلها، هذا الذي أريد أن أقوله لكم... أمَرَكَ بغض البصر

فأطعت، وأمَرَكَ أن تكون صادقاً، والحكمة كلها في الصدق، وكلما كنت صادقاً عند الناس ارتفع شأنك فشعرت بمكانة الرجل الصادق فأنت رأسُكَ مرفوع.

ذكرت قصة فيما سبق، فيها عبرةٌ بالغةٌ وهي أن سائق سيارة رأى امرأة ملفعة بعباءة فأشارت إليه فوقف، والسيارة من سيارات الأجرة طبعاً، قالت له: خذني إلى المكان الفلاني، وفي منتصف الطريق خلعت ما عليها، وأعطته مبلغاً بالعملة الصعبة كبيراً جداً، وقالت: خذه واقض حاجتي، أخذ المبلغ الضخم وقضى حاجتها وحاجته، وأعادها إلى مكان الانطلاق، وأعطته رسالة، فقرأها وصُدِم، إذ هنأته على أنه أصبح عضواً في نادي الإيدز، إنها مصابة بهذا المرض الخبيث، وتريد أن تنتقم من الناس جميعاً، ومعها عملة مزورة أيضاً، فذهب ليبدل هذا المبلغ بالعملة المحلية، فوقع تحت قبضة العدالة! فقولوا بربكم: أيمكن لمؤمن أن يقع في هذا الفخ؟ ذاك مستحيل، إنه يخاف من الله... ولا بد من صرفها بصورة من الصور.

فأنت حينما تُطبّق أمر الله حكيم، دون لف أو مواربة أو تعقيدات، الله أمرني ألا أكذب فلا أكذب، وألا أغش فلا أغش، أما تحليلات الغش: فهناك قانون اقتصادي، تروج به الدول الغنية بضاعتها فتعطي قروضاً للدول الفقيرة حتى ينشأ عندها قوة شرائية، ثم بعد ذلك تقع تلك الدولة تحت نير الديون للدول الكبرى فتستغلها أبشع استغلال، لكن المسلم عندما يؤدي زكاة ماله، وكل غني يؤدي زكاة ماله كذلك، فينفرج الفقير ويصير ذا مال ويتمكن من أن يشتري قميصاً وبزّة وحذاء وحاجات زائدة وسيوسع على أهل بيته، دون أن يبتز أحداً أو يحمل أحداً ديوناً، ومن جهة أخرى عندما دفعت زكاة مالك قطفت كل ثمار الزكاة، فالفقير صار بخير وأنت بخير، ونلت ثواب الله الجزيل.

إذاً مَن هو الحكيم؟ هو الذي طبّق تعليمات الصانع، هذا هو الحكيم.

أحياناً يكون له موقف ليس فيه تعليمات، إذ ينشأ ظرف ليس فيه نص آية ولا حديث حول هذا الموقف العارض، فالحكمة تأتيك إلهاماً من الله. إذاً إما أن تكون الحكمة في أساسها نصاً قرآنياً أو حديثاً نبوياً تُطبِّقُهُ فتغدو حكيماً، وإما أن تكون الحكمة

إلهاماً يُلقى في قلبك، لأنك تطلب رضاء الله عز وجل، وتتكلم الكلام المناسب في الوقت المناسب، مع من يناسبُ في المكان المناسب: تعطي وتمنع، وتغضب وترضى، وتصالح أو لا تصالح، فهذه المواقف المتجددة والتي ليس لها بين النصوص نص واضح معلق بها، تصل من الملائكة حينما يلقون في روع الإنسان بعض الإلهامات، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص:٧].

هذا وحيُ إلهام وليس بوحي رسالة، فأحياناً يقول لك: لِمَ ذهبت وأنت لا تعرف؟ فالله عز وجل يسوق لك الخير الكثير من حيث لا تدري، أو يرد عنك أذىً أو شراً من حيث لا تدري أيضاً، فهذه هي الحكمة، فكن مع الله دائماً، فإن واجهت موقفاً فالله عز وجل يُلهِمُكَ الصواب، وهذا عين دعاء الصديق: «اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه، وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه».

إذاً أنت تكون حكيماً باتباع أمر الله وأمر النبي ﷺ، وحينما تشعر بانقباض أو انشراح فهذا نوع من إلهام الله عز وجل لك، والإنسان كلما كان أكثر إيماناً كان أكثر حكمةً، والنبي ﷺ كانت حكمته من أعلى مستوى، لأنه قريب مباشرة من الله عز وجل، ومن الناس من يمشي في طريق مليءٍ بالحفر والأكمات، والحشرات المؤذية، وعلى جانبيه أشجار ثمارها يانعة، فلو أن لديه مصباحاً كاشفاً فهل يمكن أن يخطئ؟ لا إذ بالمصباح الكاشف يرى الحفرة فيتجنبها، ويرى الأكمة فيبتعد عنها، ويرى الثمرة فيأكلها، ويرى الحشرة فيقتلها، فمن أين يأتي الحمق؟ من العمى. قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٦].

إني لأرى أحياناً أن إنساناً ما يطلّق زوجته بحُمق، وبلا أسباب موجبة في ساعة غضب، وهذا عمى حقاً، فإذاً الحمق أساسه العَمَى وهو يُردي، والحكمة أساسها البصيرة في القلب، ونتائجها لا تردي: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا

وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

كان أعمى في الدنيا، فنسي أمر الله فآل إلى زوايا النسيان والإهمال، أما نحن -المؤمنين- فحكمتُنا في اتّباع القرآن الكريم، وفي اتّباع السّنّة المطهّرة، وكلما كنّا أكثر إخلاصاً وأكثر ورعاً واستقامةً ألهمنا الله رشدنا.

الحكمة أيضاً جعلت أسلوباً في الدعوة إلى الله.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ [النحل:١٢٥].

يجب أن يكون كلامك حسناً، لأنه دعوة إلى الله.

النبي ﷺ أوتي الوحي، أوتي القرآن، أوتي المعجزات، أوتي الفصاحة، أوتي جمال الصورة، أوتي كل شيء، ومع ذلك يقول الله له أنت أنت يا محمد، على كل هذه الخصائص ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وتجد إنساناً ليس نبياً، ولا رسولاً، ولم يؤتَ القرآن، ولم يؤتَ الوحي، ولم يؤتَ المعجزات، وليس فصيحاً، وليس جميل الصورة، ومع ذلك في دعوته غلظة وفظاظة!

فالمؤمن حكيم، والمؤمن يفعل الشيء المناسب في الوقت المناسب، في المكان المناسب، مع الشخص المناسب، فأي مؤمن اتصل بالله عز وجل يشتق منه الحكمة، وكل إنسان طبق تعليمات الصانع يعد حكيماً، وكل إنسان أطاع الله يعد حكيماً، وكل إنسان توجه إلى الله يعد حكيماً، وكل إنسان عمل لآخرته يعد حكيماً، نسأل الله جل جلاله أن يرزقنا الحكمة.

التواب

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في ستة مواضع معرّفاً بـ (الـ) كما في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة:٣٧].

وقد ورد أيضاً في ستة مواضع، منوناً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور:١٠].

أما في السنة فالنبي ﷺ كان يدعو ويقول: «رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم» [الترمذي و ابن ماجه عن عبد الله بن عمر].

من معاني (التواب)

«التوّاب» في اللغة من صيغ المبالغة، على وزن (فعّال) وصيغ المبالغة في أسماء الله الحسنى، تعني الكم والنوع، فهو جل جلاله يغفر جميع الذنوب كماً، ويغفر أكبر الذنوب نوعاً.

واسم التوّاب من فعل تاب يتوب توبة وتوباً يعني رجع، وآبَ بمعنى رجع، وأنابَ بمعنى رجع، وثابَ بمعنى رجع. تقول: ثابَ إلى رُشده. أي: رجع إلى رُشدِه،

وأنابَ إلى ربه وتابَ، أي: رجع، وآبَ، أيّ: رجع، كلُّ هذه الأفعال بمعنى رجع، إذا قلنا: الله تواب، أي: يعود على عباده بالخيرات، ويعود على عباده بالإحسان، ويعود على عباده بالرحمة وبالغفران

أما تعريف التوبة اللغوي فهو: الرجوع عن الشيء إلى غيره، بل هو ترك الذنب على أجمل وجه، وهو أبلغ وجه من وجوه الاعتذار، فالاعتذار على ثلاثة أوجه، عملت عملاً، إما أن تقول لم أفعل هذا، هذا اعتذار، الرواية التي بلغتك ليست صحيحة، لم أفعل هذا، من هنا قال الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات:٦].

أو أن تقول: فعلته، ولكن كان قصدي شريفاً، لم أقصد المعنى الذي توهمته، هذا وجه آخر والوجه الثالث تقول فعلت، وأسأت، وقد أقلعت عن هذا الذنب، هذا هو الاعتذار الأسلم، هذه هي التوبة، أن تقول: فعلت، وأسأت، ولن أعود إلى هذا العمل.

أمّا التائب فهو المذنب الذي يسأل ربه التوبة، والتائب هو الله الذي يقبل التوبة، نقول هذا الإنسان المذنب تائب، وهذا الإله العظيم توّاب، أي قَبِل التوبة.

والتوبة مخرج النجاة للإنسان حينما تحيط به خطيئاته. وهي تصحيح المسار، حينما تضله أهواؤه وهي حبل الله المتين، حينما تغرقه زلاته. وهي الصراط المستقيم حينما تنحرف به شهواته.

مخرج النجاة الوحيد هو التوبة، والتوبة هي صمام الأمان.

بعض الأوعية البخارية لها صمام أمان، فإذا ارتفع الضغط كثيراً بدل أن تنفجر هذا الصمام يزيح، والبخار يخرج.

عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي وَالله لله أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالفَلَاةِ وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ

شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ».

التواب يعامل عباده بأعلى درجات الرحمة

يمكن أن تُفتح مدرسة وتكون أنت مديرها، وأن يُسجل الطلاب فيها، وأن يوضع لهذه الثانوية نظام داخلي دقيق جداً، وأن تستقبل الطلاب، وأن تُلقى المحاضرات، وأن تُجرى المذاكرات، وأن تعين مواعيد الفحوص، وأن تُجرى الفحوص، وأن ينجح من يستحق النجاح، ويرسب من يستحق الرسوب، وأنت في أعلى درجات العدل؛ فإذا طلبت علامات الطلاب من مدرسيهم بعدَ شهر من بدء العام، وتابعت المُقصّر، وجئت به، ونصحته فلم يرعَوِ؛ فهددته، وأحضرت وليّه، وضغطت عليه إلى أن غيّر خطته، وضاعف جهوده فإذا هو من الناجحين فأنت الآن في أعلى درجات الرّحمة؛ لكنك لو أهملت هذا الطالب وعاملته وفق النظام الداخلي، فأنت في أعلى درجات العدل، أما إذا تتبعت أحواله وقبل فوات الأوان، ووجّهته ونصحته وضغطت عليه حتى غير أسلوبه، وضاعف جهده فاستحق النجاح فأنت الآن في أعلى درجات الرحمة.

يمكن أن تُرسل ابنك إلى بلدٍ غربي وأن تُعطيه المبلغ الذي يلزمه، وأن تُهمل أخباره، ثم بعد أربع سنوات تفاجأ بأنه قد ضيّع هذا المال على شهواته وأنه لم يدرس أبداً، وعاد بخُفي حنين، فتقول له: يا بني أنا بذلت من أجلك كل شيء، وأعطيتك هذا المبلغ الضخم وضيّعتَه، فأنت في أعلى درجات العدل، ولكنك إذا تتبعت أخباره، وذهبت إليه تارةً واستقدمته تارةً، وقلّلت المصروف تارةً، وهددته تارةً، ورغّبته تارةً، وشجعته تارةً، حتى عاد إليك بعد أربع سنوات وهو يحمل درجة الإجازة فقد عاملته مع العدل بأعلى درجات الرحمة.

قد تعيّن موظفاً تحت التدريب مدة ستة أشهر، فيمكن أن تراقبه فقط فكلما أخطأ سجلتها عليه خطيئة، حتى يصبح حجم أخطائه لا يحتمل فتفصله وأنت في بحبوحة، لأن هذا الفصل كان ضمن ستة الأشهر، فأنت ماذا فعلت؟ عاملته وفق قيم العدل،

فالعقد: ستة أشهر، تحت المراقبة والتجريب؛ ولكنك إذا أردت أن تعامل هذا الموظف بالرحمة، فكلما أخطأ تقول له: لا، هذا لا يصح، وهذا هو الصحيح، فإذا هو يستقيم شيئاً فشيئاً، وبعد حين يعجبك وتتمسك به، شتان بين أن تعامل من حولك بالعدل، وأن تعاملهم فوق العدل بالرحمة.

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ومنحه العقل، وجعل الكون نعمةً، كلُّ ما فيه يدل على أسمائه الحسنى، وأعطاه العقل، وركّب فيه الفطرة، وزوّده بالشرع، وخيّره وأودع فيه الشهوات، وأعطاه قوّة، فلو تركه إلى أن يأتي أَجَلُهُ، فإذا هو من أهل النار. فقد عامله عزّ وجلّ عامله بالعدل، لكنّه لما كان في مقتبل حياته لو أنه اتجه إلى أن يسرق فأدبه الله عز وجل وخوّفَهُ تارةً وأدبه تارةً وضيّق عليه تارةً وجمعهُ مع أهل الحق تارةً، وقبضه تارةً، وشرح صدره أخرى، إلى أن صلح أمر هذا الإنسان وصار من أهل الجِنان، كيف عامله الله عزّ وجلّ؟ بالرّحمة، والمتابعة، الله معك في كل خطراتك، معك في كل حركاتك، معك في كل تصوراتك، معك في كل طموحاتك، معك في سرِّك، معك في جهرك، معك في خلوتك، معك في جلوتك، معك في كل حال من أحوالك، وكل شأن أنت فيه هو معك، وله شأن، كل شأن أنت فيه فلله معك شأن يقابله؛ إن كان شأنك الإعراض فشأنه التأديب، وإن كان شأنك الإقبال، فشأنه التجلّي، وإن كان شأنك العدوان، فشأنه العقاب؛ وإن كان شأنُك الإحسان؛ فشأنه الإكرام، أي: المتابعة، فأنتَ لن تكون رحيماً إلا إذا تابعت من حولك المتابعة اليومية، حتى في الدعوة إلى الله عز وجل، فهناك عالِم وهناك مربٍ، فالعالم يُلقي الدرس وانتهى الأمر لا يعنيه المجتهد ولا مَنْ فهم، ولا من استوعب، ولا من لم يستوعب، ولا من طبّق، ولا من لم يُطبق، ولا من تقدّم، ولا من تأخر، ولا من حضر ولا من غاب، ألقى الدرس وانتهى الأمر، فهذا اسمه في عالم التدريس معلّم، لكنَّ المُربي هو الذي يتابع، وذات يوم سألني سائل: فقال إنك تحدثنا عن علم الشريعة وعن علم الطريقة، وعن علم الحقيقة، فالأمر واضح تماماً عندي بين علم الشريعة وعلم الطريقة، ولكن ليس لدي الوضوح الكامل بين علم الطريقة وعلم الحقيقة؟

أردت أن أشرح له فشعرت أن الموضوع دقيق جداً، فأُلهمتُ مثلاً طَرِبَ له، قلت: جبل شامخ فيه تِلال ووديان ومسارب ومداخل، وفي قمته قصر منيف فيه كل شيء تشتهيه النفس، هناك علماء ثلاثة: عالمٌ يُبيّن لك أن في هذا القصر ثلاثمئة غرفة وفيه أبهاء مدفَّأة وفيه تكييف، وفيه من أنواع الطعام ما لذّ وطاب، وفيه حدائق وغرف نوم وثيرة، فهذا العالم يبين لكَ ما في القصر فهذا عالم الشريعة، وقد قال لك: القصر مُدفأ وأنت تشعر بالبرد، فيه طعام نفيس وأنت جائع، والقصر فيه راحة تامة وأنت متعب.

أما عالم الطريقة فهو يعرف طريقاً لهذا القصر من أين تذهب، وفي أي مركبة تركب؟ وكيف تقدم الوثائق عند الحواجز وكيف تصل إلى هذا القصر؟ يبين لكَ طريق الوصول إليه، وأنت واقف في مكانك، لكنَّ عالِم الحقيقة هو الذي يأخذ بيدك ويُدخلك إلى القصر.

كلُّ النعيم وكلُّ الدفء، وكلُّ الطعام الطيب، وكلُّ الفرش الوثيرة، وكلُّ الأمن، وكلُّ المناظر الجميلة، وكلُّ النباتات الرائعة، وكلّ الفواكه الطيبة، كلها في هذا القصر، والذي يأخُذ بيدك ويدخلك إلى هذا القصر، هو المربيّ، والذي يصفُ لكَ الطريق إليه، هو عالم الطريقة، والذي يصف لكَ القصر وما فيه وأنت في مكانك؛ هو عالِم الشريعة، فإذا أردنا ان نبقى في مصطلحات الإسلام فهناك إسلام، وهناك إيمان، وهناك إحسان.

الإحسان أن تدخل لهذا القصر، وأن تستمع بما فيه، وفي الحقيقة هو الهدف الأخير وهو المعول عليه. فالله عزَّ وجل خلقنا للجنة وخلقنا لسعادة أبدية:

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود:١١٩].

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦].

هذا هو الهدف، فمن الممكن أن تُخلق للجنّة، وأن يُعطيك الله العقل والفِطرة، والاختيار والشهوة، والكون والقوة والتشريع، وانتهى الأمر، ترى إنساناً يمشي في طريق متعرّج، في طريق العدوان، في طريق الانغماس في الملذات متنكراً للمنهج الإلهي،

فهذا ينتهي به المصير إلى جهنم، لكن ما الذي يحصل؟ إنَّ ربنا عز وجل لا يدعه هكذا؛ بل يتدخل، يلفت نظره ويُسمعه الحق، فإن لم يستجب فإنه يَسوق له بعض الشدائد فيما بينه وبينه، فإن لم يستجب يرفع مستوى الشدَّة، وسماه الله عذاباً صُعَداً.

والطبيب أحياناً يصف دواءً بمستوى مئتين وخمسين وحدة، فإن لم يستفد المريض يغيره إلى مستوى خمسمئة، فإن لم يستفد تصبح سبعمئة وخمسين، ثم تصبح ألفاً، كلما كان تأثير الدواء ضعيفاً رفع الطبيب مستواه.

توبة العبد بين توبتين من الله تعالى:

توبة العبد إلى ربه تسبقها توبة من الله وتعقبها توبة، فأما التي تسبقها فهي أنه جلّ جلاله فتح لك باب التوبة، وقد يسوق لك من الشدائد ما يدفعك إلى التوبة دفعاً، وأما التوبة التي تعقب توبة العبد فهي أنّه جلّ جلاله يقبل توبتك ويثيبك ويثبّتك عليها.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة:١١٨].

فما معنى تابَ عليهم؟ تابَ عليهم يعني أنه ساقَ لهم من الشدائد كي يحمِلَهُم على التوبة، فلو تركهم هملاً، وأمدّهم بصحةٍ جيدة وبأموالٍ كثيرة وأمطارٍ غزيرة وبلادٍ جميلة وهم غارقون في شهواتهم، في ملاهيهم، في أفراحهم، في نواديهم، في سُكرهم وانحرافهم في كل الملذات، فلو أن الله عز وجل تركهم هكذا فهو ليس تواباً، ولكن يسوق لهم من الشدائد ليتوب عليهم.

أعرف رجلاً رَبِحَ أرباحاً طائلة، وأراد أن يمتّع نفسه فأزمعَ السفر إلى أمريكا، وكأنه يتمنى أن يفعل فيها ما يشتهيه، وأن يغرق في بحر المعاصي، وهناك شعر بألم شديد في ظهره فتوجه إلى مستشفى، وصوَّر عموده الفقري، فكانت نتيجة التشخيص؛ ورماً خبيثاً في النخاع الشوكي، سمعت من أخيه تتمة الخبر بأنه لم تقوَ قدماه على حمله حينما سمع الخبر، قطع رحلته وعاد إلى الشام ومن مسجد إلى مسجد ومن مجلس علم إلى مجلس إلى أن تاب إلى الله توبةً نصوحاً.

هذا الذي ساقه الله إليه حمله على التوبة، فلو أنه تركه هكذا بصحة جيدة، وقوة ومال وغِنى، وعاد من نزهته الجميلة بعد شهرين أو ثلاثة ليُتابع عمله التجاري، وليُعيد الكرّة في العام القادم إلى أوروبا وهكذا... حتى مات... لكان غير كريم على الله.

أعرف رجلاً ذكياً جداً، لكنه يتفنن بالسخرية من الدين ومن علماء الدين، يعدّ الدين كلّه خُرافة، فابتلي فجأة بحالةٍ مرضية، وفجأة رأيته في حالة على غير ما أعرفه بها، وهي حالة إنابة، فلما سألته عن حاله قال: أنا وزوجتي منذ سنة تُبنا إلى الله توبةً نصوحاً، وتحجَّبت زوجتي، واستقمْنا على أمر الله، وأنا أحضر عندك في المسجد مجالس العلم منذ ستة أشهر، فرحت له وبه فرحاً شديداً، ثم سألته: ما السبب؟ فقال: لي ابنة أصيبت بمرض خبيث في دمها، وكنت أحبها حبّاً جمّاً، وما زلت أعالجها في هذا البلد وذاك البلد حتى اضطررت إلى بيع بيتي، وفي نهاية المطاف راودني خاطر: أنك لو تبت إلى الله أنت وزوجتك لعلَّ الله يشفيها، فتابا إلى الله وشفاها الله عز وجل، وقبل سنة دُعيت إلى حفل عقد قران ألقيت كلمة في هذا الحفل، وقلت له: أهي هي؟ قال: هي هي.

والله أيها الإخوة القراء: كل حادثة أو واقعة أسمعها أحِسُّ أنَّ رحمة الله عز وجل لا حدود لها، فلو ترك العباد على معاصيهم وانحرافاتهم وشرودهم عن الله عز وجل وانغماسهم في الملذات وأكلِهم المالَ الحرام وتطاولَهم على الحقّ، فلو تركهم هكذا لاستحقوا النّار ولأُدخلوها ولكنّه يرحمهم، ومعنى ذلك أنه يتوب عليهم، أي: يسوق لهم من الشدائد ما يحمِلُهُم به على التوبة.

هناك رجل همُّه الوحيد أن يُفسد عقائد المؤمنين، وهو يؤمن في كل كُرية في دمه أنه (لا إله)، وأنّ كلّ شيء متعلق بالدين خرافة بخرافة، وهو يجهد في إفساد عقيدة كلّ مؤمن، جاءته بنت صغيرة وأحبّها حبّاً لا حدود له، ارتفعت حرارتها، أخذها إلى الطبيب ووصف لها الدواء وبقيت حرارتها مرتفعة، ومن طبيب إلى طبيب إلى أن قال له أحد الأطباء الكبار: حالة ابنتك نادرة جداً، في المئة ألف من الأطفال الصغار لا تشبه حالتهن حالة ابنتك، هذا مرض مستمر حتى الموت، حرارتها أربعون بشكل

مستمر، وهو يؤمن أنه (لا إله)، فما استطاع تحمّل هذه الصّدمة وبكى وتألم، وبعد حين اختلّ توازنه وصار يأتي بها إلى دائرته وهو شيء غير مقبول لكونه موظفاً، فخاف أن تموت في غيابه فلم يحتمل، تقول زوجته: بعد شهرين أو ثلاثة من استمرار حالتها المتردية قال لها: أريد أن أغتسل، اغتسل وقام ليصلّي، وهكذا قال حسب رواية زوجته، قال مخاطباً ربّه تعالى: يقولون إنّكَ موجود، فإن كنت موجوداً فإما أن تشفي ابنتي وإما أن تميتها وإما أن تميتني وقام وصلّى ركعتين، بكى فيهما بكاءً شديداً وهما أول ركعتين في حياته، وما إن سلّم من صلاته، حتى انخفضت حرارة ابنته، وشفاها الله.

من هذه الأحداث الواقعية الشيء الكثير؛ فمرةً بعد انتهاء درس المساء قال لي شاب: أريد أن أُقابلك، فحدثني وقال: والله يا شيخ ما من معصية تعرفها إلا وأنا اقترفتها، نشأت جاهلاً وعند رجل أكّدَ لي أنه (لا إله)، سوّل له أن افعل ما شئت، ثم حدثني عن نجاحه في التجارة وعن أرباحه الطائلة وانحرافه وانحطاطه وسفرياته، وقصته قصة طويلة معقّدة إلى أن عاجلته ضربة من الله عز وجل فحطمته فجأة فغدا بلا دخل، واعتورته أمراض وبيلة أصابته وأولاده وزوجته، فلم يعد يملك ثمن الطعام ولا ثمن الدواء، وتابع وصف ظروفه: والله كأنَّ مطرقة تطرُقُ رأسي كلَّ دقيقة، إلى أن مررت بأحد المساجد وسمعت المؤذن يؤذن فدخلت المسجد، وصليت لأول مرة في حياتي، وبكيت بكاءً شديداً، وعاهدت الله على التوبة، فهذه أحداث ووقائع وصلت إلى مسامعي خلاصتها أن الإنسان يجب أن يعلم أنه ما من رجل في الأرض إلا وله مع الله أوضاع وأحوال تنتهي بالإنابة، وهذا معنى اسم الله التوّاب.

وكثير من رواد المسجد سببُ مجيئهم إليه مشكلة كبيرة ساقَها الله إليهم ففزعوا وأنابوا، ورجعوا وتابوا، فقَبِلَهُم الله عزَّ وجل وتجلّى عليهم، وهناك أشخاص أصابهم مرضٌ عُضال، أحدهم خاطب الله عز وجل ضارعاً متوسلاً، وهو في غرفة العمليات لاستئصال الورم الخبيث قال: يا رب أعاهدك إن شفيتني من هذا المرض ألا أعصيك ما حييت، وشفاه الله من هذا المرض فبقي ثابتاً على عهده، فلولا هذا الورم الذي ساقه الله له ما كان ليتوب.

صدقوني أيها القراء الكرام أنّ عشرات بل مئات بل آلاف الحكايات التي انتهت إلى سمعي مصادفة فكيف لو أنني تتبعت الأمر؟ هذا معنى التواب، يعني: ﴿ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾ هي من أجمل آيات البحث، يعني ساقَ لهم من الشدائد ما يحمِلُهُم بها على التوبة، فمن هو الحكيم؟ الذي يأتيه طوعاً، والذي يأتيه وهو في الرخاء؟ هذه هي الحكمة، ولتكن إذاً حكيماً.

وطبعاً بعد المصيبة فالتوبة مقبولة وجيّدة، وبارك الله لكلٍّ من تاب بعد مصيبة، ولكنّ الأكمل والأقوى أن تعرفه في الرّخاء لا في الشّدّة، أن تعرفه وأنت غنيّ، وأنت قويّ.

وهذه آيةٌ ثانية: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾، يعني إذا جاءت توبة الله قبل توبة العبد فتعني الشدائد التي يسوقها للعبد، وإذا جاءت توبة الله بعد توبة العبد فتعني قبول التوبة، يحملك على التوبة، ثم يقبل توبتك، فأنت بين دافع إلى التوبة وقبول لهذه التوبة.

أنا أتمنى على كل أخ كريم أن يُجري مناقشة منطقية ويسأل نفسه: هل من تقصيرٍ أو انحرافٍ بدر مني وساقَ الله لي شدّة وأعادني إليه بعدها، فما بال أحدنا إذاً ينتظر الشدة أن تقع، إذاً فليعدْ إلى الله بلا شدة وبلا تأديب وبلا مشكلة وبلا مصيبة وبلا تضييق، هذا هو الذكاء، وهذا هو العقل، وهذه هي الحكمة، أما الشباب فليأخذوا العبرة من غيرهم، مما يقرؤون ويسمعون.

هناك شيء آخر: قالوا: الله عز وجل يتوب على عبده ابتداءً، أي: يسوق له من الشدائد ما يحمله على التوبة، وأما تمام التوبة أن يقبَلَها منه وأن يُثبِّته عليها، فمثلاً: لو قال عبد: يا رب أنا تُبتُ إليك، فهذا الذنب لا أقع فيه مرة ثانية، ولم يقل: يا رب ثبّتني، اللهمّ يا مثبّت القلوب ثبّت قلبي على دينك، ثبت قلبي على طاعتك، فلو قال: أنا تبت واكتفى بمقاله هذا، وقال: لم يبقَ عليه شيء بعد ذلك؟ فهذا الذي ينسب التوبة إلى نفسه ويعتدُّ بإرادته وبقدرته على متابعة التوبة ربما ضَعَّفَ الله مقاومته، فوقع في الذنب مرةً أخرى.

لذلك تمام التوبة قبولها والثبات عليها لأنَّ الإنسان إذا تاب من ذنب ثم عاد إليه يختل توازنه وينهار، فلو فعلت هذا الذنب للمرة الألف قبل التوبة أهون من أن تفعله مرة واحدة بعد التوبة، لأنك إذا فعلته بعد التوبة انهارت معنوياتك وشعرتَ كأنّ الطريق إلى الله عز وجل غير سالكة، أمّا الشيء الذي يُلفت النظر فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء:٢٧].

أعرابي ركب ناقة عليها طعامه وشرابه، ثم جلس ليستريح فشردت عنه فأيقن بالهلاك فجلس يبكي حتى نام، ثم أفاق فرأى الناقة عند رأسه فمن شدة فرحه اختل توازنه فقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» [مسلم، من حديث أنس بن مالك]. وفي رواية يقول ﷺ: «فالله أشد أفرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده» [متفق عليه من حديث عبدالله بن مسعود].

واللهُ عزَّ وجل يريد أن يتوب عليكم، إذا رَجَعَ العبدُ العاصي إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾.

جالسْ أهل الدنيا، جالسْ أهل الشهوات، جالسْ أهل الفجور، هذا الفاجر وهذا العاصي يتمنى أن يجُرَّكَ إليه حتى إنه يقول لك: ضعها برقبتي، ومَنْ أنت حتى أضع خطيئتي برقبتك؟ ثم يقول: الله توّاب رحيم وغفور رحيم ولا تُدقق فالله لا يدقق فما هذا الكلام؟! هذا ما يقوله الضالّ لمن يضلّ، فاسمع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ يجب أن تُقدّس هذه الإرادة الإلهية، فالله عز وجل يريد لكَ الخير، كما يريد لك السعادة الأبدية.

هذا الإنسان بعد حين سوف يُعذّب عذاباً لا يُحتمل، بينما هو الآن يركب مرحاً وفرحاً سيّارة، وهناك إنسان بعد حين سينال أعلى مرتبة وهو الآن يمشي على قدميه؛ التقيا في الطريق فمن هو الفائز؟ حسب الظاهر، الذي يركب المركبة الفاخرة، لكن

الفائز بعين العقل هو الذي يمشي على قدميه. تصوروا بيتاً فخماً جداً ثمنه مئة مليون فيه كل دواعي الترف، وله طريق وعلى هذه الطريق إنسان يمشي على قدميه ليتملك هذا البيت، وإنسان آخر يركب مركبة فارهة باتجاه أن يُشنق في ساحة عامة، التقى هذا الذي يركب المركبة مع هذا الذي يمشي إلى هذا البيت على قدميه في الطريق فهنيئاً لمن؟ أما بعيون رؤوسنا، فالتهنئة لراكب السيارة، وأما بعيون عقولنا فالتهنئة لمن يمشي على قدميه، فالأمور بخواتيمها.

﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٠].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة:١٢٦].

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧].

﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء:٧٧].

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [القصص:٦٠-٦١].

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم:٣٦].

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة:١٨].

﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القلم:٣٥].

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية:٢١].

عزيزي القارئ: معنى: الله تواب يعني يعود بالخير على عباده، فالأمطار من التوّاب عاد بها علينا، والهواء الذي نستنشقه من التوّاب عاد به علينا، وهذه الأجهزة التي تعمل بانتظام من التوّاب عاد بها علينا، وكلّ ما أنعم الله به علينا من التوّاب، فهذا المعنى الأول.

المعنى الثاني: تواب قبل التوبة، بمعنى يسوق لعباده الشدائد: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٧].

أمثلة بسيطة لو افترضنا أنَّ إنساناً كان منحرفاً فضيّق الله عز وجل عليه وخوّفه، وأرسل له شدائد إلى أن استقام على أمر الله، فذاق طعم القُرب ومعنى الهداية، وشَعَرَ بنعمة الاستقامة فإنه يقول: يا رب لك الحمد على أن سُقت إليَّ هذه الشدائد، والله إني ليسعدني أن أقول لكم من ابتلاهم الله ببعض المصائب: ثقوا بالله بلا حدود أنه سيأتي وقت يكشف لك الله فيه عن سرِّ هذه المصائب، فإن لم تذب كالشمعة حباً لله عز وجل؛ فهذا الكلام هراء، لكن ما شاء الله أن نقول، وإنما الأحداث تتكلم، واقرؤوا عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ، في أخبارهم وعقابيلها المُثُل الواضحة.

فالإنسان يجب أن يعرف أن الله عزَّ وجل تواب، ومعنى تواب يعني يحبنا، ودائماً نحن في العناية المشددة، في غرفة العناية المشددة تخطيط دائم، يُرى فيه عدد النّبض، والموجات بشكل مستمر، أنت في العناية المشددة، وأحوال القلب والأعراض على الشاشة، فمثلاً: إنسان يسير في الطريق تفكيره مضطرب، فيصطدم بعمود، إلى أين تسير يا عبدي؟ يكون ماشياً بشكل خاطئ، أو نظر إلى امرأة لا تَحِلُّ له فجأة تأتيه الصّدمة، ويُشجُّ رأسه، فالله عزّ وجلّ توّاب، أكلَ مبلغاً بالحرام فيُضيِّع الله له عشرة أمثاله ويُربيه.

عامل أصلَحَ عُطلاً في سيارة وأخذ من الزبون عشرة أمثال والزبون لا يعرف، فعاتبه جاره فأجابه: هكذا العمل، وفي اليوم الثالث دخلت في عين ابنه نثرة بُرادة فتكلّفَ له ستة عشر ألف ليرة في الجامعة الأمريكية. فذهب الحادث بربحه الحرام بالإضافة إلى التأديب.

أحد تجار الجملة جاءه شخص يريد شراء حاجات من عنده فطلب ست قطع فقط من ألبسة معينة، ولما كان هذا من شأنه أنه يبيع بالجملة فرآها إهانة له، وقال مستهزئاً بالزّبون: أنا لا أبيع بالمُفرَّق، فأقسم بالله من بعدها أنه مضى عليه ثلاثة وعشرون يوماً ولم يدخل إلى محله أو معمله إنسان، فالله عز وجل توّاب.

انظر إلى النحاس كم هو جميل، من كثرة الطَّرقِ أصبح جميلاً، وهكذا المؤمن كلما ازداد عليه الطرق يصبح أديباً، وكلامه يصير مضبوطاً، وليسَ عندَهُ كِبْر ولا تطاول، هذا معنى التأديب الإلهي وهو معنى التواب، أي: يعالجك حتى تصبح نقياً كالمَلَكِ تماماً.

وأقول وأكرر: إن معاملة الله للإنسان مُلخّصة بكلمتين: إما أن تأتيه راكضاً أو أن يأتي بك ركضاً، والله يعلم كيف يأتي بك، ويعلم كيف يخوّفك، ويعرف كيف يجعل ركبتيك ترتجفان، ويعلم كيف تسمع الخبر وتقع مغشياً عليك، فأقبل على الله طائعاً منيباً فهو الأجدى والأسلم.

أعرف رجلاً أسرَفَ على نفسه كثيراً وله جارٌ صالح نصحه فلم يرعوِ، ومات على معاصيه، ثم رؤي في المنام يرتدي ثياباً خشنة قميئة مهترئة ويدور حول بحرة ويقول: نصحني فلان ما انتصحت، يا ليتني انتصحت، لو أنه نصحكم فاسمعوا نصيحته، فالإنسان ما دام قلبه ينبض فالتوبة مفتوحة، وما دام القلب ينبض فالباب مفتوح فأدرك بنفسك رحمة الله فهي قريبة.

قال لي صاحب معمل: قبل عشر سنوات كنت أفقد مالاً، أضع ألفين مثلاً في جيبي ثم لا أجد شيئاً، فهنا عامل يسرقني وبقيت شهراً أراقب، والسرقة مستمرة بالمال والبضاعة، ثم توقفت السرقة وبعد عشر سنوات طرق بابي شاب ملتحٍ قال: أنا فلان

هل عرفتني؟ فقلت: نعم كنت عندنا في المعمل قال: كنت أسرق منك وتبت إلى الله عزَّ وجل، وها أنا بين يديك جئت لأردّ لك كل الذي أخذته منك، فقال له: والله نظير هذه التوبة وهذه الأوبة سامحتك، ولك مكان في معملي إذا شئت أن ترجع.

ما دامَ القلب ينبض، فالحل سهل، وكله يُستدرَك ويُصحَّح فممكن أن تؤدي الذِّمم المترتبة عليك سابقاً، وممكن أن تعيد الحاجات إلى أصحابها، كله ممكن فإما أن تأتيه طائعاً، وإما أن يحملك على أن تأتيه راغماً.

فالتوبة الأولى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ يحمل على التوبة، والثانية: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾ [النحل:١١٩]، يعني قَبِلَ توبتهم، وإذا قَبِلَ توبتهم يعني ثبَّتهم عليها.

تواب، أي: إنه لن يتركنا بل يُريدُنا، نحن مطلوبون إليه، خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليسعدنا في الدنيا والآخرة. فافهم أنَّ الحر تكفيه الإشارة، فإذا قصّرت يأتي بك، وأُحسُّ أحياناً أن كثيرين قد تركوا مجالس العلم، ثم لم يمض إلا أشهر حتى عادوا، فلعله حدثت لهم مشكلة فيهرول أحدهم مسرعاً، فابقَ ثابتاً لأن الله يدعوك إليه، ولا تكن كالقارب الصغير شأنه اضطراب باضطراب، ولكن كُنْ كالسفينة الراسخة: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢٣].

التوبة علم وحال وعمل

التوبة علم، وحال، وعمل، الإنسان متى يعالج نفسه من ضغط الدم المرتفع؟ بحالة واحدة، إذا علم أن ضغطه مرتفع، إذا اشترى جهاز ضغط، وقاس ضغطه، ورآه ٢٠-١٢ يعالج نفسه.

إذاً لن تتوب إلا إذا طلبت العلم، وعرفت الحلال والحرام، وعرفت ما ينبغي وما لا ينبغي، وما يجوز، وما لا يجوز، حينها تطلب العلم تقيّم عملك.

إذاً التوبة علم، الذي يطلب العلم يتوب، لأنه اكتشف أن هناك خطأً في دخله، في إنفاقه، في سلوك بنيه وبناته، في بيته، في علاقاته المالية، في هذه الصفقة، أمّا إذا لم يطلب العلم فإنّه يتوهم نفسه مستقيماً، وهو ليس كذلك.

تماماً كإنسان ضعيف باللغة، قرأ النص أمامنا وفي قراءته عشرات الأغلاط، وهو متوهم أن قراءته جيّدة، أما لو درس اللغة العربية لاكتشف أن أخطاءه لا تعدّ ولا تحصى.

إذاً التوبة علم، لابدّ من أن تطلب العلم، لتعرف الحلال والحرام، والخير والشر، والجميل والقبح، فالحسن ما حسّنه الشّرع، والقبيح ما قبّحه الشّرع، فإذا طلبت العلم واكتشفت الخطأ لابدّ من أن تندم، وأن تنفعل، فالندم توبة، لأنه سبقه علم، وسيأتي بعد هذا الندم السلوك.

فالتوبة علم، وحال، وعمل، العلم درست تفاصيل الشريعة، فعرفت الخطأ من الصواب، والحلال من الحرام، والخير من الشر، وما ينبغي، وما لا ينبغي، ثم تأثرت من أخطاء كثيرة أنت واقع بها.

فندمت، الآن المرحلة الثالثة هي العمل، أن تقلع عن هذا الذنب فوراً، وأن تصحح ما مضى، وأن تعقد العزم على أن لا تعود إليه مستقبلاً.

هذا معنى اسم التواب، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يتوب علينا، «إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله».

يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء:٢٧].

وقد قال العلماء: ما أمرنا الله أن نتوب إليه إلا ليتوب علينا وما أمرنا أن نستغفره إلا ليغفر لنا، وما أمرنا أن نسأله إلا ليعطينا، وما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا.

السميع

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في أربعين آية، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة:١٢٧].

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة:١٣٧].

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران:٣٨].

﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٣].

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال:٤٢].

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة:١٠٣].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج:٦١].

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور:٢١].

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [لقمان:٢٨].

وقد اقترن هذا الاسم مع اسم العليم في ثلاثين آية، ومع اسم البصير في عشر آيات، ومع اسم القريب في آية واحدة، وقد ورد أيضاً في صحيح البخاري من حديث أبي موسى الأشعري، أنَّ النّبيَّ ﷺ، رأى أصحابه يرفعون أصواتهم في الدُّعاء فقال: «أيُّها النّاسُ اربِعُوا على أنْفُسِكم -أشفقوا- إنكم ليس تدعون أصمَّ ولا غائباً إنكم تدْعُونَ سميعاً قريباً» [أخرجه البخاري و مسلم عن أبي موسى].

وقد روى أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري، أنَّ النّبيَّ ﷺ كان يفتتح صلاته فيقول: «أعُوذُ بالله السَّميع العليم، من الشَّيطانِ الرَّجيم» [أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري].

من معاني اسم الله (السميع)

السميع؛ صيغة مبالغة، من اسم الفاعل سامع، والفعل سمِع يسمَع والمصدر سَمْع.

وقد يكون السَّمْع صفة ذات، كما يكون صفة فعل، قال تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة:٧].

السَّمْع هنا هو الأذن، أيّ صفة ذات، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف:٢٩].

الله عزَّ وجلَّ سميع لكلِّ الموجودات، فهو يسمع كلَّ ما سواه، دون حاسَّة أو آلة كبني البشر، إذ ليس كمثله شيء، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

يقول بعض العلماء: «الله جل جلاله سميع؛ أي: لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي»، قد يكون صوتاً في النّفس، وقد يكون حديث النَّفْس للنَّفْس، قد يكون خاطرة تَرِدُ على البال، قد يكون تساؤلاً يَرِدُ على الفكر، فأيُّ شيء يخفى على النَّاس فإنّه لا يخفى على الله، فالله سبحانه وتعالى سميع لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي، فقد وسع سمعه كلَّ شيء.

وربُّنا عزَّ وجلَّ حينما ينعى على المشركين أنَّهم يعبدون من دون الله أصناماً، يقول جلَّ جلاله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:١٤].

المعنى المخالف؛ أنَّه من لوازم الإله الذي يجب أن تعبده أن يسمعك، دون واسطة، أحياناً تتَّكل على شخص مهمٍّ، إذا ناديته أجابك، إن سألته أعطاك، لك عنده مكانة كبيرة، لكنَّك في بلدة وهو في أخرى، قال لك: هذا رقم هاتفي، لو أنَّ هذا الهاتف معطَّل أو مغلق فلن تستفيد شيئاً، تناديه فلا يسمعك، هو يحتاج آلة ليسمعك بها، إذاً هو محدود بالنسبة لك، أمّا الإله الذي ينبغي أن تعبده، فيسمعك بلا آلة ولا حاسَّة، يسمعك وأنت في أيِّ مكان وفي أيّة حالة، يسمعك إن جهرت وإن أسررت: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم:٣].

حدثني أخ أنهى خدمته الإلزامية، وهو لا يملك درهماً واحداً، بحث عن عمل فلم يجد، أعطته أخته قطعة حُلِيٍّ لها، فباعها واشترى بثمنها بطاقة طائرة، إلى بعض دول الخليج، وسافر إلى هناك، أقسم لي أنه وهو في الطائرة، حدث نفسه حديثاً نفسياً، قال في

نفسه: والله لئن أكرمني الله بهذه السفرة لأبنينَّ لله مسجداً، أقسم بالله هذا الخاطر ما ذكره بلسانه... أخذ الله بيده وعاد إلى بلده، وبنى مسجداً، وصليت أنا في هذا المسجد، قال: هذا المسجد استجابة لنداء خفيٍّ ما ذكرته بلسان: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾.

بإمكانك أن تنادي ربَّك، وأنت ساكت، وشفتاك ملتصقتان، ولا أحد يعلم بهذا النِّداء، هذا الإله الذي يجب أن تعبده، خواطرك مكشوفة، دعاؤك مسموع، طلبك ملبَّى، استغفارك مجاب، توبتك مقبولة.

سيدنا يونس عليه السلام نادى ربَّه في بطن الحوت، والحوت في عمق البحر وفي ظلمة الليل: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

يسمعك، وأنت في بيتك وأنت في عملك، وأنت في طائرة، وأنت على ظهر سفينة، وأنت في أعماق الوادي وأنت في غابة وحولك وحوش كاسرة، وأنت في أيٍّ وضع يسمعك، إن نطقت وإن سكتَّ، إن ناجيته بخواطرك، وإن ناجيته بلسانك فهو سميع مجيب.

قال العلماء: هو السَّميع بغير جارحة، وقيل وسع سمعه كلَّ شيء، هو الذي يسمع نداء المضطرين، هو الذي يجيب دعاء المحتاجين: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [النمل:٦٢].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وأَبِي هُرَيْرَةَ قَالا: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُمْهِلُ حَتَّى إذا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَلُ، نَزَلَ إِلى السَّماءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ منْ دَاعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الفَجْر» [صحيح مسلم].

الله سميع لك في كلِّ أحوالك: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣-٢٢٠].

يراك ويسمعك ويعلم ما في نفسك.

إن تكلمت يسمعك، إن تحرَّكت يراك، إن نطقت أو سكتَّ فإنّه يعلم ما في نفسك، سميع بصير عليم، لا تحتاج إلى طلب ترفعه إليه، ولا إلى حلف، ولا إلى وثيقة ولا إلى شاهد.

إذا كنت في كلِّ حال معي ... فعن حمل زادي أنا في غنى

شخص ذكر لي أنَّه كان يحضِّر دكتوراه في بلد غربي، وأستاذه صعب جداً، واختار موضوعاً عويصاً، وأمضى فيه أربع سنوات، ثم وصل البحث إلى طريق مسدودة، وكان بحثاً في الرياضيات، في الفضاء الخارجي، فإن لم يصل هذا البحث إلى معادلة متوازنة فالموضوع كلُّه مرفوض، ومضى له به أربع سنوات، قال لي: ضاقت نفسي في الإقامة بهذا البلد، وحينما تصوَّرت أنّي سأعيد أربع سنوات أخرى كبرُ الأمر عليّ. فجأة خرَّ لله ساجداً، وقال: يا ربِّ، إن كنت تعلم أنني حضرت إلى هذه البلاد لأكتسب علماً أنفع به المسلمين وقد حرَمْتُ نفسي كلَّ المنهيات، وما من بيت في هذه البلاد يخلو من هذه المُلهِيات، حَرَمْتُ نفسي هذه الملهيات استحياء من وجهك الكريم، إن كنت عملتُ هذا العمل خالصاً لك فيسِّر لي هذا البحث، وهو إنسان صادق فيما أعلم.

فالله عزَّ وجلَّ ألهمه طريقة جديدة في حلِّ هذه المعادلة، بعد حين وصل بها إلى التَّوازن المطلوب، على حين كان بين الطلاب في مكتبة الجامعة، قال: فلم أملك نفسي إلا أن خررت على الأرض ساجداً شاكراً لله عزَّ وجلَّ، وبهذا حصَّل الدكتوراه، والآن هو أستاذ في الجامعة.

إلهٌ يقول لك: ادعُني أستجب لك فأنا أسمعك، أنت حينما تصلي ألا تقول سمع الله لمن حمده، يعني يا عبدي أنا أسمعك، فإذا قلت له: ربنا لك الحمد ملء السماء وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، وهو يسمعك، الإله الذي ينبغي أن تعبده ينبغي أن يسمعك، لأنه أَمَرَك أن تعبده، والعبادة دعاء، والدليل: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر:٦٠].

إذاً هو الذي يسمع نداء المضطرين، يجيب دعاء المحتاجين، يعين الملهوفين، يسمع حمد الحامدين، يسمع دعاء الداعين، يسمع دبيب النّملة السّوداء على الصّخرة الصّماء في الليلة الظّلماء، يسمع خطرات القلوب، يسمع هواجس النّفوس، يسمع مناجاة الضّمائر.

إنّك أيّها الإنسان إن خاطبك شخص وخاطبك آخر تقول له: انتظر أنا إنسان واحد... لكن خالق السموات والأرض لو أنَّ ستة آلاف مليون إنسان الآن دعوه معاً لسمع دعاء كلٍّ واحد منهم.

قال العلماء: «لا تمنعه إجابة دعاء شخص عن إجابة دعاء شخص آخر، لا يشغله سماع مخلوق عن سماع مخلوق آخر».

يا من لا يشغله شأن عن شأن! ولا سمع عن سمع! ولا تشتبه عليه الأصوات، يا من لا تغلطه المسائل! ولا تختلف عليه اللغات! يا من لا يبرمه إلحاح الملحين! ولا تضجره مسألة السائلين، أذقنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك.

نحن البشر إمكانياتنا محدودة، حتى إذا تصوّر رجل أنَّ هناك إنساناً يستطيع أن يفعل أشياء عديدة في وقت واحد فهذا وهم، الإنسان في وقت واحد لا يستطيع إلا أن ينصرف إلى شيء واحد، ولكن الذي يبدو للنّاس من أنّ فلاناً يستمع ويتّصل ويأمر وينهى في آنٍ واحد، هذا عنده قدرة نادرة اسمها سرعة التّنقّل من جهة إلى جهة، إنَّ

الإنسان في وقت واحد لا يستطيع أن يستمع إلا إلى شيء واحد، إلا أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يشغله سماع دعاء عن دعاء، ولا إجابة دعاء عن دعاء، ولو أنَّ الخلق كلَّهم توجَّهوا إليه، فإنّه يسمعهم جميعاً ويتوجَّه إليهم جميعاً، لكنَّ الإنسان يتوهَّم أنَّه إذا ناجى ربَّه فربُّه لا يستمع إلا إليه، هذا خطأ إذ لا يشغله دعاء عن دعاء ولا سماع دعاء عن دعاء ولا استجابة لعبد عن عبد.

يسمع كل نجوى، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

طبيب بإمكانه أن ينظر إلى جسد المرأة لعلَّة العلاج، فلو شطحت عينه إلى مكان آخر ولا يستطيع أحد في الأرض أن يكشف هذه المخالفة لكنَّ الله وحده يكشفها، أنت جالس في غرفة النَّوم المظلمة، خرجت جارتك إلى الشّرفة، من يستطيع أن يعرف أنّك تنظر إليها أو لا تنظر؟ هي لا تراك أساساً أنت في غرفة مظلمة وهي في الشرفة، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

أحياناً إنسان يُجري عقد نكاح في بلد غربيّ وفق الشّريعة الإسلاميّة تماماً، إيجابٌ، وقبول، ومهر وشاهدان، وعند القاضي، والأمر كلُّه وفق قواعد الشَّرع، لكنّه أخفى في نفسه أنَّه سيطلقها بعد أن ينهي دراسته، من يعلم ذلك؟ هل يستطيع القاضي أن يكشف هذه الحقيقة؟ لكنَّ الله تعالى يعلم خواطر الإنسان، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور، والإنسان حين يعرف أنَّه مكشوف أمام الله، ونياته البعيدة مكشوفة، وخطراته مكشوفة، عندئذ يستحي من الله، لذلك هنيئاً لمن أضمر الخير لكلِّ الخلق: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

قال أحد العلماء عن اسم السَّميع: «إنَّ الله سبحانه وتعالى يسمع دعوات عباده، ويسمع تضرُّعاتهم إليه، ولا يشغله نداء عن نداء، ولا يمنعه إجابة دعاء عن إجابة دعاء، وقيل: السَّميع هو الذي يسمع دعوتك عند الاضطرار، ويكشف محنتك عند الافتقار، ويغفر زلَّتك عند الاستغفار، ويقبل معذرتك عند الاعتذار».

خرج أحدهم من المسجد، والنّاس يجمعون مالاً لبناء مسجد آخر، قال لي: والله معي مبلغ محدود لا أملك غيره، مئتا ليرة، هممت أن أضعه ثمَّ قلت: لا، لا أملك غيره، لعلي أحتاج إليه قال لي: وقع في نفسي خطاب من الله: يا عبدي حينما كنت تنفق هل قطعناك من المال؟ قال: فاستحييت وألقيت المئتين في مكان التبرع، ثم قال: والله ما مضى ساعة أو ساعات إلا وجاءني مبلغ لم يكن يخطر على بالي إطلاقاً، لما امتنع شعر أنَّ الله علم بامتناعه، شعر أنَّ هذه الخاطرة من وسوسة النفس الأمارة بالسوء فخالفها.

وللتوضيح فالإنسان ليس مكلَّفاً أن ينفق كلَّ ما يملك، كثيراً ما قد يواجهنا حكم شرعيٌّ كما تواجهنا مواقف شخصيَّة، وهناك نقطة مهمّة من الله عزَّ وجلَّ إذ قال: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥].

قال المفسرون: لا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكة، فالتّهلكة إن أنفقتم كلَّ أموالكم، وكذلك لا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكة إن لم تنفقوا، فأنت هالِكٌ مرتين، هالكٌ إن أنفقت المال كلَّه، وهالِكٌ إن لم تنفق شيئاً، لكن هناك حالات خاصَّة ليست حكماً شرعيّاً إنما هي مواقف شخصيّة.

الإنسان قد يتعامل مع النّاس بطريق المؤاثرة، بطريقة البذل، بطريقة التضحية، والله عزَّ وجلَّ لا يخيِّب رجاءه ولا يمنع عنه عطاءه، فإذا ذكرت هذه الواقعة لا لأدعوكم إلى أن تنفقوا كلَّ أموالكم لا... لكنَّ الإنسان قد يواجه موقفاً حرجاً يضطره إلى أن ينفق، وهو لا يملك إلا مبلغاً محدوداً، فإذا أنفقه ليحلَّ مشكلة أخيه، فإزاء هذه الحالات الاستثنائية، الله عزَّ وجلَّ يهيِّئ تعويضاً جزيلاً لهذا الذي آثر أخاه، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر:٩].

السَّميع هو الذي أجاب دعوتك عند الاضطرار، وكشف محنتك عند الافتقار، وغفر زلَّتك عند الاستغفار، وقبل معذرتك عند الاعتذار ورحم ضعفك عند الذلَّة والانكسار.

وقيل: السَّميع هو الذي يسمع المناجاة ويقبل الطاعات ويُقيل العثرات.

السَّمع صفة لله عزَّ وجلَّ، يكشف بها كمال موصوفاته، فالله عزَّ وجلَّ كامل كمالاً مطلقاً، إذا وُجِد شخص أمامك، محترم، ذو شخصيّة جذّابة، وسيم الوجه، طليق اللسان، كلما تحدثت معه قال: ما سمعت؛ ارفع صوتك... لقد ضَعُف سمعه، أليس هذا نقصاً في كماله؟

الله جلَّ جلاله من لوازم كمال صفاته أنَّه سميع، لذلك نكشف بسمعه تعالى كمال صفاته، هذه الصفة تكشف حقائق المسموعات، كلُّ شيء يُسمع، فالله جلَّ جلاله يسمعه، وتنكشف له المسموعات انكشافاً تامّاً ليس بأذن ولا جارحة، نكشف نحن بصفة سماعه كمال ذاته، ويكشف الله بسمعه حالات كلِّ مخلوقاته.

مثلاً: مدير مدرسة، جالس في مكتبه، عنده ثلاثون شعبة وثلاثون مدرّساً، هل بإمكانه أن يستمع إلى كلِّ مدرس؟ ماذا يقول في لحظة واحدة؟ أحياناً يخرج من مكتبه ويدخل إلى أحد الصفوف، إذا دخل يسمع ما يقوله هذا المدرِّس فقط.

لكن لو افترضنا مثلاً، أنَّ مديراً وضع لَوَاقِطَ بكل شُعبة، بحيث إنه إذا أراد أن يستمع إلى ما يقوله فلان في هذه الشعبة، ضغط مفتاحاً يخرج صوت المدرس، نقول: إن هذا المدير معلوماته أدق ومسيطر سيطرة جيدة على المدرسة، لكنَّ المدير نفسه لو استمع إلى شعبة وضغط مفتاحاً آخر يضيع، هناك مسجّلات فيها جهاز مضاعف، هل تستطيع أن تضع في كل جهاز شريطاً وتستمع إلى الاثنين، لا تستطيع، إن استمعت إلى هذا شوّش عليك هذا، وإن استمعت إلى هذا شوّش عليك ذاك، الله عزَّ وجلَّ يسمع جميع خلقه في وقت واحد، وهذا من كمال صفاته.

قال العلماء: «إنّ صفة السَّمع زائدة على العلم» من باب التوضيح فقط، يمكن أن تستمع إلى دقّات قلب مريض، فإذا سمعت هذه الدّقات علمت مقدارها وقوّتها وشدّتها، فأنت الآن تعلم حقيقة قلب هذا المريض، فالعلم واضح.

فلو أنَّ هذا المريض لغته غير عربيّة، وتحدّث عن قلبه، وسمعت ما قال، سماعك لهذه اللغة غير علمك عن وضع قلبه، لو أنَّ المريض حدثك بلغته عن قلبه، فإن لم تكن أنت سميعاً، عِلْمك شيء وسماعك لما قاله عن قلبه شيء آخر، فلذلك العلماء قالوا: «صفة السَّمع صفة زائدة على العلم»، الله عزَّ وجلَّ عليم وسميع وبصير.

الله مُطَّلع على قلب كلِّ مخلوق، ولو أنَّ هذا المخلوق دعا الله بلغة غريبة، إضافة إلى أنَّ الله يعلم ما في قلبه، يسمع قوله بأيّة لغة.

إذا سافر إنسان إلى بلد يجهل لغة أهلها، تراه ضائعاً لا يفهم شيئاً، الصُّحف بهذه اللغة الغريبة بالنسبة له، المجلات بهذه اللغة، الإذاعة بهذه اللغة، كلام النّاس بهذه اللغة، المطعم بهذه اللغة، وهو لا يفقه شيئاً، فالإنسان إذا لم يسمع أو لم يفهم ما سمع، يضعف مركزه، فمن كمال صفات الله أنَّه سميع، وسمعه زائد على علمه جلّ جلاله.

الله عزَّ وجلَّ يدرك كلَّ مسموع وإن خفي صوته، فهو سبحانه وتعالى يسمع سواء أكان السَّمع من قبيل الأصوات أو من قبيل الخواطر.

الإنسان يسمع الأصوات فقط، فإذا لم يكن صوت لا يكون سمع، الأذن تلتقط الموجات الصوتية، هذه الموجات تصيب غشاء الطَّبل بالاهتزاز، هذا الاهتزاز ينتقل إلى الأذن الداخليّة فيسمع الإنسان ثم يُدرك ما سمع، أمَّا لو أنَّ الذي أمامك بقي ساكتاً فهل تسمع؟ هو واقف أمامك وهو ساكت لكن يقول في نفسه والله إنّي أحبُّ فلاناً، هذا خاطر، الإله يسمع المسموعات ذوات الأصوات، كما يسمع ما خفي وما لا صوت له.

أحد العلماء، يرى أن الله يسمع، لكن سمعه مُنزّه عن تغيير يعتريه عند حدوث المسموعات، غشاء الطبل ساكن فإذا سمع الإنسان صوتاً قويّاً اهتزَّ الغشاء، ولولا هذا

الاهتزاز لما سمع الصوت، نقول: لقد أصاب هذا الغشاء تغيير اعتراه حتى نقل الصوت، أمّا الله جل جلاله فمُنزّه عن هذا، يعني لا يسمع بتغيير يصيب سمعه، فهذا لا يليق بالله عزَّ وجلَّ.

والله سبحانه وتعالى مقدس عن أن يسمع بأذن أو آلة أو أداة، والسمع في حقه جل جلاله عبارة عن صفة ينكشف بها كمال صفات المسموعات. الله عزَّ وجلَّ يكشف بسمعه أحوال خلقه جميعاً، من دون آلة ولا جارحة ولا اهتزاز ولا تغيّر يعتري سمع الله عزَّ وجلَّ.

قال أحد العلماء: للسَّمع أربعة معانٍ في حقِّ الله عزَّ وجلَّ:

الأول: سمعُ الإدراك ويتعلَّق بالأصوات، يؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة:١].

خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت، وكانت حسنة الجسم، وكان به لمم فأرادها فأبت، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي، ثم ندم على ما قال، وكان الظِّهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنُّك إلا قد حرمت عليّ، فقالت: والله ما ذاك طلاق، وأتت رسول الله ﷺ -وعائشة رضي الله عنها تغسل شقَّ رأسه- فقالت: يا رسول الله إنَّ زوجي أوس بن الصامت تزوجني، وأنا شابّة غنيَّة ذات مال وأهل، حتى إذا أكل مالي، وأفنى شبابي، وتفرَّق أهلي، وكبر سنّي، ظاهَر منّي وقد ندم، فهل من شيء يجمعني وإياه تنعشني به؟ فقال رسول الله ﷺ: حرمت عليه، فقالت: يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً وإنَّه أبو ولدي وأحبُّ النَّاس إليّ، فقال رسول الله ﷺ: حرمت عليه، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، قد طالت صحبتي، ونفضت له بطني، فقال رسول الله ﷺ: «ما أراك إلا قد حرمت عليه ولم أومر في شأنك بشيء» فجعلت تراجع رسول الله ﷺ وإذا قال لها رسول الله ﷺ: «حرمت

عليه» هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدَّة حالي، وإنَّ لي صبيةً صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السَّماء وتقول: اللهم! إنّي أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيّك، وكان هذا أول ظهار في الإسلام، فقامت عائشة تغسل شقَّ رأسه الآخر فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداءك! يا نبيّ الله! فقالت عائشة: أقصري حديثك ومجادلتك، أما ترين وجه رسول الله ﷺ؟ -وكان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه أخذه مثل السُّبات- فلما قضى الوحي قال لها: ادعي زوجك فدعته فتلا عليه رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ الآيات.

قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعُه الأصوات كلَّها، إنَّ المرأة لتحاور رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها، ويخفى عليّ بعضه إذ أنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ الآيات [تفسير البغوي، سورة المجادلة]. هذا أول معنى من معاني السَّماع، إنّه سماع الإدراك.

المعنى الثاني: سماع الفهم، فإذا قال أب لابنه «اسمع ما أقول» يعني: افهم، يؤكِّده قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال:٢١].

السَّماع هنا معناه الإدراك، والتّفهم، الله عزَّ وجلَّ يعرف وضعك في أدقِّ التَّفاصيل، يعرف ظروفك الصعبة، يعرف العقبات التي أمامك، يعرف الصَّوارف التي تصرفك عن هذا الشّيء أو ذاك، يعرف حجم التَّضحية، سمع دعاءك: يا رب! أنا مضطر، يا رب! استجب لي، هذا كلام، لكن حجم اضطرارك يعرفه الله عزَّ وجلَّ، فالله عزَّ وجلَّ إضافة إلى أنّه يسمع دعاءك كصوت يعلم حقيقة حالك، فأول سماع سماع الصوت، والسَّماع الثاني سماع الفهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة:١٠٤].

يعني: افهموا.

إذا قال رجل للآخر: انتبه، على كتفك عقرب بصوت واضح وبنبرات حادة، فالتفت إليه بهدوء وقال له: أشكرك على هذه الملاحظة وتلك النَّصيحة، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يلهمني أن أكافئك، ولم يبادر إلى رميه، أيكون سمع ما قيل له؟... هذا سمع ولم يسمع، سمع صوتاً لكن لم يفقه ما معنى عقرب، لو فهم لقفز ولصرخ، ما دام بقي هادئاً، والتفت بهدوء وشكرك فالمعنى أنَّه لم يسمع بمعنى أنَّه لم يفهم، مع أنَّ الصوت وصل إليه، فهناك سماع صوت، وهناك سماع فهم: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، أي: لم يفهموا.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة:٥].

المعنى الثالث: سَمْع الإجابة وإعطاء ما سئل، كما تدعو: اللهم! اسمع، يعني أجب واعط ما سألتك.

المعنى الرابع: القبول والانقياد، قال تعالى: ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ [المائدة:٤٢].

إذا قال رجلٌ لك: فلان أمانته ضعيفة، فتقول: إذاً لن أُعطيه شيئاً، أنت سمعته وصدَّقته، أحياناً تقول هذا الكلام غير مسموع لا أقبله، معنى سمَّاعون للكذب: منقادون إليه مصدِّقون له.

المعنى الأول: سماع الصوت، المعنى الثاني: الفهم والإدراك، المعنى الثالث: الاستجابة، المعنى الرابع: الانقياد، وكلُّ هذه المعاني وردت في كتاب الله عزَّ وجلَّ فيما يتعلق بالسَّمع.

ومما يؤكِّد أن السمع هو الاستجابة قول النبي ﷺ في الدعاء المأثور:

عن عبد الله بن عمرو قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ دُعاءٍ لا يُسْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلاءِ الأَرْبَعِ» [سنن الترمذي].

يعني لا يُستجاب له.

عنْ عائِشَةَ أَنَّهَا قَالَت: الحَمْدُ لله الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُول الله ﷺ تَشْكُو زَوْجَها فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلامُهَا فَأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ الآية [رواه النسائي].

عندما قال النّبيّ ﷺ في الطّائف بعد أن دعاهم فكذّبوه، وبعد أن استعانهم فخذلوه، وبعد أن استنصرهم فلم ينصروه، بل أغروا به صبيانهم، وضربوه بالحجارة، فدميت قدماه، رفع يديه إلى السَّماء، قال:

«اللهم! إليك أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس... أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملّكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي» [أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، من حديث عبد الله بن جعفر] هذا هو دعاء الطائف.

في الإسراء، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء:١].

بحسب السياق، يتوهَّم الإنسان أنّه ما دام الأمر معجزة، انتقالاً مفاجئاً من مكة إلى بيت المقدس، السّياق يقتضي أن يقول الله عزَّ وجلَّ في خاتمة الآية: إنَّ الله على كلِّ شيء قدير، لكنّه جلَّ جلاله قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ يعني هذا الإسراء وذاك المعراج مكافأة لك وتكريم لك، وتكريم السماء تعويض عن جفوة الأرض، لأنَّ الله سمع دعاءك في الطائف، وجاء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

أحياناً يدعو الإنسان الله عزَّ وجلَّ: «يا رب إني ضعيف، إني مغلوب فانتصر»، وبعد أن تمضي سنة ينصره الله، فكأنَّ هذا النَّصر هو جواب الدُّعاء.

هناك نقطة مهمة، يجب أن توقن بفاعليَّة الدُّعاء، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، والدُّعاء مقبول والطَّلب معقول، والهدف هو الآخرة أو السَّلامة من الفتن في الدُّنيا، فكلُّ إنسان دعا الله عزَّ وجلَّ يسمعه ويستجيب له.

الله معنا أينما كنّا ويسمعنا؛ في بيتك، وفي أحرج الظروف، وفي أهمِّ المواقف، وفي أحلك الليالي، وفي السَّماء، وفي الأرض، في الطَّائرة، تصعد أطباق الفضاء، وفي الغوَّاصة، تغوص في أعماق البحر، في بيتك، في بستانك، في عملك.

سمعت عن طبيب جرَّاح مشهور، لا يُجري عمليَّة جراحيَّة إلا إذا توضَّأ وصلَّى ركعتين لله عزَّ وجلَّ وفي السُّجود يسأله التَّوفيق، والله سمعت عن هذا الطَّبيب نجاحات يصعب أن نصدِّقها، يُجري جراحات عصبية خطيرة في الدِّماغ.

هكذا يجب أن يكون المؤمن، في كلِّ أعماله، إذا عقد صفقة، قبل أن تشتري هذه الصفقة قبل أن تُقدم على هذا العمل، قبل أن تلقي هذا الدّرس، قبل أن تعقد هذا العقد، قبل أن تتكلَّم. قل: توكَّلتُ على الله، ادعُ الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾ [لقمان:٢٨].

نصيب المؤمن من اسم (السميع)

من علم أن الله يسمع كلَّ شيء، هل بإمكانه أن يلفظ كلمةً نابية، لا ترضي الله السّميع جلّ جلاله؟!

يقول شخص في وصف آخر: صاحبتهُ ثلاثين سنة ما سمعت منه كلمة نابية، لم أسمع منه سقطاً أو عواراً، ولا كلمة مرذولة إطلاقاً، من أين جاء هذا الانضباط باللسان، من معرفة المؤمن أنَّ الله يسمعه، لذلك من أدب المؤمن مع الله في اسم السَّميع

حفظُ لسانه من الباطل فلا يتكلم إلا بخير، ومن عرف أنَّ الله تعالى سميع كان من أدبه دوامُ المراقبة، ومطالبةُ النَّفس بالمحاسبة، يجب على العبد أن يعلم أنَّ الله تعالى، لم يخلق له السَّمع إلا ليسمع كلام الله أولاً.

أدب ثانٍ: إنّ هذه الأذن، طريقة عملها مجهولة، يعني اهتزاز وصل إلى طبلة الأذن، نُقل هذا الاهتزاز عبر عظيمات السَّمع إلى الأذن الوسطى، ثم إلى الأذُن الداخليّة، ثمَّ نَقل العصب السَّمعي هذا الأثر إلى الدِّماغ ففهمت الكلام المسموع.

فإذا كان نغم رائع تطرب، وإن كان ضجيجاً تضجر، فما النّغم؟ وما الضّجيج؟ أيُعقل أن تكون عندك ذاكرةٌ سمعيّة تعرف بها أصوات النّاس جميعاً، والدَّليل سماع الأصوات على الهاتف، كلَّما جاءتك مكالمة تعرف مَن المتكلم، مِن أولِّ كلمة يقولها!

لا يوجد إنسان في الأرض نبرة صوته كإنسان آخر، أبداً، قزحيّة العين، ونبرة الصوت ورائحة الجلد وبلازما الدم، بصمة الإصبع، هذه هويّة الإنسان، يُقال: إنَّ بعض الحواسب تقرأ أربع مئة وخمسين مليون حرف، هذا صنع الإنسان، وأنت قد يكون في حياتك مئتا شخص تعرفهم، أحياناً شخص بعيد عنك أكثر من عشرين سنة تسمع صوته فجأةً فتقول له: فلان... معنى ذلك أنَّك سمعته وعرفته، وهذه الأذُن التي تلفت نظر العلماء إلى إتقان صنعتها، لك أذنان من أجل أن تعرف جهة الصوت، لك عينان من أجل أن تعرف البعد الثالث، بعين واحدة بعد واحد، بالعينين ترى العمق، يقول بعض العلماء: «ينبغي للعبد أن يعلم أنَّ الله تعالى لم يخلق له هذا السَّمع إلا ليسمع كلام الله» يجلب آلة من أغلى نوع في العالم وثمنها بالآلاف، فلا يليق أن تستعملها لأشياء رخيصة أو مبتذلة، والإنسان خلق الله له سمعاً فلا يليق به أن يسمع الغناء والكلام البذيء والغيبة والنميمة والإفك والبهتان، والكلام المنحطَّ وذكر العورات، بل هذه الأذُن ينبغي أن تستمع إلى الحقِّ وإلى كلام الله عزَّ وجلَّ.

عن أبي عامر أو أبي مالك الأشعري قال: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف. ولينزلن أقوام إلى جنب عَلَم ويروح عليهم بسارحة لهم،

يأتيهم -يعني الفقير- لحاجة، فيقولون: ارجع إلينا غداً، فَيُبَيِّتُهُمُ الله، ويضع العَلَمَ ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة» [البخاري].

وعن عبد الرحمن بن غنم أنّه سمع أبا مالك الأشعريّ عن النّبيّ ﷺ قال: «لَيَشْرَبَنَّ ناسٌ مِنْ أُمَّتِي الخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بغَيْرِ اسْمها، يضرب عَلَى رؤُوسِهِمْ بالمَعَازِفِ وَالقينات، يَخْسِفُ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ. وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ» [ابن ماجه، وابن حبان].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة: مزمار عند نعمة، ورنّة عند مصيبة» [أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة، وهو حسن].

وعن عبدالرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لم أنهَ عن البكاء ولكني نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة لهو، ولعب ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة؛ لطم وجوه وشق جيوب، ورنة شيطان» [أخرجه الحاكم في المستدرك].

وكتب عمر بن عبد العزّيز إلى مؤدِّب ولده، يأمره أن يربيهم على بغض (المعازف):

«ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدْؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن، فإنَّه بلغني عن الثّقات من أهل العلم: أنَّ حضور المعازف واستماع الأغاني، واللّهج بها، ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماء، ولعمري لَتَوَقِّي ذلك بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذي الذّهن من الثّبوت على النِّفاق في قلبه».

الله عزَّ وجلَّ أعطاك سمعاً وأعطاك بصراً، فهل تصدق -من باب حسن الظن بالله- أن إنساناً له عين يغضُّ بها عن محارم الله، تنهمر منها دمعتان من خشية الله، أفتظنّ أنَّ هذا الإنسان يمكن أن يرث عينه أم أنّ عينه هي التي ترثه؟ وفي الدّعاء النّبويّ: «ومتِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا» [الترمذي عن ابن عمر].

فالإنسان المؤمن ترثه عينه وأُذُنه وقوَّته وعقله، ويستمتع بسمعه إلى آخر لحظة في حياته، يستمع للحقّ، هذا السَّمع يجب أن يكون للحقِّ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ

يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨].

إنَّ المؤمن يقول لنفسه: قم... فالمجلس فيه غيبة، فيه كلام بذيء، فيه كلام فارغ، فيه لغو.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمارٍ وَكانَ لَهُمْ حَسْرَةً» [سنن أبي داود].

ينبغي أن تستمع إلى الحقِّ، العبد إذا تقرّب من ربه بالنَّوافل أحبَّه الله فأفاض على سمعه نوراً تنفذ به بصيرته.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْه، وَما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذِي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ التِي يَبْطِشُ بِها، ورِجْلَهُ التِي يَمْشِي بِها، وإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ يَكْرَهُ المَوْتَ وَأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» [صحيح البخاري].

في سمعه نور، يعني أنّ الباطل لا يسمعه، وكلامٌ يناقض القرآن لا يسمعه، والكلام الفاحش والبذيء لا يسمعه، الغيبة يرفضها، إذ في سمعه نور.

«إني لأعرف حجراً بمكة -كما قال النبي ﷺ- كان يسلم عليّ قبل أن أبعث»
[مسلم عن جابر بن سمرة].

اسم السَّميع من أقرب الأسماء إليك لأنّك كلّما ناجيته يسمعك ويستجيب لك، هذا اسم السَّميع، وينبغي أن تعلم أنّه ليس هناك معرفة في الأرض تعلو على أن تعرف الله في أسمائه الحسنى، ما من معرفة في الأرض أعظمُ وأجلُّ وأخطر في حياتك من أن تعرف أسماء الله الحسنى، وهذا اسم السَّميع يؤدّبك ويعلّمك.

العزيز

سنبقى في الصفحات التالية مع اسم «العزيز».

هذا الاسم ورد في كثير من آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

ورد مقترناً بأسماء أخرى: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر:٢٤].

﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام:٩٦].

﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم:١].

﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الدخان:٤٢].

﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [ص:٦٦].

﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾ [ص:٩].

﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦﴾ [هود:٦٦].

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك:٢].

﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ [آل عمران:٤].

﴿عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾ [القمر:٤٢].

وفي صحيح الجامع الصغير من حديث عائشة رضي الله عنها أن من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «لا إله إلا الله الواحد القهار رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار» [أخرجه النسائي في الكبرى والطبراني عن عائشة أم المؤمنين].

ومن الآيات التي ورد فيها اسم العزيز، قال الله تعالى على لسان سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة:١١٨].

إن الآية ختمت على النحو التالي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾، لأن الإنسان مهما علا شأنه، إذا أراد أن يغفر لأحد زلّته لربّما حُوسب، لربّما سُئل لمَ عفوت عن فلان؟ لماذا لم تكلّفه؟ لمَ تساهلتَ معه؟ لكن الله سبحانه وتعالى إذا غفر فهو العزيز الذي عزَّ فغفر، ولا يُسأل عما فعل ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾.

هذه الآية الأولى في دراستنا، والآية الأخرى هي: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾ [الجاثية:٣٧].

والآية الثالثة: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون:٨].

وهذه آية رابعة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾ [الصافات:١٨٠].

وإليك آية خامسة حينما قال الشيطان: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص:٨٢].

اسم العزيز ورد في آيات كثيرة جداً، اخترت لكم من بين الآيات الكثيرة هذه الآيات.

من معاني (العزيز)

المعنى الأول: العزيز: الذي لا مثيل له، ولا مشابه له، ولا نظير له، مِن فِعلِ عزَّ يَعِزُّ، تقول: عزّ الطعام، أي: أصبح قليلاً وأصبح نادراً، واختصاص عزيز، أي: نادر، خبرة عزيزة، أي: نادرة، معنى عزَّ يَعِزُّ، أي: ندر وجوده، أو لا مثيل له، ولا مشابه له، ولا نظير، اسم العزيز بهذا المعنى من أسماء التنزيه، فهناك اسم تنزيهي، وهناك اسم ذات، وهناك أسماء صفات، وهناك أسماء أفعال.

بشكل أوسع: العزيز الذي لا مثيل له، ولا ندَّ له، ولا نظير له، إذا كان الشيء نادراً، قليل الوجود، ليس متوافراً مع إمكان توافره نسميه عزيزاً، فكيف بالذي يستحيل على العقل أن يصدّق أن له نظيراً، إذاً، الله سبحانه وتعالى لا مثيل له، ولا ندّ له، ولا مشابه له، إذاً هو عزيز، وهذا المعنى الأول.

المعنى الثاني: العزيز هو الغالب الذي لا يُغلب، الإنسان إذا غُلِبَ فليس عزيزاً، يصبح ذليلاً، وقد يبالغ المنتصِر في إذلاله، قد يجري بعض التصرفات ليبالغ في إذلاله، فالغالب الذي لا يُغلب يُسمّى عزيزاً، والعرب تقول في أمثلتها: من عزَّ بزّ، أي: مَنْ انتصر أخذ ما راق له، ومن غلب سلب، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص:٢٣]، أي: غلبني، فالقاهر الذي انتصر، وقد يُغلَب، يسمى عزيزاً، فكيف بالقاهر الذي لا يمكن أن يُغلب؟! فالله سبحانه عزيز بالمعنى الثاني: أي القاهر الذي لا يُغلب، والدليل: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف:٢١].

وكأن الله تعالى يقول لك: أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلَّمْتَ لي فيما أريد، كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي في ما أريد، أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ لو علم الناس أن الله غالب على أمره، لأطاعوه، ولاتكلوا عليه، ولأقبلوا عليه، ولتركوا سواه.

المعنى الثالث: العزيز هو القويّ الشّديد، من عزَّ يعزّ أي: قوي يقوى، والآية الكريمة: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يس:١٤].

يقولون لك: التعزيز، أي: بعد أن تلقي الدرس، تعززه بالتدريبات، مرحلة التعزيز، أي: ترسيخ المعلومات، وتمكينها، هذا المعنى الثالث.

المعنى الأول: العزيز الذي لا مثيل له، ولا ند له، ولا مشابه له، هذا من أسماء التنزيه.

المعنى الثاني: الغالب الذي لا يغلب هذا من أسماء الصفات.

والمعنى الثالث: القوي الشديد، هذا من أسماء الصفات أيضاً، فالقادر الذي قد يضعُف يُسمَّى عند النّاس عزيزاً، فكيف بالقادر الذي يستحيل أن يضعف؟!، فهذا من باب أولى، إذاً الله سبحانه وتعالى عزيز بهذا المعنى الثالث.

وهناك معنى رابع؛ وربما كان المؤمنون في أمسّ الحاجة لفهم هذا المعنى.

المعنى الرابع: العزيز بمعنى المُعِزّ، كأن تقول: الأليم بمعنى المؤلم، فأنت تقول مثلاً: جرح أليم، أي: جرح مؤلم، من معاني وزن فعيل أن يكون بمعنى اسم الفاعل؛ مُفْعِل. فالعزيز بمعنى المُعِزّ، وهو من صفات الأفعال.

هو الذي يعز: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

آخر ملوك الأندلس أبو عبدالله محمد الصغير عندما غادر الأندلس سنة ٨٩٧هـ بكى، فقالت له أمه عائشة:

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثلَ الرجال

فما قيمة الإنسان إذا تخلى الله عنه؟ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ﴾ [الحج:١٨].

جزء كبير جدّاً من حياتك متعلق بكرامتك، فإذا كنت مع العزيز أعزك الله:

اجعل لربك كل عزّ ك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يمو ت فإن عزّك ميّت

المعنى الخامس: «العزيز» هو الشريف، في كلّ مجتمع هناك فئة من الناس تسمّى في اللغة عِليَة القوم، عزيز، صادق، كريم، أصيل، جواد، صبور، حليم، هؤلاء النخبة من الناس هم أعزّة القوم.

ماذا قالت بلقيس؟: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ [النمل:٨٣].

كلام من؟ كلام بلقيس، ماذا قال الله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾ [النمل:٣٤].

إذاً لدينا خمسة معانٍ لاسم العزيز، الأول: من أسماء التنزيه، الثاني والثالث: من أسماء الصفات، وأما الرابع: من أسماء الأفعال.

هذه هي المعاني اللغوية لكلمة عزيز، أو لاسم الله: العزيز، لكنْ هناك تعريف أدق وأجمل: العزيز؛ الذي يقلّ وجوده، وتشتدّ الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه، في

وقت واحد، قد يقل وجود شيء ما، ولكن لا تشتد الحاجة إليه، فهناك معدِن نادر جداً، ومع أنه نادر وقليل وجودُه لكن لسنا بحاجة ماسّة إليه، عندئذ لا يُسمّى هذا المعدن عزيزاً، العزيز يجب أن تتوافر فيه صفات ثلاث: أن يقلّ وجود مثله، وأن تشتدّ الحاجة إليه، وأن يصعب الوصول إليه، قد تشتد الحاجة إلى شيء، ولكنه غير نادر كالهواء، كلنا في أمسّ الحاجة إليه، ولكنّه موجود، قد تشتد الحاجة إلى الماء والماء موجود، ووجوده في بعض البلاد كثير غزير.

إذاً شيء عزيز كأن يقال: عزيز المنال لا يُدرك ولا يُنال، هذه الصفات للشيء الذي يقلّ وجوده، وتشتدّ الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، هذه الصفات لها صفات نقصان ولها صفات كمال، كلما كثر وجوده قلّت عزته، وكلما قلّت الحاجة إليه قلّت عزته، وكلما سهل الوصول إليه قلّت عزته، والآن كلما قلّ وجوده إلى أن يصبح واحداً، هذه صفة كمال في العزيز، يقلّ وجوده، ويندر وجوده، حتى يصبح واحداً، وتشتد الحاجة إليه فهذه أعلى صفة، ولا تكون إلا لله سبحانه.

شخص ما أحياناً قد يحتاج إليه بعض النّاس، بل قد يحتاج إليه أكثر النّاس، فكلما كثر الذين يحتاجون إليه أصبح عزيزاً، فإذا احتاج إليه كلُّ النّاس فهذا شيء نادر، لا يوجد إنسان يحتاج إليه جميع النّاس، قد تجد ملكاً وتجد إنساناً يعيش في أطراف مملكته يعمل راعياً، مع أنه أحد رعايا هذا الملك لكنّه ليس بحاجة إليه، يأكل ويشرب في خيمته من نتاج هذا الغنم الذي يملكه.

كلما اشتدّت الحاجة إلى الشيء أصبح عزيزاً، وكمال هذه الصفة شيء مهمٌّ جداً أن يحتاج إليه كلُّ شيء في كلِّ شيء، أنا قد أحتاج إلى الطبيب عند المرض، ولكن لا أحتاج إليه عند النّوم، أنا أحتاج إلى سرير عند النوم، وقد أحتاج إلى هذا المدرّس إذا كان ابني ضعيفاً في مادة الرياضيات فأنا بحاجة إليه، أما أن يحتاج إليه كلّ شيء، وليس كلّ الناس فقط، لا بل الناس والحيوان والنبات والجماد والذرّات والمجرّات؛ أي: يحتاج إليه كلُّ شيء في كلِّ شيء.

إذاً الله سبحانه وتعالى عزيز لأن قيام الشيء به، قيام المادة، هذه مادة فيها نواة، وفيها كهارب، وفيها دوران، لولا أن الله سبحانه وتعالى قيّوم عليها لتوقفت، كن فيكون، زل فيزول: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ [آل عمران:٢].

أي: إن قوام كلِّ شيء به سبحانه، وهو مصدر حياة كلِّ شيء.

لذلك يكون المؤمن شاباً وقد بلغ الثمانين من عمره، لأنه اختار أن يعرف الله، والله لا نهائيّ، أما إذا اختار شيئاً دنيوياً، ووصل إليه، وأحاط به، فقد انتهت حياته، وصارت مملّة، بطولة المؤمن أنه اختار هدفاً لا نهائياً، فهو شباب دائم، ولو كان هناك ضعف في جسمه، في بصره، لكنّ همّته همّةُ شباب، لأن هدفه كبير، وأنت لا تسعد إلا إذا اخترت هدفاً يتناسب مع بنيتك، أنت مصمم لتعرف الله، أنت مفطور على أن تعرف الله.

فإن اخترت هدفاً آخر محدوداً غير الله انتهيت عند الوصول إلى هدفك، انظر إلى إنسان وصل إلى طموحاته الكبرى مالياً، تجدْه في ملل، يقول لك شيء مألوف، ولحكمة بالغة بالغةٍ بالغة لم يشأ ربنا جلّ جلاله أن يجعل الدنيا تمدك بمتعة مستمرة، بل بمتعة متناقصة، أي شيء كنت بحاجة إليه أو تطمح إليه بعد أن تصل إليه يصبح شيئاً عادياً، أوضح شيء الزواج، الذي لم يتزوج يظن الزواج شيئاً غير معقول، بعد الزواج يجده شيئاً عاديّاً جداً.

الشبكية مئة وثلاثون مليون مستقبِل للضوء ما بين مخروط وعصية تشكّل عشر طبقات، العصب البصريُّ تسعمئة ألف عصب، ما هذه المادة التي تتغير ماهيتها إذا جاءها الضوء؟ إذا تغيرت ماهيتها تولد عن هذا التغير، تيار كهربائي ينقل الصورة إلى الدماغ، أنت محتاج إلى الله عز وجل في عينك، وفي أذُنك، وفي لسانك، وفي دماغك، وفي شرايينك، وأيُّ شيءٍ لم يتجلّ الله سبحانه وتعالى عليه يُصبح لا شيء، فأنت قائم بالله، عظامك، عضلاتك المخططة، والملساء، أعصابك وأجهزتك كلُّها تعمل بأمر الله،

فلو أن الله سبحانه وتعالى حجب عنها تجلياته لأصبح الإنسان جثة هامدة، إذاً يحتاجه كلُّ شيء في كلِّ شيء.

أول صفة: الذي يقل وجود مثله، أما كمال هذه الصفة؛ أن يصبح واحداً، فتشتد الحاجة إليه، وكمال هذه الصفة يحتاجه كل شيء في كل شي، يصعب الوصول إليه، فلا يمكن أن تحيط به ولا الأنبياء، فلا يعرف الله إلا الله، أن تصل إليه اتصال عبودية فهذا ممكن، فاستقم على أمره، واعمل الصالحات، تصل إليه، وهذا هو الوصول، وهذا هو الاتصال.

شاب خطب ابنة عالم اسمها وصال، فهذا العالم قال له: مهر هذه الفتاة أن تحضر هذه الدروس التي ألقيها في مجلسي فحضرها فاستغرق فيها فنسي الفتاة، فأرسلت له كتاباً: يا فلان نسيتنا، فقال: يا وصال كنت سبب الاتصال، فلا تكوني سبب الانفصال.

يمكن أن تصل إليه، أن تصل كعبد، فعليك أن تستقيم على أمره، وأن تفعل الصالحات، أن تذكره كثيراً، وأن تخدم عباده كثيراً، فيمكن أن تصل، أما أن تصل إليه وصول إحاطةٍ وإدراكٍ كامل فهذا مستحيل حتى للأنبياء، فلا يعرف الله إلا الله.

فإذا سألت نفسك، ما معنى العزيز؟ فإنَّ معنى العزيز: هو الفرد الذي يحتاجه كل شيء في كل شيء ويستحيل الوصول إليه، وصولَ إحاطة وإدراك، أما وصولُ عبودية فممكن.

قال بعضهم: العزيز من ضلّت العقول في بحار عظمته، وحارت الألباب دون إدراك نعمته، وكلّت الألسن عن وصف كمالاته، ووصف جماله، هذا المعنى عبر عنه النبي ﷺ فقال:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ عائِشَةَ قالتْ: فَقَدْتُ رسولَ الله ﷺ لَيْلَةً مِنَ الفِراشِ فالتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وهُوَ في المَسْجِدِ وهُما مَنْصُوبَتانِ وهُوَ يقولُ:

«اللهمَّ إني أعوذُ برِضاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبمُعافاتِكَ من عُقُوبَتِكَ، وأعوذُ بِكَ مِنْكَ لا أُحْصِي ثَناءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَما أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» [صحيح مسلم].

والله إن الحق الثابت أنه من عرف الله زهد فيما سواه، إذا عرفت الله لا يمكن أن تتضعضع لمخلوق، وعندها لا ترى مع عزّة الله عزيزاً، ولا ترى مع قدرة الله قديراً، ولا ترى مع حكمة الله حكيماً...

قال ابن رجب وفي بعض الآثار يقول الله تعالى: «ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء»

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي ... رأوه لما وَلَّيْتَ عنّا لغيرنا
ولو سمعت أذْناك حسنَ خطابنا ... خلعت ثياب العجب عنك وجئتنا
ولو ذُقتَ من طعم المحبة ذرة ... عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا
ولو نَسَمَتْ من قربنا لك نسمة ... لَمُتَّ غريباً واشتياقاً بقربنا

الله عزيز هذا الذي يتوهم بسذاجة أنه بركعتين وليرتين يدخل الجنة إنسان ساذج غبي، ومن خطب الحسناء لم يغله المهر.

وفي حديث بُكَير بن فيروز قال: سَمِعْتُ أبا هُرَيْرَةَ يقولُ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «مَنْ خافَ أدْلَجَ، ومَنْ أدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، ألا إنَّ سِلْعَةَ الله غالِيَةٌ، ألا إنَّ سِلْعَةَ الله الجَنَّةُ» [سنن الترمذي].

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران:٩٢].

وقتك الثمين، زبدة وقتك، قوتك، يجب أن تصرفها كلَّها في سبيل الله، مالك الذي جمعته بكدِّك، وعرقِ جبينك، يجب أن تنفقه في سبيل الله، ألا إن سلعة الله غالية، الله عزيز؛ بالمعنى الطبيعي الفطري الله عزيز.

الآن من هو العزيز من العباد في ضوء هذا التعريف؟ الأنبياء أعزّة، لماذا؟ لأن الخلق كلَّهم بحاجة إليهم وإلى علمهم، النبي ﷺ عزيز، لأن ربنا عز وجل علّمه، أودع فيه النبوة، فالأنبياء أعزّة، لأن الله جعلهم أبوابَ رحمته، وأبوابَ فضله، وأبوابَ إحسانه، لهذا إرضاء رسول الله ﷺ هو عينُ إرضاءِ الله، ولهذا قرن الله اسم نبيِّه ﷺ مع اسمه، فالنبيُّ عزيز لأنَّ الناس جميعاً في أمسّ الحاجة إليه، في أمر دينهم ودنياهم.

الملك عزيز: إذا كان مَلِك بيده مقدّرات الأمور كلِّها، بيده كلُّ شيء، فالناس جميعاً يقصدونه كبيرهم وصغيرهم، جليلهم وحقيرهم، فكلما اشتدّت الحاجة إليك فأنت عزيز، إلا إن المؤمن إذا اشتدّت الحاجة إليه يكون عزيزاً، لكنه يكون متواضعاً، وأما غير المؤمن فإذا اشتدّت الحاجة إليه يكون متكبّراً.

سُئل الإمام الحسن البصري وقد سما مقامه بين الناس: بِمَ نِلت هذا المقام؟ وقبل الإجابة أهمس في أذن القارئ الكريم بهذه الكلمة من القلب: لا يمكن أن تعرف الله وأن تطيعه، ثم تكون ذليلاً لأحدٍ أبداً، لأن الله عز وجل يقول: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون:٨].

تكون مع العزيز، وتُذَلّ بعد ذلك، لا، لن يكون هذا أبداً، ألا تقرأ في الدعاء يومياً في قنوت الوتر: إنه لا يذِلّ من واليت، ولا يعزّ من عاديت(١)؟

---

(١) قطعة من حديث رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه والنسائي والدارمي من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما قال علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهنَّ في قنوت الوتر «اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يُقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت» وقوله: «ولا يعز من عاديت» زيادة ثابتة في الحديث كما قال الحافظ في التلخيص.

لن تجد مؤمناً تَعَرَّفَ إلى الله عز وجل، واستقام على أمره، واصطلح معه إلا أراه الله معاملة خاصة، وأشعره من خلالها أنه غالٍ عليه، وأنه يحبُّه، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور:٤٨].

أحياناً كثيراً تدعوه فيستجيب لك، تدعوه فيصرف عنك السوء، تدعوه فيلقي حبك في قلوب الخلق، تدعوه فيلين قلوب أعدائك، تدعوه فيلبيك، تسأله فيعطيك، تقسم عليه فيبرك.

فلما سئل الحسن البصري بمَ نلت هذا المقام؟ قال: بشيئين: باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي.

لا تكون عزيزاً إذا كنت طمّاعاً، حينما تطمع تصبح ذليلاً، لمجرد أن تطمع فيما عند الناس تصبح ذليلاً.

لذلك إذا طمعت فيما عند الناس كرهوك، وربّ العزة إذا طمعت فيما عنده أحبّك.

لا تسألنَّ بُنَيَّ آدمَ حاجةً ... وسلِ الذي أبوابُهُ لا تُحْجَبُ
اللهُ يغضبُ إن تركتَ سؤالَه ... وبُنَيَّ آدم حين يُسألُ يغضبُ

الإنسان؛ إن سألته حاجة غضب منك، ورب العزة إن لم تسأله غضب منك، لذلك فالنبيّ ﷺ قال: «لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ» قالوا: وكيفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قالَ: «يَتَعَرَّضُ مِنَ البَلاءِ لِمَا لا يُطِيقُ» [سنن الترمذي من حديث حذيفة بن اليمان].

وروي عنه: «ابتغوا الحوائج بعزّة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير» [أخرجه تمام في فوائده وابن عساكر عن عبد الله بن بُسر]، ومرّ عمر على رجل من القرّاء متماوت فخفقه بالدرّة، وقال له: «ارفع رأسك يا أخي لقد أَمَتَّ علينا ديننا» ورأى عمر رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرِّقاب إنما الخشوع في القلوب.

دخل أبو حنيفة في قضية على الخليفة أبي جعفر المنصور، فأعجبه أن يأتيه هذا العالم الجليل الفقيه الكبير، قال: يا أبا حنيفة لو تغشّيتنا دائماً، نحن في استقبالك نعتزّ بك وأهلاً بك، قال: ولِمَ أتغشّاكم يا أمير المؤمنين، وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه، وهل يتغشّاكم إلا من خافكم على شيء، ليس لي عندكم حاجة آتيكم من أجلها.

كلما قطعت طمعك من الناس أعزّك الله، وكلما مرغت جبهتك في السجود لله أعزك الله.

قال مطرّف وابن نافع وغيرُهما، لما قدِم هارون المدينة وجّه إلى مالكٍ البرمكيَّ وقال له: قل له (لمالك) احمل لي الكتاب الذي صنّفته حتى أسمعه منك، فوجد من ذلك مالك واغتمّ، وقال للبرمكيّ: أقرئه السلام وقل له: العلم يُزار ولا يزور، وإن العلم يُؤتى ولا يأتي، فرجع البرمكيّ إلى هارون فأخبره بذلك، فغضب، وأشار عامةُ أصحاب مالك أن يأتي هارون، وقال البرمكيّ للرشيد يبلغْ أهل العراق أنك وجّهت إلى مالك فخالفك! اعزم عليه حتى يأتيك، فإذا بمالك قد دخل فسلم وليس معه كتاب، فقال له هارون في ذلك، فقال مالك: يا أمير المؤمنين! إن الله تعالى بعث إلينا محمداً ﷺ وأمر بطاعته واتّباع سنّته، وأن نرعاه حياً وميتاً وقد جعلك في هذا الموضع لعلمك فلا تكن أول من ضيّع العلم فيضيّعَك الله، لقد رأيت من ليس هو في حسبك ولا نسبك من الموالي وغيرهم يعزُ هذا العلم ويجلُّه ويوقر حملته، فأنت أحرى أن تجل علمَ ابن عمك، ولم يزل يعدّد عليه حتى بكى.

ثم قال له حدثني الزهري وذكر حديث زيد بن ثابت، كنت أكتب بين يدي رسول الله ﷺ (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله) وابن أم مكتوم عند النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! قد أنزل الله تعالى في فضل الجهاد ما أنزل وأنا رجل ضرير فهل لي من رخصة، فقال رسول الله ﷺ ما أدري. قال زيد وقلمي رطب لم يجفّ حتى غشي النبي ﷺ الوحي ووقع فخذه على فخذي فكادت تندقّ من ثقل الوحي ثم خلا عنه فقال اكتب يا زيد ﴿ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾، فقال: يا أمير المؤمنين

هذا حرف واحد بعث فيه جبريل والملائكة مسيرةَ خمسين ألف عام حتى أُنزل على نبيّه أفلا ينبغي لي أن أُجلّه وأُعزّه؟ قال، فقال هارون: قم بنا إلى منزلك. فأتى هارون منزل مالك فدخل مالك واغتسل ولبس ثياباً جدداً وتطيّب ووضع مجامير فيها عود وجلس فقال: هات، فقال هارون: تقرأ عليّ؟ ما قرأت على أحد منذ زمان، قال: فأخرِج عني الناس حتى أقرأه عليك. فقال مالك: إن العلم إذا مُنع من العامّة لأجل الخاصّة لم تنتفع به الخاصّة.

قال فكان هارون قد استند إلى جنب مالك، فلما بدأ يقرأ له قال: يا أمير المؤمنين! من تواضع لله رفعه الله. وفي رواية أبي مصعب: من إجلال الله إجلالُ ذوي الشّيبة المسلم. فقام فقعد بين يديه فحدّثه، فلما فرغ عاد إلى مكانه. قال مالك: لما كان بعد مدّة قال لي الرشيد: تواضعنا لعلمك فانتفعنا به، وقال هارون لمالك: إن رأيت أن تأتي ولديّ فتحدّثَهم. قال فما ردَّ عليه مالك شيئاً حتى خلا من عنده، فتولّ إليه فقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تكون أولَ من أُجري على يديك ذلُّ العلم. قال: وما ذاك؟ قال: أدركتُ أهل العلم يُؤتون ولا يأتون. فقال له: أصبت بل يأتوك.

وخرج مالك؟ فقال هارون: هذا الذي تلومونني فيه ما رأيت رجلاً أعقلَ منه، قلت له آنفاً فلم يردَّ على شيء كراهيةَ أن يخرج منه شيء في ذلك الجمع فلما خلوت خرج لي عمّا في نفسه [ترتيب المدارك وتقريب المسالك].

العالم عزيز يجب أن يزهد فيما عند الناس، يجب أن يكون بعيداً عن دنياهم.

سأل شخص: كيف الطريق إلى الله؟ قال: لو عرفته لعرفت الطريق إليه، كلمة بليغة.

إذا عرفت الله فإنّك تعرف بالفطرة ماذا يرضيه، كيف تُقبل عليه، وكيف تستقيم على أمره، وكيف تضحّي من أجله، وكيف تُؤثره على كلِّ شيء، سأل: كيف الطريق إليه؟ فأجابه: لو عرفته لعرفت الطريق إليه، فقال له: لم أفهم كلامك، كيف أعبد من لا

أعرفه، فقال: كيف تعصي من تعرفه، قال الحسن بن أحمد الصفار: سئل الشبليّ وأنا حاضر: أي شيء أعجب؟ قال: قلبٌ عرف ربّه ثم عصاه:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه ... هذا لعمري في المقال بديع

لو كان حبّك صادقاً لأطعته ... إن المحبّ لمن يحب يطيع

سئل شخص: متى عرفت الله؟قال: والله ما عصيته منذ عرفته.

مرة ثانية أهمس في أذنك أيها القارئ العزيز؛ والله الذي لا إله إلا هو لو تعلمت علم الثقلين بنيّة أن تكون ذا شأن في المجتمع، وعصيت الله فيما بينك وبينه، فأنت لا تعرفه، لا تعرفه، لا تعرفه.

من لم يكن له ورع يصدّه عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيء من عمله أبداً، لا تنظر إلى صغر الذّنب، ولكن انظر مَنْ اجترأت عليه، لمجرد أن تعصي الله عز وجل يجب أن تعلم علم اليقين أنك لا تعرفه كمال المعرفة.

العلماء ثلاثة كما قال سهل التُستريّ رحمه الله:

عالم بأمر الله تعالى لا بأيام الله، وهم المفتون في الحلال والحرام، وهذا العلم لا يورث الخشية.

وعالم بالله تعالى لا بأمر الله ولا بأيام الله، وهم عموم المؤمنين.

وعالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى وبأيام الله تعالى، وهم الصدّيقون، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم، وأراد بأيام الله أنواعَ عقوباته الغامضة ونعمِه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن أحاط علمه بذلك عظُم خوفه وظهر خشوعه.

لو تخيّلنا إنساناً يحمل أعلى شهادة شرعية، وله مئة مؤلف وهو ذو منصب دينيّ خطير، ودخلت عليه امرأة وتأمل فيها وملأ عينيه منها، وعنده مستخدم على الباب، لا

يقرأ ولا يكتب، لكنه قرأ قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور:٣٠].

فغض هذا المستخدم بصره عنها فهو عند الله عالم، والأول الذي ملأ عينيه من الحرام جاهل.

عَنْ مسروقٍ قالَ: كَفَى بالمرءِ عِلْماً أَنْ يَخْشَى اللهَ، وكَفَى بالمرءِ جَهْلاً أَنْ يُعْجَبَ بعِلْمِهِ [سنن الدارمي].

دع هذه الكلمة حيةً في ذهنك دائماً: لمجرد أن تعصيه فأنت لا تعرفه كما ينبغي.

أدب المؤمن مع اسم الله العزيز

قيل: ما الأدب الذي يجب أن يتحلّى به المؤمن حيال هذا الاسم؟ الله عزيز، ما موقف المؤمن حيال هذا الاسم؟

قال: المؤمن إذا عرف العزيز ينبغي ألا يعتقد أن لمخلوق إجلالاً، نعم هو أديب جداً مع الناس، لكنّه لا يمكن أن يعتقد لمخلوق إجلالاً، أي: يجب أن يحقر الأقدار إزاء قدره، وأن يمحو الأذكار سوى ذكره، قرأ فرقد السبخي في التوراة: «من جالس غنياً فتضعضع له ذهب ثلثا دينه».

لماذا؟ قال: لأن الإيمان ما وقر في القلب، وأقرّ به اللسان، وصدّقه العمل، فإذا أجللتَ غنياً لغناه، أجللته وانحنيت له وأثنيت عليه بما ليس فيه، فقد أذهبت ثلثي دينك، والإيمان ثلاثة أشياء: ما وقر في القلب، وأقر به اللسان، وصدقه العمل، فإذا كان العمل الظاهري تعظيماً لإنسان لا يعرف الله وبدورك عظمته لأنه غني، فالنتيجة إذاً ذهب ثلثا دينك.

«واعلم أن شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس» [الطبراني في الأوسط بسند حسن عن سهل بن سعد].

عند المؤمن عزة لو وزعت على أهل بلدة لكفتهم، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] المؤمن يرى أنه عبد لله حقاً، وأن الله لن يضيعه، ولن يسلمه، ولن يتخلى عنه، أفلا يكون مع كل هذا عزيزاً؟

عندنا قاعدة ثابتة: أنه إذا عَظَّمَ القلبُ الربَّ صَغُرَ الخلق في عينه، فإذا كان الله ليس عظيماً في عينه كبر الخلق في عينه، هذا امتحان، فلان مثلاً يقولها بملء فمه: سيفعل ويترك، وعنده قُدرة على كذا وكذا وكذا، إن كنت مثله فأنت لا تعرف الله إذاً، ما دمت تُجِلُّه كلَّ هذا الإجلال فإنك لا تعرف الله، لأن الله عز وجل لو جَمّد قطرة من دمه في أحد شرايين مخه لأصبح مشلولاً، ولو أن الله عز وجل جمّد بعض الدّم في شرايين قلبه لمات بسكتة قلبية، وقضى من فوره، والإنسان كلما ارتقى إيمانه التفت إلى الله أكثر وأكثر، قال تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس:١١].

إذا عرفت أنه المُعِزّ، فلو اجتمع الناس جميعاً على أن يرفعوك درجة لا يستطيعون، أما إذا رفعك الله عز وجل درجة أو أكثر، لا يستطيع أهل الأرض أن يضعوك، ومعلوم: إذا عرفت أنه المُعِزّ لم تطلب العز إلا بطاعته.

قال بعضهم: لو اجتمع الخلق على أن يثبتوا لأحد عزّاً، فوق ما يثبته اليسير من طاعته لما قدروا، لا تُعَزّ إلا بطاعة الله، أَعِزَّ أمر الله يعزَّك الله، قال العلماء: لو اجتمع الخلق على أن يثبتوا لأحد ذلاًّ أكثر من اليسير من المعصية لم يقدروا، هناك عامل واحد يرفعك ويخفضك هو الطاعة والمعصية، كلما أطعته ازددت عزّاً، وكلما هان أمر الله عليك، هنت عليه، ويجب أن يفهم المسلم أن حال المسلمين اليوم: هان أمر الله عليهم فهانوا على الله.

قد يقع الإنسان في خطأ كبير، يظن أن هؤلاء الذين يحسبون بالملايين في العالم الإسلامي يظنهم مسلمين، والمسلم له صفات، فإذا أحسن بهم الظّنّ وهم تاركو الصلاة، ويكذبون، ويأخذون ما ليس لهم عدواناً، وظلماً، وقد يفعلون المعاصي كبيرها

وصغيرها، فقد انزلق فيها هم انزلقوا فيه، هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، هاتان الكلمتان تلخصان كل أحوال المسلمين.

أما على المستوى الفردي، فإذا استقمت على أمر الله، وإذا اعتمدت عليه، وتوكلت عليه، فالله سبحانه وتعالى يعاملك معاملة خاصة، أما إذا عصاه الناس فالله سبحانه وتعالى لا بد من أن يؤدبهم، لأنه إذا عصاه من يعرفه سلط عليه من لا يعرفه.

رجل ذهب لأداء فريضة الحج، كان ذا شأن كبير، رافقه عشرات الخدم والحشم، فكان هؤلاء الخدم في أثناء الطواف يبعدون الناس عنه تعظيماً له، حج وطاف وسعى، وانتهى حجه، وعاد إلى بلده، راوي هذه الواقعة عمرو بن شيبة قال: وبعد حين وعند جسر في بغداد رأيت رجلاً يشبه هذا الذي رأيته يطوف، لكن رأيته في حالة زريّة قميئة يمدّ يده للناس، يا ترى أهذا فلان؟ أهو هو؟ ليس هو، دخل الشكّ في قلبه، فتقدم منه فقال: مالك تنظر إليّ، قال: كأنك تشبه فلاناً، قال: أنا هو، فقلت له: ما الذي جعلك في هذه الحال؟ قال: إني تكبّرت في موضع يتواضع الناس فيه، فكان هذا جزائي، فالطواف حول الكعبة ليس فيه كبر، أنا فلان، أنا حجمي المالي كذا، لا كبر في هذا الموقف، في هذا الموقف أنت عبد لله عز وجل ولو كنت ملكاً، قال: ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله في موضع حيث يترفع الناس فيه.

كلما أحاط الإنسان نفسه بهالة من الكِبْر والاستعلاء هانَ وحطَّه الله جزاءً وفاقاً، صفتان لا تقربهما: الكِبْر والظلم، إن الله سبحانه وتعالى يغفر عشرات الذنوب بسهولة، إلا ذنبين يبطش بصاحبهما: الكِبْر والظلم، إلا اثنتين فلا تقربهما أبداً: الشرك بالله، أي: الكبر، والإضرار بالناس، أي: الظلم.

كيف يقول الله عز وجل: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر:١٠].

أي: العزة كلها له، هو العزيز، ونقرأُ آيةً أخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٨]، يبدو أن هناك تناقضاً بين الآيتين، هكذا يبدو، والجواب: إذا ابتغيت العزةَ بالإقبال على الله والاعتزاز به فأنت عزيز، لكن حينما قال الله عز وجل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: مهما أردت العزة بغير الله فأنت ذليل، إذا أردت العزّة عن غير طريق طاعة الله، عن غير طريق الاستقامة على أمره، عن غير طريق إعزاز أمر الله، فأنت ذليل.

ويُروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه، وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفاً من عظماء مملكته: سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له، إن الحرص والشهوة صيّرا الملوك عبيداً وذلك جزاء المفسدين، وإن الصبر والتقوى صيّرا العبيد ملوكاً، فقال يوسف كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:٩٠].

وقد نسمع ونقرأ عن إنسان كان في أعلى درجات العزّ، فلما بنى عزه على معصية الله جعله الله في أسفل السافلين.

وهناك شيء آخر، فسيدنا يوسف عندما قال: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣]، جعله الله عزيز مصر فانظر واعتبر.

والله سمعت حكاية، لولا أن صاحبها حيٌّ يرزق، لما استطعت أن أصدقها: شاب حديث السّنّ عنده دكان صغيرة في حي من أحياء دمشق، وهي حكاية قديمة جداً، يبدو أن فتاة ساقطة تحرّشت به وأغرته، فأغلق محله وتبعها، وكان هذا الشاب لسبب معين قد حجّ في سن مبكرة، وبينما هو في طريق متابعته إياها تذكر حجته فقال: لا والله لا أفسد هذه الحَجَّة، فركب الحافلة وعاد أدراجه إلى البيت، أي: خشي الله وأطاعه، وفي اليوم التالي جاءه أحد وجهاء الحي من جيرانه فقال له: يا فلان هل أنت

متزوج؟ فأجابه: لا والله يا سيدي، قال له: عندي فتاة مناسبة ابعث أهلك ليروها، فقال: ظننت أن في ابنته دمامةً، لأنه هو الذي عرضها عليه، قال: فبعثت بأهلي ليخطبوها فرأوها في أحسن حال فوافقت، وما هي إلا أشهر حتى جعلني شريكه في عمله التجاري وأغلقت المحل السابق وبعته، طبعاً العم توفي، لكنّ الرجل لا يزال حياً يرزق، وغدا من كبار التّجار.

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣].

ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه دنياه، أي شيء تدعه في سبيل الله فلا بد من أن يعوضك الله خيراً منه في دينك ودنياك، أتحبُّ أن تكون عزيزاً؟ أتحبُّ أن تكون مكرّماً؟ أتحبُّ أن تكون محترماً؟ أتحبُّ أن تكون مبجّلاً؟ بالغ في طاعة الله، كلما أطعته رفعك وكلما خالفت أمره وضعك، فإذا هان أمره عليك هنت عليه، وإذا عظّمت شعائره أعزّك.

فالذي ذهب إلى المدينة، وزار النبي ﷺ، يعلم ماذا أعني بهذا الكلام، ما من مخلوق على وجه الأرض أعزه الله عز وجل كرسول الله ﷺ، لو أن إنساناً في حرم النبي ﷺ ودخل الملك لما رآه ملكاً، في الحرم النبوي، لو دخل الملوك مجتمعين لا ترى أنهم ملوك في حضرة النبي ﷺ، كان ﷺ إذا دخل عليه العبد وأصابته رعدة يقول: «هون عليك، فإنني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد» [ابن ماجه عن أبي مسعود البدري].

أناسٌ يأتونه من أطراف الدنيا فإذا اقتربوا من مقامه يبكون، وقد مضى على وفاته ألف وأربعمئة عام ويزيد، ما هذا السّرّ؟ هل في الأرض كلّها مخلوق أعزّه الله كرسول الله ﷺ؟ خذ صحابته أمثلة حيّة، سيدنا الصديق ماذا كان يفعل؟ له جيران فقراء، وكان يحلب لهم الشياه، فلما صار خليفة للمسلمين حزن أهلُ هذا البيت لأن منصبه الرّفيع يمنعه أن يحلب لهم الشياه، في اليوم الذي تلا تسلّمه منصب الخلافة طُرِقَ الباب، قالت الأم لابنتها: يا بنيتي افتحي الباب، ثم قالت: يا أمي جاء حالب الشاة،

جاء اليوم أيضاً ليحلب الشاة، ما هذا التواضع؟ وما من صحابي أعزّه الله، وذُكر في القرآن، كسيدنا الصديق.

ملخص البحث، قانونٌ، علاقة طرديّة، كلما زدته طاعة وتعظيماً زادك عزاً، وكلما تساهلت بأمره وقلت: لا تدقق، إن الله غفور رحيم، والدين يسر، وقلت لصاحبك: أنت متشدّد ومتشنّج كثيراً، افعل ما تشاء، ولا بأس عليك، فكلما تساهلت في طاعته، خفضك الله عز وجل وحطّ من شأنك، وبلغت الهوان.

إن هؤلاء الذين علموا الناس؛ الأئمة الكبار كالإمام الشافعي وأبي حنيفة ومن قبلهما الصحابة الكرام، فاسم كل واحد منهم على كل لسان، بذكرهم تتعطر المجالس، عظَّموا الله فخلَّد ذكراهم.

سيدنا موسى عليه السلام غدا في أوج عزه، وفرعون يهون ويغرق، يقول الله عز وجل: ﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس:٩٠-٩١].

وصدق الله العظيم ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج:١٨].

سيدنا إبراهيم عليه السلام أرادوا به كيداً فقلنا: ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٩].

هذا هو العز، عِزُّ الله لإبراهيم، وموسى، ويوسف، كما علمت.

النبي صلى الله عليه وسلم، ما من مخلوق أعزه الله كرسول الله، وسيدنا الصديق، وسيدنا عمر مر بخولة بنت ثعلبة في أيام خلافته... قف يا عمر، فوقف لها وأصغى لها وأطالت الوقوف وأغلظت القول وقالت: هيه يا عمر عهدتك وأنت تسمى عميراً وأنت بسوق

عكاظ... فلم تذهب الأيام حتى سُميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سُمّيت أمير المؤمنين فاتق الله في الرعية... فقال لها الجارود: قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين، فقال عمر: دعها أفلا يسمعها ابن الخطاب وقد سمع الله مجادلتها للرسول ﷺ من فوق سبع سماوات؟!

كان وقّافاً عند كتاب الله فرفعه الله سبحانه.

وكذلك سيدنا عثمان، وسيدنا علي، وبالمقابل أبو جهل ما نهايته؟ ما سُمْعَته؟ ما قيمته؟ وأبو لهب كذلك، هؤلاء صناديد الكفر أين هم؟ أما عكرمة بن أبي جهل فحينما تاب إلى الله تاب الله عليه وأصبح سيدنا عكرمة مع أنّ له جاهلية وكان قد أُهدر دمه وله موقفه المعادي لرسول الله ﷺ.

ما من مخلوق على وجه الأرض إلا ويحبّ وجوده، ويحب سلامة وجوده، ويحبّ كمال وجوده، ويحبّ استمرار وجوده، وجزء كبير جداً من وجودك أن تكون مكرّماً، عزيزاً، مرهوباً، سليماً من كل هُون، وما من شيء يسبب لك الهوان كالمعصية.

فالعفيف عزيز، وحينما يطمع الإنسان بأعراض الناس وينظر إلى نسائهم نظرات ريبة يصبح ذليلاً، الإيمان عفّة عن المطامع وعفّة عن المحارم.

وعفَّة عما في أيدي الناس، وعفَّة عن أعراضهم، لهذا غضُّ البصر من لوازم المؤمن، المؤمن محصَّن من أن يتبع شهوته، وكلما غضَّ بصره زاده الله عزاً، وكلما غض بصره زاده سعادة بأهله، ولا يمكن أن تكون إلا بطاعة الله، يعيشان حياة ثرة غنية، موفقة لأنها أطاعت ربها فيه، وأطاع ربه فيها.

فمطلب العزّة مطلب عام، ما من مخلوق إلا ويتمنى أن يكون عزيزاً، والعزة ثمنها الطاعة، وهذا الكلام موجه إلى الشباب، اصبر على الحرام يأتك الحلال، لا تفكر ولا تسمح لخاطرك أن تَرِد عليه معصية وسوف تُوفّق في عملك وتُوفّق في زواجك، سوف يجعل الله لك مخرجاً، وسوف تُرزق من حيث لا تحتسب، وسوف يرفع الله لك شأنك.

هذه حقائق ثابتة أيها القارئ الكريم، فكل من يبتغي العزّة بغير الله أدركه الهوان، فلو أنّ الإنسان اتخذ الله وليّاً لنجح وأفلح: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود:١١٣].

إذا ركنت لإنسان منحرف، رأيته قوياً، ورأيت عنده الدنيا، ورأيت أنك إذا أطعته جاءك خير كثير، إذا ركنت إليه ونسيت الله عز وجل فلن يأتيك الذل إلا من طرفه، لن يأتيك الضيم إلا منه تأديباً لك.

أحياناً يعتزّ الإنسان بقريب له، له شأنه يُفاجأ بعد حين أن هذا القريب يتخلّى عنه، يدخل عليه فيتجاهله، يعرض عليه قضيّة ليساعدَه بها فيقول: لا أستطيع، أنا لا أخالف القوانين أبداً، هذا جزاء الذي ركن إليه. «اطلبوا الحوائج بعزّة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير».

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [الفاطر:٢].

وبعد فالوقائع والحوادث التي يمكن أن تروى في موضوع العزة والذلة أكثر من أن تُحصى، وما من واحد من الناس إلا من خلال معارفه وأقربائه، ومحيطه وبيئته يعرف عشرات الحكايات، هذا الشاب الذي استقام على أمر الله رفعه الله في الدنيا قبل الآخرة، فقد أشاح بوجهه عن الحرام فزوَّجه الله حلالاً طيباً: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦].

قيل: «جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، والدنيا قبل الآخرة».

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور:٤٨].

وحسنٌ جداً أن أختم البحث بهذا الأثر أسوقه في هذه العجالة حول اسم: العزيز، «من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى». فأي شيء أردت أن

تناله من خلال معصية يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا الشيء ندَّ عنك ونأى، وأي شيء إذا أردت أن تناله عن طريق الطاعة فاعلم علم اليقين أنه اقترب منك ودنا «من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى»، أي: في التجارة لا تكذب تربح، وتكون عند الله صادقاً، وإذا كنت محامياً لا تكذب وسيأتيك دخل وفير، وتكون عند الله صادقاً، كما تكون عند الناس مخلصاً. قال ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدق البيعان وبيَّنا بورك لها في بيعهما.وإن كتما وكذبا فعسى أن يربحا ربحاً ويمحق بركة بيعهما» [رواه الشيخان من حديث حكيم بن حزام]. فهذا الذي يعصي الله لينال دنيا فانية، جاهل أحمق، لا يعرف الله عز وجل، فأضاع الآخرة الباقية..

لأن الله عز وجل وعده حقٌّ ﴿ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ ﴾ [يونس:٣٢] فلتعلم إذاً أن مما وعد الله به المؤمن أن يحفظه، ومما وعد به المؤمن أن يدافع عنه، ومما وعد به المؤمن أن يرزقه، ومما وعد به المؤمن أن يعزَّه، والدليل ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨ ﴾.

انظر؛ لو قال الله: العزة للمؤمنين لكان من الممكن أن يُفهم: ولغير المؤمنين قد تكون عزة، أما عندما قال: لله العزة، وجاء الاسم المجرور مقدماً على العزة فأفاد القصر والحصر، العزة وحدها إذاً لله فإذا أردتها فكن مع الله.

كـــن مـــع الله تـــر الله معـــك ... واتـــرك الكـــل وحـــاذر طمعـــك
وإذا أعطـــاك مـــن يمنعـــه ... ثـــم مـــن يعطـــي إذا مـــا منعـــك؟!..

الواسع

اسم الله «الواسع» ورد في القرآن الكريم مطلقاً، وقد اقترن باسمه العليم بعدة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة:١١٥].

وفي قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

وقد ورد هذا الاسم مقيداً، أي مضافاً، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾ [النجم:٣٢].

ولم يرد هذا الاسم في السّنّة النّبويّة الصّحيحة.

من معاني (الواسع)

«الواسع» في اللغة على وزن فاعل، أي اسم فاعل للموصوف بالوُسع، فعله وسع، يسع، سعة، فهو واسع وأوسع الله عليك أي أغناك.

ورجل موسِع يعني مليء بالمال والثراء، يقال إناء واسع، وبيت واسع، وقد يستعمل في الغنى.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق:٧].

وتوسعوا في المجلس، أي تفسحوا، والسَّعة الغنى والرفاهية، فكلمة «الواسع» مشتقة من السَّعة.

والسَّعة تضاف إلى العلم إذا اتَّسَع وأحاط بالمعلومات الكثيرة، وتضاف مرةً أخرى إلى الإحسان وبَسْط النِّعَم.

يقول ابن الأثير: «الواسع وهو الذي وَسِع غِناهُ كلَّ فقير، ورحمته كل شيء»[١] تطلب أحياناً من إنسان مبلغاً من المال يقول لك: هذا فوق طاقتي إذ إن دائرة مالِه لا تتسع لهذا الإنفاق، وأحياناً تطلب من إنسان أن يُعينَك فيقول لك: هذا أمر لا أقدِر عليه، إنه فوق طاقتي ولا تتَّسِع له سُلطتي ووجاهتي، وأحياناً تسأله سؤالاً فيقول لك: لا أدري، هذا لم يبلُغْه علمي، فالإنسان محدود؛ محدود في علمه، ومحدود في قدرتِه وماله وجاهه، وكل إنسان هناك من هو فوقَه.

إلا أن الله سبحانه وتعالى هو الواسع فرحْمَتُه وسِعت كل شيء وغِناه وسِع كلَّ فقير، وإحسانه شمل كلَّ مخلوق، فلا تضيق دائرة علمه عن شيء، ولا تضيق دائرة إحسانِه عن أيِّ شيء، ولا تضيق دائرة قوَّتِه عمّا دونه، فقُوَّته تتعلق بكل ممكن، وإحسانه يتعلق بكل ممكن، وعلمه يتعلق بكل ممكن، لذلك قيل: الواسع هو الذي لا نهاية لسُلطانه، فنحن لا نستطيع تصوُّر اللانهائي، فالطريق لها نهاية، وهذه المجرّة لها نهاية، وهذا الغني مهما عظُم ماله فإنه ينتهي عند رقمٍ معيّن، وهذا الإنسان مهما بلغ من جاهِه هناك شيء لا يستطيعُه، مثلاً؛ أمهر طبيب بالعالَم إذا مات المريض هل يمكنه أن يعيد له الحياة؟ هذا شيء فوق طاقَتِه.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ١٨٤.

إنّ الطّبيب له علم يُدلّ به إن كانَ للنّاس في الآجال تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلتِه حار الطبيب وخانتْه العقاقير

إذاً فالواسع هو الذي لا نهاية لسُلطانه، وبالمناسبة الإنسان مهيّأ ليتعرف إلى الله، إذْ لا تملأ نفسَه إلا معرفةُ الله، وأيُّ شيء دون الله عز وجل يَمَلُّه بعد حينٍ، يحيط به أولاً وينتهي من التفكير فيه؛ لذلك حينها يغفل الإنسان عن الله عز وجل بعد أن تتحدّد دنياه يشعُر بخيبة الأمل، ويشعر بالسأم والضجر لا لشيءٍ إلا لأن نفسه مخلوقة لتعرف اللانهائي وتعرف المطلق، فإذا شغلها بغير المطلق وهو النهائي والمحدود سئمت هذا المحدود وملَّته وضجرت منه، وقد تلاحظ ببساطة أن الإنسان حينها يكون شاباً يعيش بالأحلام، يتصور بيتاً معيّناً، ويتمنى زوجة معينة، ومرْكَبة معينة، فإذا وصل إلى نهاية أهدافِه وتحدّدت حِرْفته وبيته وزوجته ودخْلُه وحُجِّم في آماله وأحلامه ملّ الدنيا، لأنّ النّفس خُلقت لتعرف غير المحدود والمطلق واللانهائي، لكنك شغلْتَها بالمحدود، فالمحدود تسْتَوْعِبه سريعاً وتملُّه.

لن تسعد في الدنيا إلا إذا تطلَّعت إلى الله عز وجل، وإلا إذا كان الهدف هو الله، ولسان حالك يقول: إلهي أنت مقصودي ورِضاك مطلوبي، ما سوى الله يُمَلّ وما سِواه تسأمه النفس، وقد تتبرّم منه فهو محدود، لكنّ النفس متشوّقة أبداً لذلك الواسع الذي لا نهاية لسلطانه، والواسع الذي لا حدّ لإحسانه، فلا يُحَدّ غِناه، ولا تنْفَد عطاياه، ولا يشغله معلوم عن معلوم، ولا شأنٌ عن شأن.

أحياناً يتحدث إليك شخص فتقول لشخص آخر يريد أن يكلمك في أمرٍ ما: انتظر إلى أن ينتهي من حديثه هذا كي أتمكّن من الفهم منك، فلا يتَّسع إدراكك لسماع صوتين معاً، ولا إلى أن تنصرف إلى جهتين، لأن الإنسان غير واسع، أما ربنا عز وجل فمعنى أنه واسع، أي: لا يشغله معلوم عن معلوم، ولا شأنٌ عن شأن، فلو أنّ كل العباد دَعَوْهُ في وقتٍ واحدٍ لسَمِعهم جميعاً، فإذا دعا الإنسان ربَّه استجاب له وسمع دعاءه، هناك من يظن أن الله سمِعه وحدَه، ففي هذه اللحظة التي دعَوْت الله فيها كم

من إنسان دعا الله تعالى؟! فإذا استيقظت إلى صلاة الفجر وذهبت إلى المسجد، وبعد الصلاة دَعَوْت الله، على مستوى البلد الواحد تجد آلاف المصلين في المساجد، وبعد الفجر يقبل المصلون على ربهم بالدعاء، وكلّ إنسان يتوجه إلى الله متوسلاً، وكلهم يسمعهم سبحانه في اللحظة ذاتِها، على حين أنّ الإنسان لا يستطيع أن ينصرف إلى جهتين معاً، حتى في علم النفس يقولون: إن الذي يبدو لك أنه يستمع إلى شخصين معاً إياك أن تصدِّق ذلك، وإنما عنده ما يسمى سرعة التحوّل، أما أن يستطيع أن يستوعِب حديثين معاً أو ثلاثة فهذا غير ممكن، ففي سهرة مثلاً تجد كلّ اثنين يتكلمان معاً، فهل تستطيع أن تستوعب ما يقوله كلُّ من يتحدث؟! إذ إنك لو انصرفت إلى شخصين نسيت الآخرين، لكن الله عز وجل واسع لا يشغله معلوم عن معلوم، ولا شأن عن شأن، ولا حال عن حال.

(الواسع) الذي وسع سمعه جميع المسموعات، ووسع رزقه جميع المخلوقات، فله مطلق الجمال، والكمال، في الذات، والصفات، والأفعال.

وعند البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

«الحمد للهّ الذي وسعَ سَمْعُهُ الأصواتَ» [البخاري عن عائشة].

فأنزل الله تعالى على النبي ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة:١].

وقيل: الواسع هو العالم المحيط علمه بكل شيء، أحياناً تركب مركبة فترى كلَّ شيءٍ أمامك مكشوفاً، أما خلفك ممّا دون زاوية النظر فلا تستطيع أن تحيط به، لحكمة أرادها الله عز وجل، أمّا عينا الطائر مثلاً فتُغَطِّيان ثلاثمئة وستين درجة ولكن قد لا تغطي تحته فهذه ثلاثمئة وستون درجة مستوية، والإنسان سمعه محدود، وبصره محدود، وقدرته محدودة وإحسانه محدود.

وقيل: هو الذي وسِع بعِلمه جميع المعلومات، ووسِعت قدرته على كل المقدورات، واسِع الرحمة والغِنى والسلطان والعلم والقدرة والإحسان.

وقيل: هو الذي لا حدود لمدلول أسمائه وصفاته، فاسم الرحيم ليس له حدود، واسم الكريم ليس له حدود، واسم الغني والقوي كذلك، وما معنى الله أكبر؟ أي مهما عرفت عن أسمائه الحسنى فهو أكبر من ذلك.

زيد بن مهلهل بن زيد الطائي قدم على رسول الله ﷺ في وفد طيِّئ سنة تسع، فأسلم وسماه رسول الله ﷺ زيد الخير، وقال له: «ما وُصِفَ لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته دون الصفة غيرك» [الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر: ٢/ ٥١٤].

أحياناً يقول لك صديقك: هذا المكان قطعة من الجنّة تذهب إليه وفي ذهنك تصوّر متنامٍ فإذا بك تجده أقلَّ بكثير مما وُصف لك.

وقال ابن المبارك: ما وُصف لي أحد ورأيته إلا كانت رؤيته دون ما وصف لي إلا حيوة بن شريح فإنّي رأيته فوق ما وُصف لي.

وقال مروان بن محمد: ما رأيت فيمن لقيت أخشعَ من وكيع، وما وُصف لي أحد قطُّ إلا رأيته دون الصِّفة إلا وكيع فإني رأيته فوق ما وُصف لي.

لقد كان أحد الصحفيين يعمل في حقل الإعلام فكان إذا أراد أن يلتقي مع أديب يقرأ له الكثير قبل لقائه به، وهذا الأديب أو الشاعر لا يظن أن هذا الصحفي يعرف عنه الكثير فإذا التقى به وسأله وأجاب جواباً غير علمي يردُّ عليه بتحفظ ويقول: قاله أحد النقاد فينكَمش وينكمش ولما عوتِب هذا الذي يُجري هذه البرامج: لماذا تحرج السائلين بهذه الطريقة؟ قال: لأنني أحب أن أعيدهم إلى حجمهم الطبيعي.

فالإنسان له حجم إلا أن هناك أشخاصاً لهم القدرة على الظهور بأحجام أكبر من أحجامِهم، أما في بعض الظروف الصعبة فإنهم يُحجَّمون ويعودون إلى حجمهم الأصلي، وكلُّ إنسان له حجم وله سقف، فعندما ذكر ربنا عز وجل مقالة سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٨].

فلو أننا وقفنا عند قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يظن المرء أن ختام الآية فإنك أنت الغفور الرحيم، وليس كذلك بل قال: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ قال بعض العلماء: «ما من إنسانٍ يعفو إلا ويُسأل لماذا عَفَوْت»، هل بإمكان موظف أن يطوي تكليفاً لمكلَّف بضريبة معينة؟ إذا طوى ضريبة وأعْفاه منها كلياً سيُسأل: لماذا أعْفَيْتَه؟ فالإنسان إذا أراد أن يعفوَ قد يكون عفوُه مأخذاً عليه أما الإله العظيم: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ لا يستطيع مخلوق أن يسألك لماذا عفوْت عنه؟ ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾.

وكثيراً ما تأتي خواتيم الآيات على غير ما نتوقَّع قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء:١].

فما دام الذي أسرى بعبده ليلاً فالسياق -فيما يبدو- يتطلب: (وهو على كل شيء قدير)، لكن خُتمت الآية بقوله تعالى: (إنه هو السميع البصير)، لأنّ النبيّ ﷺ دعا ربّه في الطّائف فقال: «إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي... لك العتبى حتى ترضى» [الطبراني في الكبير عن عبدالله بن جعفر] سمع الله دعاءه بالطائف فكان الرد الإلهي هذا التكريم، أي يا محمد سمعنا دعاءك في الطائف، ورأينا حالك وهذا هو الجواب، أنت الآن مُكرّم، وقد أُريت ملكوت السموات والأرض، وقد نِلْتَ المقام الأول الذي لا يكون إلا لواحدٍ من خلقي، فختام الآيات له معنى دقيق ودقيق.

فمعنى الواسع أن رحمته لا حدَّ لها، وعلمه لا حد له وقدرته لا حد لها، فهذا الاسم إذاً تعلّق بكل أسماء الله كاسم الرحمن قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء:١١٠].

اسم الواسع متعلق بكل أسمائه، هو واسع المغفرة، وقيل: الواسع الذي لا حدود لمدلول أسمائه وصفاته؛ واسع العلم وواسع المغفرة وواسع الرحمة وواسع الملك.

بعض العلماء الذين تحدثوا عن أسماء الله الحسنى ذكروا أن الواسع الذي لا نهاية لبرهانه ولا غاية في سلطانه فهو واسع في علمه فلا يَجهل، فأعلم عالم يقول لك مثلاً: غابت فكرة عني، ويؤلف كتاباً وبعد عشر سنوات تكون هناك مؤاخذات في الطبعة الثانية، غابت عنه هذه الحقيقة وهذه الفكرة، حتى الأئمة الكبار فأبو حنيفة النعمان -مثلاً- غاب عنه حديث شريف في مسألة ما ولو اطّلع عليه لأدْلى بحكمٍ آخر غير الحكم الذي حَكَمَ به؛ وفوق كل ذي علمٍ عليم، فالواسع الذي لا نهاية لبرهانه ولا غاية لسلطانه، واسع في علمه فلا يَجهل، وواسع في قدرته فلا يَعجل، والله قدير، والإنسان أحياناً يرى بعض المنحرفين يتحدثون بكلامٍ قبيح، ويتحدَّون الذات الإلهية وينطقون بالكفر، والله جلّ جلاله بقُدرته يسحقهم في ثانية واحدة فهو واسع في علمه فلا يجهل، وواسع في قدرته فلا يعجل، وهو المعطي الذي لا يسأل وهو الكريم فلا يبخل وهو الحليم فلا يعجل.

وقيل: الواسع الذي لا يعزُب عنه أثر الخواطر في الضمائر، أنت قد تتأمل إنساناً وتتأمل قِوامه، ولون جلدِهِ، ولون عينيه ولون شعره، وألوان ثيابه وأناقَتَه، وحركته ونظرته ولفْتَتَه ونبرة كلامه، لكن هل تستطيع أن تكشف بماذا يفكِّر؟ أو ما الذي يخطر بباله؟ لا يمكن، إذاً دائرة معلوماتك محدودة، أما الواسع فهو الذي لا يعزب عنه أثر الخواطر في الضمائر، فكُلُّ الخواطر التي تخطر على بالك هي في علم الله عز وجل.

وقيل: الواسع الذي أفضالُه شاملة وعطاياه كاملة؛ إذا أعطى أدهش، كما قيل: الواسع هو المطلق، فنحن عندنا محدود ومطلق، فما سوى الله محدود، لكن هذا المحدود بالنسبة لنا غير محدود.

فالآن بعد مئات السنين من البحث والتأمل وصُنع المناظير العِملاقة والمراصِد الجبارة هل تصدِّقون أيها القراء الكرام أن بعض عدسات المراصِد يستمر تبريدها خمسة عشر عاماً، هناك مرْصد بأمريكا استمرت مدة تبريد عدساته خمسة عشر عاماً من أجل

أن يمكننا من رؤية الكواكب التي لا تُرى بالمناظير الصغيرة، ومع ذلك يقولون لك: وصلنا إلى مجرَّة تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية!! تقول لهم: يا تُرى هل هناك مجرة أبعد من هذا؟ يقولون لك: نعم، لكنّ علمنا وصل إلى هذا الحد، فهذا الكون الذي نعيش فيه محدود نظرياً، والله مطلق، والكون بالنسبة إلى الله محدود، بينما هو بالنسبة إلينا غير محدود، فكيف بخالق الكون؟

مثلاً من باب التوضيح وضعنا رقم (واحد) في دمشق ولو وضعنا عند نقطة بدايته صفراً ولفَّ هذا المرء العالم كم سيكون بينه وبين النقطة التي ينتهي إليها والتي هي منطلق بدايته؟ لو أردت أن تحسب هذا الرقم لوجدتَ أنه رقم خيالي، ومع ذلك فهو لا يساوي شيئاً مع اللانهاية، فأكبر عدد على الإطلاق إذا نُسب إلى اللانهاية فهو صفر، موضوع الأبد لا يستطيع العقل إدراكه فالجنة أبدية، والإله لا نهاية له، وما سواه محدود.

قال بعض العلماء: والله يا رب لو تشابهت ورقتا زيتون ما سُميت الواسع، فالأرض تحمل ستة آلاف مليون إنسان، ولنُجْرِ إحصاءً على مستوى بلد واحد، فهل هناك وجهٌ يشبه وجهاً؟ حتى لقد قيل لي: لو جئنا بآلة تصوير ملوَّنة ذات حساسية للألوان التي في البشر فلا تستطيع هذه الآلة أن تظهر الفروق التي بين الأشخاص، إذ إن كل شخص له لون، أما هذه الآلة فقد تظهر مئة شخص بلونين أو ثلاثة فقط، في حين أن كل شخصٍ له لون ونبرة صوت ورائحة جسم وكيمياء دم وهي البلازما وله شكل بالقزحية وله بصمة وزُمرة نسيجية، فأنت لا تشبه في العالم كلِّه إلا واحداً، فالعلماء اكتشفوا الآن مليونين ونصف مليون زمرة نسيجية، إذاً الله واسع؟

تصور كم ورقة نبات في الأرض؟ هناك ورقة إبرية وتلك مسنَّنة.. إلخ، ألف نوع من النبات الذي لا يعد ولا يُحصى، وهذا النبات الذي يوضع في الردهة له خصائصه التي ينفرد بها، فالواسع الذي لا حدود لإبداعه، ونحن إبداعنا محدود، وفي البحر مليون نوع من السمك فهناك سمك بشكل زهور وسمك شفاف ترى أمعاءه

بداخله والآخر أسود فاحِم، وهناك من السمك الذي يلقي سحابة أمامه دفاعاً عن نفسه وهناك الذي يلقي تياراً كهربائياً بقوة ستة آلاف فولت، شيء عجيب، وأنواع الطيور لا تُعد ولا تُحصى، والزواحف والورود، أوضح مثل وجوه البشر كلها ذات أنفٍ وعينين وفم، فهل تستطيع أن تصنع خمسة آلاف مليون وجه دون تكرار؟ هذه البصمة يمكن أن نكبِّرها على مستوى متر مربع، ولو عرضنا خمسة عشر ألف بصمة لا يمكن أن تتشابه بصمتان، والبصمة تحوي مئة نقطة فلو تشابهت سبع نقاط لكانتا لإنسان واحدٍ مع ذلك هناك جزر وفروع وأغصان وخُلجان ورؤوس كل هذا في البصمة، وبعض المجرمين استغلّ هذا الأمر واستأصلها وبعد حين ظهرت البصمة من جديد على النسيج الذي وُضع كرقعة قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ [القيامة:٤].

البصمة تقوم عند كل إنسان مقام التوقيع، وهناك الآن بعض الأقفال لا تفتح إلا على قزحية العين نظراً لأنه ليس في الأرض إنسان واحد يشبهك في قزحيَّة العين، إذ ينعدم في الأرض وجود تشابه قُزحيتين لإنسانين، فالواسع لا حدود له، وكل أسمائه لا حدود لها، في حين أن المخلوق محدود.

فالله هو الواسع؛ إذا نظرنا إلى عِلمه فلا ساحل لبحر علومه، وإذا نظرنا إلى إحسانه ونِعَمِه فلا نهاية لإحسانه، وكل سَعَة وإن عظمت تنتهي إلى طرف، فأكبر محيط هو المحيط الهادي، فلو ركبته تصل بعد شهرين إلى شاطئ حيث ينتهي المحيط الهادي، والقمر وصل إليه رواد الفضاء وكذلك المشتري وصلوا إليه، فكل شيء مهما بدا لك واسعاً له حدّ ونهاية.

اسم (الواسع) في الآيات القرآنية

ولنا من بعد وقفة مع الآيات الكريمة التي ورد فيها اسم الواسع، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [البقرة:١١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٧].

في الآيتين السابقتين اقترنت السعةُ بعلمه، وكذلك في الآية التالية، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة:٢٦١].

عَلِم إخلاصَك في هذا الإنفاق فهو واسع في عطائه لك، وواسع في علمه فلا يعزب عنه مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [آل عمران:٧٣].

هناك معنى عميق الدلالة، ففي الحياة الاجتماعية والوظيفية هناك مناصب؛ فهناك مدير دائرة، وهناك موظف بالدرجة العاشرة وهذا المنصب يقال لك: شُغِل ولا سبيل للارتقاء إليه حتى يُزاح الذي فوقك، فليس من شواغر فالعطاء ليس واسعاً، لكن الله تعالى يَسَعُ فضله الخلقَ كلَه، فلا يحسد إلا الجاهلُ قال المعافى بن زكريا:

أيا حاسداً لي على نعمتي ... أتدري على من أسأت الأدب؟!

أسأت على الله في فِعله ... لأنك لم ترضَ لِي ما وهب

فليثق المرء بعطاء ربه وليطلب منه فهو سبحانه واسع عليم، فالإنسان عطاؤه محدود لكنّ الله واسع ولا حدود لفضْله، فبَدَلَ أن تحسد الناس اسْعَ في طلب ما عند الله كما

طلبوا من الله، لذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [آل عمران:٧٣].

فالحسد يتناقض مع فهم الإنسان لاسم الله (الواسع)؛ لأن الحاسد لا يرى ما عند الله من خير عميم.

عن أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قامَ رَسُولُ الله ﷺ فِي صَلاةٍ وَقُمْنا مَعَهُ فَقالَ أعْرابِيٌّ وَهُوَ في الصَّلاةِ: اللهمّ ارْحَمْنِي ومُحَمَّداً وَلا تَرْحَمْ مَعَنا أحَداً، فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ قالَ للأعْرابِيِّ: «لَقَدْ حَجَّرْتَ واسِعاً» يُرِيدُ رَحْمَةَ الله [رواه البخاري].

لو أن الخلق جميعاً كانوا على أتقى قلب رجلٍ في البشر لَوَسِعهم فضل الله عز وجل، كلمة واسع كلمة رائعة جداً؛ والله واسع عليم قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ أي: يعطيه من يشاء من عِباده.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة:٥٤].

لا تحسُد، ولا تتمنّ ما عند أخيك بل اطلب من الله ولا تتمنّ ما فضَّل الله بعض الناس على بعضهم، وأصغِ سمعك لقول الشاعر ففيه معنى رائع في الموضوع الذي نحن فيه:

ملك الملوك إذا وَهَبَ ... لا تسألَنّ عن السبب

وأنا عدلْته وقلت:

ملك الملوك إذا وهب ... قُم فاسْألنّ عن السبب
الله يعطي من يشاء ... ء فَقِف على حدِّ الأدب

لا تحسدْ، وإنما تنافس مع أخيك دون أن تحسُده، قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين:٢٦].

لأن فضل الله واسع يؤتيه من يشاء، وقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢﴾ [النور:٣٢].

لو كان إنسان يساعِد الفقراء لضَجِر وتبرّم أحياناً، وقال: كفاكم، لقد سئِمت؛ لأنه ليس واسعاً، ولكنهم لو سألوا الله عز وجل لوجدوا عطاءه واسعاً دافقاً، وقد قال رسول الله فيما يرويه عن ربه تعالى:

«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فسَأَلُوني فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاها، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فلْيَحْمَدِ اللهَ ومَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ» [رواه مسلم عن أبي ذر].

هناك أشخاص يملكون ثروة طائلة، فهذا الإنسان لو اشترى أفضل منزل وأفضل جزيرة وأفضل يخت، لربما ضاق ذرعاً خوفاً على المال أن ينفد، والنبي ﷺ يقول فيما يرويه عن ربه: «فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْر».

اركب البحر واغمس إبرة فيه وارفَعْها ثم انظر ماذا أخذت من ماء البحر، فهذا الذي أخذته هي الدنيا والبحر هو الآخرة، والله واسع عليم، فالإنسان مهما غنِيَ وتنَعّم وقوِيَ وانغمس في الملذّات والشهوات فكلّ هذا لا يساوي من الآخرة مثقال ذرة، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قالَ قالَ رسولُ الله ﷺ: «لَوْ كانَتِ الدُّنْيا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَى كافِراً منها شَرْبَةَ ماءٍ» [رواه الترمذي].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ١٣٠﴾ [النساء:١٣٠].

فإذا أساء الزوج إساءة بالغة لهذه الزوجة وتفرَّقا فقد يُرْسِل الله لهذه الزوجة المظلومة زوجاً أغنى وألطف وأحبّ، والله واسع عليم.

قال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنعام:٨٠].

وسِع ربي كل شيء علماً، أي: لا تخفى عليه خافية، فالله يسمع دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فهل تستطيع أنت أيها الإنسان أن تسمع دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء؟ لذلك وسِع ربي كل شيء علماً، وهل تستطيع أن تقرأ خواطر الحاضرين معك؟ والله واسع عليم.

وقد قيل: اقترن اسم (الواسع) باسم (العليم) في كثير من الآيات لئلا يستبعد العبد مضاعفة الأجر، فالله واسع وعليم، يعلم إخلاصك، يعلم طهارتك، يعلم ما تنطوي عليه من نية عالية جداً، يعلم براءتك، فيضاعف لك الثواب، يضاعِف لأنه واسع، وحكمة المضاعفة هو عليم، واسع العطاء، واسع الغنى، واسع الفضل.

ولكن لئلا تتوهم أن كل عطاء يقابله إكرام، فالله عليم، الذي أعطى قد يعطيه الله وقد لا يعطيه لأنه عليم بنواياه، خبير بالبواعث الحقيقية، خبير بالأهداف التي يبتغيها.

كل تلك الآيات تبيِّن سَعَة فضلِه وسَعَة عِلْمِه، أما هذه الآية فهي تبيِّن سَعَة رحمته قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٦].

فهذه الآية مطمئِنة، تطمئن إليها النفوس حتى الجانحة منها فلعلها تؤوب، فالله تعالى قال: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ ﴾ فأنت داخِل رحمة الله عز وجل قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه:٩٨].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر:٧].

فالإنسان العالم ليس بيده شيء، والإنسان الرحيم ليس بعالم، أمّا أن تجتمع الرحمة مع العلم فهذا فضل واسع! فهناك رحمة مع جهل، وعلم مع قسوة لكن: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ فاجتماعُهما شيء تسعد به النفوس وتنشرح له القلوب، قد تجد شخصاً من أذكى الخلق لكنه لئيم وقلبه كالصخرة، وأحياناً يقابلك شخص قلبه يفيض بالرحمة ولكنه جاهل فلا هذا يعجبك ولا ذاك، أما أن تجتمع هاتان الخصلتان فهذا من الكمال، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات:٤٧].

هذه الآية تتفق مع أحدث نظرية في الكون وهي تمدّد الكون.

الواسِع هو المطلق لا يشغله معلوم عن معلوم ولا شأنٌ عن شأن ولا مسموع عن مسموع ولا دعاء عن دعاء، وسِع إحسانه جميع الخلائق، ولا يمنعه إغاثة ملهوف عن إغاثة غيره، وبعض الأئمة يُرجِّحون أن اسم الواسع جاء عَقِب اسم المجيب، وأنَّ التقدير إذا سأله سائل كيف يمكنه إجابة جميع الخلائق؟ كيف يسمع أصواتهم مرة واحدة؟ وكيف يعلم ضمائرهم دفعةً واحدة؟ وكيف يستطيع تحصيل مراداتهم جميعاً؟ الجواب هو واسع عليم.

قد يسأل المرء نفسه أحياناً كيف أن الله يستمع لجميع المخلوقات ويجيب جميع الخلائق ويعلم كل الضمائر؟ والجواب: إنه واسعٌ عليم، وكأن السَّعة والعلم متعلقان بالمجيب والحديث الشريف:

«إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعْهم منكم بسطُ الوجه وحسنُ الخلق» [أخرجه الحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة]، المال يضيق ولكنّ الخلق أوسع.

نصيب المؤمن من اسم الله (الواسع)

من أدب التخلّق باسم الواسع: أن يتَّسع خلُقُك ورحمتُك لجميع عباد الله؛ فقد يكون عطفك كلُّه لأولادك، وأحياناً لأقربائك وتضيق دائرة رحمتك عن الغرباء، وتحب أسرتك وعشيرتك وقبيلتك، أما المؤمن فكلما ازداد إيمانه اتَّسعت دائرة رحمته لكل الخلائق.

عن عائِشَة ﵂ زَوْجَ النبيِّ ﷺ قالَتْ للنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قالَ: لَقَدْ لَقِيت مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكانَ أَشَدَّ ما لَقيتُ مِنْهُمْ يوْمَ العَقَبَةِ إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يا ليلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ فلَمْ يُجِبْني إلى ما أرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وأنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلا وأَنَا بقَرْنِ الثَّعالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فإذا أنا بسحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فإذا فيها جِبْرِيلُ، فَنادَانِي فقالَ: إنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إليْكَ مَلَكَ الجِبالِ لِتَأْمُرَهُ بِما شِئْتَ فِيهِمْ، فَنادَانِي مَلَكُ الجِبالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قالَ: يا مُحَمَّدُ فَقالَ ذلك فيما شِئْتَ، إنْ شِئْتَ أنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأخْشَبَيْنِ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أرْجُو أنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً [روه البخاري].

فالنبي ﷺ قال: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون» [البيهقي في شعب الإيمان عن عبدالله ابن عبيد]، طبعاً لا بد من باب الموازنة فما منا من أحد لو أساء إليه آخر إساءة بالغة إلا ويتمنى أن يُقَطِّعه إرْباً إرْباً لكن النبي ﷺ وسِعت رحمته خصومه وأعداءه والذين كذَّبوه وسخِروا منه واسْتَخَفوا به والذين أغْرَوا سفهاءهم بإيذائه هؤلاء وسِعتهم رحمة النبي ﷺ، فمن أدب التخلق بهذا الاسم أن تتَّسع رحمتك لكلّ عباد الله من كلّ الأجناس، والمؤمن أوسع مدى من ذلك فحتى الحيوانات يرحمها؛ إنكم لن تسَعوا الناس بأموالكم فسعُوْهم بأخلاقكم.

أحد العلماء يقول: «تأدُّباً مع اسم الواسِع ينبغي أن تتَّسِع دائرة علمك لأن الله عالم ويحبُّ كلَّ عالم وأن تتسع دائرة إحسانِك ودائرة عَفْوِك لتشمل كل الناس»، فهناك قلب صغير وهناك قلب كبير يتسع لكل الناس ولكل التجاوُزات والحماقات، ولكنّ هناك من ينفجر قلبه ويضيق ويكيل الصاع صاعين، والعوام يقولون: الوعاء الأكبر يتَّسع للأصغر، فأنت كلما كبِرت عند الله اتَّسعت نفسك لكل الخلائق، والكبير يسَعُ الصغير، والحليم يسع الأحمق، والعالم يسع الجاهل، والغني يسع الفقير، فهذا هو التطبيق العملي لهذا الاسم وهو أن تتَّسِع في علمك ورحمتك وإحسانك وعَفْوِك.

الإنسان الواسع يتسع للحسود مثلاً ولغيره، ولكل من أساء إليه لذلك: قال سهل بن عبد الله: كلم الله موسى بطور سيناء. قيل له: بأي شيء أوصاك؟ قال: بتسعة أشياء، الخشية في السر والعلانية، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وأمرني أن أصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني، وأن يكون نطقي ذكراً، وصمتي فكراً، ونظري عبرة.

إذا عرفنا اسم «الواسع» لا نتقاتل، بل نتعاون، لا نتنافس على الدنيا، على النفط، على مصادر المياه، على القمح، هناك معركة مناطق نفوذ، وهناك معركة مياه، وهناك معركة نفط، وكل هذه المعارك غير مقدسة.

الرؤوف

مع اسم جديد من أسماء الله الحسنى، وهو «الرؤوف».

سمّى الله جلّ جلاله ذاته العليّة باسم الرؤوف وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في أحد عشر موضعاً

ولقد ذكر اسم الرؤوف مع اسم الرحيم في تسعة مواضع في القرآن الكريم[(١)]

نكتفي بذكر بعضها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة:١٤٣].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة:٢٠٧].

---

(١) البقرة: ١٤٣، التوبة: ١١٧، ١٢٨، النحل: ٧، ٤٧، الحج: ٦٥، النور: ٢٠، الحديد: ٩، الحشر: ١٠.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران:٣٠].

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [التوبة:١١٧].

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النحل:٤٧].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج:٦٥].

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النور:٢٠].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الحديد:٩].

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر:١٠].

والملاحظ أن هذين الاسمين وردا معاً في تسعة مواضع لأنهما من طبيعة واحدة.

من معاني اسم الله (الرؤوف)

الرؤوف صيغة مبالغة من اسم الفاعل رائف، وهو الموصوف بالرأفة فعله رأف، يرأف، رأفة، فهو رائف ورؤوف، والرّأفة في حقّ الإنسان تعني أن يمتلئ قلبه بالرِّقة وهي أشدّ من الرّحمة، رحمة، فرأفة، وقيل بل شدّة الرّحمة ومنتهاها هي الرّأفة، قال

تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور:٢].

الرّأفة رقّة القلب، وهي مشاعر العطف والرّحمة، ويمكن أن نقول: إن الرّحمة تسبق الرّأفة، والرّأفة منزلة تأتي بعدها، فلان رحيم، فإذا اشتدت رحمته فهو رؤوف، أو إنّ الرّأفة آخر ما يكون من الرحمة، لذلك قُدِّمت الرّأفة على الرّحمة تقديمَ أهميّة في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة:١٢٨].

لذلك قالوا: أرحم الخلق بالخلق رسول الله.

فرأفة النّبيّ ﷺ بأصحابه ما بعدها رأفة، التفّ أصحابه حوله، فدوه بأنفسهم وبأرواحهم لأنه كان رحيماً بهم، أما إذا قلنا: إنّ الله جلّ جلاله رؤوف فهناك معنى آخر؛ يحفظ لهم سمعهم وأبصارهم وحركاتِهم وسكناتِهم، أحد علماء دمشق بدأ بالتعليم في الثامنة عشر وتوفاه الله في الثامنة والتسعين، وكان يُدير مدرسة خرّجت كبار القادة في البلد، هذه المدرسة طبعاً استمرت ثمانين عاماً، كان إذا مشى في الطّريق ورأى شابّاً يقول له: يا بنيّ أنت كنت تلميذي، وكان أبوك تلميذي، وكان جدّك تلميذي، علّم ثمانين عاماً تعليماً إيمانياً شرعيّاً علميّاً وكان منتصب القامة، حادّ البصر، مرهف السّمع، أسنانه في فمه، يُقال له يا سيّدي ما هذه الصّحة التي حباك الله بها؟ يقول يا بنيّ حفظناها في الصّغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقيّاً عاش قويّاً.

الرّؤوف يدل على معنى التعطّف على عباده المذنبين، يفتح لهم باب التوبة أجمعين، ما لم تغرغر النفس أو تطلع الشّمس من مغربها.

«من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه» [أخرجه مسلم عن أبي هريرة].

من دلائل رأفته جلّ جلاله أن الله عز وجل يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها.

وهناك نقطة مهمة، فالله عز وجل أعطانا عقلاً، وأقام فينا فطرة، وسخر لنا هذا الكون بسماواته وأرضه، وأعطانا حرية الاختيار، وأودع فينا الشهوات، وأنزل على رسله البينات، والله عز وجل أعطى كل شيء، فالكون مسخر تسخير تعريف وتكريم، والعقل متطابق في مبادئه مع الكون، فطرة سليمة تكشف لك الخطأ، وحرية اختيار تثمّن لك العمل، وشهوة تدفعك إلى الله صابراً أو شاكراً، وقوة فيها يبدو تعينك على تحقيق اختيارك، وشرع يعد ميزاناً على ميزاني العقل والفطرة، وانتهى الأمر، لكن الله فوق كل ذلك، فوق الكون الدال على وجوده وكماله ووحدانيته، وفوق العقل الذي هو أداة معرفة الله، وفوق الفطرة التي هي أداة كشف الخطأ، وفوق الاختيار الذي يثمن العمل وفوق الشهوة التي تدفع إلى الله عز وجل، وفوق القوة التي تحقق بها الرغبات، وفوق الشرع الذي يُعد ميزاناً دقيقاً. فالله جل جلاله رأفةً بعباده يتابعهم ويبين لهم، ويحذرهم، وينذرهم، ويجعل أفعاله مبينةً لشرعه، يعالجهم نفسياً، واجتماعياً، وجسدياً، وأحياناً يسوق لهم المصائب، فيُلقي في قلوبهم الخوف والطمأنينة إنه شديد المحال، وهذه كلها ليصون العبد عن أن يقع في الخطأ.

والإنسان الواعي العاقل الموفق لا يقع في الخطأ ولا يحتاج بعدها إلى معالجة هذا الخطأ، وقد سأل معاوية بن أبي سفيان أميرُ المؤمنين أحدَ دهاة العرب عمرو بن العاص من صحابة رسول الله ﷺ؛ قال: يا عمرو ما بلغ من دهائك؟ قال: والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، فقال معاوية: لست بداهية، أما أنا فوالله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه.

الرؤوف هو الذي يخفف عن عباده فلا يكلفهم ما يشق عليهم، ولا يخرجهم عن وسعهم وطاقتهم، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٨].

وقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ [البقرة:٢٨٦].

ومن دلائل رأفته بعباده جلّ جلاله أنه يصون عباده عن موجبات عقوبته.

الأب أحياناً يضع نظاماً فإذا لم يطبّقه الابن فإنّه يستحقّ عقوبة الأب، لكنّ الأب الأكمل يمنع ابنه من عمل يستوجب عقوبته، والطّبيب النّاجح يمنع المريض من أكلة تستوجب عملاً جراحيّاً، فإذا عصم الله عباده من عمل يوجب لهم عقاباً رأفة بهم فهذا أعلى درجة من الرّحمة، أي حال الله بينه وبين معصية تستوجب عقاباً.

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى:٢٧].

إذاً ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك، والدنيا العريضة يمكن أن تكون حجاباً بين العبد وربّه، وأحياناً بعض ألوان الشِّدَّة يمكن أن تسوق العباد إلى باب ربهم فيسعدوا بقربه، وما خلق الله الإنسان ضعيفاً إلا ليفتقر بضعفه فيسعد بافتقاره، ولو خلقه قويّاً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه.

أخ كريم آخر حدثني عن ماضيه ورجاني أن أروي قصته في أحد دروس المسجد، درس في فرنسا، وعاش مجتمع التفلت، فلما قدم إلى بلده، قال: جعلت من بيتي ملهى، كل الموبقات في البيت، وأنا أعتقد أن الحياة هكذا.

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة:٣٦-٤٠].

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٥].

ثم قال: فجأةً أصبت بمرض عضال، كل شيء أمامي يهتز، وفقدت التوازن والتوافق الحركي، عشرون محاولة كي أمسك بكأس، وعشرون محاولة كي أمسك الملعقة، إنه عدم التوافق الحركي، وعدم التوازن، والأشياء كلها تتحرك وترتجف، وقال لي: لقد التقيت بسبعة وثلاثين طبيباً في دمشق وكلهم عجز عن معرفة هذا المرض، ثم

ذهبت إلى بلد غربي، فقال لي الأطباء: إن هذا المرض يصيب الناس بنسبة واحد على ثلاثة عشر مليوناً، وجاؤوا بطبيب يُعد الأول في العالم في هذا المرض فبقي يعالجني ستة أشهر، ثم قال لي: أنا أعلم الأطباء بهذا المرض، وليس لك علاج إطلاقاً، فعد إلى بلدك أو اذهب إلى الهند فالتقِ ببعض البوذيين لعلك تألف هذا المرض، وانتهى الأمر... عاد إلى الشام، وله قريب اصطحبه إلى بعض دروس المسجد، وبينما هو في حلقة الدرس قال: يا رب إن شفيتني لأصلينَّ، وفي الدرس الثاني قلت في سياق الحديث: إن الله لا يُجرَّب ولا يشارط، فقال من توه: والله يا رب لأصلين، وأول مرة يصلي في حياته في الدرس الثاني، أما حالته المرضية فلا تُطاق، وكل شيء أمامه يتحرك اضطراباً في الصورة، وعدم توافق حركي، ويقسم بالله العظيم أنه عاد إلى البيت، وفجأةً ثبتت الصورة أمامه، ومن شدة فرحه اختل توازنه وصاح، ثم قام ليقف فوقع، فأمسك الكأس فوقع، أما الصورة فقد ثبتت، وبعد حين عاد له التوافق الحركي، والتوازن، وهذا الإنسان هو الآن من طلاب العلم، ومن رواد المساجد! لقد اصطلح مع الله، وتاب توبةً نصوحاً... ويقول: لولا هذا المرض لجعلت بيتي باراً، وجعلته كالنادي الليلي، وكل المعاصي كنت أقترفها ولكنتُ واصلْت رحلة الضلال إلى نهايتها.

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان:٢٠].

والنعم الظاهرة لا اختلاف فيها، لكن النعم الباطنة هي الشدائد التي يسوقها الله عز وجل للإنسان ليحمله على التوبة، وكم من إنسان اصطلح مع الله عز وجل إثر شدة باطنة، وخوف شديد، ومرض كبير، وضائقة مالية خانقة، وعلى إثر هذه الشدائد تُحل العقد، ويصطلح الإنسان مع الله، فالحيلولة بين الإنسان وأن ينحرف رأفة، أما إذا أصر على الانحراف فمعالجته وهو منحرف رحمة، والله سبحانه وتعالى رؤوف رحيم.

هناك طبيب ينصحك، ويبين لك مضار التدخين، ويعطيك الأدلة، ويطلعك على أحدث الأبحاث، ويبين لك آلية ضرر التدخين مثلاً، فإذا أصر المريض على متابعة هذه العادة السيئة، وأصيب بمرض عضال، فالطبيب نفسه جراح، يجري عملية جراحية، فإذا سمعت نصيحته فقد اتبعت اسم الرؤوف، وإن لم تستجب إلى نصيحته فأنت أمام اسم الرحيم.

ومن رأفة الله بعباده أنك إذا توجهت إلى غيره، واعتمدت على غيره، ووضعت الأمل بغيره، يؤدبك حتى تبقى معه، حتى تبقى موحّداً له، حتى تبقى مقبلاً عليه، حتى تبقى واثقاً به، حتى تبقى متوكلًا عليه.

النبي ﷺ أمره الله أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف:١٨٨].

سيد الخلق وحبيب الحق أعلى إنسان في الأرض، ومع ذلك لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً، يعني أراد الله أن نتجه إليه، أن نعتمد عليه، أن نقبل عليه، كي نسعد، فرأفته تقتضي أنه يغار علينا، يغار أن نتجه إلى غيره، وإذا اتجهنا إلى غيره أدبنا، لأنه رؤوف بنا ورحيم.

ومن رأفته بك أن يصونك عن ملاحظة الأغيار، فلا ترفع حوائجك إلا إليه، والله عز وجل إن رأى عبداً تعلّق بعبد مثله، فمن رحمته بهذا العبد أن يصونه عن الشرك، ولذلك فالذي تعلقت به يخيب ظنك دائماً، والله يغار عليك أن تتجه إلى غيره وهو فقير، وإذا كان النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، والله وحده هو الذي يملك؛ فلذلك من رحمته أن يصونك عن ملاحظة الأغيار، فلا ترفع حوائجك إلا إلى الواحد القهار.

قيل لبعضهم: سل حاجتك، فقال: من وضع قدمه على بساط المعرفة لا يحسن به أن يكون لغير الله عليه منّة.

هشام بن عبدالملك كان في الحرم المكي يطوف فالتقى بسالم بن عبد الله وأراد هذا الخليفة أن يتقرّب من هذا العالم، فقال: سلني حاجتك، قال: والله إني أستحي من الله

أن أسأل في بيته غيره، فلما خرج التقى به خارج الحرم، فقال: سلني حاجتك، قال من حوائج الدنيا أم الآخرة قال: بل الدنيا: فقال له سالم: والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها؟!

وقيل لبعض الصالحين: ألك حاجة؟ فقال: لا حاجة بي إلى من لا يعلم حاجتي، لأن الذي يعلم حاجتي هو الله.

الفرق بين الرأفة والرحمة

الرّؤوف هو الذي يدفع السّوء عن عباده، ويجلب لهم الخير، يحفظ لهم سمعهم، وبصرهم، لكنّ هناك معنى جديداً أنّ اسم الرّؤوف يتعلّق بالوقاية، وأنّ اسم الرّحيم يتعلّق بالعلاج، قبل أن تقع المصيبة الله رؤوف بعباده، إياك أن تقع في هذا الخطأ، لئلا تستحق هذا العقاب، فالرّؤوف رأفته وقائيّة، أما الرحيم فتتجلّى رحمته بعد وقوع المصيبة، بعد أن يقع العبد في ذنب كبير، في أكل مال حرام، الله رحيم به، فالرّحمة بعد الوقوع والرّأفة قبل الوقوع، الرّحمة علاجيّة والرّأفة وقائيّة، الرّحمة تخفيف الألم عن المصاب، بينما الرّأفة هي الحيلولة بين المتعطّف عليه وبين الوقوع في الشِّدَّة.

ولأضرب مثلاً يقرب هذا المعنى: الأب حريص على أولاده ولا سيّما في أيّام الشّتاء أن يصيبهم البرد، وألا يخرجوا من بارد إلى حارّ، أو من حارّ إلى بارد، لئلا يصابوا بأمراض الشتاء، فالحرص البالغ من الأب على ألا يصاب ابنه بمرض هذا من الرأفة، أما حينما يصاب الابن بمرض ويتفطر قلب الأب له رحمة فهذا من باب الرحمة، فالرحمة تخفيف الألم عن مصاب واقع، لكن الرأفة هي الحيلولة بين المتعطف عليه والوقوع في الشدة، فالرّأفة متعلّقة بالوقاية، في حين أن الرّحمة متعلّقة بالعلاج.

ويرى بعض العلماء أن الرّأفة بمعنى الرحمة مع المبالغة، أي شدّة الرحمة، والمبالغة بالرحمة هي الرأفة، وما زلنا في ضرب الأمثال؛ فالأمهات جميعهنّ يعطفن على أولادهنّ، إلا أنّ هناك بعض النساء عندهنّ فرط رحمة بأولادهنّ، أي مبالغة، فبعض الأئمة يرون أن الرأفة شدة الرحمة، أي: هي رحمة في أعلى مستوى.

وأحد العلماء يفرق بين اسم الرؤوف واسم الرحيم، فيقول: واعلم أنه تعالى قدّم الرؤوف على الرّحيم والرّأفة على الرّحمة في الآيات التي تلوناها، وهذا يقتضي وقوع الفرق بينهما، وأيضاً أينما ذكر الله تعالى هذين الوصفين قدّم الرّأفة على الرّحمة، فلا بد من بيان الفرق بين الوصفين، والفرق هو أنّ الرّحيم في الشّاهد إنما يحصل لمعنى في المرحوم من فاقة وضعف وحاجة، والرّأفة تطلق عندما تحصل الرّحمة في الفاعل من شفقة على المرحوم.

والمعنى عميق سأشرحه بعون الله؛ فالباعث على الرّحمة هو المرحوم، وأما الباعث على الرأفة فهو الراحم، والمرحوم هو الإنسان إذا وقع في مصاب شديد يقتضي أن يحتاج المصاب إلى الرّحمة، فالله رحيم، أما هذا المخلوق قبل أن يصاب فمن كمال الله عز وجل، حرصه على سلامته، وهذا الحرص يقتضي الرأفة، فالانطلاق في الرأفة من الله، وفي الرحمة من العبد، وهذا هو الفرق.

فمنشأ الرأفة كمال حال الفاعل في إيصال الإحسان، ومنشأ الرحمة كمال حال المرحوم في الاحتياج إلى الإحسان، فالإنسان إذا احتاج إلى الرحمة فالله رحيم، وأما ربنا عز وجل فلأنه منزه ولأنه كامل يحول بين عبده وبين أن يقع في السوء، فالرأفة من الله والرحمة بسبب مصيبة ألّمت بالعبد.

علاقة المؤمن باسم الله (الرؤوف)

أولاً: يجب أن نُكثر من ذكر هذا الاسم كي نحبَّ الله عزّ وجلّ لأن الله تعالى أسماؤه حسنى، وصفاتُه فُضلى، وكلما ذكرنا أسماءه الحسنى مال القلب إليه واشتاق العبد إلى لقياه، فمن الأدب أن نكثر من ذكر هذا الاسم.

والشيء الثاني: أن نتخلّق بكمالات الله فنحول بين النّاس ومعصية ربهم، ونستخدم الأسلوب الوقائي لا العلاجي، وأقرب شيء إلينا أولادنا، فقبل أن يقع الابن في مشكلة ويمدَّ الأب يده لينقذه، هناك شيء أهمُّ من ذلك، أن تحول بينه وبين أن

يقع في هذه المشكلة، فالتربية الوقائيّة هي التخلق بكمال الله عز وجل، ففرق كبير بين أن تربي ابنك تربية علاجيّة وأن تربيه تربية وقائيّة، هناك فرق بين الرّأفة والرّحمة، لذلك تخلّق بكمالات الرّؤوف وحُلْ بين النّاس وبين أن يقعوا في مشكلة.

وافترض أنّك صاحب محلّ وعندك موظّف، وأمورك غير منضبطة، فخزينة المال ليس لها قفل، وعندما لاحظ الموظّف أنه لا يوجد متابعة وهناك تسيّب، سوّلت له نفسه أن يسرق، فلما سرق وتابع في السّرقة كُشف أمره، وأردت أن تنكل به عندئذ، تريد أن تذيقه الأمرين، وأن تفضحه، وأن تشتكي عليه للقضاء، وأنت الذي ورّطته، فالآن تريد أن تعالجه، وكان الأولى بك أن تحول بينه وبين هذه المعصية، وأن يشعر أن الأمور عندك مضبوطة، حسابات دقيقة، وصندوق يومي، ومبيعات مسجّلة، حينما تضبط الأمور تحول بين النّاس وبين أن يأكلوا مالاً حراماً فأنت بهذا رؤوف، أما عندما ورطته وفضحته فقد حطمته وانتهى الأمر إلى وبال.

هناك إنسان يهمل زوجته ولا يقوم بواجبه تُجاهها، إذ يغيب عن البيت عشرين ساعة، ثم يكتشف أنها خانته، وأنها منحرفة الأخلاق، وعندئذ يريد أن يفعل بها الأفاعيل، لا... أنت لم تكن رؤوفاً بها، بل سيّبت الأمور وأهملت تربيتها حتى وقعت فيما وقعت به، فحطمتها، والتطبيق العمليّ أن تتخلّق بكمالات الله، حُلْ بين الناس وبين أن يقعوا في المعصية، وأن يفسدوا، وهذا من أدب الإنسان مع اسم الرؤوف، والله عز وجل جعلك خليفته في الأرض، لتتخلّق بكمالاته.

والقاعدة أن الإنسان إذا سرق... فالسرقة جريمة ومما روي أن «من اشترى سرقة وهو يعلم أنها سرقة فقد اشترك في عارها وإثمها» [أخرجه الحاكم في «المستدرك» والبيهقي في شعب الإيمان، من حديث أبي هريرة].

هذا الذي يعين الناس على أن يسرقوا لغفلته وعدم انضباطه ليس أقل إثماً منهم، إثمه كإثمهم، لأن أموره غير مضبوطة.

فإذا اتفقت مع شريك بلا عقد ولا تسجيل للشراكة لدى المراجع الرسمية، ولا توثيق، فهذا الشريك سوّلت له نفسه أن يجعلك خارج المحل، فسجل المحل باسمه، وارتكب جريمة الغدر، التي كنت أنت السبب فيها، فلو قيدته بعقد أصولي، موثق في الجهات الرسمية، لما سولت له نفسه أن يغدر بك، فأنت حينما تحول بين الناس وبين أن يقعوا في المعاصي تكون قد تخلّقت باسم الرؤوف. «فتخلقوا بكمالات الله».

فأنت مع أولادك، وطلابك، أو مع صانع في المحل تزيل الحدود بينك وبينه فيتطاول عليك، فتطرده، فلولا أنك رفعت الحجاب وجرأته عليك، لما اجترأ، ولو أبقيته في مكانه وأبقيت نفسك في مكانك لما احتجت أن تطرده وتوقع به الضرر.

وكذلك قد تشتري من بائع، وفي آخر الشهر، تسأله: كم الحساب؟ فيقول: ثلاثة آلاف، فتدفعها دون أن تتأكّد، وفي الشّهر الثّاني لا تتأكّد ولا تقول: أرني الحساب، فسولت له نفسه بعد ذلك فضاعف المبالغ، فمَن الذي حمله على السرقة؟ أنت! فلو أردت أن تحول بين الناس وبين أن يقعوا في المعاصي فعليك أن تتخلّق بأخلاق الرؤوف.

ثالثاً: ينبغي أن يمتلئ قلب المؤمن بالرّحمة والرّأفة التي تشمل عامّة المسلمين وخاصّتهم، هذا القلب إذا امتلأ رحمة أحسن إلى الخلق فارتقى الإنسان عند الله، والقاعدة المهمة أنك إذا اتصلت بالله اكتسبت منه الرحمة، فانعكست الرحمة في المعاملة ليناً، فالتف الناس حولك، وسعدوا بك، وسعدت بهم، وارتقيت بهم وارتقوا بك، فكان المصير الجنة التي خلقت من أجلها، وإذا كان العبد منقطعاً عن الله عز وجل امتلأ القلب قسوة، وانعكست القسوة غلظة، فانفضّ النّاس من حولك، ولم تحقّق الهدف الذي خلقت من أجله.

رحمة الأولاد أودعها الله في طبع الإنسان، لكنّ الرّحمة التي نقصدها في هذا المقام رحمةٌ عامّة، أن ترحم الخلق جميعاً، أن ترحم إنساناً لا ينتمي إليك ولا تنتمي إليه، أن

ترحم طفلاً ليس ابنك، بطولة المؤمن أن الرّحمة التي في قلبه، والتي اشتقها من الله رحمةٌ عامّة، تشمل جميع الكائنات والمخلوقات، الرحمة الخاصّة أودعها الله عزّ وجلّ فيك شئت أم أبيت.

كنت أقول دائماً الوسيلة الفعالة للتقرب إلى الله أن تشتقّ منه كمالاً تتقرّب به إليه، إن اتصلت به تشتقّ الرّحمة، تقرّبْ إلى الله بأن ترحم خلقه، أن ترحم الضّعيف، وقد جاء في الحديث الشّريف: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ» [البخاريُ عن سهل بن سعد].

إن أطعمت الضعيف، سقيته، كسوته، نصرته، آويته، علّمته، زوّجته، يكافئك الله مكافأة من جنس عملك، فينصرك على من هو أقوى منك، والله عز وجل يقول في شأن عباده الموحّدين المؤمنين الذين وحدوه باسم الرؤوف: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧].

ولكن لابدّ من تنبيه، لابد أن تكون الرّأفة في موضعها، فالرّأفة في غير موضعها دمار، وهلاك، لو أنّ عندك ابناً تحبّه كثيراً وأُصيب بالتهاب معديّ حادّ، فأمرك الطّبيب أن تمنعه عن الطّعام إلا اللّبن لعدّة أيّام، وأنواع الطّعام في البيت، ويحبه الصّغير، و أنت تحبّ ابنك كثيراً، فإذا أشفقت عليه، ولم تتقيّد بتعليمات الطبيب، انقلبت هذه الحالة المرضيّة في المعدة إلى قرحة، والقرحة تحتاج إلى عمل جراحيّ، فكان من الممكن أن يشفى ابنك بحمية فقط، فالرّأفة في غير موضعها هلاك ودمار، لذلك ينبغي أن تكون الرّأفة في موضعها: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور:٢].

إن آمنتم أن الله حكيم، وعدل، ورحيم، وأنّ هذا الحد لصالح المؤمنين، لصالح المسلمين جميعاً، لصالح البشر جميعاً، فلا ينبغي أن ترأف بالزاني الذي جاهر بمعصيته لذلك قالوا: القتل أنفى للقتل.

تماماً كسلّة فيها فواكه، فالحبّة الفاسدة بعد حين تفسد مئة حبّة حولها، فالبطولة أن تعرف متى يجب أن ترحم، ومتى ينبغي أن تقسو: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النور:٢].

وأوضح مثل: عندما تتسامح الأمّ الجاهلة مع ابنها في مواقف ينبغي أن تكون فيها حازمة، تسامح الأمّ الجاهلة مع ابنها في مواقف قد تجعله منحرفاً، سارقاً، معتدياً.

يروى أن بعض أصحاب سيّدنا عمر شكوا شدّته فقال وقد بلغته الشّكوى: والله يا أبا ذرّ لو يعلم النّاس ما في قلبي من الرّحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكنّ هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى.

«ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً الديوث والرجلة من النساء ومدمن الخمر» [البيهقي عن عمار بن ياسر].

مِن هؤلاء الثلاثة الديوث، الذي لا يبالي من دخل على أهله.

هناك تساهل، أعطى أهله حريّة كاملة، قد يزورهم أجنبيّ في غيبته، وقد يقع حبّ، وقد يتطور هذا الحب إلى خيانة، فلا بد من الحزم والمتابعة.

الإنسان مخيّر، فلو اختار السّوء لأدّبه الله من شدّة الرّأفة والرّحمة، فإذا وصل العبد قبل موته إلى قلب سليم فهذا أكبر كسب يناله، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

وقد ورد في بعض الأدعية؛ اللهم أنت الرؤوف وقد انجذبت إليك القلوب بحسن العواطف وأنت الرحيم أحاطت رحمتك بالطائع والمخالف أشرِق على قلبي بنور الرؤوف المنّان واجعلني أعطف على جميع بني الإنسان، فأستغفر للمذنبين، وأحب الهدى للكافرين، وأرجو التوبة للعاصين، وأطلب الوسعة للمحتاجين، فأنال قسطاً وافراً من ميراث سيد المرسلين عليه أتم الصلاة والتسليم إنك على كل شيء قدير.

الشاكر

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في موضعين، الموضع الأول قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة:١٥٨].

والموضع الثاني: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء:١٤٧].

ولم يرد هذا الاسم في السنة المطهرة.

من معاني اسم الله (الشاكر)

الحقيقة الأولى: الإحسان إلى المخلوق جزاؤه دنيويٌّ وأخرويٌّ:

ما من إحسان يقدم إلى مخلوق كائناً من كان، ما من إحسان يقدم إلى مخلوق عاقلٍ أو غير عاقلٍ إلا سيكافئ الله من أحسن هذا الإحسان في الدنيا أو في الآخرة، وما

أحسن عبدٌ من مسلم أو كافر إلا وقع أجره على الله في الدنيا أو في الآخرة، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تقدِّم عملاً طيباً لأيّ جهة في الأرض، لأيّ كائن في الأرض، ثم لا تجد من الله مكافأة؛ إن في الدنيا أو في الآخرة. فإن كنت مؤمناً بالله وباليوم الآخر كان الجزاء في الدنيا والآخرة، وإن كان الإنسان بعيداً عن الله، مؤمناً بالدنيا، ولم يؤمن بالآخرة كان الجزاء في الدنيا.

إذا تلقيت معروفاً من إنسان، ولأنك مؤمن، ولأنك على شيء من الكمال لا تملك إلا أن تشكره، لا تملك إلا أن تبتسم له، لا تملك إلا أن تمتنّ له، لا تملك إلا أن تثني عليه، فكيف بصاحب الكمال المطلق؟ فكيف بخالق السماوات والأرض؟ فكيف بصاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى؟!

الحقيقة الثانية: كيف يشكرك الله عزّ وجلّ؟

أنت حينما يُقدَّم إليك معروف تشكر بلسانك فتقول له: شكراً، جزاك الله عنّي خيراً، والإله العظيم إذا قدّمت إلى أحد عباده معروفاً، تعرفه أو لا تعرفه، فإنه يشكرك.

سيدنا عمر جاءه رسول من معركة نهاوند، وهو السائب بن الأقرع جاءه يبشِّره بالنصر، ثم قال هذا الرسول: يا أمير المؤمنين، مات خلْقٌ كثير، قال: مَن هم؟ قال: إنك لا تعرفهم، فبكى عمر، وقال: وما ضرّهم أنّي لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم، وقد أكرمهم الله بالشهادة وما يصنعون بمعرفة عمر [ابن كثير في تاريخه].

لا يمكن أن يضيع عند الله شيء، مهما تصورت العمل صغيراً، ومهما كانت قيمته تافهة فهو عند الله محفوظ، وإذا أسدي إليك معروف تشكر بلسانك، أو تمتنّ بقلبك، أو تقدّم له مكافأة، أو هدية أو عمل أو تقدّم له خدمة.

هذا الإله العظيم صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، كيف يشكرك؟ جاءت الآية لتبيّن بالتعبير المعاصر آليّة الشكر، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

المعنى الأول: الزيادة إما من نوع العمل الذي قدمته، قدمت مالاً مثلاً، فالله عز وجل شكره لك بأن يزيد لك مالك، قدمت وقتاً، شكر الله لك فبارك في وقتك، قدمت من جهدك، شكر الله لك فسخّر من يقدم لك جهداً، ومستحيل أن تفعل معروفاً دون أن ترى الجزاء.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

«أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» [ابن ماجه عن أبي هريرة].

«أنفق بلالُ، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً» [الطبراني في المعجم الكبير والأوسط بسند حسن عن أبي هريرة].

لاحظ أنّ الإنسان إذا ذهب لعيادة مريض؛ فإنّه حريص حرصاً بالغاً أن يضع بطاقة داخل الهديّة ليعلم المريض وأهلُه من الذي قدّم تلك الهدية، فأنت حريص على أن يعلم مَن قدمت له الهدية أنّها منك، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة:٢٧٠].

طمأنك الله عز وجل أنّ أيّ عمل صالح تقدمه لمخلوق كائناً مَن كان إنّما هو في علم الله، ومع الله لا تحتاج إلى بطاقة.

والإنسان يحبّ المال قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران:١٤].

في أصل كيانك فُطرتَ على حب المال، والبشر جميعاً دون استثناء يحبون المال، ولأننا نحب المال كان إنفاق المال عملاً ثميناً، لأنك تنفق شيئاً تحبه.

الإنسان جُبِلَ على طبع، ومعه تكليف، طبعه أن يأخذ المال، والتكليف أن ينفقه، طبعه أن يبقى نائماً، والتكليف أن يستيقظ لصلاة الفجر، طبعه أن يملأ عينيه من محاسن

النّساء، والتكليف أن يغضّ البصر، طبعه أن يخوض في فضائح الناس، والتكليف أن يسكت.

ومن هنا طمأن الله عباده المنفقين فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ:٣٩].

هؤلاء الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ألا تكفيهم هاتان الآيتان، الله يعلم وهو يخلف، وما نقص مال من صدقة: والقصص التي تروى في هذا الموضوع لا تعدّ ولا تحصى، حتى إنّ المؤمن ليخجل من عطاء الله.

يقول سيّدنا عليّ رضي الله عنه (يا بني، العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال) الإنسان يحرسه الله بالعلم، لكن المال إذا أنفقته في الحسابات يقلّ، لكنّه برحمة الله يزيد، فلذلك نحن قد نُغفِل في حياتنا (حسابات البركة) فإذا أنفق الإنسان ماله بارك الله له فيه، والحدّ الأدنى أنه يرزقه رزقاً سلبياً، ما الرزق السلبي؟ أي يحفظه من أمراض وبيلة، من ظلم ظالم، من مصادرات، من مخالفات، من بطش الأقوياء، من تدمير، من حريق، من خراب، هذا رزق سلبيّ، وأحيانا يبارك الله عزّ وجلّ له في ماله، فيحقق بمالٍ قليل أهدافاً كبيرة، هذا من شكر الله للمحسن، يحفظه، ويبارك له في ماله.

هذان باعثان لإنفاق المال، أن الله يعلم، وأن الله يخلف على المنفق ماله.

حدثني أخ توفي أحد أقربائه، فزار أولاده، وقال لهم: دَيْن أبيكم عليّ، لكنه لا يعلم كم الدين، توقعه بعشرات الألوف، فإذا هو بمئات الألوف أقسم لي بالله أنه دفع مبلغاً قريباً من أربعمئة ألف ليرة، وحدثني عن قصته في صحن المسجد، وبكى، قال: والله بعد أيام جاءني مبلغ من صفقة لبضاعة كاسدة نصيبي من هذه الصّفقة هو المبلغ الذي دفعته.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة:٢٧٠].

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ﴾ [سبأ:٣٩].

المعنى الثاني: أيّ عمل صالح تجاه أيّ مخلوق، كائناً من كان هو قرض حسن لله تعالى، وهناك آية قرآنية، إن قرأها المؤمن اقشعرّ جلده: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾ [البقرة:٢٤٥].

الإله العظيم يقول لك: يا عبدي، أقرضني، اعتنِ بهذا المخلوق، أطعم هذا الجائع، اكسُ هذا العاري، عالج هذا المريض، هناك أصحاب حرف مؤمنون يقدّمون جزءاً من خبراتهم لوجه الله.

حدثني طبيب أسنان أنه جاءته مريضة تحتاج إلى تقويم لأسنانها، وهي معلّمة، ودخْلها محدود جداً، والمبلغ فوق طاقتها، فبعد أن اعتذرَتْ عن متابعة المعالجة لعدم قدرتها على التّكاليف، قال: هل تقبلين هذا التّقويم هدية مني؟ يقسم لي بالله العظيم أنّه أمضى ستة أشهر وكأنّه في الجنّة.

هناك مكافأة من نوع ثانٍ، يكافئك الله بسعادة، بطمأنينة غير المكافأة الماديّة، أنت مفطور على حبّ وجودك، وعلى حبّ سلامة وجودك، وعلى حبّ كمال وجودك، وعلى حبّ استمرار وجودك.

سلامة وجودك بطاعة الله، والطاعة هي الاستقامة، والاستقامة سلبية، والاستقامة يسبقها (ما)، فتقول: ما أكلت مالاً حراماً، ما كذبت، ما غششت، فالاستقامة تحقّق لك السّلامة، أما كمال الوجود فلا تكفيه الاستقامة، لكنّه يحتاج إلى بذل، بذلٍ من وقتك، من مالك، من خبرتك، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

لو أنّ مجنَّداً التحق بقطعة عسكرية، على رأسها لواء أركان حرب، هذا الجنديّ الغرّ لا يستطيع الدّخول على هذا اللواء الكبير بحكم التسلسل العسكري، فأمامه رتب كثيرة قبل أن يصل إلى قائد اللواء، لكنّ هذا المجنّد بإمكانه أن يدخل على اللواء دون إذنٍ إذا وجد ابنه يسبح، وكاد يغرق فألقى بنفسه في الماء وأنقذه.

إذا خدمت إنساناً، أطعمت جائعاً، كسوت عاريا، لبَّيت حاجة إنسان، أنت موظف، جاءك مراجع من محل بعيد، ونفقة الإقامة غالية جداً، وجمّدت أعمالك كلَّها وخدمته، فالطريق إلى الله أصبحت سالكة.

أنت معرّض كل يوم لتلبية حاجات النّاس، سائل سألك، مريض استعان بك، إنسان ضالّ في الطريق قال لك: أين بيت فلان؟ وهو غريب، فأَعَنته على الوصول إلى البيت، والقصص لا تعدّ ولا تُحصى.

إنّ الذين تعاملوا مع الله ذاقوا من الله المكافأة النّفسية بالسّعادة والسّكينة، والمكافأة الماديّة بالعطاء، لذلك حينما يكون الإنسان محسناً، وتأتيه الخيرات من كلّ جانب هذا بسبب إحسانه، وأنت مهمّتك في الحياة أن تعبد الله، ثم تشكره، لأنك إن عبدته فسوف تأتي الخيرات من كلّ جانب.

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر:٦٦].

اسأل نفسك: ماذا قدّمتُ للأمة؟ إذا قدّمتَ لها صناعة متقنة، صار عملك عبادة، لذلك قالوا: العمل الذي ترتزق منه إذا كان في الأصل مشروعاً، وسلكت به الطرق المشروعة، وابتغيت منه كفاية نفسك وأهلك، وخدمة الناس عامة، والمسلمين خاصة، هذا العمل الحرفيّ المهنيّ لم يشغلك عن طاعة، ولا عن أداة صلاة، ولا عن طلب علم، انقلب إلى عبادة، من هنا فالمؤمن تغدو عاداته عباداتٍ، والمنافق عباداته سيئات.

أي عمل صالح يقدَّم لأيِّ مخلوق كائناً من كان فهو عند الله قرض حسن. إذا قال ملِكٌ لمواطن فقير: أقرضني مئة ليرة، ماذا تفهم منها؟ هل هذا القرض

حقيقيّ؟! لقد أراد أن يعطيه بيتاً، أراد أن يكون لهذا العطاء سبب، وأراد من هذا القرض أن يمتحن محبّته، وأن يكافئه على هذا القرض بمنزل فخم جداً.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥].

أحياناً يكون العمل صغيراً أمامك، تبتسم في وجه موظف عندك، تسأله عن أحواله: كيف حالك يا بنيّ؟

هناك مدير عبوس قمطرير، يدخل إلى مكتبه له هيبة وكهنوت، وهناك مدير عامّ متواضع، فإذا ابتسمت في وجه من يعمل معك، إذا ابتسمت في وجه خادم عندك، سألته عن صحّته، فتبسّمك في وجه أخيك صدقة، أن تميط الأذى عن الطّريق هو لك صدقة، مهما توهمت العمل صغيراً فهو عند الله كبير.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

الذي ينفق يوسّع الله عليه في ماله، والذي يدعم الضّعفاء والمساكين يقوي الله عزّ وجلّ مكانته في المجتمع.

والذي يبذل من وقته لخدمة الخلق يبارك الله له في وقته، لذلك أمرنا الله عز وجل أن نؤدي زكاة أموالنا، ومن منّا ينتبه إلى أن الوقت له زكاة، لمجرد أن تؤدي الصلوات في أوقاتها فقد اقتطعت من وقتك الثمين وقتاً لطاعة الله، فالمكافأة على ذلك أن الله يبارك لك في وقتك، فتفعل في الوقت القليل الشيء الكثير.

حدثني أخ أنه دخل محل إنسان، قال: أنا أريد أن تعلمني صنع هذه الحلوى، قال: حباً وكرامة، صنع أمامه طبخة، وقال له: اكتب عندك التفاصيل، وكلّفه أن يصنع أمامه طبخة ثانية، والإنسان من محل بعيد من أقصى القطر، أقسم لي بالله منذ ثلاثين عاماً ما مِن عام إلا ويأتي إليه بهدايا ثمينة، يقول له: أنت فضلك علي كبير.

اسم (الشاكر) من خلال قوله تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾

لأن الله سبحانه وتعالى هو الشّاكر، إن ذكرته ذكرك، لكنّ ذكر الله لك غيرُ ذكرك له، ذكر الله لك أكبر من ذكرك له، إنّك إن ذكرته أديت واجب العبوديّة.

لكنّه إن ذكرك منحك نعمة الأمن، قال تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

لا يتمتع بنعمة الأمن الحقيقي إلا المؤمن، أما غير المؤمن فقد قال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [آل عمران:١٥١].

يمتلئ قلب المشرك خوفاً وفرَقاً، بينما يمتلأ قلب المؤمن أمناً وطمأنينة، وفي قلب المؤمن من الأمن ما لو وُزِّع على أهل بلد لكفاهم، إنها نعمة يختصّ بها المؤمنون.

إن ذكرك منحك نعمة الرضا.

قد يملك الإنسان أموالاً طائلة، ومع ذلك فهو ساخط، بينما المؤمن راضٍ عن الله عز وجل.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

منحك نعمة الحكمة: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

منحك نعمة الطّمأنينة، هذه النعم هي من ذكر الله لك.

لذلك قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

ذكر الله لك في الصّلاة أكبر من ذكرك له، لأن الله عزّ وجلّ من أسمائه الحسنى أنه الشّاكر، إن ذكرته ذكرك.

بل قال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ ﴾ [الشرح:٤].

ما من إنسان على وجه الأرض رفع الله ذكره كرسول الله ﷺ، ولكلّ مؤمن من هذه الآية نصيب، بقدر استقامته وإخلاصه يرفع الله له ذكره، ويعلي قدره، ويلقي في قلوب الخلق محبّته.

لمجرد أن تقترب من الله خطوة تجد أن الله عز وجل اقترب منك، لأنه الشاكر يقترب منك.

«فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» [متفق عليه].

قد تلقي كلمة في مجتمع معين، في سهرة، في لقاء، تتحدث عن الله عزّ وجلّ وتغفل نفسك، وتغفل بطولاتك، وتتحدّث عن ربّك.

«وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [متفق عليه].

لمجرد أن تتحرّك نحو الله بصلح، بتوبة، بإنابة، بذكر، بصدقة، بتلاوة قرآن، بفعل طيّب مع مخلوق ما، لمجرد أن تتقرّب إلى الله شبراً يتقرّب الله إليك ذراعاً، ينتظر مبادرة منك، ينتظر حركة منك، ينتظر التفافة منك، ينتظر إقبالاً منك، وهذا الشيء واضح جداً، لمجرد أن تتحرك نحو الله بعمل صالح، بصيام نفل، بصلاة نافلة، بغض بصر، بضبط لسان، بخدمة إنسان، بإطعام جائع، بهداية ضالّ يتقرب الله منك.

صور من شكر الله لعباده في الأحاديث الشريفة:

ورد في الحديث الشريف: «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم وعفوا تعف نساؤكم» [المستدرك على الصحيحين عن جابر].

يشكر الله لك برَّك لأبيك بأن يلهم أولادك في المستقبل أن يكونوا بك بررة، وهذا عطاء في الدنيا قبل الآخرة.

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦].

فالذي يبرُّ أباه يهيئ الله له أولاداً بررة يطيعونه، يعظمونه، يحترمونه، وهم في خدمته كظلّه.

(وعفّوا تعفّ نساؤكم) والذي يتعفف عن الحرام يكافئه الله بزوجة عفيفة، كما أنّه عفّ عن الحرام فهي تعفّ عن الحرام، لأنّ الله عزّ وجلّ هو (الشّاكر)، يشكر لك برّك بأبيك فيزيدك من فضله عن طريق أولاد بررة هم في خدمتك، ويشكر لك عفّتك عن الحرام بأن يجعل زوجتك عفيفة مثلك.

ومن معاني اسم الله (الشاكر) أنه إذا وصلت رحمك زاد في عمرك ونفى عنك الفقر، لأن الضّمان الاجتماعيَّ في الإسلام أساسه النّسب والجوار، والأحاديث التي توصي بالجار كثيرة جداً، والأحاديث التي توصي بصلة الرّحم كثيرة جداً.

وصلة الرّحم تبدأ بالاتّصال، ولعله اتّصال هاتفيّ، ثم بزيارة، ثم بتفقد أحوال، ثم مساعدة ماديّة أو معنويّة، ثم بأن تأخذ بيده إلى الله عزّ وجلّ، هذه صلة الرّحم التي تزيد في العمر، وتزيد في الرّزق.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» [متفق عليه].

إن أردت أن ينسأ الله لك في أجلك، ويزيد في رزقك فصل رحمك، هذه من الطاعات التي حضّ عليها النّبيّ ﷺ، لأنّ الله عز وجل شاكر.

أحياناً إنسان له أخت متزوجة في طرف المدينة، ما عنده وقت لزيارتها، لكن لو أنّه زارها ما الذي يحصل؟ تنتعش أمام زوجها، أمام أولادها، لا تنام الليل مِن فرحها،

لذلك هناك أناس يزورون أقرباءهم الأقوياء أو الأغنياء أو اللامعين في الحياة، أما أقرباؤهم المساكين فيهملونهم، ويزورونهم من عام إلى عام.

لو طبقنا صلة الرحم لكنا في حال غير هذه الحال، لذلك إذا أعطيت أقرباءك من مالك، فهذه الزكاة لها أجران عند الله، لك أجر الصدقة، ولك أجر الصلة، ألا تحبُّ أن تنال ثواباً مضاعفاً؟ بل إنّ بعض العلماء يؤكد أنّ الله سبحانه وتعالى لا يقبل زكاة من مسلم، وفي أقربائه محتاجون.

القصد من الزيارة أن تُمَدَّ يد العون، من القويّ إلى الضعيف، ومن الغنيّ إلى الفقير، ومن العالم إلى الجاهل، والأقوى منك ليس بحاجة إليك، يجب أن تزوره طبعاً، ولكنّه ليس بحاجة إليك، مَن الذي في حاجة إليك؟ من هو أضعف منك، فإذا تراحم الناس يرحمهم الله جميعاً، أما إذا تدابروا، ولم يعبأ أحد بأحد سخط الله علينا جميعاً.

ومن معاني اسم الشّاكر قوله ﷺ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ الله لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ» [الترمذي].

لأن الله عز وجل هو (الشاكر)، وإن قدّمت لإنسان عادي معروفاً يتفنن في شكرك، ويبارك هذا العمل، يقول لك: تفضّلت عليّ، وخالق الأكوان صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى أيعقل أن تقدم معروفاً في الدنيا أو في الآخرة ولا يشكرك عليه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ العَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ الله لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ» [متفق عليه].

لعل الله يرحمنا بخدمة مخلوق ضعيف، بخدمة هرّة مريضة، وهناك أشخاص يأخذون هذه الحيوانات المريضة إلى مستوصفات بيطريّة يعالجونها، هناك أناس مغرمون بإطعام الحيوانات.

لذلك حينما تعرف الله تتفنّن في خدمة مخلوقاته، والمؤمن إنسان عظيم، إنسان اصطلح مع الله، اصطلح مع خلقه جميعاً، المؤمن يبني حياته على العطاء، يعيش ليعطي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَذَهُ فَشَكَرَ الله لَهُ فَغَفَرَ لَهُ» [متفق عليه].

أحيانا شاحنة كبيرة تقف لإصلاح بعض العجلات، وتضع حجرا كبيرا وراء العجلة، ثم تنطلق والحجر قد يسبب دمار أسرة بأكملها، وهناك إنسان يقف، ويزيح هذا الحجر، فيشكر الله له عمله.

أسأل الله تعالى أن يلهمنا عملاً يستحقّ شكره جلّ جلاله.

الإله

مع اسم جديد من أسماء الله الحسنى، والاسم الذي سنبحر في رحابه من خلال الصفحات الآتية هو: (الإله).

فقد ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، أوّلها قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة:١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة:٧٣].

أما في الأحاديث الشريفة فقد ورد هذا الاسم في الدعاء التالي: «... اللهمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» [البخاري عن ابن عباس].

فـ (الإله) من أسماء الله الحسنى بنص القرآن الكريم، وفي حديث النبي عليه أتم الصلاة والتسليم.

من معاني اسم الله (الإله)

قال علماء اللغة: (الإله) اسم مفعول، بمعنى المألوه، والمألوه أي: المعبود محبةً وتعظيماً.

أمّا أصل الفعل فهو ألِه يأله إلهةً، و(الإله) هو الله، الآن كل ما اتخذ من دون الله معبوداً هو إله عند من اتخذه، حينما تخضع لشيء، حينما تطيع شيئاً أو جهةً، حينما تستسلم لها، لو لم تسمِّها إلها فقد جعلتها إلهاً: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣].

أيّ جهة تخضع لها، تستسلم لها، تحبّها، تتفانى في طاعتها فهي إلهك، والعياذ بالله.

فالبطولة كلّ البطولة أن يكون إلهك الله، لا أن تكون الشهوة إلهك، لا أن يكون قوي من أقوياء أهل الأرض إلهك، لا أن يكون الشيطان إلهك، لابد من جهة تخضع لها، إن لم تكن عبداً لله فأنت عبد لعبد لئيم، البطولة أن تعبد الله، البطولة أن يكون الله جل جلاله إلهك، بمعنى تخضع له، تحبُّه، تتفانى في طاعته، هو مرجعك، هو الحكم.

من معاني كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)

(لا إله إلا الله) أي لا معبود بحق إلا الله، وبعبارة أخرى: ليس هناك في الكون جهة تستحقّ أن تعبدها إلا الله:

ومن يستحق العبادة إلا الخالق جل جلاله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة:٢١].

هو الرّب، المُمِدُّ، هو من يُمدُّك بالهواء والماء؟ لو أن اجتماعاً على أعلى مستوى في الأرض ضمّ كلَّ الدُّول، واتُّخذ قرار بإنزال الأمطار هل تنزل الأمطار؟ هو الذي يمدّك بالماء، بالهواء، يمدّك بالنّبات، بالطّعام والشّراب: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة:٢١].

الخالق يُعبد، والرب يُعبد: اعبد مَن إليه يرجع الأمر كلُّه: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ» [أحمد].

العبادة علة وجودك في الدنيا، وهي علة واحدة.

للتوضيح: أرسلك والدك إلى بلد غربيّ لتنال درجة الدكتوراه، المدينة كبيرة صاخبة، فيها مسارح، فيها ملاهٍ، فيها حدائق، فيها مكتبات، فيها أسواق، مدينة مترامية الأطراف، وأنت طالب في هذه المدينة، لو سألناك: ما علّة وجودك في هذه المدينة؟ لك في هذه المدينة علّة واحدة، سبب واحد لبقائك فيها، هدف واحد في هذه المدينة؛ أن تنال الدكتوراه، ولذلك أخطر سؤال تسأله نفسك: ما علّة وجودي في الأرض؟

الناس يتحركون وسعيهم شتّى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [الليل:١-٤].

هذا يسعى لكسب المال، ثم يفاجأ أن المال ليس بشيء عند الموت.

لكن يا ترى هل هذه الحركة متوافقةٌ مع الهدف؟

ذهب رجلٌ إلى باريس، ونام في الفندق، واستيقظ في صبيحة اليوم الأول، وسأل: إلى أين أذهب؟ ما هذا السؤال؟ نسأله نحن: لماذا أتيت إلى هنا؟ إن أتيت طالباً فاذهب إلى المعاهد والجامعات، وإن أتيت تاجراً فاذهب إلى المعامل والمؤسسات، وإن أتيت سائحاً فاذهب إلى المقاصف والمتنزّهات، متى يصح عملك في مكان ما؟ إذا عرفت سرّ وجودك، وغاية وجودك، لذلك لا شيء يعلو في حياة الإنسان على معرفة سرّ وجوده، وغاية وجوده، وقد تجد إنساناً في أعلى درجات العقل يطلب العلم، يبحث عن عمل صالح يرقى به عند الله، يربّي أولاده تربية صحيحة، يتعامل مع النّاس وفق

منهج الله، هذا عرف سرّ وجوده، وغاية وجوده، لذلك أنت كائن متحرك، ما الذي دفعك إلى الحركة؟

الطاولة لا تتحرك، ليس فيها شهوات، ولا تحِبّ طاولة ثانية أمامها، لا تأكل، ولا تشرب، ليس عندها طموحات، لو تركتها مئات السنين تبقى على ما هي عليه، أما أنت -أيها الإنسان- فكائن متحرك، لماذا؟ لأن الله أودع فيك حبّ الطعام والشراب للحفاظ على الفرد، أودع فيك حاجة إلى الجنس للحفاظ على النوع، أودع فيك حاجة إلى تأكيد الذات، للحفاظ على الذِّكر، هذه الحاجات الثلاث تدفعك إلى الحركة، فأنت كائن متحرك، البطولة أن تكتشف ما إذا صحّت حركتك أو لم تصحّ.

لو أنَّ طالبًا عنده امتحان في آخر سنة، في مادّة أساسية، ومصيره يبني على نجاحه، فما الحركة المناسبة له؟ أن يقبع في البيت، وأن يقرأ الكتاب المقرّر، لو أنّ أصدقاءه الخُلَّص أخذوه إلى مكان جميل مطلٍّ على البحر، والجبل فيه نبات أخضر، والطعام نفيس جداً، وهو يحبّهم، لماذا يشعر بانقباض شديد؟ لأن هذه الحركة لا تتناسب مع الهدف القريب.

إذاً: السؤل الثاني: أنت متى تسعد؟ تسعد إذا جاءت حركتك متوافقة مع هدفك.

اسأل تاجراً لا بيع ولا شراء عنده، وهو جالس طول النهار في المحلّ مرتاحاً من عناء العمل، هل أنت سعيد سيقول لك: لا، لأنّ هذه الرّاحة لا تتناسب مع هدف المحلّ التجاريّ.

إذاً: علة وجودنا الوحيدة على وجه الأرض أن نعبده، ولن نسعد إلّا بعبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

مفهوم العبادة

والعبادة: غاية الخضوع لله، مع غاية الحب، وبالتعريف المفصل: هي طاعة طوعيّة، ممزوجة بمحبّة قلبيّة، أساسها معرفة يقينيّة، تُفضي إلى سعادة أبديّة.

العلة الوحيدة من وجودك على وجه الأرض بنص القرآن الكريم أن تعبده، أمّا الخاسر فهو الذي لم يحقّق الهدف من وجوده، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

يقول لك مغترّاً بقوته: أنا! حياتك متوقفة على قطر شريانك التاجيّ، فإذا ضاق هذا الشريان دخلت في متاعب لا يعلمها إلا الله، وكلُّ مكانتك، وكلُّ حيويتك، وكلُّ نشاطك وهيمنتك، و شخصيتك وحجمك المالي متوقف على سيولة الدّم، فإذا تجمّد الدّم في أيِّ مكان من الدماغ حدث شلل تتوقف مكانة الإنسان على انضباط نموِّ الخلايا، فإذا نمت نموّاً عشوائياً فورم خبيث عافانا الله وإياكم.

فلذلك علة وجودك الوحيدة أن تعبد الله، وليس هناك من جهة في الكون تستحق أن تعبدها إلا الله، وعبادة الإنسان لربه تبدأ من العبادات الشعائرية من صلاة وصيام وحجّ وزكاة، ولا بد أن تنتقل إلى تعاملاته بجميع أشكالها، ثمّ تغدو حركته في الحياة عبادة لأنّه يبتغي بكلّ عمل حتى بطعامه وشرابه وجه الله.

النبي ﷺ سأل أصحابه: «أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ الله مَنْ لَا لَهُ دِرْهَمَ وَلَا دِينَارَ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» [مسلم عن أبي هريرة].

وفي حديث آخر: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا الله عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ الله، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ الله انْتَهَكُوهَا» [ابن ماجه عن ثوبان].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ» [أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة].

ومنهج الله -ولا أبالغ- يقترب من مئة ألف بند في كلّ شؤون حياتك، بدءاً من فراش الزوجيّة، إلى العلاقات الدَّوليّة.

علة وجودنا في الأرض أن نعبده، وإذا ربحنا الأبد نكون قد ربحنا الربح الحقيقي: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥].

من أنواع العبادة

النوع الأول: عبادة الهوية: كلُّ واحد منّا له موقع في المجتمع، فقد يكون غنيّاً، فالغنيّ عبادته الأولى إنفاق المال، بل إن المال مادة امتحانه الأولى، فإما أن ينجح في إنفاق المال في الوجوه التي ترقى به في الآخرة، وإما أن ينفق هذا المال على شهواته ونزواته.

هناك إنسان آخر قويّ يشغل منصباً رفيعا بجرّة قلم يُحقّ حقّاً، ويُبطل باطلاً، بجرة قلم يقرّ معروفاً، ويزيل منكراً، والإنسان كلما علا موقعه في مجتمعه اتسعت رؤيته.

أذكر مرة أنني أتيت إلى دمشق بالطائرة من قبرص، وحينما دخلنا سواحل بلدنا الطيّب رأيت بيروت وطرابلس معاً، على ارتفاع أربعين ألف قدم يتاح لك أن ترى مئة كيلو متر معاً، علمتني هذه الرؤية درساً؛ أنه كلما ارتفع مقام الإنسان تتسع رؤيته، وكلما ارتفع مقام الإنسان تزداد مسؤوليته، معلم في صف مسؤول عن ثلاثين طالبا، لكنّ مدير المدرسة مسؤول عن ثلاثمئة وستين طالبا، لكنّ مدير التربية مسؤول عن محافظة، إلا أن وزير التربية مسؤول عن المناهج في البلاد كلّها، فكلما ارتفع مقام الإنسان ازدادت مسؤوليته، وهذا ما دعا سيّدَنا عمر بن الخطاب إلى أن يقول: «لست خيراً من أحدكم، ولكنني أثقلكم حملاً».

والمسؤول الكبير حينما يتمعن في معنى كلمة مسؤول كبير يجب أن ترتعد فرائصه، لأنه سيُسأل عن كل شيء، سيدنا عمر أدرك هذه المسؤولية، وقال: «والله لو تعثرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها».

دخلت فاطمة بنت عبد الملك على عمر بن عبد العزيز ورأته يبكي في مصلاه، قالت له: «مالك تبكي؟ قال: دعيني وشأني، فلما ألحّت عليه قال: ويحك يا فاطمة، إني قد وُليتُ أمر هذه الأمة، ففكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهول، واليتيم المكسور، والمظلوم المقهور، والغريب والأسير، والشيخ الكبير والأرملة الوحيدة، وذي العيال الكثير والرزق القليل، وأشباههم في أطراف البلاد، فعلمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً، وأن خصمي دونهم رسول الله، فخفت ألا تثبت حجّتي».

القويُ عبادته الأولى إحقاق الحق وإبطال الباطل، ردُّ المظالم لأصحابها، هذه عبادته الأولى.

أمّا العالم فعبادته الأولى التبيين والتوضيح، وألا تأخذه في الله لومة لائم.

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:٣٩].

فلو أن هذا الإنسان الذي تصدى للدعوة خشي غير الله فما تكون النتائج؟ يسكت عن الحق خوفاً منه، وينطق بالباطل إرضاءً له، انتهت دعوته كلياً، لذلك قالوا: كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرّب أجلاً.

أمّا المرأة، فعبادتها الأولى رعاية الزوج والأولاد.

النوع الثاني: عبادة الظرف: أحياناً هناك ما يسمى بعبادة الظرف، عندك أب مريض، فالعبادة الأولى رعاية المريض، عندك ضيف، العبادة الأولى إكرام الضيف، عندك ابن يحضّر للامتحان، العبادة الأولى أن تهيئ له الجوّ المناسب للامتحان.

النوع الثالث: عبادة الوقت: تروي بعض السير أن عامل سيدنا عمر على أذربيجان أرسل له رسولاً، هذا الرسول وصل إلى المدينة في منتصف الليل، فكَرِه أن

يطرق باب أمير المؤمنين، فدخل إلى المسجد، وما كان فيه إضاءة، سمع رجلاً يبكي ويناجي ربه يقول: يا رب، هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها؟ سأله: من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا عمر، قال: أنت أمير المؤمنين؟! يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل؟ فقال عمر: «إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي» .

إن أراد الطرف الآخر إفقار المسلمين فالعبادة الأولى استصلاح الأراضي، وإنشاء السدود، واستخراج الثروات، وتطوير الصناعات من أجل أن نأتي بمال نحلّ به مشكلات المسلمين، وإذا أراد الطرف الآخر إضلالنا فتوضيح معالم الدين، وترسيخ القيم الأخلاقية، ورد الشبهات، وتأليف الكتب والأبحاث هذه عبادة أيضاً، وإذا أراد الطرف الآخر إفسادنا فتأسيس المناشط الإسلامية، وصيانة أولادنا وشبابنا من الفساد الأخلاقي، هذه عبادة أيضاً، وحينما يريد الطرف الآخر إذلالنا يجب أن نضحي بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس.

الدعاء باسم (الإله)

سيدنا يونُس وجد نفسه فجأة في بطن حوت: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

في أي عصر، في أي مصر، في أي زمان، في أي مكان، في أي ظرف: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٨].

الله عز وجل أعطاك حالة نادرة، بل مستحيلة لإنسان يجد نفسه فجأة في بطن حوت في ظلمة الليل، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة بطن الحوت، وينادي ربه في هذا المكان: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

الآن أصغوا معي إلى الحديث الشريف: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنْ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ» [أحمد عن سعد].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا الله رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ» [متفق عليه].

معنى ذلك أن الأمر بيد الله وحده والله عز وجل صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، الله عز وجل كامل كمالا مطلقا، لذلك لا يجتمع حزن مع إيمان بالله، الأمر بيده وحده.

أحياناً تجد إنسانا صالحا جداً، لكن ليس بيده شيء، تقول: مسكين ما بيده شيء، وتجد إنسانا لئيما جداً، لكن بيده كل شيء، معه سلطة قوية، دائماً هناك مفارقة، إما أن ترى إنسانا قويا غير أخلاقي، أو أخلاقيا ضعيفا، وكلاهما لا يرضيك، لأنك بحاجة إلى إنسان بقدرِ ما هو قوي منضبط هو أخلاقي رحيم، هذا شخصية فذّة ونادرة، لذلك ولله المثل الأعلى، الله عز وجل بيده كل شيء، هو القوي، في الوقت نفسه هو الرحيم، هو اللطيف، هو الكريم، لذلك قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨].

ومعنى الآية أنك تحبّ هذا الإله العظيم بقدر ما تعظمه.

الإله هو الممدّ وهو الخالق، وكلّ شيء بيده، فلنعبده ولنتوكل عليه.

الغفور

مع اسم جديد من أسماء الله الحسنى، وهو «الغفور» وقد ورد في القرآن الكريم معرّفاً ومنوّناً، معرّفاً بالألف واللام في أحد عشر موضعاً، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحجر:٤٩].

وورد في اثنتين و سبعين آية، منوّناً كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [البقرة:١٩٩].

أمّا في السنة: ففي الحديث الشريف عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ : عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: «قُلْ اللهمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّك أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ» [أخرجه البخاري].

وفي حديث آخر: عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «اللهمَّ إِنَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ فِي ذِمَّتِكَ فَقِهِ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ

وَعَذَابِ النَّارِ وَأَنْتَ أَهْلُ الوَفَاءِ وَالحَمْدِ اللهمَّ فَاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ» [أبو داود].

من معاني اسم (الغفور)

«الغفور» في اللغة، من صيغ المبالغة على وزن فعول، وفعله: غفر، يغفر، غفراً، ومغفرة، وغفراناً، يعني: كثير المغفرة، ولا تنسوا أن الاسم إذا جاء على صيغة المبالغة فإنّه يعني المبالغة كمّاً ونوعاً، فيغفر الذنوب مهما كثرت، ويغفر الذنب الواحد مهما كبر

أمّا أصل الغفر في اللغة فهو التغطية، والستر، وكل شيء سترته فقد غفرته، والمِغْفَر: غطاء الرأس كأن الله عز وجل حينما يغفر الذنب يستره عن صاحبه، لئلا يتعذّب به، إذ إنّ فطرة الإنسان التي فطره الله عليها فطرة سليمة، فإذا أخطأ، أو سبب إيذاء لمخلوق فإنه يتعذّب.

وفي الحديث الشّريف:

سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ إِنَّ الله يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ وَأَمَّا الكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود:١٨] [البخاري عن ابن عمر].

إن اسم «الغفور» من أقرب الأسماء الحسنى إلى المؤمن، لأن الإنسان مذنب توّاب، والله عز وجل غفور.

«الغفور» هو الذي يستر العيوب ويستر الذنوب، مهما بلغ الذنب من الكبر، ومهما تكرر من العبد وأراد الرجوع إلى الرب، فإن باب المغفرة مفتوح في كل وقت، ما لم تغرغر النفس، أو تطلع الشمس من مغربها.

اسم الله «الغفور» يدل على دعوة العباد للاستغفار بنوعيه، فهناك استغفار عام واستغفار خاص، أما الاستغفار العام فهو الاستغفار من صغائر الذنوب، وقبائح العيوب، وما يدور من خواطر السوء في القلوب، فالقلب فيه منطقتان، منطقة حديث النفس، ومنطقة الكسب.

شخص سافر وحده إلى مدينة، وطوال الطريق يحدث نفسه: يا ترى هل أزور فلاناً؟ لا، لا أريد أن أزوره، حوار ذاتي، ففي منطقة حديث النفس، قد يأتيك خاطر لا يرضي الله، قد تفكر بإيذاء إنسان، قد تستصغر إنساناً مؤمناً لكنّه فقير، كل خاطر، كل حديث ذاتي لا يرضي الله ينبغي أن تستغفر الله منه، هذا الاستغفار العام، فالله عز وجل تفضل علينا، وعفا عنا فيما حدثنا به أنفسنا، أما إذا انقلب إلى عمل، فهناك استغفار خاص، عن ذنب ارتكبته، أو سلوك فعلته، أو موقف وقفته، أو نظرة نظرتها.

«إنَّ الله تعالى تجاوزَ لأُمَّتِي ما حدَّثَتْ به أنفُسَها، ما لم يَعْمَلُوا به أَو يتكلَّمُوا ما وسْوَستْ به صُدُورها» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة].

تأتيني حالات كثيرة بحكم عملي في الدعوة أنّ خواطر تكاد تسحق هذا الإنسان، أقول له اطمئن، إن كنت متألماً من هذه الخواطر فإنها ليست منك، بل من وسوسة الشيطان، فالله عز وجل يتجاوز عن هذه الخواطر، ما لم تنقلب إلى عمل، أما إذا جاءتك هذه الخواطر وارتاحت نفسك لها فهذه منك، هنا الخطر، مع أنك لا تحاسب عليها لكن إذا قبلتها فيمكن أن تنقلب إلى عمل، لذلك نقول يجب أن تستغفر ربك من هذه الخواطر التي ارتحت لها لئلا تنقلب إلى عمل، والمعصية تبدأ بخاطرة، ثم بفكرة، ثم بشهوة، ثم بإرادة، ثم بعمل، فإذا تبعها الإنسان انقلبت إلى عادة وعندئذٍ من أصعب الأشياء أن تدع عادة استحكمت فيك.

فالإنسان المؤمن بحاجة إلى استغفار عام لمحو الخواطر الشريرة النابعة من هوى النفس.

الله عز وجل خلق البشر بإرادة حرة، أنت حر، أنت مخير، لولا أنك مخير لا معنى للجنة ولا للنار، ولا للثواب ولا للعقاب، ولا للسعادة ولا للشقاء.

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣].

فالله عز وجل خلق البشر وأعطاهم إرادة حرة.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

وأعلمهم أنه غفور رحيم، و تواب كبير، ليظهر لهم الكمال في أسمائه، وليحقق فيهم مقتضى أوصافه، لتعود المنفعة عليهم أجمعين.

«كُلُّ بَني آدمَ خطَّاءٌ وخيرُ الخَطَّائِينَ التَّوابونَ» [الترمذي عن أنس بن مالك].

وعند مسلم من حديث أبي أيوب ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «لو لم يكن لكم ذنوب يغفرها الله لكم لجاء الله بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم».

ليس معنى الحديث أن تسارع إلى الذنب، ولكنّ معنى الحديث أن الذي لا يشعر بذنبه هالك، لا يعبأ الله به، يفعل الكبائر، يقول لك ماذا فعلت؟ لم أفعل شيئاً؟ هذا الذي لا يرى ذنبه إطلاقاً.

«لَو لَم تُذنِبُوا» بمعنى لو لم تشعروا بذنوبكم، يسهر سهرة كلُّها غيبة ونميمة، يقول لك ماذا فعلت؟

يأتي الله بقوم إذا أخطأ الواحد منهم بكلمة لا ينام الليل، إذا أكل قرشاً حراماً يحاسب نفسه حساباً عسيراً.

هذا الاسم من أقرب الأسماء إلى المؤمن، لأن العبد من شأنه أن يذنب، ولأن الله تعالى من شأنه أن يغفر، وما أمرك أن تستغفره إلا ليغفر لك، وما أمرك أن تستغفره إلا لأنه علم ضعفك وغفلتك أحياناً، ضعفَك أمام بعض الشهوات، وغفلتك عنه.

من شروط المغفرة

يقول تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر:٥٣].

عندنا بعض التفسيرات اللطيفة لقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر:٥٣] فالله عز وجل لم يقل: قل يا عبادي الذين فسقوا، قل يا عبادي الذين زنوا، قل يا عبادي الذين شربوا الخمر، قل يا عبادي الذين قتلوا، بل قال: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ففيها تلطف، وفيها سترٌ لحالهم، تذوق الكلمات القرآنية ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾.

الشيء الثاني في الآية كلمة ﴿يَٰعِبَادِيَ ﴾ ففيها لفتةٌ بلاغية جميلة موحية جداً، أي: هذا العبد أضافه الله إلى ذاته، تحبباً لعباده؛ تسلية وطمأنة لهم، وإكراماً منه نسبهم إلى ذاته ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ فزينتهم بنسبتهم إلى ربهم، وقبحهم لا يعقل أن يغلب نسبتهم إلى ربهم، لذلك حينما يقول لك الله عز وجل: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ﴾ يجب أن تفتخر، يجب أن تطير إلى السماء حباً به وإقبالاً عليه.

والشيء الآخر الذي يلفت النظر في الآية: ﴿ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ لم يقل: في معصية ربهم. لا، بل قال: أسرفوا على أنفسهم، أي: هذه المعاصي ما ضرّوا بها أحداً، بل ضرّوا بها أنفسهم، وذات الله منزّهة عن كل أذى.

«يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» [رواه مسلم].

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ أي: هو الغفور إن أذنبت أو لم تذنب، فهذه هي صفته الثابتة، هذه صفته القديمة والسرمدية والأبدية.

ثمّ يقول تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزمر:٥٤-٥٥].

يعني أنه غفور رحيم إن عدت إليه، غفور رحيم إذا تبت إليه، غفور رحيم إذا أنبت إليه، غفور رحيم إذا استغفرته، فإذا أذنبت وأدركت أنك أذنبت وندمت، واستغفرت، وأقلعت، وأصلحت فإن الله غفور رحيم:

وفي آية ثانية: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

غفور بشرط العودة، والتوبة، والإنابة، والإقلاع عن الذنب.

وأما قوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحجر:٤٩].

فقد روي عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بقوم وهم يضحكون، فقال: تضحكون وذكر الجنة والنار بين أظهركم، قال: فما رئي أحد منهم ضاحكاً حتى مات قال: وفيهم نزلت: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [رواه البزار في مسنده"].

لن يكون الإنسان في حالة نفسيّة سويّة إلا إذا جمع بين الخوف والرجاء، فإذا غلب الخوف فهي حالة مرضيّة، وإذا غلب الرجاء فهي حالة مرضيّة أيضاً، فلاحظ نفسك ووزان بين الحالتين، يوجد في الدم هرمون التجلط وهرمون التميع إذا غلب هرمون التجلط رأيت الدم كالوحل في الأوردة والشرايين فيموت الإنسان فوراً، وإذا غلب هرمون التميع سال الدم كله من ثقب صغير، في كلا الحالين، فالإنسان ميت ولا بد من التوازن الدقيق بين التجلط والتميع، وبعلاقتك مع الله عز وجل يجب أن يكون هناك توازن بين الرجاء والخوف، فأكثر الناس يقول: لا تشدّد فالله غفور رحيم، وهذا رجاء أبله، لو قرأت القرآن لوجدت أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ

لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾ [النحل:١١٩]، إذا راجعت القرآن الكريم فالآيات التي وردت بموضوع المغفرة آيات كثيرة: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٣].

فالتفاؤل والرجاء دون توبة ودون استقامة تفاؤل أبله أحمق، والخوف إلى درجة الانسحاق واليأس من رحمة الله هذا يأس قاتل، ولن تسعد مع الله عز وجل إلا إذا جمعت بين الخوف والرجاء، قال تعالى: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٠].

﴿ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:٦٣].

قال تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ ﴾ أي: أخبر يا محمد: ﴿ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ أي: أني واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب.

قبل العباد جاءت شفاعة النبي ﷺ، وبعد العباد جاءت رحمة الله تعالى، والعبد بين شفاعة ورحمة، هذا من باب التطمين.

علاقة المؤمن باسم الله (الغفور)

أول واجب على المؤمن أن يستغفر الله، فلابدّ من أن تستغفر لأن الله ما أمرك أن تستغفره إلا ليغفر لك، فدوام الاستغفار هو حظك من هذا الاسم.

والنبي ﷺ يقول: «إِني لأستغفرُ الله في اليومِ مئة مَرة» [أبو داود عن الأغر المزني].

وقد ننوه أن استغفار النبي له تفسير خاص، فكلما أقبل على الله، وانكشفت له رؤية جديدة، استغفر من رؤيته السابقة، لأنه مهما تعرفت إلى الله، فالله أعظم مما عرفت ولا يعرف الله إلا الله.

جاء العلماء بمصطلح لطيف، هو المغفرة الوقائية، بمعنى أنك إذا كنت متصلاً بالله عز وجل، مستغفراً له الاستغفار العام، فهذه مغفرة وقائية، أنت تستغفر لا لذنب وقع منك، بل لئلا تقع بالذنب.

إذاً يصح أن نقول: أفضل أنواع الاستغفار، الاستغفار الوقائي، يعني دوام الصلة بالله ليكون القلب مستنيراً لئلا تقع في الذنب.

قال بعض العلماء: الأولى أن يستغفر الله صباحاً لما كان منه في الليل وأن يستغفر الله مساءً لما كان منه في النهار.

التطبيق الثاني من تطبيقات اسم الغفور بالنسبة للمؤمن أن تغفر لمن أساء إليك.

هل تعتقد أن هناك إساءة أبلغ، وأعظم من أن يتهم أحد ابنتك الشريفة، الطاهرة، العفيفة بالزنا؟! هذا مِسْطَح، الذي روج حديث الإفك، كان الصديق يحسن إليه، فإذا بمسطح يروج حديث الإفك الذي يمسُّ ابنته السيدة عائشة، فأوقف المعونة عنه، فجاء العتاب الإلهي: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ [النور:٢٢].

فقال أبو بكر رضي الله عنه: «بلى، والله إني لأحبُّ أن يغفر الله لي» وتابع مساعدته له [البخاري عن عائشة].

وهذه قصة نموذجية، كن أكبر من ذنب الآخر، اعفُ عنه فأنت كبير، والإنسان أحياناً يكبر، ويكبر، ويكبر، عند الله، ولا ترى كبره فيتضاءل أمامه كل كبير، ويصغر ولا ترى صغره فيتعاظم عليه كل حقير، الإنسان إذا عفا يكون كبيراً، وإذا انتقم يكون صغيراً.

يقول تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت:٣٤].

هذه أخلاق الدعوة، فالعفو والمغفرة لمن أساء إليك خُلق يرضى الله عنه.

هكذا كان أصحاب النبي، هكذا كان التابعون، هكذا كان تابعو التابعين، هكذا كان السلف الصالح، أما الأحقاد فقد مزّقت الأمة، على مستوى البلاد الإسلامية، على مستوى المدن، على مستوى القرى، على مستوى الأسر، تجد عداوات لا تنتهي بين الأسرة الواحدة.

الإنسان لضعفه أحياناً يسامح، لأنه ضعيف، لا يملك أن يُحاسِب، لكن حينما تعفو عن عدوك وهو في قبضتك، وبإمكانك أن تسحقه، وبإمكانك أن تذيقه ألوان العذاب، وتعفو عنه فهذا العفو يرقى بك عند الله.

لذلك حينما ائتمرت قريش على رسول الله عشرين عاماً، ونكّلت بأصحابه، وحاربته مرات عديدة، ثم وقعوا في قبضته عند فتح مكة، عشرة آلاف سيف متوهجة ينتظرون كلمة من فمه الشريف، قال: «ما تظنون إني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء» [السيرة النبوية].

المؤمن المتخلق بهذا الاسم لا يرى عورة إلا سترها، ولا زلة إلا غفرها، وإن اعتذر إليه أخ قَبِل منه، وعامله بالإحسان بل يقابل جميع إساءاته بالغفران لأنه صاحب الخلق الرفيع. فالله عز وجل ستّير والمؤمن يستر.

لذلك يصير المؤمن بين الناس كالشجرة الظليلة، تُرجم بالحجارة، وتلقي عليهم الثمار، كن كبيراً، الإنسان الكبير عند الله له مكانة عظيمة.

وقد علمنا النبيّ ﷺ دعاء هو سيد الاستغفار: «اللهمَّ أَنْتَ رَبِّي، لا إِلَهَ إلا أنت، خَلقْتني، وأَنا عَبدُكَ، وأنا على عَهدِكَ ووعْدِكَ ما اسْتَطَعتُ، أَعوذُ بِكَ مِن شَرِّ ما صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعمَتِكَ وأَبُوءُ لك بذنبي فَاغْفِر لي إِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذنوبَ إلا أنتَ» [أخرجه أبو داود عن بريدة بن الحصيب].

ومن رحمة الله بنا هذا الحديث الشريف:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ وَالجُمْعَةُ إِلَى الجُمْعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الكَبَائِرَ» [صحيح مسلم].

هذا من فضل الله، ومن كرمه علينا، أن الصلاة تمحو الذنوب التي ما بين الصلاتين كأنك فتحت مع الله صفحة جديدة، وأن الجمعة تمحو ما كان بين الأسبوعين، وأن رمضان إلى رمضان يمحو ما بينهما.

العبد عبد، والرب رب، العبد شأنه الاستغفار، والربُّ شأنه الغفران، من لنا غير الله؟! مهما أذنبنا فليس لنا إلا الله الغفور.

القريب

مع اسم جديد من أسماء الله الحسنى، وهو اسم (القريب)، وقد ورد هذا الاسم مفرداً غير مقترن بغيره من الأسماء الحسنى، مطلقاً، منوناً، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦].

وقد ورد أيضاً مقترناً باسم الله المجيب، كما في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود:٦١].

واقترن باسمه السميع، في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ:٥٠].

وقد ورد في السّنة الشّريفة: عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﵁ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ.

من معاني القرب

أولاً: القرب المكاني: فالقريب عكس البعيد، القريب ليس بينك وبينه حجاب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨].

ثانياً: القرب الزمانيّ: قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنبياء:١٠٩].

ثالثاً: القريب في النسب: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٧].

وهناك قاعدة: الأقربون أولى بالمعروف، وهو القرب النسبي، والقرب إلى الفقر، والقرب إلى الإيمان، عندك ثلاثة موازين في دفع صدقتك أو زكاتك، إما أنه أفقر، أو أنه أقرب إلى الإيمان، أو أنه أقرب إليك نسباً.

رابعاً: قُرب الحظوة: قد يكون الإنسان قريبا من إنسان يحتلّ مركزاً مرموقاً، بإمكانه أن يدخل عليه بلا استئذان، بإمكانه أن يبوح له بكل شيء، هذا قربُ الحظوة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩].

أما الله تعالى فقريب من خلقه كما شاء، وكيف شاء، هو القريب من فوق عرشه، أقرب إلى عباده من حبل الوريد.

من معاني اسم الله القريب

هذا الاسم له قرب شديد من الإنسان، بمعنى أنك إذا أيقنت أن الله معك فلن تعصيه، بل حينما تشعر أنّ قرب الله قربُ علم، وأنّ قرب الله قربُ قدرة، عندئذ لا يمكن أن تتجاوز أمره.

حينما توقن أن علم الله يطولك، وأن قدرته تطولك، فكيف تعصيه؟ حتى إنه قد قيل: أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وهذه معية العلم، وهو مع المؤمنين بالحفظ، والتأييد، والنصر، والتوفيق.

وفي آية أخرى: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء:٢١٦-٢٢٠].

وفي الحديث الشريف: «الإحسان أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [مسلم عن عمر بن الخطاب].

أحياناً يكون الإنسان قريباً منك، يلازمك كظلّك، لا يفارقك، مهما يكن محبوباً فإنك تضجر من قربه، ثمّ تقول له: دعني وشأني، فأنت تحتاج من حين لآخر أن تنفرد بنفسك، ومع أن الله معنا في كلّ وقت، وفي كلّ حين، وفي كلّ شأن، لكنّ معيته لطيفة، فلا تشعر بمراقبته، بل تشعر براحة لقربه منك.

إنّ أعلى درجةٍ من الإيمان أن تشعر أن الله معك، وأكبرَ ضمانة للاستقامة أن تشعر أن الله معك، وأكبرَ باعث على الخشية أن تشعر أن الله معك، وأكبرَ مُطمئِنٍ لك أن تشعر أن الله معك.

وفي قصة موسى عليه السلام مع فرعون عبرة وعظة، فوَفق الموازين الأرضية لا أمل في النّجاة، فرعون؛ بقوته، بجيشه، بطغيانه، بحقده، بجبروته، يلاحق نبياً مع عدد قليل من بني إسرائيل، إلى أن وصلوا إلى البحر، وانتهى الأمر.

﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء:٦١-٦٢].

معية الله للمؤمنين معية النصر، معية التوفيق، معية التأييد، معية الحفظ، ومعية الله لأي إنسان كائناً من كان، حتى ولو كان ملحداً فهي معية العلم.

إلا أن المعيّة الخاصة لها ثمن، ولا شيء بلا ثمن.

﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة:١٢].

هو أقرب إليك من حبل الوريد، قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦].

فهو معنا، يطّلع علينا، يطّلع على خواطرنا، على نوايانا، إذا تكلّمنا فهو يسمعنا، يطّلع على قلوبنا إذا أضمرنا، لا تغيب عنه غائبة، ولا تخفى عنه خافية، هذا الإيمان الذي إن وصلنا إليه نكون قد حققنا تسعة أعشار الطريق إلى الله.

مثل للتقريب: لو زار أحدَهم رجلٌ من علية القوم، من وجهاء الحي، من أقرب النّاس إليه، في الأعمّ الأغلب يرتدي ثياباً جميلة، يجلس جلسة مؤدّبة، ينتقي كلمات مهذّبة، فإذا كان هذا حالنا مع كبراء القوم، فكيف حال المؤمن مع خالق السماوات والأرض؟!

الحقيقة أن الخشوع يحتاج إلى إحساس بالقرب، ودائماً وأبداً يشعر المؤمن أن الله معه، فهو أولاً في طمأنينة، وثانياً في مراقبة.

صدقوا أنّ هناك آياتٍ لا تعد ولا تحصى، الواحدة منها تكفي.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

أحياناً تدعو الله بقلبك، ولا تحرك شفتيك، ولا تنطق بكلمة، فيستجيب لك جل جلاله.

حدثني رجل، قال لي: انتهيت من أداء خدمتي الإلزامية، ولا أملك من الدنيا شيئاً، أعطتني أختي سواراً من الذهب، فبعته، واشتريت به بطاقة إلى بلاد الخليج، وأنا

راكب في الطائرة أضمرت في قلبي أن إذا أكرمني الله عز وجل سأبني مسجداً في بلدتي، قال لي: والله ما حرّكت شفتاي بهذا الكلام، وبعد أعوام مديدة أنشأ المسجد، وقد صليت في المسجد الذي بناه، وحدثني عن قصته فيه.

فالله عز وجل مطّلع على خواطرك، يمكن أن تدعوه بقلبك.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم:٣].

وفي آية ثانية: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى ﴾ [البقرة:١٨٦].

وهنا لا بد من التنويه إلى أنّ في القرآن الكريم عدداً ليس بالقليل من الآيات تبدأ بقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ ومنها: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة:٢١٩].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ﴾ [البقرة:٢١٩].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ ﴾ [البقرة:٢٢٢].

آيات كثيرة هذه صيغتها: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾

ويأتي الجواب: ﴿قُلْ﴾

إلا في هذه الآية: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ ﴾

استنبط العلماء أنه ليس بين الله وعبده وسيط أبداً، فإذا قلت: يا رب تبت إليك، يقول الله لك: وأنا قبلت يا عبدي.

يقول لك أحدهم: صلّ لي صلاة استخارة، قل له: الاستخارة بينك وبين الله مباشرة، ولا تكون الاستخارة نيابة وبالوساطة، فالله تعالى قريب.

علاقة المؤمن باسم الله القريب

أولاً: الدّعاء: الدّعاء سلاح المؤمن، وأنت بالدّعاء أقوى إنسان، إن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإن أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتقِ الله.

الدعاء يحتاج إلى عناصر، أن توقن أنّه تعالى موجود أولاً، ويسمعك ثانياً، وهو قادر على تحقيق دعائك ثالثاً، وهو يحبّك رابعاً، من هنا قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان:٧٧].

أي لا يكترث الله بكم لولا أنكم تدعونه.

وفي الحديث عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة».

وقرأ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠] [رواه الترمذي وقال حسن صحيح].

من أجل أن تكون أيها المؤمن مستجاب الدعوة، من أجل أن يكون الدعاء سلاحَك، من أجل أن تكون أقوى الناس بالدعاء آمن به أولاً، واستجب له ثانياً، عندئذٍ تغدو مستجاب الدعوة.

ويقول تعالى:﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف:٥٥].

مستحيل وألف ألف مستحيل أن تكون معتدياً على خلق الله، وتقول له: يا رب استجب لي، لأن الله عز وجل من خلال هذه الآية يقول لك: لن أستجيب لك، لأنك من المعتدين، ولن تستطيع أن تسأل الله إلا إذا كنت محسناً.

فمن وقع في مخالفة شرعية، وفي أكل مال حرام، وفي تقصير في العبادات، لا يستطيع أن يدعو الله، يدعو الله شكلاً بلسانه، لكنّ قلبه محجوب عن الله عز وجل، وأكبر عقاب يعاقب به الإنسان أنه يحجب عن الله عز وجل.

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين:١٥].

سيّدنا يونُس عليه السلام وجد نفسه فجأة في بطن حوت، حيث يقف المرء في فم الحوت قائماً، ووجبته المعتدلة أربعة أطنان، والإنسان كلّه خمسون كيلو غراماً، وجد نفسه فجأة في ظلمة الليل، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة بطن الحوت.

﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧].

لأنه يحسّ أنّ الله قريب منه.

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٨].

أروع ما في الآية أن التعقيب نقلها من قصة وقعت إلى قانون مستمر (وكذلك ننجي المؤمنين)

فالمؤمن سلاحه الدعاء، إحساسه أن الله قريب منه، وأن الدعاء أقوى ما يميزه عن غير المؤمن، والدعاء له قوّة لا يملكها خصمه.

ثانياً: المراقبة: إنّ أكبر شيء يدفع المؤمن إلى طاعة الله أنه يخاف أن تنقطع الصلة بينه وبين الله، لماذا يستقيم؟ لماذا يحاول أن يكون ورعاً تماماً؟ لماذا يطبق الأمر تماماً؟ لأنه ينعم بصلة بالله، وهي أثمن ما في الحياة.

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «مساكين أهل الدنيا، جاؤوا إلى الدنيا وغادروها ولم يذوقوا أطيب ما فيها، إنها الصلة بالله».

ويقول أيضاً: «ماذا يفعل أعدائي بي؟ بستاني في صدري، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يصنع أعدائي بي»

ويقول أيضاً «في الدنيا جنة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة». إنها جنّة القرب.

فإذا أيقنت أن الله قريب منك، وأنه معك، وأنه مطلع على سريرتك، لأنه يسمع دعاءك، ويرى حركتك، ويعلم ما في قلبك، لا بد من أن تستقيم على أمره، ولا بد من أن تستحي منه.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لله، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الاِسْتِحْيَاءَ مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ، وَمَا وَعَى وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرْ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ الله حَقَّ الحَيَاءِ» [أخرجه أحمد، والترمذي والحاكم، والبيهقي].

إذاً: يجب أن تشعر أنّ الله معك، ومرتبة الإحسان تأتي في أعلى درجة، فمرتبة الإسلام تعني أن تخضع للواحد الدّيّان، أن تخضع جوارحك لمنهجه، أن تؤدّي زكاة مالك، أن تصلّي الفرائض، أن تحجّ البيت، أن تغضّ البصر، أن تكون صادقاً، أميناً، عفيفاً، منجِزاً للوعد، راعياً للعهد، هذا هو الإسلام.

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات:١٤].

فالإسلام أولاً، وهو خضوع الجوارح والأعضاء لمنهج الله عز وجل، أما الإيمان فأن ينعقد مع هذا الخضوع صلة بالله عز وجل، فتقبل عليه، لذلك فالإيمان يزيد وينقص، يزيد بالإقبال على الله، وينقص بفتور العلاقة معه.

المرتبة الثالثة مرتبة الإحسان، وهذه متعلقة باسم (القريب)، وهي أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

إنه معكم، وأبرز ما يميز المؤمن خشوعه، وأسباب خشوعه إيمانه أن الله معه، وهناك قَصصٌ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى تبيّن أنّ النّاس يتفاوتون بإيمانهم، وبقدر إدراكهم بقرب ربهم.

كما قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥].

إنسان حضرته الوفاة، أقرباؤه، زوجته، أولاده، إخوته، كلّهم قريب منه، يضعون يدهم على جبينه، وهذا على يده يقيس ضغطه ومع كل ذلك قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ .

لذلك القرب من الله قِمّة التّديّن، قمّة الإيمان أن تكون قريباً من الله، القرب من الله يعني الانضباط، القرب من الله يعني الشّعور بالأمن، القرب من الله يعني الشّعور بالسكينة، القرب من الله يعني الشعور بالسعادة، الشعور بالرضا.

ما من نعمة أعظم عند الله من أن تشعر بالأمن، من أن تشعر أن مصيرك بيد الله، لا بيد زيد، ولا بيد فلان أوعلان، مصيرك بيد الله، رزقك بيده، صحتك بيده، الأقوياء بيده، أعداؤك بيده، أقرب الناس إليك بيده، من له علاقة حميمة معك بيده.

ثالثاً: من ثمرات اسم (القريب) أنه ينصرك، فلا تخشى في الله لومة لائم: حينما أدى الحسن البصري واجب العلماء في التبيين، وسمع الحجاج مقالة الحسن البصري، غضب غضباً شديداً، وتوعده بالقتل، وقال لمن حوله: «يا جبناء والله لأروينّكم من دمه، وأمر بقتله، وجاء بالسيّاف، وأرسل في طلب الحسن، دخل الحسن البصري إلى المجلس، فإذا بالسيّاف، وإذا بالنّطع قد مد، فحرك شفتيه، لأنه يشعر أن الله قريب منه، وإذا بالحجاج يختلف أمره، يقف له، ويقول: أهلاً بأبي سعيد، أنت سيّد العلماء، ومازال يدنيه من مجلسه حتى أجلسه على سريره، وسأله في بعض القضايا، واستفتاه، وضيّفه، وعطره، وشيّعه إلى باب القصر، صُعق السياف والحاجب، فتبعه الحاجب، قال: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فُعل بك، فماذا قلت لربك؟ قال: قلت: يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته عليّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم».

أنت حينما تشعر أن الله قريب منك تدعوه في أيّ وقت، وفي أيّ مكان، وفي أطباق السماء وأنت راكب بالطائرة، وفي أعماق البحار وأنت في غوّاصة، وعلى سطح الأرض، وعلى أي مكان في الأرض، وفي أي حال.

لذلك الشعور بالقرب من الله شعور مُسعِد، الشعور بالقرب من الله شعور مُطمئِن، الشعور بالقرب من الله يشعرك بالسكينة التي تسعد بها، ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء.

رابعاً: تتقرب منه جل جلاله: هذا عن قرب الله منك، القرب الذي يعلمه سرَّك ونجواك، القرب الذي يكرمك، بالتوفيق، والتأييد، والنصر، فماذا عن قربك منه؟ هو قريب منك، هل أنت قريب منه؟ متى تقترب من الله؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٦].

إن كنت محسناً فأنت قريب من الله، الإحسان المطلق، أن تحسن في بيتك، النبي ﷺ يوصيك بالنساء خيراً، أن تحسن إلى أولادك، أن تحسن إلى جيرانك، أن تحسن في عملك، أن تقدم سلعة جيّدة بسعر معتدل، بمعاملة طيبة، الإحسان واسع جداً.

«إنَّ الله تَعالى كَتَبَ الإِحْسانَ على كُلِّ شَيْءٍ، فإذَا قَتَلْتُمْ فأحْسِنُوا القِتْلَةَ وَإذَا ذَبَحْتُمْ فأحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» [رواه مسلم عن شَدَّادِ بن أوسٍ].

صفة المؤمن أنه محسن، وصفة غير المؤمن أنه مسيء، وشتان بين الإحسان والإساءة، فعمله يقيّم إجمالاً، ففي كلامه محسن، في ابتسامته محسن، في أخلاقه محسن، مع أقرب الناس له، مع زوجته محسن، مع أولاده محسن، مع بناته محسن، فكأن المؤمن في قلوب الخلق، هذا من معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠].

هناك إنسان ليس له عمل صالح أبداً، الناس يستوحشون منه، وهناك إنسان يحبّه الناس جميعاً.

لذلك من علامة حبِّ الله لك أن يلقي محبّتك في قلوب الخلق.

ينادى له في الكون أنّا نحبه ... فيسمع من في الكون أمر محبنا

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩].

يعني جعلت الخلق يحبونك، وهناك إنسان مبغوض، لا يحبه أحد، متكبر، أنانيّ، يحبّ ذاته، يحب أن يأخذ لا أن يعطي، يحب أن يستعلي لا أن يتواضع.

فلذلك صفات المؤمن تؤهله أن يكون محبوباً عند كل الخلق.

إنّ الله تعالى قريب من عباده، ينتظر منهم أن يستجيبوا له، ويتقربوا منه بالإحسان وبصالح العمل ونحن ندعو فنقول: اللهمّ هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك.

الحليم

الاسم الذي نحن في رحابه «الحليم»، ومعلوم أن من أسماء الله الحسنى ما لا يجوز تسمية الإنسان بها كاسم الرحمن، ومن أسماء الله الحسنى ما يُسمّى الإنسان بها كالرّحيم والحليم، وممّا يلفت النّظر أنّ النّبي ﷺ قال لأشج عبد القيس فيما رواه مسلم من حديث ابن عباس في صحيحه: «إن فيك لخَصْلَتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة».

هذا الاسم ورد في آيات كثيرة مقترناً باسم الغفور كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المائدة:١٠١].

وقد ورد أيضاً مقترناً باسم الغني، في قوله تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٣].

واقترن أيضاً باسم الشكور في قوله تعالى: ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [التغابن:١٧].

واقترن أيضاً باسم العليم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ٥١﴾ [الأحزاب:٥١].

وقد ورد هذا الاسم في السّنّة الصّحيحة في صحيح البخاريّ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كان ﷺ يقولُ عند الكربِ: لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا الله رَبُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله رَبُّ السماوات وربُّ الأرضِ، لا إله إلا الله رَبُّ العَرشِ الكريم» [البخاري عن ابن عباس].

من معاني اسم (الحليم)

«الحليم» في اللغة صفة مشبهة باسم الفاعل، تطلق على من اتّصف بالحِلْم، والفعل حلُمَ، يحلُمُ، حِلْماً.

أمّا لو قلنا: حلِم، يحلُم، حُلْماً أو حُلُماً فهذه هي الرؤيا التي يراها النائم في نومه.

وصفة الحِلم تعني الأناة، ومعالجة الأمور بصبر، وعلم، وحكمة.

ويقابل الحِلمَ العجلةُ المفسدة لأمور الدّين والدّنيا، ولا يفوتني هنا أن أقول لكم: إن معالجة المسلمين في هذا العصر لبعض المشكلات التي تحيط بهم متسرّعة أحياناً، وهذا ما يسبّب لنا متاعب لا تنتهي، بينما أعداؤنا يفكرون بعقولهم ويخطّطون بهدوء، فالعجلة مفسدة في أمور الدّين والدّنيا.

«الحليم» هو الذي يرغب بالعفو، ولا يسارع بالعقوبة، قال تعالى في وصف سيدنا إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التوبة:١١٤].

أما قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصافات:١٠١].

أي لديه أناة، وبصيرة، وحكمة من صغره.

أما إذا وُصِف الله جل جلاله بالحِلم فهو الصبور على عباده، يتمهّل، ولا يتعجّل، وهو المعطي لا يُسأل، وهو «الحليم» لا يعجل، بل يتجاوز عن الزلّات، ويعفو

عن السّيئات، فهو سبحانه وتعالى يمهل عباده الطائعين ليزدادوا في الطاعة والثواب، ويمهل عباده العاصين لعلهم يرجعون إلى الطّاعة والصّواب، ولو أنه عجّل لعباده الجزاء ما نجا من العقاب أحد، ولكنّ الله جلّ جلاله هو «الحليم» ذو الصفح والأناة، استخلف الإنسان في أرضه، واسترعاه في ملكه، واستبقاه إلى يوم موعود وأجل محدود، فأجّل بحِلمه عقاب الكافرين، وعجّل بفضله ثواب المؤمنين.

«الحليم» الذي لا يعجّل بالعقوبة، والانتقام، ولا يحبس عن عباده بذنوبهم الفضل والإنعام، بل يرزق العاصي كما يرزق المطيع، وإن كان بينهما تفاضل على مقتضى الحكمة.

الكفار يأكلون أطيب الطعام، ويشربون، ويتمتعون، ويسكنون البيوت الفخمة، ويركبون المركبات الفارهة، ويتزوجون النساء، ويتبجّحون، ويتطاولون، ويتكبّرون، والله يرزقهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

من معاني اسم «الحليم» أن الله سبحانه وتعالى يؤخّر العقوبة، السؤال: لماذا يؤخرها؟ لو أنه ألغى العقوبة فهذا ما يعنيه اسم الغفور، أما تأخير العقوبة فهو الحِلم.

لو أنّ الله سبحانه وتعالى عجّل العقاب لكلّ مذنب لما كان حليماً، ولو أن الله أجّل العقاب، ويريد بهذا التأجيل أن يوقع بهذا الإنسان أشدّ العقاب، فهذا ليس حِلماً، بل هو حقد، فالحاقد يضبط أعصابه، ويخطّط لإنزال أشدّ العقاب بهذا الإنسان، أمّا الله عز وجل فيؤخّر العقاب لا ليوقع بهذا الإنسان أشدّ العذاب، ولكن ليعطي هذا الإنسان فرصة لعلّه يرجع، ويتوب، ويستغفر، لعله يندم، فالتأخير ليس حقداً، ولا ضعفاً، لكنّه إمهال، ومنح فرصة لهذا الإنسان لعلّه يرجع إلى الله.

أحياناً يحقد الإنسان لأنّه ضعيف، يكتُم الألم، وأحياناً يحقِد لأنّه قويٌّ، فالضعيف يحقد، والقوي يحقد، ولكنّ الحقد شيء، والحِلمَ شيء آخر.

يتوضّح الأمر من خلال هذا المثل:

أسّسنا مدرسة نموذجيّة فيها أفضل المدرسين، وأفضلُ المناهج، وأحسن الكتب، فيها مرافق راقية جداً، مكتباتٌ، قاعات تدريس، مخابرُ، فيها كلُّ شيء، لو أنّ المدير كان هدفُه تنفيذَ القانون بشكل حرفيّ إذاً فكلّ طالب غاب لأسبوعين يفصل فصلاً نهائيّاً من المدرسة، لكنّ المدير الحكيم، الرحيم، الحليم يتغافل أحياناً عن غياب طالب، وأحياناً يؤخّر العقاب، وأحياناً أخرى يستدعي والد المقصّر، وهذه كلُّها محاولات لإعطاء الطلاب المتغيبين فرصة ليعودوا عن تقصيرهم، فليس الهدف إيقاعَ العقاب بالطلاب، بل إنّ الهدف نشرُ الخير، والعلم، والمبادئ، والقيم، وتخريج قادة لهذه الأمة، فالمدير الحكيم الحليم لا يتّخذ الأخطاء التي يرتكبها الطّلاب مبرراً لفصلهم، وإنهائهم.

هذا معنى «الحليم» يؤخر العقاب كي يعطي المقصر فرصة ليصحّح تقصيره.

وفي آية أخرى تدل على اسم الحليم: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) ﴾ [طه:١٢٩].

يعني: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجلٌ مسمّى لكان لزاماً، لو لا أنّ الله خلق عباده ليرحمهم، لولا أن الله خلق عباده ليسعدَهم، لو لا أن الله خلق عباده لجنّة عرضها السّماوات والأرض، لولا أن الله خلق عباده ليتوبوا إليه، فيقبلَ توبتهم، لولا أنّه خلق عباده ليستغفروه فيغفرَ لهم، لولا أنّه خلق عباده ليسألوه فيعطيَهم، لولا أنّ الله خلق عباده ليرجعوا عن ذنوبهم فيقبلَهم، لولا كلُّ ذلك لعجّل عليهم العقاب.

أوضح مثل: المركبة، ما عِلّة صنعها؟ أن تسير، ولماذا وُضع فيها المِكبح؟ وهو يتناقض مع علة صنعها، كذلك فإنّ علة خلق الإنسان أن يسعده، وأن يرحمه، وأن

يدخله جنّة عرضها السماوات والأرض، ولكن تقتضي الحكمة أحياناً أن يوقفه عند حدّه، أن يعاقبه، أن يردعه، أن يربيه، فالذي يقول: خُلقنا للعذاب إنسانٌ جاهل.

الطّفل حين يجلس على كرسي طبيب الأسنان، لا يحتمل، يبكي، يصرخ، يمسك يد الطبيب، يتحرك حركة غير صحيحة، أما الكبير فإنّه يتألم أشد الألم، لكن بصمت لأنه يعلم أنّ هذا الألم لصالحه.

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ .

لكان لزاماً إنزالُ العقاب بهم، لكنّ هذه الكلمة هي الرحمة، هي الإحسان، هذه الكلمة اقتضت أن يؤخّر الله عقابهم لعلهم يرجعون، لعلهم يندمون، لعلهم يراجعون أنفسهم.

يؤكد هذه الحقيقة قوله ﷺ «سبقت رحمتي غضبي» [متفق عليه من حديث أبي هريرة]، «إن رحمتي تغلب غضبي» [الترمذي من حديث أبي هريرة].

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٦].

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود:١١٩].

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان:٧٧].

لولا أنكم تعرفونه، وتدعونه في ضوء معرفتكم، ولولا الأمل في أن ترقوا، ولولا الأمل في أن تتوبوا، ولولا الأمل في أن تنجوا، فما يعبأ بكم ربي؟!...، لولا أنه يعبأ بكم لأوقع الهلاك والعقاب والجزاء وانتهى الإنسان إلى بوار.

ما من مسلم إلا وهو يعلم أن صُلْحَ الحديبية، في ظاهره مهانة للمسلمين، لأن فيه تنازلات وهم في حالة قوية، تنازلات أباها الصحابة، ورأوها نوعاً من الذُلّ ونوعاً من الاستسلام، وقد أدهشهم موقف النبي ﷺ، والنبي ﷺ لما رأى هذا الغليان في صدور الصحابة ولا سيما عمر رضي الله عنه الذي ظن أن في الصلح قبولاً للدنيّة في الدين قال: «إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً» [رواه الشيخان من حديث سهل بن حنيف] ثم جاء الجواب:

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح:٢٥].

في مكة أُناسٌ آمنوا خفية، آمنوا بقلوبهم وبقوا مع قريش بأجسامهم، هؤلاء يعلمهم الله، لذلك أخّرَ فتح مكة كله، وأمر النبي ﷺ أن يقبل بهذه الشروط التي تبدو مهينة من أجل أن يعطي هؤلاء فرصة كي يؤمنوا، إذاً أنت تتعامل مع الحليم.

«الحليم» من كان صفّاحاً عن الذنوب، ستّاراً للعيوب.

و «الحليم» الذي غفر بعد ما ستر.

و «الحليم» يحفظ الودّ، ويحسن العهد، وينجز الوعد.

و «الحليم» يُسبل ستره على العصاة، ويسحب ذيل عفوه على الفجار.

و «الحليم» هو الذي لا يستخفّه عاصٍ، ولا يستفزّه طغيان طاغٍ.

عمير بن وهب، التقى بصفوان بن أمية بعد معركة بدر، قال: يا صفوان، لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها، ولولا أولاد صغار أخشى عليهم العنت من بعدي، لذهبت وقتلت محمداً، وأرحتكم منه، انتهزها صفوان، وقال له: أمّا أولادك فهم أولادي، ما امتدّ بهم العمر، وأما ديونك فهي عليّ بلغت ما بلغت، فامضِ لما أردت، سقى سيفه سمّاً، وامتطى راحلته، وتوجّه إلى المدينة، فلما وصل إلى المدينة رآه سيدنا

عمر فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب، قد جاء متوشّحاً سيفه. قال: «فأدخله علي». فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبّبه بها.

وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون ثم دخل به على رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «أرسله». فدنا عمير.

فقال رسول الله ﷺ: «فما جاء بك يا عمير»؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه يعني ولده قال: «فما بال السيف في عنقك»؟ قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا قال: «اصدقني ما الذي جاء بك»؟ قال: ما جئت إلا لذلك.

قال رسول الله ﷺ: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدا فتحمّل لك صفوان بدَينك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك».

فقال عمير: أشهد أنك رسول الله قد كنّا يا رسول الله نكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان فوا الله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق. ثم شهد شهادة الحق.

لو لا أنّ الله أخّر عقابه لكان مصيره إلى النار، لكنّ الله حليم، لذلك قال بعضهم: إن الله جلّ جلاله علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، علم الله بأن هذا الإنسان ينطوي على خير، فأخّر العقوبة عنه فكان ذلك سبب نجاته، وإسلامه.

إن رجلاً من أصحاب ذي النون المصري، شَعَرَ بضيق، وبتشتت، وشَعَرَ بضياع، فقال: أين قلبي؟ أين ضاع قلبي؟ قلبي في ضياع، وفي طريقه في بعض أزقة المدينة رأى

باباً يُفتح، ورأى أُمّاً تطرد ابنها، وتلقيه خارج البيت، وتُغلق الباب، جلس هذا الطفل يبكي فأين يذهب؟ إلى أي بيت يدخل؟ من يسأل ليطعمه؟ أين ينام؟ فما كان منه إلا أن عاد إلى باب بيته، وجلس على عتبة الباب يبكي ويبكي، وكانت أمه من رحمتها الشديدة به تنظر إليه من ثقب الباب، فما كان منها إلا أن فتحت الباب وأخذت ابنها، ووضعته في حضنها وقالت: يا قرة عيني! يا عزيز نفسي! لا تحملني بمعصيتك على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك، لو أطعتني لما رأيت مني ما تكره، فصاح هذا الرجل: وجدت قلبي وجدت قلبي.

أيُّ شيء تكرهه ألمّ بك فاعلم أنه محض رحمة من الله، أراد أن يعالجك، أن يقربك إليه، أن يلفت نظرك.

ربنا عز وجل أراد أن يعرِّفنا بذاته، فجعل نظام الأبوة والأمومة وهو في ظاهره أبوة وأمومة وأولاد وتربية ومستقبل، وباطنه أن تتعرف إلى الله من باب المثل.

عودة إلى نظام الأبوة والأمومة، هذا نظام فريد من نوعه، ترى الأب يهمل نفسه أحياناً ويسعى من أجل أولاده، الأولاد يقفون موقفاً قاسياً أحياناً فيه فظاظة، غلظة، كلامٌ قاسٍ، لا مبالاة، عقوق، وقلب الأب وقلب الأم معلّق بأولادهما، وفي أية لحظة قد يعود هذا الابن إلى أبيه تائباً، يعود إليه منيباً فيقبله الأب ويفرح فرحاً كبيراً.

الذي أراه أن نظام الأبوة والأمومة له هدف أكبر من تربية الأولاد أن تتعرف إلى الله من باب المثل، كيف أن الأب لا يحقد، الأم لا تحقد، الأم كل حياتها من أجل أولادها، كل سعادتها في إسعاد أولادها، وحينما رأى النبي ﷺ أماً تقبل ترضع صبياً في السبي فقال لأصحابه: «أترون هذه طارحة ولدها في النار» قالوا: لا، قال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها» [متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب].

الأب لا يبتعد عن ولده، والأم شاهدها معها، ألا وهو قلبها الرحيم الحاني، فمن أودع في هذا القلب الرحمة؟ تستيقظ عشرات المرات في الليل من أجل وليدها، إن أصاب وليدها مكروه تبكي، تتمنى أن تعطيه من صحتها، من جسمها، من غذائها، إذاً

نظام الأسرة نظام له هدفان، هدف لتربية الأولاد وهدف أكبر بكثير أن تتعرف لطرف يسير جداً من رحمة الله عز وجل.

تُشاهد حادثاً تتجلى فيه رحمة الله كما تتجلّى فيه عناية الله سبحانه، ترى حادثاً مروِّعاً وقد نجا الكُل بعناية الله وقدرته، قد ترى إنساناً في ساعة ضيق شديد فيأتيه الفرج، ويتبدد الكرب، وأحياناً يصل الإنسان إلى درجة اليأس فيأتيه الإكرام، لذلك قيل:

فلَرُبَّ نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعاً وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تُفرج

وليست معركة الخندق بخافية عليك أيها القارئ الكريم، إن الله عز وجل يمتحن المؤمنين؛ إيمانَهم وصبرَهم، ومدى التجائهم إليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٩-١٢].

لكنه بعد ذلك رحمهم، وأكرمهم، ونصرهم، وأعزهم، ورفع شأنهم، وأحبطَ أعداءهم، بعدما بدا للمؤمنين أن الإسلام انتهى أمره، وأن المعركة مع الكفار ليست معركة نصر أو هزيمة بل معركة حياة أو موت، معركة نكون أو لا نكون، هذا الذي حصل ويحصل في كل معركة حاسمة.

نصيب المؤمن من اسم (الحليم)

إن الله عز وجل حليم... ومعلوم أنَّ الله يحب الكمال، إن الله طيبٌ ولا يقبل إلا طيباً، والله سبحانه وتعالى يحب المحامد، «ليس أحدٌ أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحدٌ أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش» [رواه مسلم من حديث عبدالله بن مسعود] و«لا أحد أحب إليه المدح من الله» [رواه مسلم من حديث عبدالله بن مسعود] إن

الله يحب الكمال، يحب العمل الذي يُحمد عليه الإنسان، يحبُّ الحلم، يحب الرحمة، يحب الإنصاف، يحب العدل.

والحلم سيّد الأخلاق، ولأن المؤمن حليم فقراره صحيح، والإنسان حينما يغضب لا يرى الحقائق، بل يرتكب حماقات لا يرتكبها الصغار، لذلك جاء في الحديث الشّريف: «لا تَغْضَبْ» [أخرجه البخاري والترمذي ومالك عن أبي هريرة].

وعنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لَيْسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ» [متفق عليه].

وعَنْ أنَسِ بْنِ مالكٍ ﷺ قالَ: مَرَّ النبيُّ ﷺ بامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ فقالَ: «اتَّقِي اللهَ واصْبِري» قالتْ: إلَيْكَ عَنِّي فإنَّكَ لَمْ تُصَبْ بمُصيبَتِي، ولَمْ تَعْرِفْهُ فقيلَ لها: إنَّهُ النبيُّ ﷺ، فأتَتْ بابَ النبيِّ ﷺ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابينَ فقالَتْ: لم أعْرِفْكَ، فقالَ: «إنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى» [صحيح البخاري].

فالإنسان إذا غضب غابت عنه الحقائق، وارتكب حماقات يندم عليها أشدّ النّدم.

هدّئ نفسك، عالج الأمور بأناة، وصبر، وعلم، وحكمة، لا تتعجّل، لا تأخذ الأمر بتعجّل، بل بحلم وهدوء، ويحتاج الإنسان إلى هذه الصفة، لاسيما في الأيام العصيبة، في أيام الكوارث، في أيام القهر، في أيام الظلم، في أيام الفقر أحياناً.

الله عز وجل يحبّ الحليم لأنه حليم، وعلاقتنا بهذا الاسم نحن المؤمنين أن نتصف بالحِلم، فما الطريق إلى الحلم؟ وهو سؤال جدير بالإجابة.

ما دامَ الله عز وجل يحب المحامد، ومن محامده أنه حليم، كيف أكون حليماً؟ التفكر في اسم الحليم طريق إلى أن نكون حليمين، وهناك طريق آخر: أن يكون الإنسان متحلّماً، أي: يتصنّع الحلم.

يقول النبي الكريم ﷺ: «إنّما العلم بالتعلّم، والحِلم بالتحلّم، ومن يتحرّ الخير يُعطَه، ومن يتوقَّ الشرَّ يُوقَه» [أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء].

الإنسان يتصنّع الحِلم، يضبِط نفسه، يضغط على أعصابه، لا يحرك ساكناً، يعفو، ما دام يتصنّع الحلم فقد دفع ثمن هذا الخُلُق.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ [النازعات:٤٠].

منعها أن تنتقم، منعها أن تبطش، ضبط نفسه، هذا الضبط هو التحلّم، والتحلّم ثمن الاتصال بالله، بعد الاتصال بالله يكون الحِلم الحقيقي، فالحلم يكون تصنّعاً، وهو الثمن، ويكون تطبّعاً وهو الثمرة، تتحلّم فتقبل على الله، فيقذف الله في قلبك هذا الخلق الكريم، فتغدو حليماً.

لذلك قال الله عز وجل: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٤].

فكأن الإنسان المؤمن يمر بهذه المراحل الثلاث، أولاً يكظم غيظه، بعدئذ يعفو في نفسه، بعدئذٍ يقابل الإساءة بالإحسان.

الحلم حارس أمين يحول بين الإنسان وبين حماقات كبيرة، ونقيض الحلم الغضب، والفوران، فالحليم يحمي نفسه من حماقات كبيرة، في ساعة غضب شديد يُطلّق زوجته، يشرّد أولاده، يهدم بيته.

سمعت عن زوجٍ، زوجته جاهلة بأحكام الدين، وقفت عند بائع، من كلمة إلى كلمة، قالت: نحن جيرانك، ولعل الكلمة من الخضوع بالقول ففهم شيئاً آخر من الكلام، فهم أنه يمكن أن يزورها بالبيت، فدخل إلى البيت ساعة غياب الزوج، فاستنجدت بزوجها عن طريق ابنها الصغير الذي قال له: عندنا رجل في البيت يا أبي، جاء زوجها بحالة غضب شديد، أغلق الباب وجاء بالشرطة، وفضح زوجته وطلّقها، ثم استفتاني يريد أن يردها ما الطريقة؟ لقد ارتكب حماقة كبيرة جداً فقد أخطأت الزوجة لكنها بريئة، ولكن خطأك كان أفدح وأشنع، أين أنت من حادثة الإفك وموقف رسول الله ﷺ؟

والنبي ﷺ علمنا لما سمع الخبر المؤلم في قذف السيدة عائشة وكيف بقي شهراً في أشد حالات الحلم وضبط الأعصاب، هذه السيرة كلها دروس، فإذا كان الرجل غير حليم يصبح كالمتفجرات، يفجر نفسه.

روي أن إبراهيم عليه السلام رأى رجلاً مشتغلاً بمعصية، فقال: اللهم أهلكه، فأوحى الله إلى إبراهيم أن يا إبراهيم لو أهلكنا كل عبد عصى لما بقي إلا القليل، ولكن إذا عصى أمهلناه، فإن تاب قبلناه، فإن أصر أخّرنا العقاب عنه لعلمنا بأنه لا يخرج عن ملكنا.

جاء الطفيل بن عمرو الدوسي إلى رسول الله ﷺ فقال: إن دوساً قد هلكت، عصت وأبت، فادع الله عليهم، فظن الناس أنه يدعو عليهم فقال: «اللهم اهد دوساً وائت بهم» [متفق عليه من حديث أبي هريرة] والطفيل هو الذي قال للنبي ﷺ: إنه قد غلبني على دوس الزنا، فادع الله عليهم [ابن هشام] فالنبي ﷺ ما كان لعّاناً.

طبعاً لو تُركَ الأمر إلى الناس لأهلَكَ بعضهم بعضاً، ولكن الله يرحم.

الحلم فضلاً عن أنه حارس أمين يكون سبباً لتكون هادياً وداعياً إلى الله عز وجل، صفة الحلم، والأناة، والتروي من صفات الدعاة إلى الله عز وجل.

قال مالك بن دينار: كان لي جار يتعاطى الفواحش الكثيرة وجيرانه يتأذون منه، ويمقتونه، فشكوا إليّ، فأحضرناه، ونصحناه، إما أن تتوب، وإما أن ترحل، فأبى أن يفعل واحدة منهما، قلنا له: نشكوك إلى السلطان، قال: السلطان يعرفني، قلنا ندعو الله عليك، فقال: الله أرحم بي منكم، فغاظني ذلك، فلما أمسيت قمت وصليت ودعوت عليه، فوقع في قلبي هاتف، لا تدعُ عليه، بل ادعُ له.

من خلق الإيمان أن تدعو للناس بالهداية، يبدو أن هذا الشاب تاب توبة نصوحة وعاد إلى الله، واتفق أن رآه مالك في موسم الحج يطوف ويبكي.

كلما ارتقى إيمانك تدعو للآخر، ولا تدعو عليه، فالنّبي ﷺ حينما كُذب في الطائف، وحينما أغرى أهل الطائف صبيانهم أن يضربوه، وسال الدم من قدمه

الشريفة وجاءه جبريل، وقال: «إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [البخاري عن عائشة].

الإمام مالك بن دينار: بينما هو يمشي في الطريق رأى رجلاً مخموراً، طرحته الخمرة أرضاً، والزبد على شفتيه، ويقول: الله، الله وهو في حالة الهذيان، فعظم على هذا الإمام أن يخرج هذا الاسم من فم نجس، وتلطف معه، ومسح فمه، وأكرمه على الرغم من سكره، وبعد أن صحا قيل لهذا السكران: أتدري من اعتنى بك واهتمّ بحالك؟ إنه الإمام مالك، يبدو أن هذه العناية اللطيفة بهذا العاصي أثارت حساسيته، ودفعته إلى التوبة.

فالعصاة أحياناً عندهم رِقّة، مغلوبون، يعصون الله ويبكون فالداعية الناجح يتلطف مع هؤلاء، ويحتويهم، ويأخذ بيدهم.

وكان لأبي حنيفة جار مغنٍّ، وهو تارك الصلاة ويشرب الخمر ويلهو بالغناء يومه كلَّه، وكانت أغنيته المفضلة:

أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فهذا المغني ملأ الحي صخباً وضجيجاً وآذى الجيران، وذات ليلة لم يسمع صوته، فسأل عنه، قالوا: أُلقيَ القبضُ عليه، فأبو حنيفة النعمان بقدره العظيم وشأنه الجليل توجه إلى الأمير رجاء أن يعفو عنه، الأمير لم يتوقع أن يأتي أبو حينفة بذاته وحين علم قال: ائذَنُوا له، وأقبلوا عليه وأقبلوا به راكباً ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ببغلته، وإكراماً له أفرج عنه وعن كل من ألقي عليه القبض في ذاك اليوم، فساقه أبو حنيفة من يده قائلاً: يا فتى هل أضعناك؟ تقول: أضاعوني وأي فتىً أضاعوا.. فقال: لا، بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق، وكان هذا الموقف سبب توبته، فإذا حلمت على رجل عاصٍ فقد يكون حلمك سبب توبته، أما إذا كفّرته وفسّقته ولعنته وسببته فقد يكون هذا الموقف سبباً لاستطالته في فجوره،

والنبي ﷺ لم يبعث لعاناً حتى نلعن الناس، ولسنا قضاة لنحاسب الناس، ولكننا دعاة إلى الله عز وجل.

إن رأيت عاصياً، بدل أن تعنفه، وأن تحتقره، وأن تشتمه، وأن تعين الشيطان عليه، تلطف به، أره عطفاً، وشفقة، وعندئذٍ تعينه على الشيطان، والفرق كبير جداً بين أن تعين الشيطان على العاصي، وأن تعين العاصي على الشيطان.

وكما قال ابن عطاء الله السكندري: ربّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

وكذلك سهيل بن عمرو الذي تمنى سيدنا عمر أن يضرب عنقه بالسيف، حين قال له النبي ﷺ اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، قال: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب: محمد بن عبدالله [متفق عليه]، كان في منتهى الغِلظة والقسوة، وسيدنا عمر همَّ به حينما أسر سهيل بعد معركة بدر فقال: يا رسول الله دعني أنزع ثَنِيَّتَيْ سهيل بن عمرو، يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، قال ﷺ: «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه» [السيرة النبوية لابن هشام] تسمع منه كلاماً تحمده عليه، والحقيقة أنه قال كلاماً بعد موت النبي يُكتب بماء الذهب حينما ثبت الناس على الدين الحنيف في مرحلة الردة.

أنت لا تعلم، لكن الله يعلم، كن حليماً، تلطف، كن ذا أناة.

نضرع إلى الله عز وجل أن يرزُقنا الحِلم، فهو زين، ونحن نتعلم أسماء الله الحسنى أملاً في أن نتخلّق بها.

الحي

اسم الحي ورد في القرآن خمس مرات، ورد في البقرة في آية الكرسي، وهي سيدة آي القرآن، وأعظم آية فيه، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

الآية الثانية في آل عمران: ﴿ الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ ﴾ [آل عمران:١-٢].

الآية الثالثة في سورة طه: ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ١١١ ﴾ [طه:١١١].

الآية الرابعة في سورة الفرقان: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨ ﴾ [الفرقان:٥٨].

الآية الخامسة في غافر: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥ ﴾ [غافر:٦٥].

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ قَالَ قُلْتُ الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ قَالَ قُلْتُ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: وَالله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ.

وفي حديث آخر: «اسْمُ الله الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ الم الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ» [أبو داود من حديث أسماء بنت يزيد].

من معاني اسم الله (الحي)

الحي في اللغة صفة مشبهة، على وجه الثبوت، وفعلها حيّ كما في الآية الكريمة: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

الحيّ: اسمٌ من أسماء الله تعالى التي وردت في القرآن الكريم، وفي حديث رسول الله ﷺ، ولا بد من أن نذكر القارئ الكريم بقول النبي ﷺ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِئَةً إلا وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ» [متفق عليه].

فأنت تتعرف إلى أسماء الله الحسنى، وهذا يؤلف أكبر جزء من عقيدة المسلم، فلا يكفي أن تقول: الله خلق السموات والأرض، لأنّ هذا الإيمان يستوي فيه الناس جميعاً على اختلاف اتجاهاتهم وانتماءاتهم، بل إن المقصرين، بل إن الكافرين، بل إن عُبَّاد الأوثان، بل إن إبليس، اعترف أن الله خلق السموات والأرض، ولكن التفاضل بين المؤمنين يكمن في معرفة أسماء الله الحسنى؛ معانيها ومضامينها.

الإيمان بأن الله خلق السماوات والأرض فحسب لا يكفي كي تستقيم على أمر الله فحجم الإيمان قد يكون أقل من قوة الشهوة.

لذلك يقع الإنسان في المعصية، لكن كلما زاد إيمان الإنسان بوجود الله، وأنه هو الفعال وبيده كل شيء، وهو الكامل وهو الواحد، والمصير كله إليه، وكل شيء بيده، هذا الإيمان كبر حجمه، وأصبح أكبر من شهوات الإنسان؛ لذلك تصعب الاستقامة على ضعيفي الإيمان، وتهون على أقوياء الإيمان، فقوي الإيمان يستقيم بلا جهد أو بجهد بسيط؛ لأنه يرى عظمة الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر:٢٨].

وكلمة «إنما» تفيد الحصر، مما يعني أن العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشون الله، إذاً ما من طريق إلى طاعة الله، وإلى خشيته، وإلى الاستقامة على أمره إلا أن تعرفه، فكلما عرفته خشعت له، كلما نمت معرفتك نمت استقامتك، وكأن مؤشر الاستقامة يتحرك مع مؤشر العلم والمعرفة بشكل دائم.

الاسم هو: الحي؛ الحياة نقيض الموت، وشتان بين الحياة والموت، شتان بين إنسان ملء السمع والبصر، يتكلم، يتحدث، يبتسم، يسأل، يجيب، يفكر، يحاكم، ينتقل، يمشي، يعمل، وبين إنسان جثة هامدة ملقى على الطريق، شتان بين الحياة والموت، كما أن هناك فرقاً كبيراً بين الحياة والموت، فهناك فرق كبير بين قلب حي بذكر الله، وقلب ميت ببعده عن الله، قال تعالى: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [النحل:٢١].

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر:٢٢].

قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

آيات كثيرة تؤكد أن الذي لم يعرف الله عز وجل ميت، وأن القلب يحيا بذكر الله:
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد:٢٨].

يحيا القلب بذكر الله ويطمئن بذكر الله، والإنسان المعاصر يفقد شيئاً ثميناً جداً وهو الطمأنينة، حوله كل شيء لكن يحيط به ألف خطر، خطر السرطان، ولا بد من فحص دوري، وخطر بقية الأمراض، وخطر الحوادث أيضاً، لذلك تنمو شركات التأمين بنمو القلق في النفوس.

الإنسان دون إله يعبده، دون إله ينيب إليه، دون إله يلجأ إليه، دون إله يحتمي به، ويطمئنه، تصبح حياته جحيماً... أكبر ما فيها القلق، والخوف من المجهول، والخوف من أحداث مستقبلية تظهر فجأة، متى يصاب بهذا المرض؟ لا أحد يدري، وكلما ابتعد الإنسان عن ربه امتلأ قلبه خوفاً.

سبعة وثمانون بالمئة من مواطني البلاد الغربية المتفوقة علمياً وحضارياً، يخاف وهو في البيت، ثمانون بالمئة لا يتجولون بعد غروب الشمس أبداً، ثلاثة وثلاثون بالمئة يرون أن كل قوى السلطة لا تحميهم، يعيشون حياة القلق، حياة العذاب، قال تعالى:
﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش:٤].

أطعمك من جوع وآمنك من خوف، والأمن نعمة لا تعدلها نعمة لا يحوزها إلا المؤمن حصراً، والدليل: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

الأمن للمؤمنين وحدهم، لذلك إذا آمنت بالله، واستقمت على أمره، ولُذتَ بحماه وأويت إلى جنابه فأول ثمرة من ثمرات الإيمان أن الله يدخلك في رحمته، ويطمئن قلبك.

إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، هذه السكينة خاصة بالمؤمنين، إنكم لترَوْن في قلب

المؤمن من السكينة، والطمأنينة، والرضا بقضاء الله وقدره، والشوق إلى لقياه، والراحة إلى قضائه، ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم.

للمؤمن سر، ترى أن دخله أقل من حاجته، وتراه مطمئناً، وهناك من يخزن الذهب والعملات الصعبة، وإذا حدث خطر فله ببلاد أخرى أرصدة ضخمة، ومع كل هذه الأرصدة، ومع كل هذه الإمكانات، ومع كل هذه الاحتياطات، فإن الخوف يأكل قلبه.

لو سألتني عن قانون الخوف، أقول لك: إنه الشرك، قال تعالى: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [آل عمران:١٥١].

الشرك يعني الخوف، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

فالله عز وجل حيّ، والحيّ نقيض الميّت، ورد في القرآن الكريم كلمة الحيوان، وتعني جنس الحياة، قال تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٤].

أصل الحياة في القرآن يعني الحيوان، أي: هو دار الحياة الدائمة، حياتنا في الدنيا حياة مؤقتة، كل إنسان له عمر، فكل هؤلاء الذين على الأرض بعد مئة عام تقريباً لا ترى منهم أحداً، فالخمسة آلاف مليون إنسان الآن لا تجد بعد مئة عام منهم أحداً في كل القارات الخمس.

قفْ في شرفة بناء وانظر إلى الشارع المزدحم بالسيارات والمشاة، كل هؤلاء سيكونون تحت أطباق الثرى بعد حين، وسوف يطويهم الموت، فحياتنا حياة مؤقتة، أما الحياة الحقيقية، الحياة الأبدية الدائمة، الحياة التي لا موت معها، فهي حياة الدار الآخرة.

سمعت أن بعض الفنانين، ما ركب طائرة في حياته، خشية أن تقع فيموت، اعتنى بنظام غذائه عناية تفوق حد الخيال، يأكل يوماً سمكاً ويوماً دجاجاً، طعامه لحم خفيف، لحم أبيض، ومساءً يأكل الفواكه، ومع كل هذه العناية والحرص، وذلك الحذر فقد مات.

وفي الحديث: «عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به» [رواه الحاكم عن سهيل بن سق وهو حديث حسن].

كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر.

حياتنا في الدنيا غير حقيقية، حياة مجازية، حياة مؤقتة، لأنه يعقبها موت، يعقبها زوال، يعقبها عدم.

وبصراحة، يكون إنسان ملء السمع والبصر، متألقاً، ذكياً، قوياً غنياً سيّد بيته، أولاده أمامه متأدبون، وزوجته خاضعة له، فإذا مات.... حزن شديد، بعد أسبوع، ينتهي الحزن، بعد أسبوعين يتبسمون، بعد ثلاثة أسابيع يُرفع الشعار الأسود، بعد شهرين أو ثلاثة وكأنه لم يكن، يقولون إذا ذكِر: المرحوم، لقد انتهى، وكل واحد منا على هذا الطريق وكأنه لم يكن.

الحياة الحقيقية، الحياة الخالية من كل نغص هي في الدار الآخرة، هل منا أحد ليس لديه منغصات؟ هذه سنّة الله في الحياة الدنيا: «إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى».

استعرض حياة الناس... زوجة جيدة، لكن أولاد سيئون... أو أولاد جيدون وزوجة سيئة، أو زوجة جيدة وأولاد جيدون لكن الدخل قليل، أو دخل كثير ولكن عقم من دون أولاد... أو دخل كثير وله أولاد لكن الصحة متردّية، والمرض يُنغّص حياته.

طبيعة الحياة الدنيا قائمة على المُنغِّصات، لذلك حياتنا الدنيا ليست حياةً أبدية أرادها الله لنا ممراً، أرادها الله لنا معبراً أرادها الله لنا مدرسةً، أرادها الله لنا إعداداً، ما أرادها الله لنا استقراراً ولا ركوناً ولا خلوداً.

فكل إنسان يتحرك حركةً خلاف خلق الله عز وجل يشقى... الحياة الدنيا حياة مفعمة بالمنغصات، هكذا أرادها الله، هكذا خلقت، من أجل ألا تركن إليها، من أجل أن تجعلها منطلقاً ومعبراً، لذلك كان محمد بن كعب يقول: «إن أشقى الناس بها أرغبهم فيها، وإن أزهد الناس فيها أسعد الناس بها، هي المعذِّبة لمن أطاعها والمهلكة لمن اتبعها». اتركها تأتك، أقبل عليها تَفر منك.

لنستعرض ماذا تعني كلمة حياة؛ حياك الله، يعني أبقاك حياً، أحيا الله الأرض، أي أخرج منها النبات، أحياها بالغيث أنزل عليها المطر، الحي في صفة الله تعالى هو الباقي... فإذا قلنا: الله حي يعني حياةً دائمةً، وإذا قلنا: فلان حي فحياته مؤقتة... شيء قد يلفت النظر، قد يشترك الإنسان في صفة مع خالقه؛ الله حي والإنسان حي، ولكن يجب أن نؤمن إيماناً يقينياً أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]... كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك... إذا قلت الله حي، يعني حياة دائمة باقية، هو الباقي، فلان حي أي حياة مؤقتة.

النقطة الثانية؛ الحي في صفة الله أنه باقٍ حيٌّ بذاته، أما أنت وأنا وكل واحد منا فهو حي لا بذاته، بل بإمداد الله له، فإذا قطع الله الإمداد صار جثةً هامدة، وهناك ألفُ سبب يسلب الواحد منّا حياته ويجعله خلال لحظة ميتاً.. سكتة دماغية، سكتة قلبية، اضطراب بكهرباء القلب، فإذا انتابتْه نوبة خفقان أذيني شديد يموت باسترخاء القلب، مئة وثمانون ضربة وبعدها يرتخي القلب ثم يموت الإنسان.

الله عز وجل حي بذاته، حياته ليست مستمدة من جهة أخرى نحن حياتنا نستمدها منه، عمر الإنسان بعمر شرايينه، عمره متعلق بقلبه وشرايينه ودسامات قلبه، متعلق بجهازه العصبي، متعلق بعمل الدماغ، متعلق بالكليتين... لو أن البول احتبس في الكليتين

ست ساعات لتوقفت الكليتان، وإذا توقفت الكليتان ينتهي الإنسان، لا يعيش الإنسان ثلاث ساعات دون كبد، إذا تشمع تشمعاً كاملاً خلال ثلاث ساعات يموت الإنسان.

مرةً التقيت مع إنسان شديد الأذى للناس، والأذى في طبعه، قال بعض الشعراء في وصفه، ووصف أمثاله من الناس:

ولو أخذنا لحقن الرقش من دمهم ... لكان مصلهم يؤذي الثعابينا

ويقول غيره:

رقيقٌ غليظُ القلبِ فظٌّ مقطِّبٌ ... كثيرُ الأذى بادي البذا جبلٌ وعرُ
نمومٌ زؤومٌ ماكرٌ غيرُ شاكرٍ ... حقود نقودٌ مائنٌ خائنٌ غمرٌ
ذكيٌّ دقيقُ الفكرِ منتبهٌ لما ... عناهُ ولكنْ عندَ مصلحتي غرٌّ
لئيمٌ متى أُحْسِنْ إليهِ يكافني ... بسيئةٍ لم ينكتمْ عندَهُ سرٌّ
ثقيلٌ خفيفُ الكفِّ فيما ائتمنْتهُ ... وَثُوبٌ على مالي كما يثبُ النمرُ
له كلَّ يومٍ فتنةٌ أو شكايةٌ ... وقالٌ وقيلٌ هكذا ينسلُ الكفرُ
لهُ نهمةٌ في الأكلِ والشربِ مالها ... شبيه سوى التنور أَكْلَبَهُ السجرُ

فمرة التقيت مع إنسان شعرت أنه يحب الأذى، كلما أوقع الأذى بإنسان شعر بنشوة، أردت أن أعظه وأن أضيق عليه لعله يرعوي، قلت له: إن الله من جنوده السرطان في كل أنحاء الجسم، بدءاً من الجلد إلى الدم إلى العظام إلى الأحشاء، إلى الدماغ... والله من جنده تشمع كبد، ومن جنده الفشل الكلوي، ومن جنده اضطراب النظم، ذكرت له أمراضاً وبيلة، كل مرض ينخلع القلب له، وهؤلاء الذين أمامك كلهم عباده، فإذا أسأت إليهم انتقم منك فانتبه.

المؤمن الصادق، أي إنسان أمامه يراه عبداً لله، دون أن تعرف من هو، فإذا أردت أن تتقرب إلى الله فقدم لهذا الإنسان خدمةً، والله وحده يجازيك. قال تعالى: ﴿مَّن ذَا

ﱡﭐ... ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥ﱠ [البقرة:٢٤٥].

هذا الإله العظيم، يقول لك: أقرضني، أقرضني بخدمة أحد عبادي، أما الآن من ضعف الإيمان، وانهماك الإنسان في جمع المال، لا يتحرك بلا مال، ولا يردّ لهفة ملهوف إلا بمال.

أحياناً الخدمة تكلفه هاتفاً، يريد مالاً، يتقاضاه مقابل هاتفه مثلاً، وأحياناً الخدمة تكلفه بطاقة، توصية، كلمة، أحياناً تكلفه غض بصر فقط، ولكنه لا يرحمك، لا يرحمك إلا بمبلغ فوق طاقتك، ليس له أجرٌ إطلاقاً، لأنها خدمة بأجر.

اخدم العباد، واحتسب هذا العمل عند رب العباد، أعط العباد مما أعطاك الله ولا تخش لومة لائم؛ أجل لا تخشَ فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

حياتنا غير ذاتية، حياتنا متوقفة على أجهزة كثيرة إذا توقف أحدها نموت... فالإنسان عندما يكون مضطجعاً ويقف فجأة يضطرب جسمه بشكل لا يصدق، يأتي أمر عن طريق شوارد معينة في الدم، تضيق كل شرايين الجزء العلوي في الإنسان، لأن الإنسان إذا كان نائماً ثم وقف فجأةً، فالدم بحكم الجاذبية يهبط إلى الأسفل، فما الذي يبقي الدم في الرأس... لو أن الدم نقص في الرأس لأصيب الإنسان بالدوار ويقع... إذا تقدم الإنسان في السن فإن نهض من السرير قد يصيبه الدوار لأن جهاز ضبط الوقوف بعد الاستلقاء ضعف قليلاً.

كم من جهازٍ في الجسم إذا تعطل أحدها تصبح حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، حياتنا ليست من ذاتنا، حياتنا متوقفة على إمداد الله لنا، على حفظه لنا.

فليعلم كل منا أن حياتنا غير أصيلة في وجودها، وحياتنا ليست من ذواتنا، أما في الجنة، فحياة ما بعدها موت، ولا يعروها مرض ولا يخامرها خوف، ولعل الله

سبحانه وتعالى أراد أن يضاعف سعادتنا في الجنة أضعافاً مضاعفة إذا تفضّل الله علينا بدخولها، وإذا قبل منا عملنا، وإذا عفا عنا... فإذا سمح الله لمؤمن أن يدخل الجنة... فالسعادة في الجنة أضعاف مضاعفة، فما كان من أعراض تنتابه في الدنيا كالقلق والخوف والمرض والحزن والانحدار المريع نتيجة تقدّم السنّ ليس له وجود في الجنة إذ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

إذا قلنا: إن الله حي، أي: متصف بالحياة الأبدية، لا بداية لها ولا نهاية لها، هو الباقي أزلاً وأبداً، والحي الذي لا يموت، لأن الذي يجوز عليه الموت حكم عليه بأنه ميّت، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر:٣٠].

الذي تنتهي حياته إلى الموت هو في حكم الميت، أما إذا مات فعلاً فإنه يسمى مَيْت، مَيِّت، أي: سيموت، ومَيْت: مات فعلاً.

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

فكل منا ميّت، أي: محكوم عليه بالموت مع وقف التنفيذ، أما إذا قلنا: فلان مَيْت فالمعنى أنه مات حقيقةً، ونحن إذا قلنا عن أنفسنا أحياء، فحياتنا مزورة، لأنا مَيّتون بأمر الله، ميتون بقضاء الله، ميتون بأصل وجودنا على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

الحي هو دائم الحياة، له البقاء المطلق، الإنسان مهما عاش لا بد من أن يموت، فحياته مقيّدة بعمره، أما من له البقاء المطلق فهو الله عز وجل.

لذلك فالإنسان العاقل يربط مصيره مع الله، ولا يعتنق إلا مبدأ الله ولا ينضم إلا إلى أهل الله، ولا يتحرك إلا وفق الحق، لأن الحق هو الله، وإذا استقام على أمر فهو

الحافظ، وإذا كان في ظل الله فالله هو الذي يؤيده وينصره، فكل إنسان ربط مصيره مع الله فهو السعيد حقاً، هو الذي يتفوق ويفوز.

الحي هو الذي لم يسبق وجوده عدم ولا يلحق بقاءه فناء، أي إنسان في التاريخ القريب والبعيد ربط مصيره بإنسان، فلما وقع هذا الإنسان وقع معه، ولما انهارَ انهارَ معه، فمغامرة ومقامرة، أن تربط مصيرك بمصير مخلوق يموت، أما بطولتك وذكاؤك وتفوقك ونجاحك في الحياة فهي أن تربط مصيرك بالحي الذي لا يموت، فكل إنسان لو مات إنسان وكان مع الحي الذي لا يموت فهو لم يمُتْ. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩].

أنا لا أنسى في السيرة موقف النبي ﷺ لما خاطب قتلى بدر من الكفار، خاطبهم بأسمائهم واحداً واحداً، يا فلان يا فلان يا فلان: عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ تركَ قَتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم، فقام عليهم، فناداهم، فقال: يا أبا جهل ابن هشام، يا أميَّةَ بن خَلَف، يا عُتبةَ بن ربيعةَ، يا شيبة بن ربيعة، أليسَ قد وجدتُم ما وعدَ ربكم حقّاً، فإني قد وجدتُ ما وَعَدني ربي حقّاً؟ فسمع عمر بن الخطاب قولَ النبي ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، كيف يسمعوا؟ وأنَّى يُجيبوا، وقد جيَّفوا؟ قال: والذي نفسي بيدِهِ، ما أنتم بأسمع لما أقولُ منهم، ولكنهم لا يقدرونَ أن يجيبوا، ثم أمر بهم فسُحبوا، فأُلقوا في قَليب بدر [أخرجه مسلم].

هم يسمعوني كما تسمعوني أنتم، فالحياة دائمة، والموت عبارة عن ثوب خلعته فقط، أنت أنت، مشاعرك، ثقافتك، ذكرياتك، إقبالك، معرفتك بالله هي هي، إلا أن الثوب الذي تلبسه نُزع عنك وصار هناك ثوب آخر، لذلك خط المؤمن البياني صاعد وحتى عند الموت يبقى صاعداً، وما الموت إلا نقطة على الخط الصاعد.

بصراحة أقول لكم: الزمن ليس في مصلحة الكافر، بل هو في مصلحة المؤمن، فالكافر وضع كل البيض في سلة واحدة، كل أهدافه في الدنيا، كل سعادته في المال

والشهوات والنساء والسهرات والحفلات، كل إنجازه مادي، فكلما تقدم به الزمن ضعفت قدرته على الاستمتاع بالحياة، فحركة الزمن ليست في صالح الكافر، لأن مضي الزمن يضعف قدرته على المتعة، يضعف قدرته على الاستمتاع بالحياة الدنيا، بالطيبات بالطعام، بالشراب، بالنساء، لذلك عنده قلق عميق يخشى الموت، يخشى كل ما يرتبط بالموت.

فالموت لغير المؤمن مخيف جداً، نهاية حتميّة، أما المؤمن فمضي الزمن لصالحه، فكلما امتدّ به العمر قرّبه من سعادته المطلقة، كلما امتدّ به العمر قرَّبه من لقاء الله عز وجل، كلما امتدّ به العمر قرّبه من عرسه، وكلما امتدّ به العمر قرّبه من تحفته التي هي الموت.

ما قولك في أنّ بعض الناس ينخلع قلبه من ذكر الموت؟ على حين أن بعضهم يرجو لقاء الله عز وجل؟! تصور أن النبي ﷺ، لما خيّره جبريل بين أن يبقى حيّاً في الدنيا أو أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، قال: بل الرفيق الأعلى من الجنة [النسائي في الكبرى، عن عائشة]، ماذا رأى النبي ﷺ؟ فعندما تكون حياة الإنسان استقامةً وعطاءً وخدمةً للناس والتزاماً بالشرع وورعاً، وهو يحيا ليرضي الله عز وجل فالموت عند هذا الإنسان جزء من سعادته العظمى، لذلك هؤلاء الذين يأتيهم الموت وهم على طهارة يأتيهم بأحب الناس إليهم على الإطلاق، وموتهم نوع من السعادة؛ لذلك قال الله عز وجل: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر:٧٣].

إذا دُعيَ شخص إلى وليمة وكان ضيف الشرف الأول، فإنك ترى حُسْنَ الاستقبال، والترحيب، الابتسامة الحارة: يا أهلاً ويا سهلاً، نوّرتم، نحن على شوق لهذا اللقاء، المكان واسع لائق، والماء بارد، وأطباق الطعام فاخرة؛ فهذه صورة لتكريم إنسان لإنسان في الدنيا، فكيف إذا كرَّمك خالق الأكوان؟! وشتان بين تكريم زائل، وتكريم باقٍ أبداً.

لذلك قال تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس:٢٦].

الزيادة: رؤية وجه الله الكريم، ورد في الأثر أن المؤمن ينظر إلى وجه الله الكريم فيغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة!! قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

وأكبر عقاب لأهل الكفر الحجاب، قال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين:١٥].

قال بعض العلماء: «الحي هو الموجود».

وقال بعضهم: «الحي هو الباقي من أزل الأزل إلى أبد الأبد» والأزل هو عمق الوجود ودوامه في الماضي، والأبد هو دوام الوجود وبقاؤه في المستقبل.

وقيل: الحي الذي ليس لحياته زوال والذي لا يموت، والإنس والجن يموتون، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص:٨٨].

وعالم جليل يُعرّف الحي بأنه: «الفعال الذي لا يموت» فالحي الكامل المطلق وهو الذي تندرج جميع المدركات تحت إدراكه.

أحياناً مدير دائرة تمر عليه ألف قضية من وراء ظهره، بذكاء. تمرُّ دون علمه، لا يشعر، ليس عنده إمكانية أن يعرف ما يجري بغير الغرفة التي هو فيها، تأتيه معلومات، مَن داوم ومَن لم يداوم، يتّفق موظف مع مراقب الدوام، يسجله موجوداً في حين أنه مسافر، فأحياناً تجد إنساناً على أعلى درجة من الذكاء وتمر عليه ألف قضية دون أن يعلم.

أحد العلماء يقول: الحي؛ هو الفعال، الدَّرَّاك، يعني على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، يعني قدرته متعلقة بكل ممكن، وعلمه متعلق بالواجب والممكن والمستحيل.

مات لبعضهم ابن فبكى عليه حتى عمي فقال بعضهم له: الذنب ذنبك، لأنك أحببت حياً يموت، ولو أحببت الحي الذي لا يموت لما وقعت في هذا الحزن، قال النبي الكريم ﷺ: «لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن خلة الإسلام أفضل» [البخاري، عن ابن عباس].

أعتقد أنه لا يوجد رجلان على وجه الأرض أحب أحدهما الآخر حباً إلى درجة غير معقولة كحبّ أبي بكر لرسول الله ﷺ، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فرجف بهم، فقال: «اثبت أُحد، فإنما عليك نبي وصدّيق وشهيدان» [أخرجه البخاري في صحيحه].

وعن أبي سعيد الخدري، قال: خطب رسول الله ﷺ الناس، وقال: «إن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله»، قال: فبكى أبو بكر رضي الله عنه، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّر، وكان رسول الله ﷺ هو المُخيَّر، وكان أبو بكر هو أعلمنا. فقال رسول الله ﷺ: «إن من أمن الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر رضي الله عنه، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي عز وجل لاتخذت أبا بكر، ولكنْ أُخُوَّةُ الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر رضي الله عنه» [أخرجه البخاري في صحيحه].

وقال النبي ﷺ: «إن الله عز وجل بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟» [البخاري عن أبي الدرداء].

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخي وصاحبي» [أخرجه البخاري في صحيحه].

وعن محمد ابن الحنفية، قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر رضي الله عنه. قلت: ثم من؟ قال: عمر رضي الله عنه. قال: وخشيت أن يقول عثمان رضي الله عنه. قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين. [رواه البخاري في الصحيح، ورواه أبو داود في سننه].

وعن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» [رواه البخاري].

كل إنسان يضع كلَّ أمله، كلَّ حبه، يعلق كل قلبه بإنسان من دون الله يسقط. لذلك عندما نزلت براءة السيدة عائشة من فوق سبع سموات وفرحت فرحاً شديداً، قالت لها أمها: قومي إلى رسول الله، قالت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله [البخاري ومسلم من حديث عائشة].

الله هو الموجود، وكلما وحد الإنسان ربّه كثيراً أحبه الله كثيراً، والمؤمن لا يعبأ بأحد، أديب مع الناس كلهم، يحترمهم جميعاً، يخدمهم جميعاً، أما قلبه فلا يعلقه إلا بالله، هذا هو التوحيد، ذكياً ولا تعلق قلبك إلا بالله مباشرةً، وعامل الناس بالإحسان.

هناك حبٌّ في الله وحب مع الله، الحب في الله من كمال الإيمان، فأنا أحب إخواني لأنني أحب الله، أحب أخي المؤمن لأنني أحب الله، أحب زوجتي لأنها مستقيمة لأنني أحب الله أحبها، أما إذا أحببتها مع الله، يعني نفذت أمرها وعصيت الله، إذا أحببت إنساناً مع الله، أرضيته ولم ترضِ الله فقد هويْت منزلقاً، الحب مع الله عين الشرك، والحب في الله من كمال التوحيد، يجب أن تفرق بين أن تحب مع الله، وأن تحب في الله.

محبة النبي ﷺ محبة في الله، محبة أهل الحق محبة في الله، محبة إخوانك في الإيمان محبة في الله، محبة أهلك وأولادك محبة في الله، أما إذا أطعت مخلوقاً وعصيت الخالق، بدافع الحب، فهذا حب مع الله وهو عين الشرك.

ويعد فالإنسان يحب من حوله، يحب زوجته وأولاده وإخوانه، ثم يأتيه ملك الموت، سيبقى في القبر وحيداً، أشد الناس حباً له يشيعه حتى شفير القبر، طبعاً النساء

يودعنه في المنزل، أما أولاده فوداعهم إلى شفير القبر، يلقون عليه النظرة الأخيرة، ولكن بعد أن يُدفن وبعد أن يُهال عليه التراب، وينصرف الناس، من بقي مع هذا الإنسان الحي الذي لا يموت، كأن الله تعالى يقول لعبده حين ينزل القبر: «عبدي! رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولم يبقَ لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت».

أليس من الذكاء أن تقيم علاقات طيبة مع الحي الذي لا يموت لأنك سوف تنفرد معه ولا أحد معك؟! والأهل ينصرفون إلى طعامهم وشرابهم بعد حين، وإلى نزههم ثم إلى متعهم، بعد حين كأنك لم تكن، الأولى أن تحب الله.

يقول لك: أنا من أجل أولادي لم أدفع زكاة مالي، لن ينجو من عذاب الله، ومن أجل ولد معين لم يعدل بين بقية أولاده لقي الله وهو عليه غضبان.

هل من إنسان على وجه الأرض يستأهل أن ترضيه بسخط الله؟!

أعرف آباء كثيرين من أجل بقاء المال مع الذكور يحرمون الإناث ويلقى الله وهو عليه غضبان، فهل أولاده ينفعونه أو يدفعون عنه غضب الله عز وجل؟!

لذلك ليس من مخلوق على ظهر الأرض يستأهل أن ترضيه بسخط الله... في الأرض كلها... أرْضِ اللهَ ولا تعبأ بأحد.

نصيب المؤمن من اسم الله (الحي)

إن أردت أن تتخلق بكمال مشتق من هذا الاسم فلا تكن ميتاً، قال تعالى: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ [النحل:٢١].

وقد قال الشاعر عدي الغسّانيّ:

ليس من مات فاستراح بميّت   إنّما الميّت ميّت الأحياء

ويقول سيدنا علي رضي الله عنه: «مات خزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة» فالحياة حياة القلب والموت

موت القلب، ترى شخصاً ما فكر بحياته أن يصلي أو يصوم أو يتوجه إلى الله أو يعمل عملاً صالحاً، همه شهوته، إلهه شهوته، هذا ميت، والله عز وجل يقول: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢].

قبل أن نعرف الله نحن أموات: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر:٢٢].

فأنت يجب أن تكون حياً حياة القلب، حياة المعرفة، حياة الإيمان، حياة الاستقامة، حياة العمل الصالح، حياة صحبة الصالحين، يجب أن تكون حياً.

ومن ثمرات معرفة اسم الله (الحي) ألا تكون مع الآخر كالميت، يقول لك: المريد كالميت بين يدي مغسله، ويقصدون أن الطالب يجب أن يطيع شيخه طاعة عمياء هذا المعنى غير صحيح. وفي الحديث:

«بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فَقَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوهَا، فَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَهَمُّوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا، وَيَقُولُونَ: فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ النَّارِ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتْ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ» [متفق عليه].

العقل لا يعطَّل أبداً، أنا أطيع هذا الإنسان وفق منهج الله، قال لي: صلِّ، والله أمرني بالصلاة، قال لي اصدق، الله أمرني بالصدق.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة:١٢].

المعصية مقيدة بالمعروف، وليس هناك معصية مطلقة.

احذر أن تكون مع إنسان كالميْت بين يدي غاسله، فالحذر الحذر أن تركن كلية لإنسان ما، ولكن قال سهل بن عبدالله: «أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء، لا يكون له حركة ولا تدبير».

فالمؤمن إذا أعطاه، وإذا منعه، وإذا قربه وإذا أبعده... يبقى متعلقاً بربه، فعطاؤه ومنعه لخيره.

كـــن مـــع الله تـــرَ الله معـــك　　واتـــرك الكـــل وحـــاذر طمعـــك
وإذا أعطـــاك مـــن يمنعـــه　　ثـــم مـــن يعطـــي إذا مـــا منعـــك

ليس لك إلا الله عز وجل، فالمؤمن الصادق بين يدي الله كالميت بين يدي المغسل راض بقضائه، راضٍ بقدره، راضٍ برزقه، راضٍ بعطائه.

كـــيفما شـــاء فكـــن في يـــده　　لـــك إن فَـــرَّقَ أو إن جمعـــك
في الـــورى إن شـــاء خفضـــاً ذقتـــه　　وإذا شـــاء علـــيهم رفعـــك
هـــذه ملـــة طـــه خـــذ بهـــا　　لا تطـــع عنهـــا قصـــوراً دفعـــك
وإذا ضرك لا نـــافع مـــن　　دونـــه والضـــر لا إن نفعـــك
إنـــما أنـــت لـــه عبـــد فكـــن　　جـــاعلاً في القـــرب منـــه ولعـــك
كلـــما نابـــك أمـــر ثـــق بـــه　　واحـــترز للغـــير تشـــكو وجعـــك
لا تؤمـــل مـــن ســـواه أمـــلاً　　إنـــما يســـقيك مـــن قـــد زرعـــك

القيوم

اسم القَيُّوم ورد في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وفي آل عمران: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ [آل عمران:١-٢].

وفي سورة طه: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ ﴾ [طه:١١١].

وهذا الاسم أيضاً ورد في السنة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «...أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ المَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَام يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَقَدْ دَعَا الله بِاسْمِهِ العَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى...» [أبو داود، النسائي، أحمد عن أنس بن مالك].

من معاني اسم الله القيوم

لنستعرض أولاً معاني القَيُّوم في اللغة؛ فاللغة لها أصول، لها أصل ثلاثي مجرد «قوم» فالقيّم هو السيد المدبر للأمور، سائس الأمور، تقول: قيِّم المكتبة، أي أمينها، وسيِّدها، من بيده أمرها.

ودين القيّمة؛ هو الملة الحنيفيّة التي تتوافق مع الفطرة، والتي تميل النفس إليها، وعلامة أن هذا الدين دين الله أن النفس تميل إليه، وترتاح له، ويتوافق مع فطرتها، ومع خصائصها.

وفي النفس حاجة لا يرويها المال، ولا ترويها رفعة المكانة، ولا ترويها المتع، ولا ترويها الشهرة، لا يرويها إلا الإيمان بالله عز وجل والاطمئنان إليه، مصداق ذلك يشير إليه قول الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد:٢٨].

توافق النفس مع الدين شيء عجيب، فالإنسان قد يحوز الدنيا بأكملها، لكنّه قلق، ضائع، مشتّت، مبعثر، أما إذا عرف الله عز وجل فقد اطمأنت نفسه وسكنت وارتاحت، وأمِنَت، وتفاءلت، واستبشرت واستشرفت، وارتفعت، وكبرت.

دين القيّمة؛ دين الحنيفية، الذي تميل النفوس إليه، وتركن إليه، ولا بد أنها قائلة: أنا بعد أن عرفت الله عز وجل سعدت بقربه، شعرت بالأمن، شعرت بالطمأنينة، شعرت بالتوازن، وعلامة إيمانك أن تقول هذا الكلام وتردّده في أعماقك.

تصور مركبة صُنعت لطريق معبّدة، فسرت بها على طريق وعرة، أحجار وحفر وأكمات، أصوات تعثر، شيء يتكسّر، فلما انتقلت بها إلى الطريق المعبّدة سارت بسلاسة ونعومة وبلا صوت وبسرعة.

فلذلك: الإنسان سلامته وسعادته بطاعة ربه لأنه مبرمج كذلك، لذلك قالوا دين الإسلام دين الفطرة، الدليل: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الروم:٣٠].

ويوم القيامة مشتق من (قوم) وهو يوم البعث الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، قال تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات:٢٤].

هل رأيتم مذنباً يُستجوب وهو جالس؟... أبداً، لا بد أن يقف، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾، فيوم القيامة لشدّة هوله يقف فيه الناس لرب العالمين، ليُسألوا ويُحاسبوا عن كل صغيرة وكبيرة.

والقَيُّوم؛ مبالغة من القائم بالأمر، فهناك مدير مستشفى أو مدير مؤسسة دوامه من الساعة الثامنة إلى الثانية ظهراً، فهذا قائم على أمرها، ولكن هناك مدير امتزج حبّ هذا العمل مع دمه، فهو يقتني سريراً في مكتبه وينام في مكتبه، يسأل عن كل صغيرة وكبيرة، ويتابع كلّ أمر، ويضبط كل تصرّف، نقول: هذا قَيُّوم؛ مبالغة من قائم، وذو المبالغة في تدبير الأمور وفي تسييرها وفي تنظيمها؛ نصفه بأنه قَيُّوم.

القَيُّوم، هو القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره، ما منّا واحد على الإطلاق قائم بذاته، الإنسان لا يدري ماذا يحدث بعد ساعة، ولا بعد دقيقة، لكنّ الله سبحانه وتعالى قائم بذاته، ووجودنا مفتقر إلى إمداده، إلى أن يسمح الله لنا أن نعيش ساعة أخرى، يوماً آخر، أسبوعاً آخر.

وجودنا ليس ذاتياً، لذلك من عدَّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت، الله جل جلاله، هو القَيُّوم، أي قائم بنفسه مطلقاً لا بغيره، هذا شطر المعنى.

الشطر الثاني: يقوم به كل موجود، فكل شيء موجود في الكون قائم بالله، «كن فيكون» «زل فيزول»، إن رأيت الشمس ساطعة فالله سمح لها بذلك، وهي باقية بأمر الله.

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ [التكوير:١-٢].

إن رأيت إنساناً أمامك، وهو واقف يحدثك، فلأن الله سمح له أن يبقى حياً، فالله قائم بذاته، وكل موجود قائم به.

لذلك يرتكب الإنسان خطأً فاحشاً إذا قال: أنا! أنت لا شيء، أنت شبح، إذا سمح الله لك أن تعيش يوماً عشته، وإن لم يسمح لك فلن تعيش، هذه الحقيقة مهمة جداً، كان ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول: «الحمد لله الذي ردَّ علي روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره» [أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة من حديث أبي هريرة وإسناده جيّد].

لذلك المؤمن دائماً يرى هذه الحقيقة؛ أن قيامه بالله، ووجوده بالله، واستمرار وجوده بالله، أنت تتمتع بعينيك، لأن الله سمح لك بذلك، تمتعك بأذنيك، تمتعك بلسانك، تمتعك بفمك، تمتعك بعقلك، بجهاز هضمك، بجهاز دورانك، بدسامات قلبك، بشرايين قلبك، تمتُّعك بكليتيك، تمتعك بكل خلية في جسمك، بإذن الله وإمداده وموافقته.

لذلك أجمل كلمة في تعريف القَيُّوم؛ القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره، وهو مع ذلك يقوم به كلّ موجود.

قال العلماء: لا يُتصوّر وجودُ شيء ولا دوامُ شيء إلا به، أجل لا وجود ولا دوام إلا بالله تعالى، فبربكم إذا كان كلّ شيء موجوداً بقَيُّوميَّته، وإذا كان كل شيء مستمراً بقَيُّوميته، فهل علاقتك مع القائم به كلُّ شيء أو مع الذي لا يملك من أمره شيئاً؟ هنا يكون التوحيد.

إذا أرضيت إنساناً «وقيامه بالله» وعصيت الخالق وهو القَيُّوم، عصيت الذي إن أراد له الفناء فني فوراً، وأرضيت الضعيف الفاني فأنت في ضياع؛ لذلك فالحيُّ القَيُّوم، به حياة كل شيء وقيامه. حتى لا يُتصور وجود شيء ولا دوام وجوده إلا به، وقيل: القَيُّوم هو الباقي الذي لا يزول، قيل: هو المقيم للعدل القائم بالقسط، قيل: القائم بنفسه الغني عن غيره الذي لا ينام.

الإنسان المثقف المؤمن، لا يليق به أن يقرأ القرآن هكذا دون تدبّر، يقول قائل: اقرأ آية الكرسي فهي مفيدة، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ ألا ينبغي أن تعرف من

هو القَيُّوم... يقوم به كل شيء، وكل شيء مفتقر في وجوده واستمراره إليه، يحتاجه كل شيء في كل شيء، فإذا أيقنت بهذه الحقيقة، هل تلتفت إلى القَيُّوم أم إلى الذي يقوم وجوده بالقَيُّوم؟ قطعاً... إلى القَيُّوم...

العلماء قالوا لا يتصور وجود شيء ولا دوام شيء إلا به، لذلك أحمق إنسان، وأغبى إنسان هو الذي يقول: أنا

قالها إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف:١٢] فأهلكه الله.

ويقول: لي قالها فرعون: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ [الزخرف:٥١] أغرقه الله.

وعندي قالها قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨].

ونحن قالها قوم بلقيس: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ [النمل:٣٣].

القَيُّوم هو القائم بتدبير أمر خلقه، بالإضافة إلى أن وجودك قائم بالله، وإلى أن استمرار وجودك قائم بالله، هناك معنى ثالث... هو القائم برزق العباد، وأنت نائم الأمطار تهطل، الرُّشيم يتحرك، المعادن تنحلّ، والجذر ينمو، والقلنسوة تحفر الصخر، والماء أُذيبت به المعادن، صعد إلى عروق الشجر، انعقد الزهر، نمت الأوراق، انعقد الثمر وأصبح ثمراً يانعاً.

المؤمن إذا أكل تفاحة، أكل عنباً، أكل تيناً، أية فاكهة يأكلها يجب أن يرى يد الله التي صنعتها، أنت ماذا فعلت؟ زرعت البذرة، وسقيت التربة ووضعت السّماد، فمن جعل الرُّشيم ينمو؟ ولا بد من أن نعرف، ضع حبة فاصولياء في قطن مبلل وراقبها، بعد يوم أو يومين ينبت الرُّشيم ثم ينمو السّاق ثم ينمو الجُذير، اضغط على هذه الحبة... تراها فارغة، هذا الغذاء كافٍ لنمو الرّشيم والجُذير، ثم تأخذ الغذاء من التربة، ظاهرة النبات وحدها أكبر آية دالة على عظمة الله.

القطن نبات، السِّواك نبات، الليف في الحمام نبات، الأصبغة نباتات، الأدوية نباتات، الأثاث نباتات، الأشجار المثمرة نباتات، وكذلك الخضراوات والفواكه، فكلمة «نبات» تلفت النظر.

إذاً: القَيُّوم إضافة إلى أنه قائم بذاته، يقوم به كل موجود، يعني ما كل كائن حيٍّ فقط بل كل موجود، الشمس موجودة، القمر، الجبال، البحار... يقوم به كلُّ موجود ويستمر به كلُّ موجود.

والمعنى الإضافي أن الله قائم بتدبير أرزاق العباد.

تأمل في استهلاك العالم في اليوم الواحد من اللّحم. كم هو استهلاك العالم من الماء في اليوم؟ هذا الماء أساسه أمطار وأنهار وينابيع، كم هو استهلاك العالم من الخضار والفواكه؟ يا ترى كم ألف طن من الحمضيات يُنتج في العالم؟ في بلدنا سورية وحدها لدينا ساحل ضيق عندنا تسعون ألف طن من الحمضيات يتم تصديرها خارج القطر فكم إنتاج العالم كله من الحمضيات سنوياً؟... وكم إنتاج العالم كله من الموز؟... معدّل تدفق نهر الأمازون ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية، هذه المياه من أين جاءت؟ الغابات، الأخشاب التي يستهلكها النجّارون في العالم من أين؟ من الغابات، من أمدَّ الغابات بهذه الأخشاب؟ الله جل جلاله.

أطنان الحديد في العالم من أين جاءت؟ من الفلزات، من أودع في الأرض هذا المعدن النافع؟ قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد:٢٥].

فكل إنسان مدْعو أن يفهم أنّ الله سبحانه وتعالى هو القَيُّوم، ولا بد من فهم واسع وشامل لصفة القَيُّوميّة، فهو الذي يدبّر أمر الخلق كلِّهم بشراً وحيواناً ونباتاً بتأمين أرزاقهم، وحاجاتهم، وزروعهم، ومياههم.

وقال مجاهد: القَيُّوم هو القائم على كلِّ شيء، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر:٦٢].

الخلق كلّهم في قبضته، فقد تتصور أن الأمور متفلّتة، ويبدو لك أنّ فلاناً قلبه قاسٍ، وأنّ يده طولى، وهو سيّد نفسه فالله مالكه، وقياده بيد خالقه، وأوضح آية في هذا، قال تعالى: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود:٥٥-٥٦].

حيوان شرس، حيوان مخيف، عقرب، أفعى، هذه الحيوانات المؤذية تتحرك بأمر الله، وكلُّ مخلوق يتحرك بإرادة الله سبحانه وتعالى، وليس له إرادة مستقلة.

وقال بعض العلماء: «القَيُّوم هو القائم على خلقه، بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم»، قال ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب» [رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أمامة وهو صحيح]، قال علي رضي الله عنه: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً» [أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره].

وقيل: «القَيُّوم هو المدبِّر المتولي لجميع الأمور التي تجري في الكون»، فإذا سمعت خبر فيضان، خبر زلزال، خبر إعصار، خبر انهدام، تفشّي مرض، تفشي وباء، حرباً أهلية قامت بين فئتين، أليس لله علاقة بهذا الشيء؟! قنبلة ألقيت على هيروشيما، أليس لله علاقة بهذه القنبلة؟! بلى، وألف بلى!

والقَيُّوم لا شيء يقع في الكون إلا بأمره، ومشيئته، وإرادته وحكمته وقدرته، وعلمه وتدبيره.

قد تتجوّل في الخريف في بستان فترى ورقة زيتون سقطت، فاعلم أيها القارئ أن الله تعالى في القرآن الكريم يقول: ﴿ ۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩].

فما قولك فيما فوق الورقة، سقوط ورقة يعلمها، سقوط قنبلة، طبعاً هذه أهم، يعلمها، متى يرتاح الإنسان؟... إذا شعر أن الأمر كله بيد الله، وأن الله قادر وعادل ورحيم وحكيم، وأنت في ظله، وأنت في رعايته، منحك الأمن، والأمن نعمة لا تُقدَّر بثمن.

وقيل: القائم على كل نفس بما كسبت، يحاسب كل إنسان حساباً دقيقاً، الغشاش له معاملة، والصادق له معاملة، والخائن له معاملة، والمتقن عملَه له معاملة، وغير المتقن له معاملة.

سمعت عن أخ عمل مهندساً في بعض دول الخليج، أخلص إخلاصاً منقطع النظير، أعطاه من يعمل عنده راتباً فلكيّاً، ثم شعر أنه ينبغي أن يستقر في بلده إلى جوار أمه وأبيه، فترك وعاد إلى بلده، قام بزيارة طارئة لذلك البلد الخليجي لإجراء بعض المعاملات، فعرض عليه من كان يعمل عنده أن يقيم شهراً في الخليج وشهراً في موطنه، وعشرة آلاف درهم في الشهر يقدر بمئة وخمسين ألف ليرة تقريباً، وبيتاً مفروشاً، السبب في كل هذه المغريات والتنازلات استقامته وإخلاصه وتفانيه في خدمة عمله، عن أبي قلابة قال: قال رسول الله ﷺ: «البر لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والدّيّان لا يموت» [أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه» وهو حديث مرسل عن أبي قلابة].

والنبي ﷺ روي عنه: «الأمانةُ غنًى» [رواه القضاعيُ في «مسند الشهاب» من حديث أنس بن مالك]، طبعاً من معانيها الضيقة ألاّ يأكل الإنسان مالاً حراماً... ومن معانيها الواسعة، أن تكون أميناً في عملك، أميناً في اختصاصك وأميناً في كل شيء... فمثلاً إنسان لا يحتاج إلى عملية إطلاقاً، يقول له طبيب غير أمين وغير مستقيم: إذا لم تُجْرِ العملية بعد يومين فإنّك ستموت، ويأخذ منه مبلغاً ضخماً، وهو لا يحتاج إليها إطلاقاً، هذا ليس أميناً على اختصاصه.

فموضوع الأمانة موضوع واسع جداً، إذا عمل الإنسان عملاً ليزيد دخله، ولا ينفع الشخص الذي يتعامل معه، فقد خان الأمانة، فأنت إذا كان عندك زجاج (ستة ميليمتر)، وتركبه في مكان يحتاج ثلاثة ميليمترات، من أجل منفعة ذاتية وتقول: هذه

النافذة أنسب بسماكة ستة ميليمترات، وتحمله ثمناً باهظاً وعبئاً ووزناً بلا فائدة، فقد خنت الأمانة. قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء:٥٨].

إذا كنت صاحب صيدلية، فالأدوية كلها أمانة برقبتك، إذا انتهى مفعول دواء لا بد من تنسيقه، أعرف شخصاً اشترى دواء انتهى مفعوله، وكنت أظن أن الدواء الذي ينتهي مفعوله لا ينفع لكنه لا يضر، ثم تبيّن لي أن الدواء الذي ينتهي مفعوله له ضرر كبير جداً، هل تصدقون أنه يصيب الإنسان بالكآبة أحياناً، لما به من مواد مركبة، عندما تفككت أصبحت سامة، لما كانت مركبة كانت نافعة، فأن تبيع دواءً منتهياً مفعولُه، فقد خنت الأمانة.

أنت محامٍ؛ موكّل في قضية، تقدّم مذكرات غير مدروسة، ولم تراجع القوانين، خصمك أقوى منك، وخسرت الدعوى، فأنت خنت الأمانة.

المحامي أمين، الطبيب أمين، هناك أخطاء كثيرة جداً ترتكب من أصحاب الاختصاصات العليا، فهم موثوقون، ولكنهم هدروا هذه الثقة الممنوحة لهم بتقصيرهم.

تبيع خبزاً للناس، فعليك أن تتأكد أن هذا العامل يداه نظيفتان، وبقّال عنده وعاء زيت غالٍ جداً، وجد فيه فأراً، فهل يبيعه للناس؟! إن فعل فقد خان الأمانة.

الدين عظيم فهو رقيب على النفس، يتغلغل الدين إلى أدق التفاصيل، أضرب لكم مثلاً بسيطاً، نموذجياً: أخ من إخواننا كان يصلح محركات، قال لي: قد يأتيني محرّك محروق والشرط خمسة آلاف، أفتحه فأجد عطلاً خارجياً بسيطاً جداً، أصلحه بدقيقة واحدة، ثم يأتي صاحبه في اليوم الثاني وأتقاضى منه خمسة آلاف، هذا قبل أن يعرف الله، لكن بعد أن عرف الله، أصبح يقول لمثل هذه الحالة: اسمح لنا بخمس وعشرين ليرة، فيسأل الزبون متعجّباً؛ ما هذا الكلام قد اشترطت خمسة آلاف! يقول: نعم، لكن تبيّن لي بعد فتح الجهاز وفكّه أنه غير محروق، بل فيه قطعة معطّلة، فأصلحتها وانتهى الأمر.

والله الذي لا إله إلا هو، لا يتبدّى الدين حقيقياً، وجليّاً إلا في عملك، الدين الحقيقي لا يتبدى في صلاتك ولا في صيامك، ولا في حَجِّك، ولا في عمرتك، إنه يتبدى في العمل.

أن تضع مادة تؤذي أبناءنا الصغار، وأنت صاحب معمل غذائيات... فقد خنت الأمانة، وخسرت معيّة الله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل:١٢٨] الذي يخون الأمانة في صناعته، لا عبرة لا بصلاته ولا بصيامه، فالعبرة أن يستقيم على أمره، إن استقام على أمره، فالصلاة لها معنى، والصوم له معنى، والحج له معنى، لذلك قال تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات:٢٤].

فمن معاني القَيُّوم: القائم على كل نفس بما كسبت، فالشاب المستقيم له معاملة خاصة، له زواج خاص، له مستقبل خاص، وشاب منحرف قبل الزواج، عنده زوجة بلاء من الله، أتته بلاء، لأنه قَبْلَ الزواجِ لم يكن عفيفاً.

إنسان دخله حرام يأتيه البلاء الأعظم كل يوم، يعاني ما يعاني كل حين، وهذا جزاء وِفاقٌ يقول: أنا قلق! طبعاً، لأنك عندما بعت الزبون لم تتقِ الله فيه، لم تراقب الله فيه، عندما بعت هذا الإنسان، لم تتق الله في البيع، فلم تلبث أن جاءك رجل أخافك، إن ربّك لبالمرصاد.

شاب أمين، يتهافت الناس على تشغيله عندهم، وشاب غير أمين يتنافس الناس في صدّه عنهم.

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرعد:٣٣].

وقيل: الحفيظ على كل شيء، كلّ شيء مسجّل عنده، صورة ملونة وصوت، وسوف تُعرض عليك يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٤].

ركبت مع أخ في سيارته، رأيت ورقة لديه فيها صورة السيّارة مع التاريخ والسرعة، قلت له: ما هذه؟ قال: هذه مخالفة، أرسلوها، يوم كذا الساعة كذا في شارع كذا بسرعة كذا، إنسان صنعها، فكيف بخالق الأكوان، قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.

إذا كانت كلُّ أعمالنا مسجلة، صوتاً صورةً، وسوف تُعرض علينا عملاً عملاً يوم القيامة، أجب خالقك، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس:٦٥].

وقيل: القَيُّوم الدائم القيام في تدبير الخلق وحفظهم الدائم، الإنسان أحياناً ينتبه إلى عمله فترة، ويرتاح فترة، ويأخذ إجازة أسبوعين، وتأتي فترات يتعب فيها لا يتابع الأعمال... القَيُّوم بصيغة مبالغة، يعني القائم بتدبير خلقه على الدوام، بمعنى الاستمرار.

وعالم جليل له رأي لطيف في هذا الاسم، قال: «اعلم أن الأشياء تنقسم إلى ما يفتقر إلى محل كالأعراض والأوصاف»، فكلمة أحمر... هذه جوهر أم عرض؟ هذه عرض، فقد تحتاج إلى ضوء يقبل هذا اللون، تحتاج إلى ماء ملون بالأحمر، تحتاج إلى جدار يطلى بالأحمر تحتاج إلى ضوء يخترق سطحاً أحمر، فكلمة أحمر هذه صفة ليست جوهراً، أما إذا قلنا: منضدة فهذه جوهر.

قال: «الأشياء تنقسم إلى ما يفتقر إلى محل كالأعراض والأوصاف»، فيقال: إنها ليست قائمة بنفسها، وإلى ما لا يحتاج إلى محل، نقول: الشمس مثلاً، الشمس جوهر، القمر جوهر، الحصان جوهر.

لكن الحقيقة المهمة هي أن الشيء الجوهري، الذي لا يحتاج إلى محل، هو مفتقر في وجوده إلى الله، طبعاً نحن فيما يبدو لنا، أن هذا الرخام جوهر، أما لونه فهو عرض، هذه السيارة جوهر، لونها سوداء عَرَض، أما عند العلماء الأجلاء وهو الحق، أن

الأشياء التي تتوهمها جوهراً هي في حقيقتها مفتقرة في وجودها إلى الله، إذاً في الحقيقة كلُّه عرَض، لذلك الذين قالوا: الكون كله وهم، شبح، من هنا انطلقوا، أي أن كل شيء قائم بالله.

لذلك فمن هو الذي لا يفتقر إلى ما سواه؟ اسمعوا هذا الشرح ما ألطفه قال: وإن لم يحتج إلى محل «شيء لم يحتج إلى محل»، فإن كان في الوجود موجود تكفي ذاته بذاته، موجود قائم بذاته، ولا قيام له بغيره، ولا يشترط في دوام وجوده وجود غيره، فهو القائم بنفسه مطلقاً، فإن كان كذلك يقوم به كل موجود.

حتى لا يتصور وجود شيء من دونه، ولا دوام وجود شيء من دونه، فهو القَيُّوم لأن قيامه بذاته وقيام كل شيء به... قال: هذا الشيء، هذا الموجود، هذا القائم بذاته الذي يقوم به كل موجود ليس إلا الله.

ليس إلا الله وجوده ذاتي يقوم به كلُّ موجود، ما سوى الله عز وجل، أعراضٌ، وأشباح، وأوصاف، ولا شأن لها.

من أدب المؤمن مع اسم القيوم

قال العلماء: من أدب المؤمن مع اسم القَيُّوم، أن يعوّد قلبه الانقطاع عن الخلق، ما دام يعرف أن كل شيء قائم بالله، يعني إذا دخلت إلى دائرة، ووجدت فيها ألف موظف، لا يستطيع موظف أن يخدمك بشيء إلا أن يأخذ موافقة من المدير، أتتحدث مع أحد؟ عليك بالمدير، ليس لك إلا هذا.

يعني: إذا كان ألف موظف لا يستطيع موظف أن يتكلم كلمة لا بالإشارة ولا بالموافقة، ولا بالحركة، إلا إذا وافق المدير، فهل تتحدث مع هؤلاء؟ وتضيع وقتك معهم؟...

لذلك من أدب المؤمن مع اسم القَيُّوم، أن يعوِّد الإنسان نفسه انقطاعَ قلبه عن الخلق، ما دام يعرف أن الله سبحانه وتعالى، هو القائم والقَيُّوم، لذلك قال بعض العارفين: «حسبك من التوكل ألا ترى لنفسك ناصراً غيره».

أحياناً يقول الإنسان: أنجزتها، عملت خطة محكمة وأفلحت بها، أقسم بالله إني أشعر أن هذا الإنسان تائه، الله سمح لك، الله وفقك، الله جعل الآخرين يغضون نظراً عنك، الله خلق في قلبهم عطفاً عليك، الله حجبهم عن معرفة هذه المخالفة أحياناً، لا تقل: فعلت بنفسي، حتى لو أن واحداً أعانك، فالله سمح له أن يعينك، وألهمه، إما أنه خاف منك، وإما أنه استحيا، وإما أنه عطف عليك، لا تقل: أنا دبّرت أموري.

قال بعض العلماء: «حسبك من التوكل أن لا ترى لنفسك ناصراً غيره، ولا لرزقك خازناً غيره، ولا لعملك شاهداً غيره».

المخلِص لا يحتاج إلى ضجيج، غير المخلص إذا صنع وليمة يقول: هل أعجبكم الطعام؟ يريد أن يستجدي المديح، إذا عمل حفلة دائماً يسأل ليمدحوه، أما المؤمن فلا يطلب على عمله شاهداً غير الله، ولا يرجو غير الله، ولا يعرف أن أحداً ينصره غير الله.

من أدب المؤمن مع اسم القَيُّوم، أن من علم أن الله هو القَيُّوم للأمور استراح من كَدِّ التدبير، وتعبِ الاشتغال بغيره، وعاش براحة النفس، ولم يكن للدنيا عنده قيمة.

يعني ما هو لك لك، وما هو ليس لك ليس لك، والله عز وجل لا ينسى، ولا يغفل، وأمرك بيده، فإذا تيسر فالحمد لله، وإذا تعسر فلا حول ولا قوة إلا بالله.

قال بعضهم: يا رب لستَ محتاجاً إلى أحد، والكل محتاج إليك، يا عليم السر في أغواره، كيف للأسرار أن تخفى عليك؟ كل شيء بك باقٍ دائماً، والذي تقضيه مكتوب لديك، يا مضيء النجم، يا قَيُّوم يا ناقل الأطيار من أيك لأيك.

عَنْ طَاوُوسٍ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: كَانَ النبيُّ ﷺ إِذَا قامَ مِن اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قالَ: «اللهمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَواتِ والأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَواتِ والأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ...» [أخرجه البخاري].

أحياناً يقال: إنه حدثَتْ خلخلةٌ في طبقة الأوزون، وتفشّى سرطان الجلد إلى أن بلغ سبعين بالمئة، فيخاف الإنسان، ولكن الله موجود، الله عز وجل أليس قادراً على أن يرممها؟ قادر، ولكن دون الإيمان بالله الحياة مخيفة تحمل هم الأوزون المتخلخل، القلق من التلوث، القلق من الأورام، القلق من أمراض القلب، القلق من فشل كلوي، ما هذه الحياة؟... لكن مع الإيمان بالله هناك طمأنينة.

عزيزي القارئ: أحد أكبر مهام الإنسان في الحياة الدنيا أن يعرف الله، ومن أبرز ما يقتضي أن تعرف الله به أن تعرف أسماءه الحسنى، واسم القَيُّوم من أسماء الله الحسنى، وإذا تعمقت في اسم القَيُّوم، تركت الخلق واتجهت إلى الحق، وارتاحت نفسك من القلق، ونجَوْتَ من الاضطراب.

العلي

نحن الآن في رحاب العليّ جلّ جلاله، نتعرف إلى اسم جديد من أسمائه الحسنى لنرقى بهذه المعرفة إليه، ثم نأخذ نصيبنا من هذا الاسم.

هذا الاسم ورد مقروناً باسم العظيم، في موضعين من القرآن الكريم، الآية الأولى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

والآية الثانية: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾ [الشورى:٤].

واقترن هذا الاسم باسم الكبير، في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢].

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ:٢٣].

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر:١٢].

وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء:٣٤].

وورد منكّراً مقترناً باسم الله (الحكيم) في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى:٥١].

أمّا في السّنّة المطهّرة: فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَعَارَّ مِنْ اللَّيْلِ فَقَالَ حِينَ يَسْتَيْقِظُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ سُبْحَانَ الله وَالحَمْدُ لله وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله وَالله أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله العَلِيّ العَظِيمِ ثُمَّ دَعَا رَبِّ اغْفِرْ لِي غُفِرَ لَهُ» [اخرجه أبو داود و ابن ماجه].

وفي السنة أيضاً، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله العليّ العَظِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله الحَلِيمُ الكَرِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ» [مسند أحمد].

من معاني اسم الله (العلي)

اسم الله «العليّ» في الأصل من أسماء التنزيه، فأكثر النّاس يؤمنون أنّ الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، وهذا شيء بدهيّ، بل إن كلّ أهل الأرض إلا قلة قليلة منهم لا يؤبه لها تقرّ بوجود الله، بل إن إبليس اللعين أقرّ ببعض ذلك، قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص:٨٢].

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف:٧٦].

﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف:١٤].

ما الشّيء الحاسم في الموضوع؟ الشيء الحاسم أن تؤمن بالله «العليّ» العظيم، أن تؤمن بالله «العليّ» الكبير، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب:٤١].

فالكلمة الأبرز في الآية هي كلمة كثير، لأن المنافق يذكر الله، بدليل الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢].

إذاً الأمر هنا لا ينصبّ على الذكر فحسب، ولكنّه ينصبّ على الذكر الكثير.

«العليّ» على وزن فعيل وهو من الصفات المشبهة باسم الفاعل، وفعله علا يعلو علواً، العلوّ في المعنى الماديّ المتبادر هو ارتفاع المكان، أو ارتفاع المكانة، فإذا كنّا في شركة فيها عشرة طوابق، مكتب المدير العام في الطابق الأرضي، لكنّ مكانته في الأعلى، فإما ارتفاع المكان، أو ارتفاع المكانة، وفي الآية الكريمة: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة:١٤٨].

في أي مكان كنتم، بل في أيّة مكانة كنتم.

قال أبو العتاهية:

لا تَأمَنِ الموتَ في طَرْف وفي نَفَس ... ولو تَمَنَّعتَ بالحُجَّابِ والحَرَسِ
فما تزالُ سِهَامُ الموتِ نافذةً ... في جَنبِ مُدَّرع منّا ومُتَّرسِ
ما بالُ دينكَ تَرْضَى أن تُدَنِّسَهُ ... وثوبُكَ الدهرَ مَغسولٌ من الدَّنَسِ
ترجو النَّجاةَ ولم تَسْلُكْ مسَالِكَها ... إنّ السّفينةَ لا تجري على يَبَسِ

إذاً العلوّ: ارتفاع المكان، أو ارتفاع المكانة، أي ارتفاع المجد، والشّرف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:].

أعداؤنا بيدهم أموال لا تأكلها النيران، وبيدهم الإعلام، وبيدهم التحالفات، والعالم كلّه معهم، ومع كلّ ذلك إذا كنت مع الله فأنت الأعلى. وفي دعاء القنوت: «إنه لا يذلّ من واليت ولا يعزّ من عاديت» [الترمذي عن الحسن بن علي].

«العليّ» في أسماء الله هو الذي علا بذاته، فوق جميع خلقه، فاسم «العليّ» دلّ على علو الذات والفوقية.

وتعالى عن كلّ صفة لا تليق به، هل يليق به أن يظلم؟!

﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧].

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء:٤٩].

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٠].

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

والله عز وجل تعالى عن أن يشبه خلقه، تعالى عن كل ما خطر ببالك، فكلّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

و «العليّ» هو الذي علا فلا تُدرك ذاته، ولا تُتصور صفته، وقد قيل: لا يعرف الله إلا الله.

«العليّ» هو الذي تاهت الألباب في جاهه.

«العليّ» هو الذي عجزت العقول عن أن تُدرك كماله، كل هذه المعاني يمكن أن ترد حينما تقول: الله هو «العليّ»، عليّ مكانة، عليّ تنزيهاً، عليّ عزّة، عليّ لا يحيط به أحد، ولن يُدرك ذاته أحد، عليّ بمعنى رفيع القدر، الله سبحانه وتعالى قال عن ذاته العليّة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢].

ما لم تعظّم الله جلّ جلاله فلن تعظّم أمره، فإذا عرفت الآمر، ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلّت من الأمر.

الله سبحانه وتعالى عالٍ على عرشه بذاته، وبكيفيّة حقيقيّة معلومةٍ لله، مجهولةٍ لنا، فهناك في القرآن بضع آيات تتحدث عن ذات الله، وأكمل موقف للإنسان الموحّد الورع أن يكِل معناها إلى الله تعالى.

يجب أن تعتقد أن عقلك ليس قوة مطلقة في المعرفة، هو كميزان حساس متقنٍ غالٍ في بقالية، ولكنّه مصنوع لوزن ما بين خمسة غرامات إلى خمسة كيلو، ما لم تؤمن أن هذا الميزان مهمته محدودة فلن تنتفع به تماماً، فإذا أردت أن تزِن به سيارتك، فوضعته على الأرض وسرت فوقه، تكون قد حطّمته، هل يعدّ هذا عِلّة في الصّنعة؟ لا، بل هي عِلّة في المستخدم.

لذلك قالوا: عين العلم به عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به.

وقالوا: العجز عن إدراك الإدراك إدراك.

مثل بسيط: شخص سألك كم لتراً من الماء في المحيط الهادي؟ لمجرد أن تدلي برقم فأنت جاهل ولمجرد أن تقول: لا أعلم فأنت عالم.

إذاً: الذي عليه السلف الصالح، من الصحابة، والتابعين، والأئمة الأجلاء المتبعين، أن الله عالٍ على عرشه بذاته، بكيفية حقيقيّة معلومةٍ لله، مجهولةٍ لنا.

يقترن اسم الله «العليّ» باسمه العظيم في القرآن والسّنّة، ولا سيما حينما يُذكر العرش والكرسي، ففي آية الكرسي وهي كما تعلمون أعظم آية في كتاب الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

هذه الآيات وغيرها كثير واضحة في إثبات علوّ الذّات، والفوقيّة، لكنّ بعض المفسرين لاسم الله «العليّ» جعلوه دالاً على معنيين فقط من معاني العلوّ، هما علوّ الشأن، وعلوّ القهر، واستبعدوا المعنى الثالث وهو علوّ الذات، والثّابت الصّحيح أن

معاني العلوّ عند السّلف الصّالح ثلاثة دلّت عليها أسماء الله المشتقّة من صفة العلوّ، فاسم الله «العليّ» دلّ على علوّ الذات، واسم الله الأعلى دلّ على علوّ الشأن، واسم الله المتعالي دلّ على علوّ القهر، علو الذات، وعلو الشأن، وعلو القهر. والنّبيّ ﷺ لما سأل الجارية: «... فَقَالَ لَهَا أَيْنَ الله قَالَتْ فِي السَّمَاءِ قَالَ مَنْ أَنَا قَالَتْ أَنْتَ رَسُولُ الله قَالَ أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» [صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي].

والله تعالى يقول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك:١٦].

لأنّ السّماء رمز العلوّ، فلا إشكال عند الموحدين العقلاء في فهم حديث الجارية، وقولها إن الله في السماء والأمر واضح جليّ، وأيّ اعتراض على هذا، هو اعتراض على رسول الله ﷺ.

ما لم نؤمن بأن الله عليّ عظيم، وبأنه عليّ كبير، قد لا نطيعه، لأنّ عظمة الأمر من عظمة الآمر، فكلما عظُم الآمر عظم الأمر.

وفي الحديث: «وفضل كلام الله على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه» [رواه الترمذي عن أبي سعيد، وقال: حسن غريب]، لو أنّ شخصاً درس أيّ علم أرضي، ودرس أسماء الله الحسنى، ففضل علمه بأسماء الله الحسنى على فضل علمه بمخلوقاته كفضل الله على مخلوقاته، وشرف العلم من شرف المعلوم، أي لا يوجد علم أشرف من أن تعرف الله، لا يوجد علم أشرف من أن تعرف أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى.

لذلك فالإنسان حينما يغفل عن الله، يأتي يوم القيامة وقد تقطّع قلبه أسفاً.

﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر:٢٤].

﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان:٢٧].

«العليّ» لا يزيده تعظيم العباد، وإجلالهم له شيئاً.

«لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتْقَى قلب رجل واحِدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً» [أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري].

لو أن إنساناً كان بمستوى معين، إما مالياً، أو أخلاقياً، أو سلوكياً، أو رتبياً، لكنّ الناس يعظمونه كثيراً، هذا التعظيم يرفعه، وهو ليس في هذا المكان، لكنّ التعظيم الشديد رفعه إلى مكان ليس هو فيه، لكن الله سبحانه وتعالى لو أنّ كلّ الخلق سبّحوه، وعظّموه، وبجّلوه، فهذا التسبيح، والتعظيم، والتبجيل، لا يزيده علواً، فهو عليّ بذاته، فالإنسان يعلو بمديح الخلق، لكنّ الله سبحانه وتعالى عليّ بذاته، لا يزيده تسبيح عباده وتعظيمهم له علوّاً.

الإنسان يؤتيه الله أحياناً شيئاً من القوة، فكل من حوله يكون في خدمته؛ العلماء، الأطباء، والخبراء، كلهم في خدمته، يستعين بعقول من حوله، وأحياناً كل عقلك وذكائك لا يقدم لك الشيءَ الكافي في الحياة الدنيا، فأنت عالة على غيرك. فالإنسان له مستوى، فقد يمدحه المادحون، يعظّمه المعظّمون، يثني عليه الناس، يبالغون في الثناء، في المديح، في التعظيم، فيرتفع. هذا الارتفاع مفتعل. يعني ظهر بحجم أكبر من حجمه. هذا المعنى الذي يجري بين الناس لا يليق بالذات الإلهية فمهما عظمه الخلق، ومهما أثنوا على كماله لا يزيده تعظيمهم علواً ولا كبرياءً فهو عظيم بذاته.

فالله عز وجل عليّ بذاته، بينما الإنسان إذا علا فقد يعلو بعقول غيره، وقد يعلو بمستشاريه، لذا فالفرق كبير جداً بين علوّ الله عز وجل، وعلوّ البشر.

أحياناً الإنسان تحس أن له مهابة، فإذا تكلم كلمة واحدة سقط، الإنسان أحياناً يصغر بكلمة أو بسؤال وينكشف بتصرف ما، الإنسان قد يبدو كبيراً ثم يحجم، يقول لك سقط من عيني، هو بالأساس ساقط، لكن توهمت أنه كبير، فلما تكلم كلاماً غير معقول سقط.

يقال: إن ملكاً دخل إلى بستان مرة رأى حصاناً يدور حول بئر، وقد عصب صاحبُه عينيه، ووضع الجلجل في رقبته، استغرب الملك وسأل صاحب البستان: لم عصبت عينيه؟ قال: من أجل ألا يصاب بالدوار، ولم وضعت هذا الجلجل في عنقه؟ قال: إذا وقف أعرف أنه وقف، وما دام الجلجل يُصَوِّتُ فهو يدور، فقال هذا الملك:

فإذا وقف وهز لك رأسه وأوهمك أنه يدور؟ فأجاب هذا البستاني: وهل له عقل كعقلك؟!

وقال بعض العلماء: «إن علو الله تبارك وتعالى يرجع إلى واحد من ثلاثة أمور؛ إلى أنه لا يساويه شيء في الشرف والعزة، فيكون هذا الاسم من أسماء التنزيه، أو إلى أنه قادر على كل شي، والكلّ تحت قدرته وقهره، فيكون هذا من أسماء الصفات، أو إلى أنه يتصرف في الكل بقدرته فهو من أسماء الأفعال»فيمكن أن يكون اسم العلي من أسماء الصفات، ومن أسماء الأفعال، ومن أسماء التنزيه.

وقال بعض العلماء: «العلي؛ هو المتعالي عن الأنداد والأضداد»، للإنسان أنداد، هناك جراح قلب، وهناك جراحو قلب آخرون، اختصاص في الفيزياء النووية، قد يوجد خمسة على شاكلته ومن طرازه، لا يوجد اختصاص في الأرض إلا فيه أنداد. هذا يمثل مثلاً أكبر كتلة نقدية في القطر، وفي بلاد أخرى تجد من هو أغنى منه.

فالإنسان مهما علا له أنداد. مهما ارتفع له أمثال. لكنّ الله عليّ، أي: متعالٍ عن الأنداد والأضداد، لا رتبة فوق رتبته، وجميع المراتب منحطّة عنه.

بعض الأئمة قالوا: لا تفترض مرتبة شريفة إلا والحق جلّ جلاله في الأعلى، إذا شكرت فالله سبحانه وتعالى أصل الشكران، إذا سخوت فالله سبحانه وتعالى أصل السخاء، إذا تكرمت فالله سبحانه وتعالى أصل الكرم، أية صفة من صفات الكمال في بني البشر هي من الله عز وجل، هو أصلها، هو مصدرها.

قال بعضهم: الكون بكل ما فيه لا يزيد على أن يكون مؤثّراً، أو أثراً، أنا حينما أمسك ورقة وأمزقها، هذا الفعل مؤثر، وهذا المنظر أثر، الله عز وجل هو المؤثّر، والكون كلُّه أثر، والمؤثّر أقوى وأعلى وأعظم من الأثر.

فالله عز وجل واجب الوجود، وما سواه ممكن الوجود، وواجب الوجوب، هو «العليّ»، أمّا ممكن الوجوب فليس عليّاً، لأنه يمكن أن يوجد، ويمكن ألا يوجد، وإذا وجد يمكن أن يكون على ما هو عليه، أو على خلاف ما هو عليه.

والموجود إما أنّه كامل كمالاً مطلقاً، أو كمالاً نسبيّاً، فالله عز وجل كماله مطلق، إذا قلنا: الله عادل يعني منذ أول الخليقة، وحتى نهاية الدوران في كل العصور والأمصار، لا يمكن أن يظلم عصفوراً، ولا نملة، هذا معنى العدل المطلق، أما القاضي من بني البشر فقد يصدر ألف حكم، عشرة أحكام منها غير عادلة، ليس عن قصد، ولكن عن ضعف، ويُسمَّى عند الناس قاضٍ عادل، فهناك كمال مطلق، هو كمال الله وحده، و كمال نسبي، فالكامل كمالاً مطلقاً هو «العليّ» والذي كماله نسبيّ هو الأقل علواً.

قال بعض العلماء: «العلي؛ هو الذي استحق نعوت الجلالة والكبرياء، وبذلك التفسير لم يزل عالياً علياً».

النفس البشرية مفطورة على حب الأكمل. راقب نفسك؛ إن وُضعت لك عدّة حاجات لتختار أحدها فإنك تختار أجملها، وأحسنها. لو أن دفتراً أسطره مائلة تردّه. لو أن كتاباً ورقاته منثنية تردّه. فلو أن حاجة فيها نقطة تشويه تبدلها. هذه طبائع النفس البشرية. لذلك فهذه النفس البشرية، لا يرويها ولا يُسكِنها ولا يملؤها إلا الكمال المطلق. لذلك فالمؤمن إذا اتّجه إلى الله عز وجل، سكنت نفسه واطمأنّت أما غير المؤمن فلو أنه بنى بيتاً وظن أنه من أجمل البيوت، فإذا رأى بيتاً أجمل منه صغر بيته في عينه.

وبعد؛ فتبديل الأشكال والألوان والألبسة والمركبات وأنماط البيوت والحاجات والأثاث، هذا التبديل السنوي، أو الفصلي، سببه؛ أن الإنسان يحبّ الكمال. وكلما وصل إلى كمال، تاقت نفسه إلى الأكمل، وهو يلهث وراء الأكمل -المادي طبعاً- إلى أن يأتيه الأجل، وهو صفر اليدين من بضاعة الآخرة؛ لكنّه إذا عرف الله وهو في الدنيا؛ فالله سبحانه وتعالى هو الكمال المطلق، هو المطلق في كل شيء.

وإذا كان هناك شخصان؛ قوي وأقوى؛ تميل إلى الأقوى. انظر في مجلس فإذا وجد فيه رجلان؛ الأول أعلم من الثاني. أو أقوى منه، أو أغنى، ترى جميع الحاضرين يتّجهون إلى الأقوى، إلى الأغنى، إلى الأعلى، هذه طبيعة النّفس البشرية، لا تحب الكمال فحسب بل تحبّ الأكمل.

لأضرب مثلاً تفاحتان ناضجتان، ذواتا لون أصفر جميل، واحدة عليها مشحة حمراء، قيل لك: تفضل تأخذ ذات المشحة الحمراء، هذه طبيعة النفس؛ فلذلك يوجد فراغ لا يملؤه إلا معرفة الله، لا يُذهب هذا القلق إلا أن تركن إلى حفظ الله.

الإنسان مهما أخذ الاحتياطات، مهما سد الثغرات، يمكن أن يفاجأ من منطقة أمنه. من المنطقة التي أغلقها والتي ضبطها. ولكنه إذا توكل على الله، كفاه الله كل مؤنة. من توكل على الله كفاه، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها.

نصيب المؤمن من اسم الله (العلي)

من أدب المؤمن مع اسم «العليّ» لا أن يتخلق بهذا الكمال، فهذا كمال في الله، لكنّه في الإنسان نقص، فالمؤمن يتواضع لأنّه في الأصل فقير، جاهل، ضعيف، فإذا ادعى ما ليس له فهو يكذب، إذا ادعى ما ليس له فهو يغش الناس، فالمؤمن من شأنه مع اسم «العليّ» التواضع.

لذلك لمّا فتح النّبيُّ الكريم مكّة المكرمة دخلها مطأطئ الرّأس، حتى كادت ذؤابة عِمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل.

من شأن المؤمن أن يتواضع، لا أن يتعاظم، وقد قيل: اتّضع لا ترتفع، اتّبع لا تبتدع، الورع لا يتّسع.

ممّا لا يليق بالإنسان أن يقول: أنا قوي، أنا غني، أنا أحمل شهادة عليا، قل: أنا طالب علم، قل: الله وفقني، الله أكرمني، الله منحني، الله تفضل عليّ بهذا البيت، تفضل عليّ بهذه الزوجة، تفضل عليّ بهذه الخبرة، بهذه الشهادة، لأن أدب المؤمن مع هذا الاسم «العليّ» أن يتواضع لله تعالى.

يروى أن سيّدنا عمر لما تولّى الخلافة، قال: أيّها الناس إنّ النّاس خافوا شدّتي، كنت خادم رسول الله، وجلوازه، وسيفَه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي وهو عني راضٍ والحمد لله وأنا بهذا سعيد، ثم كنت خادم أبي بكر، وجلوازه،

وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي وهو عني راضٍ الحمد لله كثيراً وأنا به أسعد، ثم آلت الأمور إليّ أيها الناس اعلموا أن هذه الشّدة قد أضعفت. وإنما تكون على أهل الفجور والعصيان، أما أهل الإيمان والصلاح فأضع خدي لهم على الأرض ليطؤوه.

أيها الناس خذوا عني خمس خصال، لكم عليّ ألا آخذ من أموالكم شيئاً إلا بحقه، ولكم عليّ ألا أنفق من هذه الأموال شيئاً إلا بحقه، ولكم عليّ ألّا أجمّركم في البعوث، وإذا غبتم في البعوث (أي في الجهاد) فأنا أبو العيال حتى ترجعوا، ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم إن شاء الله تعالى، ولست خيراً من أحدكم، لكنني أثقلكم حملاً.

أرأيتم إلى التواضع؟ شأن العبد مع هذا الاسم التواضع، وأنت إذا تواضعت لله يرفعك الله.

لا بدّ أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لله، ومحبة له، وخوف منه، وهذا درس بليغ للدعاة، إن دعوت إلى الله فيجب أن تنوّع في خطابك الديني، بين التعظيم والحبّ والخوف.

الله عز وجل عليّ عظيم، أما الإنسان فمفتقر إلى الله عز وجل، وهناك درسان بليغان، درس بدر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

أي: مفتقرون، افتقاركم كان أحد أسباب انتصاركم، أما في حنين أنتم، أنتم وفيكم سيد الخلق قلتم: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة:٢٥].

يستنبط أنك أمام امتحانين، إذا قلت الله تولاك، ونصرك، وأيدك، ووفقك، وألهمك الصواب، ألهمك الحكمة، وإذا قلت أنا بعلمي، باختصاصي، بخبراتي المتراكمة، أنا ابن فلان تخلّى الله عنك، وأوكلك إلى نفسك، فأنت بين التولّي والتخلّي، تقول: الله يتولاك، فإذا قلت أنا تخلّى عنك.

قالوا: «حُكي أن رجلاً قال لمالك بن مغول: اتق الله -فبعض الناس إذا قلت له: اتق الله أخذته العزة بالإثم- لكن لما قيل لمالك: اتق الله، قال من شاهدهُ: فألصق خده بالتراب وقال: سمعاً وطاعة» اقبل هذا الكلام ولو كان من طفل صغير.

يُروى أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى؛ رأى طفلاً صغيراً أمام حفرة فخشي أن يقع الطفل فيها، فقال: احذر يا غلام أن تسقط فيها، وكان هذا الطفل من الفطانة بمكان، قال: بل أنت يا إمام إياك أن تسقط، إني إن سقطتُ سقطتُ وحدي، وإنك إن سقطتَ سقط العالم معك.

ومن ثمرات معرفة اسم الله العليّ أنه يحبك حين تحبّ معالي الأمور، أن تحب الله، لا أن تحب امرأة تموت في حبها، وتنسى ربك، أن تحب الآخرة لا أن تحب الدنيا، أن تحب رضوان الله لا أن تحب المال.

«إن الله كريم يحب الكرم ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها» [أخرجه الحاكم عن سهل بن سعد الساعدي].

فالمؤمن يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها ودنيها، كلام فارغ، مزاح رخيص، كلام لا يُقدم ولا يُؤخر، تفاخر بالآباء، بالأجداد، الحديث عن بيته، وعن زوجته، وعن أولاده المتفوقين، هذا لا يعني الناس، يعنيهم أن تعرّفهم بالله عز وجل.

الآن حظ آخر من حظوظ العبد مع هذا الاسم العظيم، قال: «ألا يتصور أن له علواً مطلقاً»، قال: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف:٧٦].

تروي الكتب: أن سيدنا موسى وهو نبي من أولي العزم، قال: ما في الأرض أعلم مني؟ فجاء سيدنا الخضر وعلمه دروساً كثيرة [انظر: السنن الكبرى للنسائي (٥٨١٣)، تفسير ابن كثير، الآيات ٦٠-٦٥ من سورة الكهف].

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الكهف:٦٦-٦٧].

سبحان الله، كلما قال الإنسان: أنا، يحجِّمه الله عز وجل! اعتقد؛ أنه فوق كل ذي علم عليم، فوق كل غني أغنى، وفوق كل قوي أقوى، وفوق كل عالم أعلم، هذا المعنى يجعلك متواضعاً.

لكن قال العلماء استثناءً: «هناك مرتبة ليس فوقها مرتبة على الإطلاق؛ وهي مرتبة النبي ﷺ»، سيد الخلق، وحبيب الحق.

قال بعضهم: «في بعض الأدعية: إلهي، أنت العلي المنزه عن الحدود، والجهات، المقدس عن الأوهام والخطرات، جعلت الشرف الأعلى لمن لجأ إليك، وأعطيت المقام الرفيع لمن توكل عليك».

كن مع «العليّ» ولا تكن مع الدنيّ، كن مع السّرمديّ ولا تكن مع الفاني، كن مع القويّ، ولا تكن مع الضّعيف، كن مع الرّحيم ولا تكن مع القاسي.

العظيم

من أسماء الله الحسنى اسم العظيم.

وقد ورد في القرآن الكريم منفرداً في قوله تعالى:

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحاقة:٣٣].

وقد ورد أيضاً مقترناً باسم الله العلي في موضعين.

الموضع الأول: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

أما الآية الثانية: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [الشورى:٤].

وقد ورد الأمر بالتسبيح باسم الله العظيم، قال تعالى:

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة:٧٤].

وقد ورد هذا الاسم في السّنّة المطهّرة في كثير من المواضع، من هذه المواضع ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ الله العَظِيمِ سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ».

وفي سنن أبي داود من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ قَالَ أَعُوذُ بِالله العَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ القَدِيمِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»

من معاني اسم الله (العظيم)

العظيم صفة مشبهة باسم الفاعل لمن اتّصف بالعظمة، الفعل عظُم يعظُم عظماً، يعني كبر واتسع وعلا شأنه وارتفع، ولفلان عظمة عند الناس أي حرمة يعظّم لها، وأعظم الأمر وعظّمه: فخّمه، والتعظيم: التبجيل، والعظيمة: النّازلة الشّديدة والملمّة الكبيرة، وعظمة العبد: كبره المذموم وتجبُّره، وإذا وصف العبد بالعظمة فهو ذمّ لأن العظمة لله في الحقيقة، وعند البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوْ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»

وأية أمة أرادت أن تبني مجدها على أنقاض الشعوب، وادّعت العظمة والكبر والاستعلاء والاستكبار والتغطرس، فمصيرها الهلاك كقوم عاد: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥].

عاد تفوقت في البنيان: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الشعراء:١٢٨].

وهؤلاء القوم بظاهر الآية تفوقوا في الصناعة إن صحّ التعبير: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء:١٢٩].

وهؤلاء القوم تفوقوا في الناحية العسكرية، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

وهؤلاء القوم تفوقوا في الناحية العلمية، قال عز وجل: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت:٣٨].

الحقيقة أن قوم عاد نموذج للأقوام المستعلية، فقوم عاد تفوقوا في شتى المجالات: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر:٦-٨].

وما أهلك الله قوماً إلا وذكرهم أنه أهلك من هو أشد منهم قوة إلا عاداً حينما أهلكها قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥].

إذا اشترك شيئان في قاسم مشترك، ورجح أحدهما فنسمي الراجح عظيماً. نقول: هذا جسمٌ عظيم... أي: له أبعاد... له طولٌ أطول، وعرضٌ أعرض، وعمقٌ أعمق.

ويمكن أن نقول: فلانٌ عظيمٌ في العلم، أي: يتمتع بعلمٍ غزير، ونقول: فلانٌ عظيمٌ في المال، وفلانٌ عظيمٌ في الملك، وقد نقول: عظيمُ القريةِ أي سيِّدها، والعظيم مشتقٌّ من العظم... والعَظْمُ؛ هو الضخامة والعزُّ والمجد والكبرياء، فالشيءُ العظيم هو الشيءُ القوي، الشيءُ الضخم، الشيءُ العزيز، الشيءُ الماجد، ذو الكبرياء.

أما إذا قلنا: إنَّ الله سبحانه وتعالى عظيم، فمعنى ذلك: أنه عظيمٌ في وجوده. فالجبل موجود، والبحر موجود، والسهل موجود، والإنسان كذلك موجودٌ، والحيوانات موجودة، والنبات موجود، لكن هذه الموجودات جميعاً سبقها عدم، وسوف تنتهي إلى عدم. أما إذا قلنا: إنَّ الله عظيمٌ في وجوده؛ فنعني أنه لا شيء قبله، ولا شيء بعده، هو الحيُّ الباقي على الدوام.

الفناء يتَّصف به الخلق، ولكنّ البقاء من صفات الخالق. الحداثة من صفات الخلق، أما القِدَمُ فمن صفات الخالق. أنت موجود والله موجود، وشتّان بين الوجودين،

فوجود الإنسان يسبقه عدم وينتهي إلى عدم، هو حادثٌ فانٍ، لكنَّ الشيء الأهم أنَّ وجود الإنسان مفتقر إلى شروطٍ لا يملكها، فمن منّا يملك استمرار وجوده؟! فقد قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر:٣٠].

وجود الإنسان متعلِّقٌ بشروط، لو منعت عنه الهواء يموت، لو منعت عنه الماء يموت، ولو منعت عنه الطعام إلى أمدٍ معلوم يموت، لو حرمته من الزوجة يختلّ توازنه، لو حرمته من الأولاد يشعر بالقلق، فوجود الإنسان قائم على غيره، على شروطٍ لا يملكها، لكنّ وجود الله سبحانه وتعالى ذاتيٌّ، لذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص:١-٢].

فشتّان بين الوجودين، فالله سبحانه وتعالى عظيمٌ في وجوده، عظيمٌ في علمه، عِلْمُنا في مكان ما، لا يمكن أن يتجاوز الجدران، ماذا يجري في الشارع؟ لا نعلم، ماذا في البيت؟ لا نعلم، علمنا محدود متعلِّق بالحواس الخمس، ومتعلِّق بالحواجز، لكنَّ علم الله سبحانه وتعالى مطلق تعلَّق بكلِّ ممكن فقد قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١٦].

علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون. فالله سبحانه وتعالى عظيمٌ في وجوده، عظيمٌ في علمه، عظيمٌ في قدرته، هو على كلِّ شيءٍ قدير، لا يعجزه شيءٌ في السموات ولا في الأرض.

تصور إنساناً ينضوي تحت ظلِّ القدير، هل يخشى قوياً؟ إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ يا ربِّ ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟

الله عز وجل عظيمٌ في وجوده؛ وجودهُ أزليّ أبديّ ذاتيّ. عظيمٌ في علمه؛ بكلِّ شيءٍ عليم... يعلم الظاهر والباطن، ما جلا وما خفي، يعلم دبيب النّملة السّمراء على الصّخرة الصّمّاء في الليلة الظّلماء، إنه بكلِّ شيءٍ عليم.

عظيمٌ في قدرته، فمثلاً بحسب علم الأطباء يقال لك: هذا مرضٌ عضال لا شفاء منه. الإنسان أحياناً يتوجَّه إلى الله عز وجل بالدعاء؛ فتقف هذه الخلايا التي تنمو نموّاً عشوائياً، وينحسر المرض، ويُظهر الله آياته... عظيمٌ في قدرته. عظيمٌ في قهره؛ سبحان من قهر عباده بالموت! قهر الجبابرة، قهر الطّغاة، قهر الذين نازعوه الكبرياء والعظمة.

عظيمٌ في سلطانه، فالله عزَّ وجلَّ سلطانه ممتدٌّ إلى أيِّ مكان، وفي أيِّ زمان ومع أيِّ مخلوق... مدير الدائرة، سلطانه على موظَّفيه في أثناء الدوام، أمّا إذا تغيبوا في البيت فسلطانه عليهم لا يزيد على أن يحسم من رواتبهم، أمّا سلطان الله على الإنسان فمختلف؛ فكلُّ أجهزته بيد الله، وكلُّ أعضائه بيد الله، كلُّ حواسِّه بيد الله، ذاكرته بيد الله، ودسَّامات قلبه، وكليتُه بيد الله، فإذا استيقظ الإنسان صباحاً، ورأى أنه قد سُمح له أن يعيش يوماً جديداً، وأنه معافىً في جسمه، فهذه نعمةٌ لا يعرفها إلا من فقدها، الكليتان تعملان بانتظام، جهاز الهضم بانتظام، البنكرياس يفرز الأنسولين، القلب ينبض ثمانين نبضة في الدقيقة، الدسَّامات في القلب لا تسمح للدم أن يرجع، فإذا رجع الدم إلى القلب فإن أجرة العمليّة الجراحيّة لإصلاح ذلك تكلِّف مبالغ طائلة، وقد تنجح وقد لا تنجح، وقد تُجرَى في القطر أو في خارج القطر، هذا إذا رجع الدّم إلى القلب، فمَنْ ضبط الدّسّامات؟ نحن تحت ألطاف الله عزّ وجلّ.

يقولون: أصيب فجأةً بعمى ألوان... فتجده على إشارة المرور الحمراء ينطلق بسيارته بدلاً من الوقوف، فإذا أصيب الإنسان بعمى الألوان يمنع فوراً من قيادة السيارة، وما أكثر الأمراض، وما أكثر الخلل الذي يصيب بعض الأجهزة، أو بعض الأعضاء، فالله سبحانه وتعالى عظيمٌ في سلطانه.

أنت لكونك جسماً ونفساً تشعر أحياناً بانقباض، وأحياناً ينشرح صدرك، وأحياناً يضيق صدرك، أحياناً تتفاءل، وأحياناً تتشاءم، أحياناً يعرُوك الهمُّ، فإذا قصَّر العبد في العبادة ابتلاه الله بالهمِّ والحزن.

أحياناً تضعُف معنوياتك، تضعُف أمام عدوِّك، وأحياناً يقوِّيك عليه، جسمك بيده، ونفسك بيده، ومن حولَك بيده، وتجارتك بيده، وزوجتك بيده، وأولادك بيده... قال بعضهم: أعرف مقامي عند ربّي من أخلاق زوجتي، فقد تعاملك بلطف وحبّ، وقد يكون غير ذلك.

الله عظيمٌ في وجوده، عظيمٌ في علمه، عظيمٌ في قدرته، عظيمٌ في قهره، عظيمٌ في سلطانه، عظيمٌ في نفاذ حكمه... قد يتمنى الإنسان مثلاً مئات الحاجات والأشياء فلا تتحقق، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى فعالٌ لما يريد، إذا أراد شيئاً يقول: كن فيكون. كلُّ شيءٍ وقع أراده الله، وكلُّ شيءٍ أراده الله وقع، أي أنَّ هذا العظيم، أَيُنسى؟ أَيُنصَرَف عنه؟ أَيُعرَضُ عنه؟

أرى لزاماً عليّ أن أقول هذه الكلمة: لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله. وما أكثر النّاس الذين يعبدون عباداً لله من دون الله، إما أن تكون عبداً لله... فعبد الله حُرّ، وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم!!

وأشدُّ الناس خسارةً من ربط مصيره بمصير إنسان، لأنَّ هذا الإنسان لا يملك له نفعاً ولا ضَرّاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولا رزقاً ولا عطاءً ولا حرماناً.

أرسل عدي بن أرطأة أحد عُمّال عمرَ بنِ عبد العزيز إلى سيّدنا عمر بن عبد العزيز رسالةً قال فيها: يا أمير المؤمنين إنَّ أُناساً قبلي قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالاً عظيماً، لستُ أقدر على استخراجه من أيديهم، إلا أن أمسَّهم بشيء من العذاب، فإن أذنت لي فعلته.

فقال هذا الخليفة الراشد: يا سبحان الله... أتستأذنني في تعذيب بشر؟ وهل أنا لك جُنَّةٌ من عذاب الله؟ وهل رضائي عنك يُنجيك من سخط الله؟ أقمْ عليهم البيِّنة، فإن قامت فخذهم بالبيِّنة، فإن لم تقُم فادعهم إلى الإقرار، فإن أقرّوا فخذهم بإقرارهم، فإن لم يُقرّوا فادعهم لحلف اليمين، فإن حلفوا فأطلق سراحهم، وايمُ الله لأن يلقوا الله بخيانتهم، أهون من أن ألقى الله بدمائهم [انظر المناقب: ١٠٣-١٠٤].

قيل: العظيم عظيمٌ لأنَّ العقول لا تصل إلى كنه صمديَّته. أحياناً يكون الشيءُ عظيماً، لكن يُحاط به علماً، وتُدْرَك أبعادُه، لكن إذا قلت: إنَّ الله عظيم... فإنّ العقول عاجزة عن أن تصل إلى كُنه صمديَّته، لذلك لا يعرف اللهَ إلا اللهُ، وليس هناك نبيٌّ بما فيهم سيِّد الأنبياء والمرسلين ﷺ عرف الله المعرفة المطلقة، إنّه ﷺ أعرفنا بالله؛ لكنَّ اللهَ لا يعرفه إلا اللهُ.

فالعظيم -كما قال بعض العلماء- هو الذي تعجز العقول عن أن تُدرك صمديَّته، وتعجز الأبصار عن أن ترى سُرادقات عزَّته.

الآن هناك نقطة عميقة المعنى جداً... من الممكن أن يحيط البشر إنساناً عادياً بهالةٍ عظيمة، فبعض شعوب آسيا المتخلِّفة يأتي كاهن من كهّانهم بطفلٍ فيسمونه إلهاً، ويحاط بالتعظيم، والإجلال، والإكبار والتقديس،... فصار هذا الطفل عند كبره إلهاً لهم، ويعظّمه الناس، فهو عظيمٌ لأنّ النّاس عظّموه، أما هو في ذاته فليس بعظيم، أما إذا قلت: إنَّ الله عظيم؛ فليس ذلك لأنَّ العباد عظَّموه، لكن؛ لأنه عظيمٌ في ذاته، هو مستغنٍ عن تعظيم العباد له، ففي الحديث القدسي:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فيما رَوَى عَنِ الله تَبَارَكَ وتَعالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُه، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بالليْلِ وَالنَّهارِ وأنا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جَميعاً، فاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يا عِبادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُم كانوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يا عِبادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذلِكَ مِنْ مُلْكِي شيئاً، يا عِبادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ قامُوا في صَعِيدٍ واحِدٍ فَسَأَلُونِي، فأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ

المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبادِي إنَّما هِيَ أعْمالُكُمْ أُحْصِيها لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاها، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ» [صحيح مسلم].

أحياناً لسبب ما يُحاط الإنسان بالتعظيم؛ يبدو للناس عظيماً، لكنَّ الله سبحانه وتعالى ليس كذلك، فهو عظيمٌ، سواء أعظَّمه الناس أو لم يُعظِّموه، أعرفوه أم لم يعرفوه، أقدَّسوه أم لم يُقدِّسوه.

فقد تجد إنساناً يقال لك عنه: هذا عظيمٌ في المال، أي: حجمه المالي كبير، اسأل وتحقق عن ماله فتجده مئتي مليون، أصبح محدوداً، أو يبلغ ماله ثلاث مئة، أو أربع مئة، أو ثمان مئة، أو ألف مليون، أو أربعة آلاف مليون، فقد تحدد الرقم، لكن إذا قلت إنَّ الله عظيم، العلماء يقولون: «لا حدود لعظمته».

عظمته لا نهائيَّة. وليس في الإسلام كلمة تُعبِّر عن هذا الإطلاق كقولك: الله أكبر. مهما عرفت من قدرته فهو أكبر، مهما عرفت من علمه فهو أكبر، مهما عرفت من رحمته فهو أكبر، مهما عرفت من سلطانه فهو أكبر، مهما عرفت من جلاله فهو أكبر.

وقيل: العظيم... هو الذي ليس لعظمته بداية، على مستوى البشر يقولون لك: فلان كان لا يملك شيئاً... الآن أصبح عظيماً بماله، وقد كان فقيراً، معنى هذا أن العظمة البشريّة لها بداية... فلان ملك، لقد كان جندياً في بداية أمره مثلاً، فلان دكتور من أساطين العلم، كان جاهلاً من قبل ذلك، فلهذه العظمة بداية، إذا قلت: إنَّ الله عظيم... فليس لعظمته بداية، ولا لجلاله نهاية.

وقيل: العظيم الذي لا تهتدي العقول لوصف عظمته، ولا تحيط بكنهه بصيرة. أي يستحيل أن تحيط بعظمة الله، من المعاني المهمة التي يمكن أن تفسَّر قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر:٥٥].

ما ذنب النبي ﷺ؟ وقد قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢].

وقد قال تعالى كذلك: ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [التوبة:١١٧].

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ ما الذنب الذي ارتكبه النبي؟! قال بعض العلماء: «هذه خاصَّةٌ برسول الله ﷺ، لأنه كلما عرف جانباً من عظمة الله، استحيا من المعرفة السابقة، وكلما ارتقت معرفته بالله، رأى أنه أذنب في حقِّ الله، حينما عرفه أقلَّ مما ينبغي».

إذا كنت مثلاً ولله المثل الأعلى.. تتصوَّر إنساناً يحمل شهادة جامعية، ثم تُفاجأ بأنه يحمل الماجستير، ظننته يحمل ماجستيراً ثم تفاجأ أنه يحمل دكتوراه، ظننته يحمل دكتوراه ثم تفاجأ بأنَّ له ثلاثين مؤلّفاً، وبعض هذه المؤلَّفات فريدة من نوعها في العالم، فكلما أدركت جانباً من علمه تكشَّف لك علمٌ لا تعرفه، إذاً أنت تشعر أنَّك مقصِّرٌ في معرفته، فربما كان ذنب النبي ﷺ، أنَّه كلّما تكشَّف له جانبٌ من عظمة الله عز وجل، شعر أنَّ معرفته السابقة هي ذنبٌ وقع فيه فلزمه الاستغفار جرّاء ذلك.

ما من مخلوقٍ من بني البشر إلا ما ندر إلا وهو يؤمن بالله، لكنَّ الإيمان الذي يُنجّي هو أن تؤمن بالله العظيم، إن آمنت أنه عظيم؛ استحييت أن تعصيه، وكبر عليك أن تعرض عنه، العبرة أن تؤمن بالله العظيم، إنك إن لم تؤمن بالله العظيم، لن تُطيع الله عز وجل، اسأل هؤلاء الناس الذين يعصون الله عز وجل ليلاً ونهاراً في كسب أموالهم، وفي علاقاتهم بالنساء، وفي عدوانهم على الآخرين، وفي انحيازهم لمصالحهم، اسأل هؤلاء الناس: ألا تؤمن بوجود الله؟ فستجده يقول لك: أعوذ بالله أنا مؤمن.

إذاً كيف تعصيه؟! لأنه ما آمن بالله العظيم... هو آمن بالله؛ لكنه ما آمن بالله العظيم، آمن بأنَّ لهذا الكون خالقاً، لكن ما آمن بالله العظيم، الإيمان بأنَّ لهذا الكون خالقاً؛ هذه ضرورةٌ فطرية، أما الإيمان الكسبيّ الذي يُبنى على جهدٍ بشريّ؛ هو أن تؤمن بالله العظيم، لأنَّ الإيمان بالله العظيم يحملك على طاعة الله العظيم، وأيُّ إيمان لا يحملك على طاعة الله لا يقدِّم ولا يؤخِّر، أرأيت إلى إبليس، أليس عنده شيء من الإيمان؟ فقد قال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الحجر:٣٩].

وقال في آية أخرى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص٨٢].

لكن هذه المعرفة وهذه الأقوال لم تغنه شيئاً، فقد عصى الله وكفر.

وأحياناً تجد راقصة تقول: إنّ الله قد وفّقها بأداء هذه الرقصة، إذاً فهي مثل إبليس تماماً ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ فهل هذا إيمان؟! هذا إيمان إبليسيّ، أي إنك إن آمنت أنَّ لهذا الكون إلهاً فهذا إيمان، لكن لا يرقى بك إلى السعادة؛ لأنَّه ما حملك على طاعة الله، كما أنَّ إبليس ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾؟!

وفي الآية الأولى ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ ولكنه ما آمن بالله العظيم، فلو أنه آمن بالله العظيم لخشع قلبه لذكر الله.

فالإنسان أحياناً يسأل يا تُرى حينما قال ربُّنا سبحانَه وتعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٣].

يا ترى لِمَ استحقَّ النار؟ لأنه ما آمن بالله العظيم؟ إن الجواب الشافي أنَّه حينما لم يؤمن بالله العظيم فقد هانَ أمر الله عليه، وعصى أمر ربِّه العظيم، فاستحقَّ النار على معصية، وعلى عدوان وعلى انحراف، وعلى إغواء، فإن لم تؤمن بالله العظيم، فلن تطيع الله عز وجل، فالعذاب في النار على المعاصي والآثام، وعلى البغي والعدوان، وهذه نتيجة جهل الإنسان قدْرَ ربّه.

نصيب المؤمن من اسم الله (العظيم)

إن رأيت عظمة الله عز وجل، تلاشت عظمة نفسك. فأحياناً تجد إنساناً يملك مركبة صُنعت في عام ألف وتسعمئة وثمانية وأربعين، فيها كل علّة، فلو رأى مركبة حديثة مصنوعة في عام ألفين وعشرة، ويبلغ ثمنها خمسة وعشرين مليوناً، فهل سيرى نفسه شيئاً بمركبته الأولى؟!

إذا كان يملك بيتاً مساحته مئة متر، تحت الأرض، ولا تدخله الشمس، ودخل إلى بيت مساحته أربع مئة متر، في أرقى أحياء المدينة، وله إطلالة جميلة جداً، وفيه كل أنواع الأثاث الفخم والتزيينات، فهل بعد ذلك يفتخر ببيته؟ ويتطاول قائلاً: بيتي. لا فبيته لا شيء إزاء ما رأى!!

إذا كان يخدم في الجيش، ويحمل رتبة وكيل العرّيف، ثم جلس مع لواء؛ فهل سيقول لك: أنا أخدم في السلك العسكري؟ وأنا وكيل عريف أم سيسكت؟ سيسكت قطعاً.

إذا كان معلماً في قرية، وجلس أمام دكتور في الجامعة، وهو أعلى أستاذٍ في الجامعة، وله خمسون مؤلّفاً، فهل يقول لك هذا المعلّم: أنا، وعلمي، وأقوم بالتدريس في القرية الفلانيّة، أم سيسكت؟ سيسكت بالطبع!!

بائع متجوّل قعد أمام عضو غرفة تجارة، وحجمه المالي ثمان مئة مليون فهل سيقول: أنا تاجر؟ ومثله ممرض أمام جرّاحٍ للقلب، والأمثلة كثيرة فالإنسان أمام خالق الأكوان هل يقول لك: أنا؟!

فهذا حال الفناء... إن رأيت الله عظيماً تلاشت ذاتك، فتجد المؤمن متواضعاً لأنه رأى عظمة الله، فلا يقول: أنا، بل تذوب أناه، يا رب! أنت العالم، ونحن الجهلاء، ربِّ! أنت القويّ ونحن الضعفاء، ربِّ! أنت الغني ونحن الفقراء، يا رب! نحن بك.

فأوّل أدبٍ يتأدَّبُ به المؤمن مع اسم الله العظيم... أنَّ الكبر والاستعلاء والغطرسة والاعتداد بالنفس يتلاشى، وحينما يتلاشى الكبر والاستعلاءُ والغطرسة والاعتداد بالنفس، يزيده الله عزّاً.

فهل تعتقدون أنَّ هناك في الأرض إنساناً أعزَّه الله، ورفع ذكره، وأعلى مقامه كرسول الله ﷺ؟ اذهب إلى المدينة المنورة في أي وقت، فهل من المعقول أن ترى جامعاً يتسع لثلاثة ملايين إنسان، جاؤوا من أقطار الدنيا؛ من باكستان وأمريكا والفلبين،

ومن أستراليا من الصين من الهند وغيرها، جاؤوا ليزوروا هذا الإنسان، فمَنْ هذا الإنسان وماذا أعطاهم؟ يقفون أمامه متأدبين يبكون، أنا لا أعتقد أنَّ في الأرض كلِّها إنساناً رفع الله ذكره وأعلى مقامه وأعزَّه كرسول الله ﷺ، وفي الوقت نفسه لا أعتقد أنَّ إنساناً افتقر إلى الله، وتذلل له، وتلاشى أمامه كرسول الله ﷺ.

فالقضية محيِّرة... كلما ازددت افتقاراً إلى الله، أعزَّك. كلما ازددت افتقاراً وتذللاً وتواضعاً، رفع الله لك ذكرك. النبيُّ ﷺ يُذْكَرُ كلما ذُكرَ الله في قولك: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، خمس مرات على مدار الوقت في الأرض كلها.

هل هناك إنسان أقسم الله عز وجل بعمره إلا رسول الله ﷺ: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر:٧٢].

أنت حينما تفتقر لله، حينما تتواضع، وحينما تقول: يا ربِّ! أنا لا أعلم، إنك أنت العليم، أنا ضعيفٌ، في رضاك قوتي، أنا فقيرٌ أغنني، أنا جاهلٌ علِّمني، أنا ضعيفٌ... أنا أضعف خلقك، يا ربِّ أنت الكريم العظيم... يزيدك الله عزّاً.

الأدب الذي ينبغي أن تتأدَّب به مع اسم الله العظيم، أن تشعر بالفناء أمامه. لذلك إن رأيت إنساناً متغطرساً، متكبِّراً معتدّاً بذاته يقول لك: أنا فهو هباء لا يساوي شيئاً... إنَّك لم تؤمن بالله العظيم، لو آمنت بالله العظيم لتلاشت ذاتك، ولضعُفت قواك، ولذلَّت نفسك، وسبحان الله... هذه العلاقة المعكوسة... كلما ازددت تواضعاً، زادك الله عزّاً.

في الأرض كلها ما من فاتح على الإطلاق دخل مدينةً، نكَّلت به سابقاً، وناصبته العداء عشرين عاماً، إلا ويدخلها متغطرساً، متكبِّراً متعجرفاً... فتيمورلنك دخل إلى الشام؛ فأمر أن يُبنى هرمٌ من جماجم الناس، خمسون ألف رأسٍ صفت من رؤوس البشر بعضها فوق بعض، في المكان المسمى الآن برج الروس. ليس هناك غازٍ دخل بلدةً إلا واستباحها، دخل متعجرفاً متغطرساً، إلا النبي ﷺ دخل مكَّةً فاتحاً، وإن عثنونه -لحيته- ليمس واسطة الرحل، تواضعاً لله عز وجل [السيرة النبوية لابن هشام].

مع كل إنجازاتك قل: هذا من فضل ربي، قل: الله وفَّقني، الله أكرمني، الله سمح لي أن أتكلَّم عنه، الله أطلق لساني، الله أعانني على طاعته، أعانني على تربية أولادي، أعانني على كسب رزقي، أعانني على الاستقامة، هذا واقع، مَنْ قدوتك بهذا؟ سيدنا يوسف فقد قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف:٣٣].

قد تجد إنساناً ذا شخصيةٍ مرموقةٍ جداً، يقع في شِراك امرأةٍ لا تساوي واحداً بالألف من زوجته!! ويذل وتلوكه الألسن ويعاديه أولاده، ويصبح في الوحل، أين مكانته؟ وأين عقله؟ وأين شخصيته؟

إذاً القضية أن تتأدَّب مع الله بالافتقار إليه، إذا كان الله عظيماً، ينبغي أن تتلاشى نفسك وتفنى. وأوضح مثلٍ على ذلك الصحابة الكرام؛ ففي موقعة بدر قال تعالى عنهم: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران١٢٣].

أذلَّة في العدة والعدد، ثلاثمئة رجل فقط من الصحابة، وقريش القبيلة العريقة القوية، الأبطال الصناديد، الفرسان، والأسلحة، السيوف الخيول... ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾.

أما في حنين... فقد كان أصحاب النبي ﷺ عشرة آلاف، أقوياء عُدّة وعدداً، فقالوا: لن نغلب اليوم من قلةٍ فقال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة:٢٥].

خطيب من نوادر الخطباء ألقى خطبةً في يوم جمعة، رائعةً جداً، ثم نزل ليصلي بالناس، فبعد أن قال: الله أكبر... نسي الفاتحة. فالله قد يُنسيك... ينسيك أهم شيء في الخطبة، أو في الصلاة، فاحذر أن تقول: أنا.

لذلك فالمؤمن الصادق إذا أقدم على عمل يقول: اللهمَّ! إني تبرَّأت إليك من حولي وقوَّتي وعلمي، والتجأت إليك بحولك وقوَّتك وعلمك يا ذا القوة المتين.

لا تؤثرْ شيئاً على طاعة الله، لا تؤثرْ شيئاً على مجلس علم، لا تؤثرْ شيئاً على عمل صالح، على أداء صلاة.

يقول الفضيل بن عياض: «عالمٌ عاملٌ معلِّمٌ يُدعَى كبيراً في ملكوت السماوات. هو بنظر نفسه فقيرٌ جداً، أما في السماء فعظيم».

فأنت قد تكون موظفاً من الدرجة العاشرة... كاتباً...، مراسلاً، موظفاً بسيطاً قد تكون عَلَماً في السماء، قد تكون عند الله عظيماً، وعند الناس قد تكون شخصاً مغموراً، لذلك روي عنه ﷺ: «ابتغوا الرفعة عند الله» [ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق، عن أبي هريرة].

أجل، عند الله؛ لأنَّ مراتب الله عز وجل؛ تنفعك بعد الموت، لكنَّ مراتب الدنيا تفنى عند الموت، فقد يكتبون في النعوات مثلاً... الطبيب الفلاني، أو المهندس، أو عميد أسرتهم؛ فليكتبوا ما يشاؤون، لكنَّ العبرة أن يكون عند الله مقبولاً، أحياناً يكتب في النعوة أكثر من خمسين اسماً كما يكتب آل فلان وفلان وفلان... إلخ، يا ترى هل هو عند الله مقبول؟ إن لم يكن في طاعة الله، إن لم يكن قد عرف الله عز وجل؛ فأولئك هم صَغارٌ عند الله، فقد قال تعالى: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف:١٠٥].

روى الإمام البخاري أنَّ النبي ﷺ كان يدعو عند الكرب بهذه الكلمات:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ يَقُولُ: «لا إِلَهَ إِلا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ» [صحيح البخاري].

هذا دعاء النبيِّ ﷺ عند الكرب... وهذا الدعاء فيه علم... فكل شيء بيد الله، فهو القوي الغني العليم الرحيم الغفور التواب المنَّان.

لا إله إلا الله العظيم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب العرش العظيم.

وورد في الحديث القدسيِّ: عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ سبحانَهُ: الكِبْرِياءُ رِدائِي، والعَظَمَةُ إزَارِي، مَنْ نازَعَنِي واحِداً مِنْهُما القَيْتُهُ في جَهَنَّمَ» [سنن ابن ماجه].

أرسلوا مركبة فضائية وسمَّوْها المتحدّي -تشالنجر- وبعد سبعين ثانية أصبحت كتلةً من اللهب، وفي داخلها سبعة رواد فضاء وامرأة، هي قمة في العلم والتقنية ومراجعات قبل إطلاقها وعد تنازلي، وكلّ جهاز مزدوج، سموها المتحدّي... فمن تتحدّون؟ بعد سبعين ثانية أصبحت كتلة من اللهب.

وكلُّكم يرى كيف أنَّ قلاعاً صامدةً جبَّارةً، تهاوت كبيت العنكبوت!! وهناك غطرسة، إنسان فرد يرعب أمَّة بأسرها كما تسمعون في الأخبار، وأنّ واحداً فجّر نفسه فهزَّ الكيان كلّه، فالله عزَّ وجلَّ يقهر المتجبِّر والمتكبر.

عود على بدء، العظيم؛ قد لا تُدركه عامة العقول؛ لكنَّ بعض العقول تدركه، فقل لأحد الناس: ما الذرَّة؟ يقول لك: ذرَّة قمح، ذرة تراب. لا... الذرة؛ شيء كبير جداً، وهو موضوع في علم الفيزياء ذو تعقيد كبير جداً، كل عناصر الكون ذرّات، وهي تتكون من نويّة موجبة الشحنة، وجسيم سالب الشحنة -إلكترون- ومدارات يدور فيها هذا الإلكترون، الذرة: العقول البسيطة لا تحيط بها، أما جهابذة العلوم فتعرف عنها الشيء الكثير.

فالشيء العظيم هو الذي تعرفه بعض العقول... الذي تستحيل أن تحيط به كلُّ العقول.

الأثر الثاني... إن رأيت أنَّ الله عظيم؛ فينبغي أن تُعظِّم أمره، أن تعظِّم شعائره، أن تعظِّم كتابه، أن تعظِّم رسوله ﷺ، أن تعظِّم الذي آمن به، فالناس من يعظِّمون؟ الأقوياء والأغنياء أما المؤمن الضعيف، فيقولون لك عنه: إنه درويش، أي: مغفل، لكن المؤمن الراقي يعظِّم المؤمنين ولو كانوا فقراء، ولو كانوا ضعفاء، النبي سيد الخلق

يروى عنه: «اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! إلى مَن تكلني؟ إلى عدو يتجهمني، أم إلى قريب ملكته أمري؟ إن لم تكن ساخطاً عليّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك، أو تُحل عليّ سخطك ولك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة لا بك» [الطبراني في الكبير، عن عبد الله بن جعفر].

سيد الخلق ﷺ لما قدم الطائف سخروا منه وضربوه بالحجارة وكذَّبوا دعوته، وقال له أحدهم: يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الثاني: ألم يجد الله إنساناً غيرك يبعثه رسولاً؟! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، وهؤلاء هم عبد يا ليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير [السيرة النبوية لابن هشام].

إن رأيت أنَّ الله عظيم عليك أن تعظِّمه، تُعظِّم أمره، تعظِّم نهيه، تعظِّم كتابه، تعظّم نبيَّه ﷺ، تعظِّم المؤمنين، تعظِّم الذين يُلقون العلم على الناس، لا تستخفَّ بهم، لا تنهش أعراضهم، لا تُحقِّرهم، فتجد شخصاً يتلذذ إذا حجَّم إنساناً آخر له دعوة إلى الله، يظُنُّ أنه يفعل شيئاً عظيماً ويقول لك: صغَّرته. ففي الحقيقة هو الصغير، فلو أنه عرف الله لعظَّم أولياءه، فقد قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

فلو كنت راكباً في سيارة عامة وصعد إليها رجل له زيٌّ إسلاميّ أجلسْه مكانك وقف باحترام فأنت تعظِّم الدين ولا تعظِّم شخصاً، فإذا رأيت إنساناً له مظهر ديني، أو مكانة دينية، لا ينبغي لك أن تحقره وتصغّره هذا مما يعاقبك الله عليه، هذا الذي يقع في أعراض العلماء ممن صحت عقيدتهم ومنهجهم يذُمُّهم، يطعن بهم، يصغّرهم دون أن يبالي؛ فيعاقبه الله عقاباً شديداً لتماديه وتطاولِه.

فأولاً يجب أن تعظم الله، تعظم كتابه، ورسوله ﷺ وأمره ونهيه، وتعظِّم شعائره والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج:٣٢].

وكذلك أن تعظِّم القرآن فهو كتاب الله تعالى، وليكن في مكان عالٍ مرموق في البيت، لا أن تضعه في أماكن مبتذلة، تعظيم المصحف دليل تعظيمك لله. تعظيم الصلاة دليل تعظيمك لله. تعظيم الأمر والنهي دليل تعظيمك لله عزَّ وجلّ، هذا الموقف الثاني الذي ينبغي أن يقفه المؤمن حينما يؤمن بالله العظيم.

بعض العلماء تكلَّموا على أدب المؤمن مع الله العظيم، فذكروا أنَّ من غلب على عقله تعظيم الله عزَّ وجلَّ، خضع لهيبته، ورضي بقسمته، ولا يرضى غيره عِوضاً، ولا يُنازع له اختياراً، ويبذل في رضاه كلَّ مستطاع، لأنَّ من أدرك عظمة ربِّه، صغرت عنده الدنيا بما فيها، فإذا أهمَّه أمرٌ قال: يا عظيم.

في صحيح مسلم من حديث أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياها فأتى قومه فقال: أي قومِ أسلموا فوالله! إن محمداً ليعطي عطاء ما يخاف الفقر.

إن عظَّمت الله عز وجلَّ حقَّ التعظيم، يستوي عندك التبر والتراب، تبذل الشيء الكثير بلا وجل من أجل الله عزّ وجلّ.

وبعد فمن هم العظماء من العباد؟ أنبياء الله، وأولياؤه، والمؤمنون، هؤلاء هم العظماء... أما بيكاسو الرسام الفنان الذي بلغ ثمن لوحته مئة مليون. فليس عظيماً... لأن العظيم ينبغي أن يكون عند الله عظيماً فهناك رسّامون وأصحاب فنون، وملك الحديد في أمريكا، وملك الصلب، وملك البترول وغيرهم عظماء عند أهل الدنيا... لكن العظيم هو النبيّ، والعظيم هو الوليّ. والعظيم هو الذي آمن بالله عز وجل، هؤلاء الذين يستحقون أن تقول عن أحدهم: فلان عظيم.

وفي نهاية البحث فإني أنبه على معنيين اثنين، أن تتلاشى نفسك أمام عظمة الله، وأن تعظِّم أمر الله ونهيه وكتابه ونبيّه وأولياءه، وإذا كان لأحد من الناس دعوةٌ إلى الله عز وجل فلا ينبغي لك أن تطلق لسانك لتنال منه، وهذا من لوازم إيمانك بالله عز وجل.

هذه بعض المعاني التي تدور حول اسم الله العظيم، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علَّمنا وأن يُلهمنا الخير والرّشد.

الحميد

ننتقل الآن إلى اسم الله الحميد

وقد ورد في القرآن الكريم في كثير من الآيات، ورد مفرداً كما في قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج:٢٤].

وورد مقترناً باسم العزيز في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم:١].

وقد اقترن هذا الاسم باسم الغنيّ، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

واقترن هذا الاسم باسم الوليّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى:٢٨].

واقترن باسم المجيد، كما في قول الله عز وجل: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾ [هود:٧٣].

واقترن باسم الحكيم، في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت:٤٢].

وورد في السنة الصحيحة عند البخاري من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه أنه قال: «سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

من معاني اسم الله (الحميد)

«الحميد» صيغة مبالغة لاسم الفاعل، هذه الصيغة على وزن فعيل، وهذا الوزن يأتي بمعنى اسم المفعول فتقول: جريح أي مجروح، وحميد أي محمود.

وهذا الاسم مشتقٌّ من مادة الحمد، أما كلمة مادة، فهذه كلمة معجمية... أي المعجم مؤلَّف من مواد، فالحمد: حاءٌ، وميمٌ، ودالٌ، هذه مادة الحمد، فيها حَمِدَ، ويَحْمَدُ، وحامد، ومحمود، الحميد، هذه كلها مشتقات... فكلمة الحميد مشتقةٌ من مادة الحمد والحمدُ نقيض الذم، تحمده أو تذمُّه، الحمد متعلق بالكمال، والذم متعلق بالنقص، أنت بفطرتك تحمد الكامل وتذمُّ الناقص، فموطن الحمد الكمال، وموطن الذّمّ النّقص، فلأنَّ الله سبحانه وتعالى كاملٌ كمالاً مطلقاً فهو يُحمد، ولأن الإنسان المنحرف ناقصٌ فهو يُذمُّ، فالحمد نقيض الذّمّ، وعلينا ألا ننسى أنّ القرآنَ الكريمَ كلَّه مجموعٌ في الفاتحة، وأن مطلع الفاتحة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الفاتحة:٢].

إلا أن الحمد لله ربِّ العالمين... الحمد في هذه الآية مفروغٌ منه، ولكن بعض الناس ضلّت بهم السّبل فجعلوا الحمد لغير الله تعالى، وهذا بيان ذلك:

إنّ الإنسان يشرب كأس الماء، ويأكل الطّعام، ويأوي إلى بيت، ويلتقي مع أهل بيته، هذه نعمٌ لا يختلف فيها اثنان على وجه الأرض، فالجائع يأكل فيشعر أنّ الطّعام

نعمة، والعطشان يشرب الماء البارد فيرتوي ويشعر أنّ الماء نعمة، والمشرَّد إذا أوى إلى بيته يشعر أنّ المأوى نعمة، فهذه النعم لا يختلف عليها اثنان على وجه الأرض، ولكنّ أناساً عزَوا هذه النّعم إلى البقر فعبدوها من دون الله، وأناساً عزوها إلى الشمس، لكنّ الله سبحانه وتعالى هو صاحب الحمد: وإنّ الحمدَ هو الشيء الثابت، والقاسم المشترك، والشيء الذي لا يختلف عليه اثنان... ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

المنعم هو الله، فالحمد نقيض الذم، وقيل: الحمد والشكر لا فرق بينهما، والأصح كما يقول علماء اللغة: إنَّ الاختلاف في المبنى، دليل الاختلاف في المعنى... فالشكر غير الحمد.

قيل: الفرق بين المعنيين، أن الحمد يكونُ عن يدٍ وعن غير يد، أما الشكرُ فلا يكون إلا عن يد... ما معنى ذلك؟ أي إذا أسدى إنسان إليك معروفاً، أنت تشكره، أما إذا أسدى إنسان إلى إنسانٍ آخر معروفاً فأنت بفطرتك العالية تقدِّرُ هذا المعروف، فأنت تحمده، مع أن معروفه لم يصل إليك.

فنحنُ نحمدُ صاحب اليد، صاحب الإحسان، نحمدُ الكامل، أصابنا كماله أو لم يصبنا، ونشكرُ الذي أكرمنا، فالشكر متعلقٌ بنعمةٍ وصلت إليك، أما الحمد فمتعلقٌ بالكامل وصلت إليك نِعَمُه أو لم تصل.

وقيل: الحمد أعمُّ من الشّكر... فالحمد هو الشّعور المتغلغل في أعماق النّفس بالامتنان.

حدثني رجلٌ مُحسِن، فقال: طفل صغير أصيب بحادث وهو فقير، وهذا المُحسن أجرى له سبع عشرة عمليةً جراحية إلى أن استطاع أن يقف على قدميه، فهذا الطفل الصغير عرف أن هذا الإنسان هو المحسن، عبَّر عن شكره بشكلٍ لا يوصف لهذا المُحسن وهو طفلٌ صغير، فالأجدر بك أيها الإنسان أن تعرف قدر الله الذي أحسن إليك كلّ الإحسان.

وإني أرجو أن أكون صادقاً فيما أقول: أحياناً تشعر أنّ كلّ خلية في جسمك تحمد الله عز وجل، بل إن كُلَّ قطرةٍ في دمك تحمدُ الله عز وجل، تحمده على أن أوجدك، لو لم يوجدْك هل لك عنده شيء؟ أوجدك، وأمدّك، وهداك إليه، أراد أن يسعدك في جنةٍ إلى أبدِ الآبدين، لذلك آخرُ دعواهم أن الحمد لله رب العالمين... كما قال تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس:١٠].

إن لم يكن الحمدُ متغلغلاً في أعماقِ نفسك، وإن لم يلهج لسانك بالثناء على الله عز وجل ففي الإيمان خلل كبير، لأنك تقرأُ الفاتحة في اليوم زهاء ثلاثين مرّة، وفي كلّ مرّةٍ تقول: الحمد لله ربّ العالمين، فلا بدّ أن تستشعر هذه النعم، إذ أوجدك، وأمدّك، وهداك إليه.

هناك أُناسٌ في بعض البلاد في شرق آسيا يعبدون الجرذان، وأنت تعبد الله الذي خلق الأكوان، وزوّدك بمنهج واضح، والطريق تعرف نهايتها، تعرف ماذا بعد الموت، فالله جلَّ جلاله خلقك ليسعدك، فالحمد من ألزم لوازم المؤمن.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ قَاعِدٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ ضَحِكَ فَقَالَ: «أَلا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: «عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ، حَمِدَ اللهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ، كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ» [أخرجه أحمد في مسنده].

الإنسان أحياناً يشربُ كأسَ ماءٍ بارد... كان ﷺ تعظمُ عنده النعمة مهما دقَّت.. ولا بد من قول: الحمد لله، طريق سالكة، والكليتان تعملان بانتظام، والماء موجود، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

أقام إنسان بإحدى دول الخليج لفترة طويلة، وهي قصة قديمة، أراد أن يعود إلى بلده، لم يكن الطريق معبَّداً كما هو الآن، فضلَّ الطريقَ في الصحراء، ووجدوه على بُعد

خمسة كيلومترات، وقد مزّق بأظافره جلد وجهه من شدة العطش، ووجدوا زوجته وأولاده في المركبة ميتين.

قطرة من الماء تعدل الحياة، فأنت تشرب الماء الزلال، فإذا شرب الإنسان كأساً من الماء وقال: الحمد لله ربّ العالمين، فهذا من الإيمان... مرةً جاءه رسول من أذربيجان إلى المدينة فأراد الرسول أن يتنعَم بتناول طعام الغداء عند سيدنا عمر -وقد كان خيَّره- أتأكل مع فقراء المسلمين أم تأكلُ في بيتي؟ قال له: في بيتك. فليست هناك نسبة في نظر الضيف بين طعام عمر وطعام فقراء المسلمين! فإذا في بيته الملح والخبز فقط، فقراء المسلمين يأكلون اللحم الطيِّب، قال: يا أمَّ كلثوم ماذا عندكِ من طعام؟ قالت: والله ما عندنا إلا خبز وملح، قال: فأكل عمر وضيفه هذا الطعام وقال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا.

عن أبي عبدالرحمن البجلي قال سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم! قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال نعم! قال: فأنت من الأغنياء. قال: فإنَّ لي خادماً، قال: فأنت من الملوك [رواه مسلم موقوفاً].

لست مضطراً إلى أن تغسل كليتيك، ولست مضطراً إلى أن تغيِّر دساماتِ قلبك، وتدفع أجرة العملية مبلغاً طائلاً، فالسعادة عندما يكون الإنسان في صحة جيدة، وعنده قوت يومه.

لذلك ذات مرة سأل ملك وزيره وكان ملكاً جباراً قال له: مَن الملك؟ فقال الوزير: أنت. فقال له الملك: لا... الملك هو رجل لا يعرفنا ولا نعرفه له بيتٌ يؤويه، وزوجة ترضيه، ودخلٌ يكفيه. هذا هو الملك.

النبي ﷺ قال: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، آمِناً فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيا» [ابن ماجه، عن عُبيد الله بن محصن الأنصاري].

استيقظتَ فوجدتَ أنَّ أجهزة جسمك سليمة، قمت من فراشك، توضأت، وصليت إذاً أنت ملك، الله عز وجل سمح لك أن تعيش يوماً جديداً، عافاك في بدنك، أذن لك أن تذكره وتشكره.

فالحمد أعمُّ من الشكر... فالحمد يعني أن كيانك، ذرات جسمك، خلاياك، قطرات دمائك كلُّها تشكر الله سبحانه وتعالى:

وجدناك مضطّراً فقلنا لك: ادعُنا نُجبك.. فهل أنت حقّاً دعوتنا؟
دعوناك للخيرات أعرضت نائياً فهل تلقى من يحسن لمثلك مثلنا؟
فيا خجلتي منه إذا ما قال لي: أيا عبدَ سوءٍ أما قرأت كتابنا؟
أما تستحي منّا ويكفيك ما جرى؟ أما تخشى من عُتبنا يوم جمعنا
أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً إلينا وتنظر ما به جاء وعدنا

الحمد لله يجب أن يدخل في كيانك كلِّه، يجب أن يتغلغل في ذرات جسمك، في خلاياك، في قطرات دمك، لأن وجودك نعمة، وإمدادك نعمة، وهدايتك نعمة، وأنت نعمةٌ من نِعَم الله عزَّ وجل، وقد قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠].

حتى عندما يصلي الإنسان أية صلاة من الصلوات المفروضة فليحمد الله أن وفّقه لطاعته، فهذه نعمة.

أجل، الهداية نعمة، يقول الله عز وجل: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء:١٤٧].

أي حينما تؤمن وتشكر فأنت تحقق الهدف من وجودك، لأن هذا الكون مسخرٌ لكَ تسخيرين: تسخيرَ تعريف، وتسخيرَ تكريم، إنك إن آمنت حققت المعرفة، وإنك إن شكرت فهذا ردّ فعلك على التّكريم.

الحمد أن ترضى عن الله عز وجل، وقد قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [المائدة:١١٩].

قيل: الحزن خلاَّق، المصيبة تفتِّق العبقريّات، أمّا الرّخاء والنّعيم والطّعام والشّراب فإنه قد يؤدي إلى الخمول والقعود والجمود، فالإنسان يجب ألا يتألَّم من المصيبة، لعلّ المصيبة هي الباعث الحثيث إلى الله عزّ وجلّ.

فإنَّك لا تكون مؤمناً إلا إذا رأيت أفعال الله كلَّها تستحقُّ أن يُحمد عليها، أحياناً يكون الموسم ممطراً، والفواكه رخيصة، والجو لطيفاً، أحياناً غلاء، أو حرّ شديد، أو زلزال، أو فيضان، أو براكين، أو يذيق الله بعض الناس بأس بعض، أفعاله كلُّها يحمد عليها.

كن عن همومك معرضاً ... وَكِلِ الأمور إلى القضا
وابشر بخيرٍ عاجل ... تنسى به ما قد مضى
فلَرُبَّ أمرٍ مسخطٍ ... لك في عواقبه رضا
ولربَّما اتسع المضيـ ... ـق وربَّما ضاق الفضا
الله يفعل ما يشا ... ء فلا تكن معترضا
الله عوَّدك الجميـ ... ـل فقس على ما قد مضى

وبعد: فالحمد... هو الرضا، والحمد هو الجزاء، والحمد هو قضاء الحق، أن ترضى وأن تُجازَى وتكافأ وأن تقضيَ الحقَّ، هذا من معاني الحمد.

والمحْمَدَة... الخصلة التي يُحْمَد عليها الإنسان، وجمع محمدة محامد، والتحميد: هو حمد الله عز وجل بالمحامد الحسنة وهو أبلغ من الحمد، ومنه الاسم الشريف، محمَّد ﷺ، فهو النّبيّ المحمود الذي كثرت خصاله المحمودة.

فاسمه ﷺ مشتقٌّ من الحمد ووزنه مفعَّل، ومفعَّل صفة تلزم من كَثُرَ منه فعل ذلك الشيء فمحمَّد مفعَّل لأنه حُمِد مرّة بعد مرّة، كما تقول: كرَّمته فهو مُكرَّم، وعظَّمتُه فهو مُعظَّم، إذا فعلتَ ذلك به مراراً.

والتحميدُ... هو حمدُ الله أو كثرة الحمد، وفلان حَمْدَلَ، أي قال: الحمد لله، سَبْحَلَ، أي: قال: سبحان الله، حَوقَلَ، أي: قال: لا حول ولا قوةَ إلا بالله، دَمْعَزَ، أي: قال: أدام الله عزَّك، حَيْعَلَ، أي: قال: حيَّ على الفلاح، هلَّلَ، أي: قال: لا إله إلا الله، كَبَّرَ، أي: قال: الله أكبر، هذه صيغة النحت في اللغة العربية، الحَمْدَلَةُ هي أن تقول: الحمد لله رب العالمين.

وليعلم كلُّ مؤمن أنه لا بد من الابتلاء، فإن ساق الله لهذا الإنسان مصيبةً، وتلقَّاها بصبرٍ جميل، وقال: الحمد لله رب العالمين، نجح مئة على مئة، والصّبر يكون عند الصّدمة الأولى، لذلك المؤمن -لا سمح الله ولا قدَّر- لو ساق الله له مصيبة، لمجرد أن الله ساقها له يقول: الحمد لله رب العالمين.

الإمام الرازي يرى أن معنى الحميد وهو اسمٌ من أسماء الله الحسنى، هو بمعنى حامد، أي: لم يزل سبحانه بثنائه على نفسه، أي: يحمد نفسه، لماذا يحمد نفسه؟ طبعاً الإنسان لا يحقُّ له أن يحمد نفسه، لأنه ليس له هذه المرتبة، والمؤمن لا يتحدَّث عن نفسِهِ أبداً، سيدنا الصديق مرةً أثنى عليه بعض الأشخاص، فدعا دعاء رائعاً، قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهمَّ اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

والإنسان المؤمن الصادق لا يمدحُ نفسه أبداً، ولا يحبّ المدح، بل النّاس يمدحونه، أما أنت فلتتهم نفسك دائماً، كلما بالغت في اتّهامها كنتَ موفقاً أكثر، لكنّ الله يمدح نفسه ليعرِّفنا بذاته، ولكي نصل إليه، ولكي نُقبل عليه، ولكي نطمع في مغفرته، ولكي نطمع في عطائه، ويمدح نفسه كي نطمع في جنَّته، فالإنسان الضعيف الحادث الفاني الفقير الجاهل لا ينبغي أن يمدح نفسهُ، ولكن الله حميد بمعنى حامد، يحمدُ نفسه لخلقهِ، لكي يعرفوه يحمد نفسه لخلقه ليقبلوا عليه فيسعدوا بإقبالهم، ويحمد نفسه لخلقه ليتجهوا إليه، ويحمد نفسه لخلقه لينالوا من عطائه... قال الله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل:٦٠].

الإنسان أحياناً يلبس ثيابا لا تدلُّ على غناه، يرى شخصاً يتلوّى جوعاً يقول له: أنا معي اطلب ما تشاء، معي مبلغ كبير اطلب، وسأعطيك، فهل هو يفتخر بهذا القول؟! لا... بل يعرِّف هذا الفقير بأنه قادر على عطائه، فالله عز وجل... حميد، أي: حامد، يحمد نفسه لخلقه كي يعرفوه، وحميد بمعنى محمود، أي: محمودٌ بحمد نفسه وبحمد عباده له، فالله عز وجل محمود، يحمده الخلق كلُّهم.

وقال بعض العلماء: «الحميد هو المحمود، والله تعالى هو الحميد بحمده بنفسه أزلاً وبحمد عباده له أبداً، من قبل أن يخلق الخلق حمد ذاته، فلما خلق الخلق حمده خلقه».

العلماء: «اسم الحميد يرجع إلى صفات الجلالِ والعلوِّ والكمالِ منسوباً إلى الله عز وجل»، الله عز وجل له أسماء جلال، وأسماء كمال، أسماء جمال، وأسماء قهر، فالله عز وجل جبار، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٨].

ومن أسمائه الجميل واللطيف والرحيم، وهناك أسماء جمال، وأسماء جلال، وأسماء قهر، مثل المتعالي والعزيز والمتكبر، فهذا الاسم اسم الحميد منسوب إلى أسماء صفات الجلال والعلوِّ والكمال.

قالوا الحميد له معنى آخر: «الحميد هو مستوجِب الحمد ومستحِقُّه».

إذا دعيت إلى وليمة غداء، والطعام نفيس جداً، وعلى المائدة عشرون شخصاً، بعد أن تنتهي من الطعام من تشكر؟ هل تشكر الشخص الذي يجلس بجوارك؟ لا، فهذا مدعو مثلك، أم تبحث عن صاحب الوليمة الذي دعاك وتكلَّف وجاء بهذا الطعام النفيس ودعاك إليه؟ فمن حق الإنسان أن يشكر إنساناً مدعوّاً مثله، من هو المستوجِب الحمدَ في هذه الوليمة؟ إنّه صاحب الدعوة، لذلك الإنسان يسأل من الداعي؟ وعندما ينتهي يقول له: أكل طعامكم الأبرار، فهذا فيما بين الناس بعضهم بعضاً... فمن الذي يستوجب الحمد وحده؟ الله جلَّ جلاله لأنّ كلّ النِّعم من عنده.

قال العلماء: «هو مستوجِب الحمد ومستحِقُّه، وهو أهل الثناء بما أثنى على نفسه الذي يُحمد على كلّ حال».

هناك عبارة شهيرة: الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه.

يُحمد على كل حال، يُحمد على العطاء وعلى المنع، وعلى الرّفعة، وعلى الخفض، وعلى الإعزاز، وعلى الإذلال، يُحمد على كلّ شيء، وأُذكّر أن الله يُذِلّ ليُعزّ، ويُضِرُّ لينفع.

وقيل: «الحميد الذي وفقك لفعل الخيرات ويَحمدُك عليها»... هذا معنى مهم جداً... يُعينك على فعل الخير ويَحمدُك عليه.

وقد قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: إذا أراد ربك إظهار فضله عليك، خلق الفضل ونسبه إليك.

أعطاك مالاً وأَعْطَيتَ من هذا المال، وبعد هذا يحمدُك الله على إنفاقك، والمالُ منه.

ألا ترون في بعض الأحيان، حينما يأخذ الطّفل من والده ثمن الهديّة لأمه، ثم يعطيها لأمه، فنحن نشكر هذا الطفل على هذه البادرة الطيبة، ولكنّ المال من الأب، والأب أثنى عليه، أعطاه ثمن الهديّة وجعله يعطيها لأُمه، فإذا الأبُ يثني على ابنه.

لذلك إذا أراد ربك إظهار فضله عليك، خلق الفضلَ ونسبه إليك، أنت لك الطّلب فقط، يا ربّ! أضرع إليك أن توفقَني أن أدعوَ إليك، فالله تعالى يلهمك ويطلق لسانك، ويجمع الناس حولك، يجعل بعض الأفئدة تهوي إليك، فهذا فضل من الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

قال العلماء: «الحميد هو الذي يوفقُك للخيرات ويحمدُك عليها، ويمحو عنك السيئات ولا يُخْجِلك بذكرها»، أي ينسيك إياها... فهل أحد مبرأ من موقف ارتكب فيه

خطأً في زمانه؟ لو لم ينسه لاحترق كلّما ذكره، ولكنه بعد أيام ينساه، فالله عز وجل يُنسيك ويمحو عنك السيئة، ويغفرها لك، ثم ينسيك إياها، من أجل أن تُقبل عليه، هذا هو الحميد، وقيل: «الحميد... هو الحامد بنفسه، المحمود بحمده لنفسه، وبحمد عباده له».

قال ابن القيم: «فإنّه المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين وعلى خلق الرّسل وأعدائهم، وهو المحمود على عدله فى أعدائه كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه، فكلّ ذرّة من ذرّات الكون شاهدةٌ بحمده» [طريق الهجرتين وباب السعادتين ١/ ١١٣].

يُحمَد على معاصي العباد، فهناك شهوة مستحكِمة، أصبحت حجاباً بين العبد وربّه، فالله عز وجل يسمح له أن يطلقها كي يرتاح ثم يؤدّبه.

إذاً محمود على طاعات العباد، وعلى معاصيهم، وعلى إيمانهم، وعلى كفرهم، أعطاهم حرية الاختيار، المحمود على وجود الأبرار والفجار، كان من الممكن أن يكون الفجّار في كوكب آخر، أو في قارّة أخرى، أو في حقبة أخرى، لكن شاءت حكمة الله أن نجتمع معاً في كلّ العصور، لماذا؟ لأنّ الحقّ لا يقوى إلا بالتحدّي، ولأنّ أهل الحقّ لا يستحقّون العطاء في الآخرة إلا بصمودهم أمام أهل الباطل، فالمعركة بين الحق والباطل مستمرة، هذا قدرنا، يوم القيامة نحمد الله على أننا كنا في الأرض مع أهل الباطل، وقد تعبنا منهم، وأتعبونا، وضغطوا علينا، واحتلوا، واجتاحوا، وأساؤوا، وظلموا، وقهروا وكانوا سبب عودتنا إلى الله.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:٤-٦].

إذاً وهو المحمود على وجود الأبرار والفجار، والملائكة الأخيار، والمحمود على إرسال الرسل، ووجود أعدائهم.

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها اسم الحميد

هذا الاسم العظيم ورد في آياتٍ كثيرة... ورد في سورة البقرة... قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة:٢٦٧].

قد يعطي إنسانٌ شيئاً ما يكرهه أو تعافه نفسه لفقير، فثوابه معدوم، طعام لم يعد محبباً له، يرسله إلى فقير، أما إذا أعطيت طعاماً نفيساً أو أكلة محببة عندك لإنسان فقير، الله تعالى يقبل عطاءك ويُثيبك عليه، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ لا ينسى لك هذا المعروف.

«يا ابن آدم! مرضت فلم تعدْني؟ قال: يا رب! كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟! قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عُدْتَهُ لوجدتني عنده» [حديث قدسي رواه مسلم من حديث أبي هريرة].

أنت عندما تعطي شيئاً نفيساً لإنسان مؤمن، فقير، جائع، الله عز وجل ﴿ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾... يغنيك، ويحمدك على هذا العمل، لذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾.

وفي سورة هود: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود:٧٣].

إنّ أيّ إنسان دعا إلى الله، وبذل وقته، وماله، وصحّته، وطاقاته، لنشر الحقّ، فهل يضيِّعه الله عز وجل وينساه من فضله!،هل يُسلمه لأعدائه؟ يخزيه؟! لا، أبداً قالت خديجة لرسول الله ﷺ: فوالله لا يُخْزِيك الله أبداً [البخاري ومسلم، من حديث عائشة].

موقف السيدة خديجة أقوى دليل على الفطرة، إن هذه المرأة التي كانت زوجة النّبيّ ﷺ، حينما رأت من النّبيّ ﷺ الصّدق والأمانة، والعفاف، والطّهر، وخدمة

الخلق، كان ﷺ يَقرِي الضيف، يُعين الضعيف، يتصدَّق، يعين على نوائب الدهر، قالت له السيدة خديجة: فوالله لا يخزيك الله أبداً.

هذه الكلمة أرجو أن يُصغي إليها كلّ مؤمن... والله زوال الكون أهون على الله من أن يخزي مؤمناً، أنت آمنت به، واستقمت على أمره، وعاهدته، واصطلحت معه، وتسعى جهدك لطلب رضاه، تتحرى الحلال، تبحث عما يرضيه فهل يخزيك؟... لا والله... فوالله لا يخزيك الله أبداً.

تفاءلوا أيها المؤمنون، النبي ﷺ كان يحب التفاؤل، لا يحبُّ التشاؤم، الله جل جلاله لا يتخلَّى عن المؤمنين، لكن يؤدِّبُهم، يبتليهم، أما في النهاية فيكرمهم، ويعطيهم، الآية الكريمة التي يقشعر منها الجلد... قال الله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾ [الضحى:٥].

معنى ذلك أنك الآن في طور المعالجة، انتظر ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣ ﴾ [هود:٧٣].

الله حميد، ويحمدكم على عملكم، وهو حامد، أي: يحمد ذاته ويحمد خلقه، إذا أعطوا، وبذلوا، ونصحوا، ضحوا، والتزموا، وصبروا فإن الله يحمدهم، يحمدُ نفسه ليعرفوه، ويحمدهم ليذكروه، وهو محمودٌ في أفعالِه كلِّها.

في سورة إبراهيم قال تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ﴾ [إبراهيم:١].

هذا الصراط صراط الله عز وجل، الصراط المستقيم هذا يوصلك إلى العزيز الحميد، العزيز هو الذي لا ينال جانبه، العزيز القوي، العزيز الفرد الواحد الصمد، العزيز الذي لا إله غيره، يحتاج إليه كل شيء في كل شيء ويستحيل الإحاطة به،

عزيزٌ حميد... دقيق المعنى... هو عليٌّ عظيم وفي الوقت نفسه يكافئ على كلِّ معروف.

قد يكون شخصٌ عالي المقام ولعلوّ مقامه، ليس لديه وقت ليَعرف، ماذا قُدِّمَ له؟... أما ربُّنا عز وجل على علوِّ مقامه، وعلى عظمة ذاته، إنّ عباده إذا فعلوا معروفاً حمدهم عليه، إنه عزيزٌ حميد.

وفي سورة الحج: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحج:٢٤].

أصعب شيء أن تسدي إلى إنسان معروفاً، ثم تفاجأ أنَّ هذا الإنسان تنكَّر لك، وجحد فضلك، وأدار لك ظهر المِجَنّ قال مالك بن فهم الأزدي:

أُعلِّمه الرماية كلّ يومٍ فلما اشتدَّ ساعده رماني
وكم عَلَّمْتُه نظم القوافي فلما قال قافيةً هجاني
أعلمه الفتوّة كلّ وقتٍ فلما طرَّ شاربُه جفاني

فإذا تعامل الإنسان مع الله، لا تجد عنده مشكلة، لو تعامل مع قويّ، أو مع إنسان آخر، أحياناً يقول لك: أنا أخلصت له، وبذلت من أجله الغالي والرخيص، ومع ذلك كان لئيماً، وكان جحوداً، تنكَّر لي، أدار لي ظهره، لم يعبأ بي، وتخلَّى عني، فهذا شيء لا يُحتمل أن تُسدي إلى إنسان معروفاً، ثم يتنكَّرُ لك... ولقد قال الله تعالى: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أما إذا أقبلت على الله، فلن يضيِّعك... السيدة هاجر نادتْ زوجها سيدنا إبراهيم لما تركها وولده إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يُضَيِّعُنا [صحيح البخاري عن ابن عباس]، هذا هو شعور المسلم أنَّ الله لن يضيّع عبدَه، قال الله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحج:٦٤].

هذا معنى جديد، هو غنيٌّ عنّا، ومع أنه غنيٌّ عنا يعاملنا معاملةً نحمده عليها.

تجد إنساناً أحياناً يغتني، فيترفَّع، ويتأفَّف، ويستغني، وينسى أقرباءه الفقراء، وينسى جيرانه، فهو إذاً غنيٌّ غير حميد، أما ربنا عزَّ وجلَّ فهو غنيٌّ عنا، وعن عبادتنا، وعن طاعتنا، وعن ذكرنا، وعن ابتهالنا، ومع ذلك لا يعاملنا إلا بما نحمده عليه، الله هو «الغني الحميد. عزيز حميد، حميد مجيد».

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان:١٢].

هذه «غني حميد» عميقة الدلالة جداً... هو غنيٌّ عنّا ومع ذلك كاملٌ في معاملته، لا يعاملنا إلا معاملة نحمَدُه عليها.

في سورة سبأ قال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ:٦].

إنّ علينا نحن المسلمين أن ندقق النظر عند كلمة «عزيز حميد، غنيٌّ حميد، حميدٌ مجيد»، وندرك أبعادها وأثرها علينا، وفي سورة فاطر قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر:١٥].

آيات قرآنية فيها قوله تعالى ﴿الحمد لله﴾

حمد الله سبحانه وتعالى نفسه في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، من هذه المواضع: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ﴾ [الأنعام:١].

الآية الثانية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأعراف:٤٣].

وفي الحديث: «يا عبادي، كُلُّكم ضالّ إلا مَنْ هَدَيتُه، فاسْتَهدُوني أهْدِكم» [أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٣].

فما لم تتوجه إلى الله لمعرفة الحقيقة فلن تصل إليها، لأنّ هذه العين مهما تكن دقيقة لا قيمة لها من دون ضوء يتوسّط بينك وبين المرئي، وكذلك العقل كالعين تماماً لا قيمة له إطلاقاً دون وحي يعينك على فهم الحقيقة:

ومن هذه المواضع: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١].

جعل لك منهجاً، افعل ولا تفعل، هناك أحكام، لماذا يعيش المؤمن في سلام؟ لأنه يطبق الأحكام، في حياته حلال وحرام.

وفي آية أخرى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء:١١١].

علامَ حمد نفسه؟ حمد نفسه على عدم اتخاذ الولد، لأن اتخاذ الولد لا يؤكد صمدية الله عز وجل، الله صمد لا يحتاج إلى أحد، واتّخاذ الولد لا يؤكد صمديّة الله عز وجل، ولا يؤكد غناه عن خلقه، ولا يؤكد ملكه، ولا عبوديتنا له.

واتّخاذ الولد ينافي الألوهية، وينافي الربوبية، وينافي الصمدية.

وفي آية أخرى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم:٣٩].

أنت مجبول على حبّ وجودك، وعلى حبّ سلامة وجودك، وعلى حبّ كمال وجودك، وعلى حبّ استمرار وجودك، واستمرار وجودك يكون بولد صالح.

وفي آية أخرى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون:٢٨].

فالله فوق الأقوياء، فوق الظالمين، فوق الطغاة، والطغاة عصي بيده، وفي أي لحظة ينهيهم، ينتقم منهم، يكفّ شرّهم.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ [الزمر:٧٤].

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر:٣٤].

نصيب المؤمن من اسم الله (الحميد)

وبعد، مَن الحميد من العباد؟ قال العلماء: من استقامت عقيدته، واستقامت أخلاقه، وأعماله، وأقواله، وأفعاله.

من هو الذي يُحمد على عقيدته وعلى أخلاقه وعلى أعماله وعلى أقواله؟ هو النبيُّ ﷺ، رسول الله ﷺ هو من العباد الحميد، سمّاه الله محموداً، محمودٌ عند ربه، ومحمودٌ عند الخلق، ومحمودٌ عند نفسه، بعد النبي ﷺ يأتي الرُّسل والأنبياء والصدّيقون والأولياء والعلماء، كل واحدٍ منهم حميدٌ بقدر سلامة عقيدته، واستقامة أخلاقه، وصلاح أعماله، وسداد أقواله.

فأنت تُحمد على قدرِ سلامة عقيدتك، واستقامة أخلاقك، وصلاح أعمالك، وسداد أقوالك، فكلما ارتقيت في سلَّم الكمال تحمد على هذا الكمال، أي أنّ هناك علاقة طردية بين الكمال والحمد، من هو الحميد المطلق؟ هو الله عز وجل.

الإنسان كامل في ألف موقف، فتزِلُّ قدمه في موقف ويبقى عند الناس كاملاً، أما ربنا عز وجل فكماله مطلق... إذاً هو الحميد المطلق.

بعضهم يقول: «الحميد من العباد هو من حسنت عقيدته، وأخلاقه، وأعماله، وأقواله، من غير نقص ولا خلل».

قال العلماء: «لم تظهر خصائص اسم الحميد في العباد جليةً، واضحةً في فردٍ في الوجود، إلا النبي ﷺ».

وأجمل منك لم ترَ قطُّ عيني وأكمل منك لم تلد النساءُ

قال العلماء: الناس على أطباقٍ ثلاثة في علاقتهم بحمد الله عز وجل، العامة: يحمدونه على إيصال اللَّذات الجسمانية. أكل، وشرب، وبيت، وزوجة، ويقول لك: الله مفضّل علينا، العوام يحمدون الله على اللذائذ الحسية... والخواص يحمدونه على اللَّذات الروحانية. قرأتَ القرآن، وشعرتَ بتجليات وسكينة، أو صليت صلاة متقنة، شعرت أنك اقتربت من الله، تفتَّقت معانٍ لطيفة حينما قرأت القرآن... هؤلاء الخواص: يحمدونه على اللذات الروحانية إضافة إلى اللذائذ الحسية.

قال العلماء أيضاً: أما خواص الخواص المقربون يحمدونه لأنه أهلٌ للحمد. إما أن تحمده على نعمةٍ حسية، أو على نعمةٍ روحية، أو لأنه أهلٌ للحمد.

قالوا: أدب المؤمن مع الحميد سبحانه... هو أنَّه يمدح الله عزَّ وجلَّ دائماً، ويثني عليه، ويحمده على كل شيء.

ولنمعن النّظر بعد كلّ هذا الشرح فقد قال العلماء: «من حمد الله ولم يتحقَّق من هذه النِّعم حَمِدَهُ تقليداً، فهذا الحمد غير مقبولٍ منه»، ما الدليل؟ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٩].

هل تحققت من نِعَم الله؟ لذلك الحمد لا يقبل إلا إذا كان عن تحقُّق... فهل تحققت من نعمة الوجود؟ نعمة الإمداد؟ نعمة الهدى والرشاد؟ وإلا حمدك هو الحمد التقليدي.

أنا أحياناً أسأل إنساناً ملحداً أقول له: كيف صحتك؟ يقول: الحمد لله. وهو ملحد ينكر وجود الله، يقول لك: الحمد لله. هذا الكلام لا معنى له إطلاقاً، لا بد من أن تقول الحمد لله، وأنت متحقِّقٌ من نِعَم الله عَزَّ وجل... أوجدك وأمدَّك وهداك إليه.

لذلك كان النبيُّ الكريم ﷺ تعظم عنده النِّعمة مهما دقَّت.

الفرق بين الكافر والمؤمن كبير، فالكافر يشهد النّعمة وينتفع بها، والمؤمن يشهد المُنعم من خلال النِّعمة.

الفرق بين المؤمن والكافر، أنّ الكافر مع النعمة، أما المؤمن فمع المنعم، الكافر يستمتع بالدنيا، بيت فخم وأثاث جميل، وطعام طيب، كل شيء من أعلى مستوى، يستمتع بها أشدَّ الاستمتاع، هو مع النِّعمة، لا مع المُنعم، المؤمن مع المُنعم هذا هو الفرق، وهو فرق صارخ.

قال العلماء: ورد أنَّ داود عليه السلام قال لربه: يا إلهي كيف أشكرك؟ وشكري لك نعمةٌ منك عليّ. أي: إذا شكرتك هذه نعمة جديدة تضيفها إليّ، فقال الله عز وجل لهذا النبي الكريم: الآن شكرتني.

قال موسى: يا رب! كيف يستطيع آدم عليه السلام أن يؤدي شكر ما صنعته إليه؟ خلقته بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنّتك، وأمرت الملائكة، فسجدوا له؟ قال: يا موسى علم أن ذلك مني، فحمدني عليه، فكان ذلك شكراً لما صنعته إليه [البيهقي في الشعب عن الحسن].

إذا علمت أنّ هذه النعم من الله وشكرتهُ عليها، اكتسبت نعمة جديدة فقد شكرت الله عز وجل... روي في الأثر القدسي «ابن آدم! إنك إذا ذكرتني شكرتني، وإذا نسيتني كفرتني» [الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة].

آخر كلمة أقولها وأختم بها البحث: الشكر الحقيقي له ثلاثة مستويات، أول مستوى: أن تعرف أنَّ هذه النعمة من الله، هذا مستوى جيد، الأرقى منه أن تقابل هذه النعمة بامتنانٍ وحمدٍ بلسانك وقلبك، أما الثالثة أرقى وأرقى وهي أن تقابل هذه النعمة بعملٍ صالحٍ... والدليل: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ:١٣].

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأن يلهمنا الخير.

الوهاب

الاسم هو الوهّاب، فهبِ اللهمّ لنا من لدنك رحمةً تسعنا في الدّنيا والآخرة إنّك أنت الوهّاب.

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم مطلقاً، معرّفاً في ثلاثة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ ﴾ [ص:٩].

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ ﴾ [آل عمران:٨].

ولم يرد هذا الاسم في صحيح السُّنَّة.

من معاني اسم الله (الوهاب)

الوهّاب في اللّغة صيغة مبالغة على وزن فعَّال من الواهب، وهو المعطي للهبة، والفعل وَهَبَ، يَهَبُ، وهباً، وهبةً، والهبة عطاء بلا عوض.

بادئ ذي بدء، الإنسان عقلٌ يُدرِك وقلبٌ يُحِبُّ، بعقله يعرف الله، وبقلبه يحبُّه، وهذا الاسم كما يرى العلماء متعلّق بالحبّ، وقبل أن أشرح معنى الوهّاب لغةً واصطلاحاً أضرب مثلاً مُنتَزعاً من الحياة اليومية:

قد نتعرف إلى شاب فقير جداً يعاني من شظف العيش ومن خشونة الحياة، فلو أن إنساناً اختاره زوجاً لابنته، وابنته هذه مهذّبة متعلّمة مؤمنة طيّعة، ومنحه منزلاً ومتجراً ومركبة، ألا يمتلئ قلب هذا الشاب حبّاً وحمداً وشكراً لهذا الرّجل الذي أنعم عليه بكلِّ هذه النِّعم؟ هذا شأن الإنسان مع من أحسن إليه من العباد، فكيف إذا أحسن إليه ربُّ العباد؟!

«يا داود ذكّر عبادي بإحساني إليهم فإنّ النُّفوس جُبلَت على حبِّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها».

القصد من معرفة اسم الوهّاب أن تحبَّ الله عزَّ وجلَّ، لأنه لا إيمان لمن لا محبّة له، ليس الإسلام حقائقَ ندركها فحسب، بل هو حقائق ومشاعر، أن يكون العقل مُدرِكاً لوجود الله، ولعظمته، ولأسمائه الحسنى، وأن يكون القلبُ مفعَماً بحبِّ الله.

سأضع بين أيدي القرّاء الكرام هذه الحقيقة فأقول: إنّ الذي يحرّك الإنسان هو حبُّه أكثرَ ممّا يحرِّكه عقلُه، فالإنسان بدافع الحبِّ يقدِّم الغالي والرَّخيص والنَّفس والنَّفيس، بدافع الحبِّ يقدِّم كلَّ شيء، بدافع العقل قد يقتنع، وقد يعتقد، وقد يوقن، ولكنّه لا يتحرَّك.

لذلك فالدُّعاة إلى الله يجب أن يخاطبوا العقل والقلب في وقتٍ واحد، ربَّما إذا أحدثوا في العقل القناعة فهذا نصف النَّجاح، أما إذا أحدثوا في الإنسان، بالإضافة إلى قناعة العقل، موقفاً أساسه الحبُّ فهذا كلُّ النّجاح، أنت قبل كلِّ شيء إنسان ذو عقل ولك قلب، العقل إذا أعمَلْته في الكون عرفت الله، وإذا أدركت النِّعم الإلهية أحببته بقلبك، إذا أحببت الله فقد أحسنت التوجّه، لا يُسمى الإنسان إنساناً إلا إذا أحبَّ.

كنّا في الجامعة وقد أُحيل أحد الأساتذة إلى التّقاعد وأقيمت له حفلة طيبة وهو أستاذ علم النَّفس، قال هذه الكلمة ولا أنساها: «الإنسان الذي لا يشعر برغبة في أن يُحِبّ ولا يشعر برغبة أن يُحَبَّ فليس من بني البشر»، لا يمكن أن تُسمَّى إنساناً إذا كان قلبُك صخراً، أو إذا كان قلبُك جُلموداً.

إذاً لا بد من أن تُحِبَّ، الشّيء الذي يلفت النَّظر هو أنّ أصحاب النبي عليهم رضوان الله، لماذا فعلوا المستحيلات؟ لماذا باعوا أنفسهم ولماذا ضحّوا بكلّ شيء؟ أحدنا لو جُرحت يده أو إصبعُه لصاح ولضمّدها ولاعتذر عن لقاءاته ولأخذ إجازة... سيِّدنا جعفر بن أبي طالب تأتيه في غزوة مؤتة ضربة سيف تقطع يمينه فيُمسك الراية بشماله، تأتيه ضربة سيف أخرى تقطع شماله، فيمسك الرّاية بعضديه إلى أن يخِرَّ شهيداً، ما هذا الحبُّ الذي أدّى بصاحبه إلى التفاني ثم للشّهادة؟!

الخنساء قبل أن تُسلم ملأت الدّنيا صخباً وعويلاً على أخيها صخر، فلما حضرت حرب القادسيّة ومعها بنوها قالت لهم:

يا بنيّ أنتم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله غيره، إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، ولا هجّنت حسبكم، ولا غبّرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين واعلموا أنّ الدّار الباقية خيرٌ من الدّار الفانية، يقول الله عزَّ وجلَّ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:٢٠٠] فإذا أصبحتم غداً فاغدوا إلى قتال عدوّكم مستبصرين، ولله على أعدائه مستنصرين، فلما أضاء لهم الصّبح باكروا مراكزهم فتقدموا واحداً بعد واحد ينشدون الأراجيز، فقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً، فلما بلغها الخبر قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربّي أن يجمعني بهم في مستقرِّ رحمته، فكان عمر رضي الله عنه يعطيها أرزاق أولادها الأربعة لكلّ واحد منهم مئة درهم حتى قُبض وماتت الخنساء(١).

(١) ذكر الحافظ في الإصابة في ترجمة الخنساء عن الزبير بن بكار عن محمد بن الحسن المخزومي وهو المعروف بابن زبالة.. فذكر قصة الأبناء الأربعة، لكن الحافظ ذكر أن ابن زبالة أحد المتروكين، وقد نسب ابن جرير الطبري في تاريخه هذه القصة إلى امرأة من بني النخع.

زيد بن الدَّثِنَة وهو على مشارف القتل، صلبه المشركون في جذع نخلة، تمهيداً لرميه بالسهام، قال له أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد! أتحب أن يكون محمدٌ مكانك؟.. الكلام الشائع الآن: «ألف أمٍّ تبكي ولا أمِّي».. أنشدك الله يا زيد أتحبّ أن يكون محمدٌ عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟... قال: «والله ما أحب أنّ محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنّي جالس في أهلي» ما هذا الحبُّ؟ اقرؤوا تاريخ الصحابة أيها القرّاء الكرام تجدوا العجب العُجاب، تجدوا تضحيات لا توصف مصدرها حبُّ الله ورسولِه.

سيّدنا الصّديق وهو خليفة رسول الله، من أعماله الطّيبة أنّه كان يحلب شياه جيرانه، يبدو أنه قد توفي الزوج وليس عندهم من يرعى شؤونهم، فكان يقوم يومياً بحلب شياههم، فلما صار خليفة ظنّ الجيران أنه سينقطع عن هذه الخدمة، وفي اليوم التالي طُرِقَ الباب وفتحت البنت، قالت الأم: يا بنيتي من الطارق؟ فقالت البنت: يا أمي جاء حالب الشّاة.... ما هذا؟ رئيس دولة، خليفة رسول الله... الذي ظهر من أعمال الصّحابة شيء لا يصدّق، كأنّه الأساطير، أساسه الحبُّ، لأنّهم أحبُّوا الله عزَّ وجلَّ ورسولَه.

وأنا أقول لكلِّ قارئ كريم: الذي يبذل ويضحّي ويقف عن حدود الله ويتجشّم المشاقَّ في سبيل الله فالذي حرّكه هو الحبُّ، والذي يُسعِده هو الحبُّ، فلن تسْعَدَ إلا إذا أحببت الله عزَّ وجلَّ، والله -سبحانه وتعالى- بابه مفتوح.

هناك شخصيات يُفتح بابها لأناسٍ دون أناس، يقبلون أناساً ولا يقبلون آخرين، يُستَرَضَوْن وقد لا يَرْضَون، ولكنّ الله سبحانه وتعالى بابه مفتوح لكلّ الخلق فقد روى الترمذي بسند حسن من حديث صفوان بن عسال رضي الله عنه أنه قال:... فما زال يحدثنا- يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم- حتى ذكر باباً من قِبَل المغرب مسيرة عَرْضِه، أو يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين عاماً -قال سفيان قِبَلَ الشام- خلقه الله يوم خلق السماوات والأرض مفتوحاً -يعني للتوبة- لا يغلق حتى تطلع الشّمس منه.

إذ تأملنا في اسم الوهّاب بحسب فطرتنا وبحسب جبلّتنا فالقصد أن يمتلئ قلبنا حبّاً لله، فإذا امتلأ قلبنا حبّاً لله رأينا من معاملة الله لنا، ومن تجليه على قلوبنا، ومن التوفيق، ومن السَّداد، ومن الرّشاد ما نعجز عن بيانه، ورأينا من الشّعور بالتّفوق، ومن الشّعور بالفلاح ما لا سبيل إلى وصفه.

إذاً الإيمان أساسه الحبُّ، فلا إيمان لمن لا محبّة له، هذا القلب متى يضطرب؟ من علامة المؤمن أنه إذا ذُكِرَ الله وَجِل قلبُه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال:٢].

هذا من علامة القلب المؤمن بربه، فالإنسان لا يجامل نفسه ولا يتملّق نفسه، بل يتعهد قلبه ويتفحّصه، ويسأل نفسه السؤال الحرج، أنا مَن أُحِبُّ، دائماً دعوى الحب كثيرة فكلٌّ يدّعي وصلاً بليلى، ولما كَثُر مدّعو المحبّة طالبهم الله بالدّليل، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران:٣١].

نحن غارقون في النّعم، لاحظ نفسك لو ركبت سيّارة عامّة وبجانبك صديق دفع عنك أجرة النّقل، فإنّك تشكره وتبالغ في شكره وتخجل، وقبل أن تنزل تدعوه إلى البيت، لأنّه دفع عنك مبلغاً يسيراً، لو أنّ إنساناً قدّم لك هديّة فإنك تذوب خجلاً أمامه، تعبّر عن امتنانك وعن شكرك وعن محبّتك وتعده بزيارة، وتدعوه إلى بيتك لأنّه قدّم لك هديّة، هكذا النّفس البشريّة.

فما الفرق بين المؤمن والكافر؟ الكافر يبقى في النّعمة ومع النعمة حبيساً، لكنّك تجد المؤمن ينتقل منها إلى المُنعِم[1].. أيُعقل أن تدخل إلى بيت وأنت في حال جوع شديد وترى طعاماً شهياً؛ ألواناً منوعةً، أطعمة فاخرة، مقبّلات، طعاماً من الدرجة الأولى،

---

(١) حين خاطب الله بني إسرائيل قال: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ﴾ [البقرة:٤٧]، وحين خاطب هذه الأمة قال: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ ﴾ [البقرة:١٥٢].

ومن بعده الحلويات والفواكه، وتأكل بنهم ثم تنتهي من الطعام وتتجه نحو الباب وتخرج، أهكذا شأن الإنسان؟ لاحظ نفسك لو أن أحداً دعاك إلى طعام فقبل أن تنتهي من الطعام تقول له: «أكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة» ثم تقول له: نعمة دائمة، أو أكرمتنا أكرمك الله، وأسأل الله أن يديم عزَّك وأن يبارك فيك وأهلك، تتفنَّنُ بالعبارات شكراً وامتناناً، وتذوب استحياء... لماذا إذا جاءتك نعمة من إنسان تذوب استحياء؟ وإذا أنعم الله عليك بنعم لا تُقدَّر تبقى صامتاً غافلاً!!!

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ [البلد:٨].

ترى ابنك الصغير، ترى أهلك، ترى إخوانك، ترى الغابات، ترى الأشجار، ترى الأزهار، ترى مَن تحب، ترى معالم الطبيعة، ترى الألوان، ترى الأشخاص، تسير في الطريق مرتاحاً مطمئناً، الطريق واضحة أمامك، تقرأ، تطَّلع، تُطالع، تنظر، تستمتع: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ [البلد:٨-٩].

تتكلم وتعبّر عن مشاعرك وعن أحوالك وعن قناعاتك، تقول: قرأت اليوم مقالة كذا، تعبّر عن تفسير آية، عن قصة ممتعة، تتصدّر المجالس، تتحدّث مع أهلك وأولادك.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

علمونا في الجامعة في كلية التربية أن الإنسان حينما يولد لا يملك إلا منعكساً واحداً، منعكس المصّ، صُنعَ الله الذي أتقن كلَّ شيء، لو فرضنا أنّ أحدهم مسَّته جمرة لِفافة تبغ، فإنّه يسحب يده قبل أن يفكر، فإذا جاء تنبيه عصبيّ بالحرارة فالأمر لا يأتي من الدماغ بل من النّخاع الشوكيّ، هذا يسمونه المنعكس الشرطيّ، فالإنسان حينما يولد ليس لديه إلا منعكس شرطيّ واحد، ولولا هذا المنعكس لما كنّا، ولما عاش إنسان، فلمجرد أن يولد الطِّفل يُعطى ثدي أمه يضع شفتيه على ثديها، يُحكِم شفتيه على حلمة الثدي، ولو سمح للهواء أن يمرّ لما استطاع الرَّضاعة، لا بدّ من إحكام شفتيه على

حُلمة الثدي، وبعدئذ يسحب الهواء، هذا منعكس معقّد جداً، حينما يولد الإنسان تجده مزوّداً بهذا المنعكس.

وما سوى ذلك من المنعكسات والمفهومات لا وجود له في هذه الفترة، يصف الطفل الصغير كل رجل أنه أبوه، بعد حين يقول: عمو، فصل أولاً بذهنه بين مفهوم الوالد ومفهوم العم، أول فترة كلُّ رجلٍ أب، وبعد ذلك يظهر عنده مفهوم الرّجل، ثم يفصل مفهوم الرّجل عن مفهوم العمّ والوالد، كيف تنشأ هذه المفاهيم؟ يقول: شجرة فيتصوّر الطّفل معنى الشّجرة، لا يتصوّر برتقالة ولا جوزة، يتصوّر مفهوماً مجرداً، لو تتبّعنا كيف تتشكّل في الدماغ المفهومات والمصطلحات؟ كيف يتعامل الإنسان ويفكّر؟ كيف يتعامل بالرّموز؟ عالم قائم بذاته!!

مئة وأربعون مليار خلية سمراء في الدماغ لم تُعرف وظيفتها بعد، فالدّماغ عاجز عن فهم ذاته، فالفرق بين المؤمن والكافر أنّ المؤمن ينتقل من النّعمة إلى المُنْعم، وغير المؤمن من الكفار والفُسَّاق والفُجّار يستمتعون بالنعم أعلى استمتاع، ولكنهم غفلوا عن المنعم، وغَفْلَتُهم عن المُنعم سوف تودي بهم إلى النّار إلى أبد الآبدين، أما المؤمن فيفكر من أين هذه النعمة، كل امرئٍ متزوج يدخل إلى بيته فيلقى زوجة لها مشاعر ولها تفكير، يجد الطعام جاهزاً والبيتَ نظيفاً هذه هبة من الله عزَّ وجلَّ لا تُقدَّر بثمن.

الإنسان في ساعة غفلة يقول: أنا تزوجت، وأنا تعبت وسعيت بكدّ يميني، وعرق جبيني، وأسَّست هذا البيت وفرشْته، وجمعت مهراً، اخترت فلانة، كلها نِعَم يراها ولا يرى المنعم، فهذه هي الغفلة عن الله عزَّ وجلَّ، هذه الزوجة هدية قدَّمها الله لك، وهذا الطفل الذي يملأ بيتك سروراً وسعادةً مَن جعله بهذه النفسيّة اللطيفة؟ مَن جعله بريئاً؟ لو كان الطفل الصغير يتعامل معك تعاملَ الكبير فلن تحبَّه، إذا تكلمت معه كلمة، خاصمك شهراً.. لكنّك قد تؤنّبه وتوبّخه وبعد قليل يُقبل عليك ويُقبِّلك، من جعل الطفل بهذه النفسيّة من الصّفاء وبهذه الذاتيّة الشفَّافة، مَن جعل الطفل بهذا الحبِّ والهاً قلبُه بأمّه وأبيه؟ إنّه الله عزَّ وجلَّ، إنّه الوهّاب. وفي الحديث الشّريف:

«إن أولادكم هبة الله لكم، هدية الله لكم، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ، فهم وأموالكم لكم إذا احتجتم إليها» [البيهقي عن عائشة].

وفي القرآن الكريم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام:٨٤].

أيّ إنّ الابن هبة من الله عزّ وجلّ فإذا كان صالحاً فهذه نعمة بالغة.

في مجال علم النفس أجريت تجربة مفادها أنّ حياة الإنسان النفسيّة أساسها الدّماغ، هكذا يقول العلماء، فوجدوا طفلاً دماغه سائلٌ، حالة نادرة، فصار يبكي فلما جاءت أمه سكت، معنى ذلك أن في الإنسان نفساً، هذه النفس حتى الآن لا يستطيع أحد أن يكشف حقيقتها، أساساً «الإنسان ذلك المجهول» عنوان كتاب شهير محوره: أن العالم الآن ما عرف إلا شيئاً طفيفاً عن طبيعة الجسد، أما طبيعة النفس فما تزال سرّاً مجهولاً، قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء:٨٥].

تعصي الإله وأنت تُظهر حبَّه ... هذا لعمري في المقال شنيع
لو كان حبُّك صادقاً لأطعته ... إنّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيع

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران:٣٨].

وَهَبَ، فعل ماض، يهب فعل مضارع، هَبْ فعل أمر، أيعقل أن إنساناً يأمر الله عزَّ وجلَّ؟! علماء البلاغة قالوا، الأمر إذا كان من أدنى إلى أعلى فهو دعاء، فإذا كان من شخص مساوٍ إلى مساوٍ فهذا التماس، مثلاً... أنت موظف من المرتبة الأولى جالسٌ إلى الطّاولة، وأمامك في الغرفة نفسِها موظّف من المرتبة الأولى أيضاً لستَ رئيسَه، ولا هو رئيسُك قلت له: رجاءً، أعطني المسطرة مثلاً، هذا ليس أمراً ولا دعاءً، هذا التماس، فمن مساوٍ إلى مساوٍ: التماس، لكن لو وجّهت أمراً وأنت معلّم إلى طالب أو من ضابط

ذي رتبة عالية إلى مرؤوسه فهذا اسمه: أمر، إذاً يخرج فعل الأمر عن معناه الحقيقي إلى الالتماس والدعاء وغير ذلك.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي ﴾.. معنى هب لي هذا دعاء، وَهَبَ يَهَبُ هَبْ، صار الفعل من حرفين، أحياناً يأتي الأمر حرفاً واحداً، وقى يقي قِ، قاف فقط: هذه القاف فعل أمر، وفَى يفي فِ، الفاء فعل أمر[1].

والسؤال الآن: ما اسم الفاعل من هذا الفعل وهب؟...إنّه واهب، لكن ربنا وهَّاب، وهي صيغة مبالغة لاسم الفاعل.

أعطاك رجل قلم حبر، هذا اسمه واهب... وإذا أعطاك مركبة قال لك: هذه هديّة، هذا لم يعد في نظرك واهب بل وهَّاب، عندما يكون العطاء كبيراً نقول: وهّاب، وإذا كان العطاء يومياً متنوعاً أو كبيراً نستخدم صيغة مبالغة اسم الفاعل ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران:٨].

ماذا وهبنا الله؟ أول شيء وهبنا الله إياه هو نعمة الوجود، في سجّلات النفوس في دائرة الأحوال المدنية: فلان بن فلان مقيم في مكان كذا، فأنت موجود، لك اسم في السّجلات، فمن وهبك نعمة الوجود؟ إنّه الله عزَّ وجلَّ.

إذاً أنت متمتّع بوجودك، متمتّع بصحّتك، متمتّع بالطّعام، بالشّراب، متمتّع بزواجك متمتّع ببيتك، لك عمل، لك شأن جماعي، وجودك مَن وهبك إياه؟ الله عزَّ وجلَّ وهبك نعمة الوجود، أوجدك وأمدّك بكلّ شيء.

مرةً لفت نظري حديقة ألغيت وقد ثبتوا سور حديد على الحجر، ولما أرادوا إعادة فتحها قصّوا الحديد قصّاً، سألت نفسي سؤالاً: لماذا قُصَّ الحديد؟ لماذا لم يُنزع من

---

(١) ومنها كذلك: دِ: للأمر بدفع الدية، وش: للأمر بشوي الطعام...، وعِ: ليكون المستمع واعياً: وكِ: لكوي الملابس، ولِ: للأمر بتولي ولاية... وهكذا...

مكانه نزعاً؟ فلما سألت قالوا: قصةُ أهون ألف مرة من نزعه، لأنه مثبت بالرصاص، فلو أن الله عزَّ وجلَّ لم يخلق الرصاص، هل تستطيع أن تُعامِل الحديد مع الحجر؟

خلق ماءً، لا لونَ له ولا طعمَ ولا رائحة، لو كان للماء لونٌ لضاق الإنسان بحياته، لو كان الماء حلواً لأصبح الطعام وكلُّ شيء حلواً، لو كان الماء لزجاً، بماذا يغسل الإنسان جسده وأشياءه؟! لكن جعله الله سائلاً لا لون له ولا رائحة ولا طعم، لو كان الماء يتبخر بدرجة مئة... تنظّف البيت في الشتاء فيبقى الماء على أرض المنزل وجدرانه إلى الصيف حتى يتبخر، وهذه مشكلة حقاً، فالماء يتبخر بدرجة أربع عشرة، اسفح كأس ماء في غرفة بعد ساعتين يتبخر، وكذلك ترى أن الماء يغلي بدرجة مئة، لو كان يغلي بدرجة خمسمئة مثل الزيت لحُرِق الطعام في أثناء الطبخ.

من أعطى الماء خواصّه؟ يغلي بدرجة مئة، يتبخّر بدرجة أربع عشرة، له سيولة عجيبة يسري في أدقّ المسامات ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

أنتحدث عن الكون كلِّه؟ أنتحدث عن العين؟ عن الأذن؟ جاؤوا بإنسان وضعوا له في صيوان أذنه شمعاً فلم يعد يعرف من أين يأتي الصوت، هذا الصيوان لو أنك درسته دراسةً هندسية، فيه سطح بكلّ اتّجاه فمن حيث جاء الصوت فإنه يواجه سطحاً يعكسه إلى الداخل، ولتتأكد ضع يدك فوق الصيوان ترى أنّ الصوت قويٌّ عندك، فالصيوان يتلقى الأمواج ويعكسها إلى الداخل.

مَن أعطاك ذاكرة صوتية، فتعرف الأصوات حتى من خلال الحديث بالهاتف؟ وإذا سحقت قطع زجاج تحت الباب، تنزعج وتخرج من جلدك، فهذا اسمه الضجيج، وتطرب لصوت العصفور، وهذا اسمه النَّغم ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

من جعل الطّعام ذا رائحة طيّبة، لو جعل الله الطعامَ المفيدَ ذا رائحة كريهة والطعامَ غيرَ المفيد ذا رائحةٍ طيّبة، فكيف يحلو عيشك، كاللحم إذا تفسخ له رائحة لا تطاق ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ كيفما تحرّكت أيها الإنسان، وجودك، المواد التي حولك، حواسُّك، كلُّ هذه نعم من لدن الوهّاب.

من وهبنا الشّمس؟ تدفع ثمن البيت مئة ألف زيادة إن كان ذا جهة قبليّة، والبيت الشماليّ أرخص بمئة ألف، هذه الشمس لا تنطفئ جذوتها، قالوا: إنّ عُمُرَها خمسةُ آلاف مليون سنة، وطمأننا العلماء قالوا: ستبقى خمسة آلاف مليون سنة أخرى! ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

من جعل القمر في السّماء تقويماً، ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء:١٢]، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

مَن جعل الرّياح تتحرك، تنشط، وتُنعش الإنسان، تتبدّل الأجواء بفضل حركتها فيزول ما علق فيها من تلوّث أو غبار أو روائح كريهة، فتحريك الرّياح من نعم الله العظمى؟

تخزين المياه: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر:٢٢].

مرةً أجرينا حساباً درسنا من خلاله أنّ كلَّ إنسان لو أراد أن يخزِّن احتياجه مِن الماء لمدّة سنة تقريباً لاحتاج إلى خزّان يعادل مساحة بيته تماماً، فإذا كان بيتك مئة متر مربع فإنك تحتاج إلى خزّان سَعته مئة متر مكعب، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

تخزين المياه في الينابيع شيء يلفت النظر، صنعوا خزان ماء لتخزين مياه «نبع الفيجة» في دمشق، قلّدوا به تقليداً عمليَّة التّخزين الطبيعي، تحت الأرض أربع مئة متر عمقاً لا ضوء ولا صوت ولا شيء، من خزّنَ هذه الأمواه؟ (أمواه جمع مياه). ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

إذا قال رجل لآخر: وهبتك هذا الكتاب بمئة ليرة، هذا الحكم في الشرع عقد بيع، ما دام قال له: وهبتك هذا الكتاب بمئة ليرة، فهذا عقد بيع، ولا عبرة لكلمة وهبتك، وإذا قلت: بعتك هذا الكتاب بلا ثمن، هذا عقد هبة، فما تعريف الهبة إذاً،

«تمليك بلا عوض» لذلك بعض الناس حتى يتهربوا من ضريبة انتقال الملكية، صاروا يقبضون الثمن سراً، ويصرحون بالهبة، فانتبهت الدولة ووضعت ضريبة على الهبة، فهذا ليس هبة، هذا بيع غير مصرَّح به، الهبة تمليك بلا عوض.

إذا كان للرجل ابنٌ متديّن خلوق بارٌّ بوالديه خدوم لطيف مهذَّب، فإذا قال: أنا تعبت في تربية ابني كثيراً، ربيته وعلمته وحرصت عليه، أهذا الكلام صحيح أو خطأ؟ أنا أقول: إن هذا الكلام خطأ، لأنه نسي الوهّاب، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام:٨٤].

فإذ أعطاك الله ولداً بلا عوض فهذا هبة من الله، وقد تكون أعظم إنسان قوةً وحزماً وعلماً، فيأتيك ولد يحيّرك ويجعل حياتك شقاءً، وكثير من الأشخاص في أعلى مستوى من العلم وأبناؤهم ضالّون، سمعت عن إمام مسجد من أكبر المساجد إذا ذُكِّرَ بابنه يبكي، ابنه منحرف انحرافاً شديداً، والأمر ليس بيد الإنسان بل بيد الله سبحانه، فإذا وهب الله لرجل ابناً صالحاً مطيعاً بارّاً فلا بدّ أن يسجد شكراً لله عزَّ وجلَّ، فلا يعزو صلاح ابنه وطاعتَه وبرَّه لذكائه «أنا أب ناجح، أنا متابع لابني» إذا كان الابن منحرفاً فمهما كنت قريباً منه فقد يتفلّت منك، فكلمة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ﴾ تعني أنّ هذا عطاءٌ بلا عِوض، فأنت لم تقدم شيئاً، أنت تلقّيت هذه الهبة من الله عزَّ وجلَّ.

إذاً الهبة عبارة عن التمليك بغير عوض، والوهّاب: صيغة مبالغة من وهب، بناءً على هذا التعريف هل يصح أن نقول: إن فلاناً وهب فلاناً؟ أتصدق أن إنساناً في الأرض كلِّها يعطي شيئاً بلا عوض؟ لنفرضه مؤمناً كبيراً فعِوضُه الثواب من الله عزَّ وجلَّ، يطمع برضاء الله عزَّ وجلَّ، أيقدم شيئاً بلا مقابل؟ أينطلق إلى خدمة الناس بلا مقابل؟ أيسعف المريض بلا مقابل؟ أيدرّس حسبة، أو يخطب حسبة؟ أو يخدم بيت الله حسبة؟ ثم يقول: لا أريد شيئاً، أأنت مصدق أنه لا يريد شيئاً؟!

لو أن رجلاً قال لمعلّم: أعطِ هذا الطالب دروساً خاصّة، وخذ على كل درس ألف ليرة، تأخذها مني، ولا تأخذ شيئاً منه، لكنّه أخيراً أخذ من الطالب مئة ليرة مقابل كلّ درس، فلما أخذ مئة من الطالب فَقَد حقَّه عند الأول.

فالذكيُّ لا يطلب الأجر من النّاس، بل يطلب الأجر من ربّ النّاس، فهل تصدّق أنّ إنساناً يفعل شيئاً بلا عوض؟ أعلى عوض أن تطلب رضاء الله عزَّ وجلَّ، أن تطلب جنّته، أن تطلب ما عنده، أن تطلب توفيقه، إذاً لا بد من عوض.

فلا يصح أن نقول: فلان وهب إلا مجازاً، لكن الإنسان أحياناً يهب شيئاً وبنيّته المديح، فهذا هو العوض، ثناء النّاس عليه هو العوض، أحياناً يجود أمام النّاس فيقدم مبلغاً ضخماً لجمعيّة خيرية، ويتمنى أن يشيد الناس بكرمه، يقول: أنا قدّمت، أنا أعطيت وبذلت، يريد عوضاً، إذاً تمليك بلا عوض، لا يكون حقيقةً إلا من الله عزَّ وجلَّ.

وشيء آخر، إذا وهبك إنسان شيئاً فمن الواهب الحقيقيّ، فمن ألقى في قلبه أن أعطِ فلاناً؟ الله عزَّ وجلَّ.

لا تظنَّ أن إنساناً يعطي شيئاً إلا والله عزَّ وجلَّ قد ألقى في قلبه الدافع... أحياناً تكون أمام موظف يقول لك: موافق، فإذا أردت الحقيقة فهذه من الله، فإذا كان الله يريد أن يؤدبك يخلق لك ألف عقبة، تحتاج المعاملة إلى توقيع، تحتاج إلى تصديق من السفارة في الدّولة الفلانيّة مثلاً، قال لي رجل: ثمان وثلاثون شاحنة أُنزلت بضاعتها أرضاً لأنها غير مصدَّقة من السَّفارة.

فإذا قدّم إنسان لك معونة يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن الله عزَّ وجلَّ ألقى في رُوع هذا الموظف أن يتساهل معك، ألقى عطفاً عليك في قلبه ألقى رغبةً بمساعدتك.

بناءً على هذا ألا أشكر الموظف؟ لا بد من شكره، فإذا قدم أحدهم لك خدمةً ولم تشكره فهذا موقف غير أخلاقيّ، لأنه أيضاً خدمك باختياره، لذلك قال ﷺ: «مَنْ لم يَشْكُرِ الناسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ» [رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة].

إن هذا الإنسان خدمك، وهو واعٍ وعاقل، وخدمك بمحض اختياره فلا بد مِن شكره، لكن الله عزَّ وجلَّ ألقى في رُوعه، ودفعه لخدمتك، فيجب أن تشكر الله أولاً على أنه ألقى في قلبه رغبةً في خدمتك، وأن تشكر هذا الإنسان ثانياً على أنه خدمك مختاراً، والنبي الكريم ﷺ يقول: «مَنْ اسْتَعاذَ بالله فأعيذُوهُ، وَمَنْ سألَكُمْ بالله فأعْطُوهُ، ومَنِ اسْتَجارَ بالله فأجيرُوهُ، ومنْ آتى إلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فكَافِئُوهُ، فإنْ لَمْ تَجِدُوا فادْعُوا لَهُ حتَّى تَعْلَمُوا أنْ قَدْ كافَأْتُمُوهُ» [رواه النسائي بسند صحيح من حديث ابن عمر].

وللإيضاح أقول: المسلمون يعرفون كلمة؛ الله يجزيك الخير، وأكثرَ الله خيرك، هذا شكر ناقص، فإن قدَّم لك إنسان خدمة يجب أن تقدم له خدمة مقابلها، أما إذا كنت عاجزاً ولا تملك، فمقبول منك أن تقول: جزاك الله عني خيراً، وهذه كبيرة جداً، إذا كنت فعلاً عاجزاً عن رد جميله، عاجزاً عن مقابلة هديته بهدية، عاجزاً عن مقابلة خدمته بخدمة، إذا كنت فعلاً عاجزاً وقلت له: «جزاك الله خيراً» فمقبولة منك.

روى الترمذي والنسائي بسند صحيح من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «من صُنِعَ إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء».

إياك أن تظنَّ أنَّ الشُّكر على نعمة يكفي بكلمة تقولها مثل: «أكثر الله خيرك، فضلت»، وإنما إذا خدمك إنسان خدمة وأنت تقدر على ردّها فلا بد من رد الجميل بمثله إن استطعت إلى ذلك سبيلاً، فانظر ماذا فعل رسول الله ﷺ في مثل هذا الحال.

وعلمنا رسول الله ﷺ من موقفه عليه السلام مع سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي، فسيدنا ربيعة خدم النبي ﷺ. وبعد حين قال له: يا ربيعة سلني حاجتك، فقلت لنفسي: سبحان الله نبي الله، رسول الله، ألا يستحق أن تقدم له خدمات بلا مقابل، لقد رآها دَيناً عليه[1]، هذا هو الكمال وصدق الله العظيم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].

---

(١) الحديث رواه مسلم بلفظ: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: سل فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة... الحديث، والقصة بتمامها رواها الطبراني في الكبير من رواية ابن إسحاق.

واحذر أن تذكر أفعالك الطيبة للآخرين، ولا تنسَ كلَّ فعل طيِّب أُسدِيَ إليك، فإذا خدمت إنساناً فالكمال يقتضي أن تنسى هذا المعروف، وكأنك ما فعلته، فأنت فعلتَه مع الله عزَّ وجلَّ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان:٩].

أما إذا خدمك أحدٌ خدمة فلا تنس فضلَه، «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»، مع اعتقادك أن هذا الذي جاءك عن طريق فلان هو حقيقة من الله عزَّ وجلَّ، أولاً ألهمه، ثانياً سمح له، ثالثاً مكَّنه، فلو ألهمه وما سمح له «يقول لك: العين بصيرة واليد قصيرة» وأحياناً إنسان يحب أن يخدمك، فلا يقدر، يقول لك: «لم أستطع»، هو راغب في خدمتك، ألهمه ولم يسمح له، فإذا قدّم إنسان لك خدمة فهذه يجب ألا تُنسى، كما قال ﷺ: «من أسلم على يد رجل فله ولاؤه» [رواه الطبراني والدارقطني والبيهقي بسند حسن من حديث أبي أمامة].

الإنسان يعطيك حاجة ينتهي أثرها بانتهاء الحياة، أما إذا ساق لك الله الهدى عن طريق إنسان، فقد أسدى لك نعمةً يستمرُّ أثرها فيك وفي ذريتك إلى أبد الآبدين، فربنا عزَّ وجلَّ قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الشورى:٢٣].

فالذي ألقى في روع الإنسان أن يخدمك هو الله، والذي مكَّن هذا الإنسان من أن يخدمك هو الله، المُلهم هو الله والفعّال هو الله.

ألم يمرَّ معك أن إنساناً خدمك وتعجّبت لماذا خدمك، بلا معرفة سابقة معه، وكان معك هيّناً ليّناً، يسَّر لك أمرك، فيه سماحة وتساهل، ألم يمرَّ بك هذا، فالله ألهمه، هو الملهم وهو الممكِّن وهو الفعّال، إذاً موقفك السليم، بادئ ذي بدءٍ، أن تقول: يا ربِّ لك الحمد.

السيدة عائشة رضي الله عنها لما نزلت الآيات بتبرئتها قال لها أبوها: قومي إلى رسول الله... قالت: لا والله! لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله [متفق عليه من حديث عائشة]. فالنبي ﷺ لم يقل شيئاً، الأصل أن الله عزَّ وجلَّ هو الذي برَّأها، كذلك رجلٌ قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: جعلت لله نداً؟ ما شاء الله وحده [البخاري في أدب المفرد من حديث ابن عباس].

قال بعض العلماء: «الوهّاب من يكون جزيل العطاء والنَّوال، كثير المنِّ والأفضال»، قال بعضهم: المَنُّ يفسد المَنَّ.

قالوا: الوهّاب من يكون جزيل العطاء والنّوال، كثيرَ المنِّ والأفضال واللطف والإقبال، يعطي من غير سؤال، ولا يقطع عن العبد فضله في كلِّ حال.

والوهّاب من يعطيك بلا وسيلة، وينعم عليك بلا سبب ولا حيلة.

والوهّاب هو الذي يعطي بلا عوض، ويميت بلا غرض.

نحن عبيد لله عزَّ وجلَّ، وكل ما نحن فيه فضل من الله عزَّ وجلَّ، فيجب أن تعلم علم اليقين أنَّ كل نعمة أصبحتَ بها فمن الله، وكلكم يعلم أنَّ الشُّكر ثلاث مراتب، أول مرتبة أن تعلم أن هذه النعمة من الله هذا أحد أنواع الشكر، وأن يمتلئ قلبك حمداً لله، وهذا هو النوع الآخر، وأن تنطلق إلى خدمة العباد، وهذا أرقى أنواع الشكر، قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن:٦٠].

يعني: يا عبدي! إذا استقمت على أمري، وخدمت عبادي، ودللتهم عليَّ، ورعيتهم، ونصحتهم، وعاونتهم، وتكرّمت عليهم، فقد أحسنت لعبادي، فهل أنساك من إحساني؟ هل جزاء إحسانك يا عبدي إلا أن أُحسن إليك؟! فالله شكور.

إذا لم يعاين المؤمن من الله معاملة طيبة جداً، وأنها تكريم له من الله، بل رأى أنها نظير استقامته وإخلاصه وخدمته، فعنده إذاً خلل كبير وإخلاصه ضعيف جداً، فمن علامة الإيمان أن ترى ما أنت فيه من نعمة من آيات الله الدالة على فضله، وإن أنت

خدمت عباده فإذاً لك عون الله سبحانه، «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» [رواه مسلم من حديث أبي هريرة].

هناك آية ثانية، قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾ [الرعد:١١].

الوقائع والأحداث التي تؤكد أن الله وهّاب كثيرة جداً في كلِّ مكان وكلِّ زمان، لكن حادثة وقعت لأحد إخوتنا الكرام يعمل في محلٍ دخله قليل جداً لا يكاد يكفيه، له أخ مؤمن فَقَدَ عمله، فَقَدَ دخله كلياً، فشكا له همَّه، فقال له: تعالَ واعمل معي، وخذ نصفَ الرِّبح، أقسم لي وهو صادق أنه في أول شهر ربح عشرة أمثال الدّخل السابق ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾.

لذلك «أنفق بلال! ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً».

لكن إياك أن تؤثر الخلق على الله، فتنفق من دينك إكراماً للناس فهذا ليس هبة، لا ينبغي أن تؤثر جهة دون الله على الله، والخير كله في المؤاثرة.

الشبلي أحد العلماء سأل بعض أصحاب أبي علي الثقفيّ، قال: أيُّ اسم من أسماء الله تعالى يجري على لسانك؟

قال: الوهّاب، لأنّ أول هبات الله عزَّ وجلَّ هي وجودك.

الله عز وجل يهب العطاء في الدنيا، يهب مالاً، يهب قوة، يهب وسامة، يهب ذكاءً، يهب حكمةً، الله عز وجل يهب العطاء في الدنيا ابتلاءً، فالحظوظ وُزعت في الدنيا توزيع ابتلاء، قال تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك:٢].

وسوف تُوزع في الآخرة توزيع جزاء، قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسراء:٢١].

مراتب الدنيا مؤقتة، الموت ينهي قوة القويّ، وضعف الضعيف، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، وصحة الصّحيح، ومرض المريض، ينهي كلَّ شيء، لكنّ مراتب الآخرة أبديّة سرمديّة، مراتب الدنيا لا تعني شيئاً وقد تعني العكس: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٤٤].

عطاء الله في الدنيا عطاء ابتلاء، فالمال ليس نعمة ولا نقمة، إنّه عطاء موقوف على طريقة إنفاقه، إن أنفقته في طاعة الله فهو نعمة، وإن أنفقته في معصية الله فهو نقمة، القوّة إن سُخِّرت لإحقاق الحق فهي نعمة، وإن سُخِّرت للطّغيان والعدوان فهي نقمة، كلُّ حظٍّ من حظوظ الدنيا يمكن أن يكون نعمة ترقى بها أو دركاتٍ تهوي بها.

لذلك فالله عز وجل يهب الحظوظ في الدنيا هبة امتحان، ويهب العطاء الكبير في الآخرة هبة جزاء، في الدنيا ابتلاء وفي الآخرة جزاء.

ليتعلق العبد بربه عند النّداء والرّجاء، ويسعد بتوحيده بين الدُّعاء والقضاء، هذا أعظم فضل وأكبر هبة وعطاء، وإذا أدرك العبد حقيقة الابتلاء، واستعان بالله على تحقيق الرجاء كان موفّقاً وناجحاً.

«عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لغير المؤمن» [أخرجه أحمد في مسنده عن صهيب].

من الآيات التي تتحدث عن الهبة، وعن الوهاب: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾ [مريم:٥].

هذا ما يسمى اليوم بالعمل المؤسساتيّ، دعوة ناجحة ينبغي أن تستمر بعد وفاة الداعية، أن تستمر بتربية أناس على أعلى مستوى يتابعون دعوته، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان:٧٤].

وهذا يكون إذا أحسن الإنسان اختيار زوجته وفق منهج الله، تسرّه إن نظر إليها، وتحفظه إن غاب عنها، وتطيعه إن أمرها.

أنت في الدنيا ممتحن في بندين كبيرين، البند الأول فيما أعطاك، والبند الثاني فيما سلب منك، الذي أُعطيته أنت ممتحن به، أعطيت المال مادة امتحانك عند الله عز وجل المال، سلبت منك بعض الصّحة هذا الذي سُلِب منك امتحان آخر، أنت ممتحن فيما أعطاك الله، ممتحَن فيما زوى عنك، من هنا جاء في بعض الأدعية:

«اللهم ما رزقتنا ممّا نحب فاجعله عونا لنا فيما تحب، وما زويت عنا ما نحب فاجعله فراغا لنا فيما تحب»

نصيب المؤمن من اسم الله (الوهاب):

علاقة المسلم بهذا الاسم أن يتصف بالكرم، فالله وهّاب، وأنت أعطِ ممّا رزقك الله: «أنفق، أنفق عليك» [متفق عليه عن أبي هريرة].

«أنفق بلالا ولا تخشى من ذي العرش إقلالا» [أخرجه برموز السيوطي عن بلال، وعن أبي هريرة، عن ابن مسعود].

من خصائص المؤمن وقد آمن بالله الوهّاب أن يكون كريماً معطاءً سخيّاً، لذلك جاء في الحديث: «لا يحل لأحد أن يهب هبة ثم يرجع فيها إلا من ولده، فمن فعل ذلك فمثله كمثل الكلب يأكل ثم يقيء ثم يعود في قيئه» [أبو داود عن ابن عباس].

حظّ المؤمن من هذا الاسم أن يبذل لله وفي سبيل الله مما آتاه الله عزَّ وجلَّ، من علمه، من خبرته، من وقته، من عضلاته، من جهده، من مكانته، من جاهه، هذا الذي يُستفاد من هذا الاسم.

الوكيل

ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣].

هذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ورد فيه الاسم مطلقاً معرفاً بالألف واللام.

لكن ورد في مواضع أخرى مقروناً بمعاني العلو، والعلو يزيد الإطلاق كمالاً على كمال، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام:١٠٢].

وعند البخاري من حديث ابن عباس: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣].

والنّاس في هذه الأيام قد جمعوا ليقفوا وقفة واحدة ضدَّ المسلمين، وكأنَّ حرباً عالمية ثالثة معلنةً على هذا الدين.

وفي سنن الترمذي أن النبي ﷺ قال: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدْ التَقَمَ صَاحِبُ القَرْنِ القَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفُخَ فَيَنْفُخَ قَالَ المُسْلِمُونَ فَكَيْفَ نَقُولُ يَا رَسُولَ الله قَالَ قُولُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ تَوَكَّلْنَا عَلَى الله رَبِّنَا» [الترمذي عن أبي سعيد الخدري].

من معاني اسم الله الوكيل

من أسماء الله الحسنى الوكيل، وهو القَيِّم الكفيل بأرزاق العباد. وهو: القائم بأمور عباده يُدير أمورهم ويتولَّى شؤونهم ويسخِّر ما يحتاجون إليه، أو هو الذي أوكِل إليه كلُّ أمر بمعنى إليه يُرْجَعُ الأمرُ كلُّه.

وقيل: الوكيل هو المتولّي بإحسانه أمورَ عباده المتَّقين، الموكول إليه كلُّ أمرٍ من أمورهم لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:٢٥٧].

لذلك قالوا: من توكّل على الله تولّاه وكفاه، ومن استغنى به أغناه وأرضاه، وفي تعريف آخر: الوكيل هو الموْكول إليه أمورُ العباد ومصالحُهم، فمثلاً قد يقول إنسان: الأمر بيَد من؟ يقال: بيَد فلان تجاوزاً، فهو الرّجل القويُّ، وهو الآمر والنّاهي، وهو الذي يقرِّر وهو الذي يوافق ويرفض ويسمح ويمنع ويعطي ويأخذ.

فالوكيل: الموكول إليه أمورُ العباد ومصالحُهم، والمتصرِّف فيها كما يشاء، وعباد الرحمن أوْكلوا إلى الله أمورهم، واعتمدوا على إحسانه لعَجْزِهم عن تحصيل مهمَّاتهم، وهنا معنى جديد إذ يجد المرء نفسه أحياناً عاجزاً عن متابعة هذه القضية في المحاكم، لأنّه يجهل القوانين وأساليب رفع المذكَّرات وأسرارها فلذلك يوكّل محامياً، يقول: أنا

وكيلي فلان، فالوكيل إمَّا بمعنى أنَّ الله سبحانه وتعالى يتولّى أمرَ العبادِ كلِّهم، أو أنّه يتولّى أمر عبادِه المتَّقين يرضيهم ويُغنيهم ويكفيهم، أو لأنّ الله عزَّ وجلَّ لعَجْز عباده عن تحصيل شؤونهم وإدراك مصالحهم فهم يوكِّلونه في شؤونهم التي يعجزون عنها دائماً، وهذه المعاني كلُّها يحتملها اسم الوكيل.

نعم إنّه المتولّي لشؤون عباده يصرِّفها كيف يشاء، لذلك قالوا: إذا تولى الله عبده بجميل العناية كفاه كلَّ شُغل وأغناه عن كل غَيْرٍ، فهو الكافي لمن توكّل عليه، فإذا اتَّجه العبد إلى الله متوكِّلاً تولّاه بحُسن رعايته فإذا استقام ختم له بجميل ولايته، لعلَّ أحداً يقول: تعريفات الوكيل أكثرها متداخل ومتشابك، فالمؤمن من خصائص إيمانه أنّه يكِل أموره إلى ربّه ويعتمد عليه ويطمئنُّ لقربه، والإنسان في أصله ضعيف، وضعفه سبب سعادته، لو أنَّ الله خلقه قويّاً لاستَغنى بقوّته فشَقي باستغنائه، لذا خلقه ضعيفاً ليفتقر إليه بضعفِه فيسعدَ بافتِقارِه.

إنّ الله جلّ جلاله ما أمرنا أن نتكِّل عليه إلا ليَكْفِينا أمرَنا كلَّه، والعجيب أن يواجِه الإنسان الصِّعاب ولا يتوكَّل على الله، ولحكمةٍ بالغةٍ أرادها الله عزَّ وجلَّ فالحياة مُفْعَمة بالمقلِقات والمخاوف، والإنسان فوقه ألف سيفٍ وسيف؛ مَن يدري ماذا سيكون حالُه بعد حين؟ ومن يملِك هذه الخلايا ألّا تنمو نموّاً عشوائيّاً؟ ومن يملك هذه الدسَّامات أن تبقى تعمل بانتظام؟ ومن يملك هذا الدّماغ ألّا تتجمَّد فيه خثرةٌ فتُعطِّلَ بعض فاعليَّة الإنسان؟ من يدري ماذا سيكون؟ هذه المخاوف، وهناك مقلقات متعلِّقة بالرِّزق والأولاد والأهل والعمل وكسب الرِّزق، لماذا شُحِنت الدّنيا بالمخاوف؟ من أجل أن تَفِرَّ إليه وتعتمد عليه وتثِقَ به وأن تُقْبِلَ عليه، وأن تُدفَع إلى باب عبوديّته وأن تكون عبداً له منيباً مفتقراً.

ولنعلمْ جميعاً أنّنا لسنا في دار مُقام بل نحن في دار انتقال، ونحن في ممرٍّ ولسنا في مَقرٍّ وفي حياة إعدادٍ لحياة أبدية، فالنَّعيم المطلق والسّعادة التّامَّة والطَّمأنينةُ التي لا يخالِجها قلقٌ والصَّحَّة التي لا يساورها مرض هي في الجنَّة فقط، نحن في دار إعداد وفي

حياةٍ دنيا خلقت لتكون مدرسةً لحياةٍ أبديّة خالدة، لذلك ليس عجيباً أن تكون الحياة مقلِقة وعلاجُها أن تلتجئ إلى الله حيث الأمن والطَّمأنينة والرَّاحة والتَّوازن، إذا قلت في اللغة: أوْكَلت أمري إلى الله، أي: ألجأته إليه؛ هذا الأمر الذي أخافني أو هذا الأمر الذي أقلقني وعجزت عن حلِّ مشكلتِه أحلته على الله سبحانه وأوْكَلْتُه إليه.

قال بعض العلماء: دَبِّر فأنا لا أُدبِّر، وقال أبو الحسن النُّميريّ الأندلسيّ يُناجي ربه:

إذا كنتَ في كلِّ حالٍ معي ... فعن حَمْلِ زادي أنا في غِنى
فأنتم هو الحقُّ لا غَيْرُكم ... فيا ليت شِعري أنا من أنا

الذي أراه أنَّ طبيعة الحياة شاءها الله أن تكون دارَ التواء لا دارَ استواء، ومنزِل ترَحٍ لا منزل فرَحٍ، ودارَ بلاءٍ وتعبٍ ونصبٍ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانشقاق:٦].

شاءها كذلك من أجل أن تلتَجئ إليه وأن تُقْبِل عليه وأن تعتمِد عليه وأن تتوكَّل عليه.

وَكَلْتُ أمري إلى الله، أيْ: ألجأْتُه إليه، إذا كانت للإنسان قضية صغيرة ومفتاحها بيده فإنّه لا يسأل أحداً ولا يسْتعِينُ بأحد، لو أنّ كلَّ الأمور نقدِر عليها ولا تُعْجِزُنا لاستغنينا عن الله عزَّ وجلَّ، ولو أنّ الأمور أصغرُ من طاقتنا ومن تدبيرنا حينها لا يَشعر الإنسان بحاجة إلى الله عزَّ وجلَّ، لكنّه محتاج إليه دائماً، وهذه الحاجة تحتاج إلى إعمال عقل، أما حينما تأتي الأمور أكبر مما نستطيع فإنّنا نعجز عن مواجهة الأمر، وحينما نجد أنفسنا أمام شبح مشكلة كبيرة وحقل ألغام وأنّنا أضعف من أن نواجِه عدواً، ما حكمة هذه المصاعب المتكررة وهذه المتاعب في الحياة الدنيا؟ قد يقول أحدُكم: لماذا هذه الصعوبات يا ربِّ؟ لماذا الإنسان تحت سيوفٍ مشرَّعة كثيرة؟ فتارةً يقلقُ على صحَّتِه، وتارة على دخْله، وتارة على مستقبل أولاده، وتارة على مستقبل بناته، لماذا هكذا يا

رب؟ الجواب أنه تعالى أراد أن تلجأ إليه وأن تُقْبِل عليه وأن تَفِرّ إليه وأن تُساق إلى باب العبودية إليه، وأن تكون موَكِّلاً له وأن يكون وكيلاً لك، وأراد أن تَنْعُم بظلِّ الاستسلام له والإقبال عليه، فوَكَلْتُ أمري إلى الله، ألجأْتُه إليه واعتمدْت عليه.

لذلك قالوا: إنَّ المتوكِّلَ على الله هو الذي يعلم أنَّ الله كافِلٌ رزقَه وأمرَه، الحقيقة أنَّه لا يمكنك أن تتوكَّل على إنسانٍ ضعيف، ولا يمكن أن تُوَكِّل إنساناً جاهِلاً لا يستطيع أن يكتُب اسمَه في دعوى عويصة في قصر العدل، بل تبحث عن أمهَرِ المحامين وعن محامٍ مخلِص ويتمتع بكفاءة عالية جداً، هذا شأنك مع محامٍ في قضية عويصة، فلذلك أنت لا تستطيع أن تتوكَّل على الله إلا إذا عرفته، وقد يقولُ أحدكم: أنا أتوكل على الله؛ لا؛ بل هذا مجرد ادّعاء، فإنك إن لم تتعرف إلى أسماء الله الحسنى، وإن لم تعرِف قدرته التي تتعلَّق بكل ممكن، وإن لم تعرف حكمته ورحمته وعدالته وقدرته فإنّك لا تتوكَّل عليه حقيقة، فأصل التَّوكُّل أن تعرفه، فالإنسان من خلال معاملاته وممارساته يثق بأشخاصٍ عِدَّة ويقول لك: فلان يُعتمد عليه فإذا سافر سلَّمه العمل في متْجره أو معمله، هناك قبض ودفع وهناك موظَّفون ومشكلاتٌ ماليّة، يقول لك: فلان يُعتَمد عليه، فهل رأيت صاحب معملٍ ضخم يعتمد على موظّف أحمق أو موظّف ضعيف التّفكير ومحدود الأُفُق؛ مستحيل فأنت لن تتوكَّل إلا على القويّ، ولن تتوكّل إلا على العليم، لن تتوكّل إلا على القدير، ولن تتوكّل إلا على الخبير؛ فلذلك التوكُّل أساسه معرفة الله عزَّ وجلَّ، والإنسان الشّارد والتّائه ربما يضع ثقته بإنسان، وإذا دَعَوْته إلى التوكُّل على الله لا يستجيب، كيف؟ إن الله تعالى قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القلم:٤٢].

أنت إذا دعوْت إنساناً يعاني من مشكلة أو من مرضٍ أو من خطر أو من قضية وقلت له: توكَّلْ على الله، فلن يفهم عليك، ربما يُجامِلك ويقول: توكّلت! لكنَّه في الحقيقة غير متوكِّل؛ لأنه لا يعرف أنَّ النَّاس جميعاً بيد الله، وأنَّ الأقوياء جميعاً في قبضته، وأنَّ خواطر العباد بيده، قد تقف أمام إنسان يُلقي الله في رُوعه أن سهِّل له الأمر على

خلاف عادَتِه، إنسان يُعقِّد الأمور ويقيم الحواجز وينصب العقبات في وجوه الآخرين، لكنَّك تجده من ألطف الناس معك مع أنك لا تعرفه ولا يعرف اسمك، فلماذا وقف هذا الموقف الليِّن؟ وماذا ألقى الله في قلبه؟ لذلك قال ﷺ: «إنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّها بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أصابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ واحِدٍ يُصَرِّفُهُ حيثُ يشاءُ» ثُمَّ قالَ رسولُ الله ﷺ: «اللهمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنا على طاعَتِكَ» [رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو].

أحياناً إذا أراد الله أن يؤدِّب مخلوقاً فيبعث الله إنساناً طيِّباً يتصدَّى له، ويقيم النكير عليه ويُكبِّر الأمور ويقيم الحواجِز ويضع العقبات؛ فيقول: هذا غريب! ليس هذا من أخلاق هذا الشخص، فاعلم إذاً أنّ العباد حتى خواطِرهم ومشاعِرهم وتصوُّراتهم وحتى رغبتهم في الخير أو الشرِّ بيد الله عزَّ وجلَّ فإذا كنت مع الله فالله معك، لذلك أقول دائماً هذه المقولة: يا رب ماذا فقد من وَجَدك وماذا وجد من فقدَك؟ وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ أريد أن أقف وقفةً مُتأنِّية عند هذه المقولة؛ لن تستطيع أن تتوكَّل على الله إلا إذا عرفْتَه، وأن تتعرف إلى الله فهذا أكبر إنجاز في حياتِك؛ لأنك موجود في الحياة الدنيا من أجل أن تعرف الله لذلك إن عرفته توكلت عليه ووكَّلت أمرك إليه، فلن يستطيع من أراد أن يتوكَّل حقيقةَ التَّوكُّل إلا بعد أن يعرف الله، قد تجد إنساناً يخاف من إنسان أشدَّ من خوفِه من الله لأنَّه لا يعرف الله.

إذا توكلت على الله خدمك أعداؤك، وإذا اعتددت بنفسك قد يتطاول عليك أبناؤك.

آخر رحلة لطائرة (الكونكورد) من باريس إلى واشنطن، في أرض المطار قطعة حديديّة صغيرة، سببت احتراق الطائرة بأكملها، مع أربعمئة و خمسين راكباً.

أحياناً الله عز وجل يهلك على أتفه سبب، وأحياناً يحفظ لأتفه سبب، والأخطار قائمة فإذا كنت معه نجاك من هذه الأخطار.

ربما تفسر كلمة «الوكيل» بالكفيل، هذا معنى إضافي، لكنَّ «الوكيل» أعمُّ من الكفيل، فكلُّ وكيلٍ كفيلٌ، لكن ما كلُّ كفيلٍ بوكيل.

وقد ورد عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «لو أنكم توكَّلون على الله حق توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بِطاناً» [الترمذي عن عمر بن الخطاب].

الوكيل إما أن يتوكَّل لبعض الأمور كما يحدث بين النَّاس والتي يسمُّونها وكالة خاصة مثلاً وكالة في بيع بيت فقط، وكالة في قبض مبلغ، أو في تحصيل، وكالة في مُخاصمة، كلُّ هذا يسمى وكالة خاصَّة، وأحياناً تكون الثِّقة بالغة جداً بين شخصين فيوكِّله وكالة عامَّة، الموَكَّل وكالةً عامة بإمكانه أن يبيع كل أملاكك وبإمكانه أن يطلِّق زوجتك، بالمناسبة الوكالة العامة خطيرة جداً؛ فهذه امرأة تملِك آلاف الدونمات وكَّلَت محامياً قال لها: اجْعَليها وكالة عامة وهي لم تفهم ما قال لها: فجعلتها وكالة عامّة، كل الأراضي سجَّلَها باسمه ولا تزال الدعوة قائمة بينه وبينها حتى الآن منذ عشر سنوات، فالإنسان قبل أن يوقِّع وكالة عامة يجب أن يفكر، أن يعد للمليون فالقضية ذات أبعاد خطيرة، على كلٍّ هناك وكالة خاصّة ووكالة عامّة ومع ذلك فالوكالة العامّة تبقى وكالة محدودة، فهل يستطيع الموكِّل أن يقبض روح الإنسان؟ طبعاً لا، لكن الله تعالى هو الوكيل المطلق، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام:١٠٢].

بيده حياتك ورزقك، وبيده من فوقك ومن تحتك، وبيده أقرب الناس إليك وأبعد الناس عنك، والذي يحبُّك والذي لا يحبُّك، وبيده دقائق جسمك وأجْهِزتك، والله على كلِّ شيء وكيل، لذلك ليس الوكيل المطلق إلا الله، وليس من بني البشر من هو وكيل لك في أمورِك كلّها، لكنَّ الله وكيل لك في كلِّ الأمور، ووكيل لك في كلِّ الظروف، والمتوكِّل في كلِّ حياتِك.

هناك نقطة أخرى في الوكالة وهي أنّه يمكن أن يكون فلان ليس متوكِّلاً أمرك، لكنّك باختيارك وكَّلْتَه، ليس هذا الشأن مع الله عزَّ وجلَّ، لكنَّ الله شئت أم أبيْت، أحْببت أم كَرِهت، رضيت أم لم ترْضَ، أمرك كلُّه بيده تعالى، قد يوكِل إنسان آخرَ وكالة محدثة، أنا وكَّلْت فلاناً، أمّا قبل أن أُوَكِّله لم يكن وكيلاً لي، فأنا الذي أحدثت هذه

الوكالة، لكن الله سبحانه وتعالى متوكِّل لكلِّ أمور العباد وكالةً مطلقة، وهو على كل شيء وكيل وهذا المعنى الثاني.

أما المعنى الثالث: فالوكيل إما أن يؤدّي المهمة على أتمِّ وجه وإمّا ألّا يؤدّيها، وكم من إنسانٍ خاب ظنّه في محامٍ وكَّله قضيةً فخسرها، قد يقول: إن قدراته ضعيفة، وإنّه لم يهتمَّ اهتماماً كافياً أو ما قدَّمَ المذكّرات القويّة أو اتفق مع الخصم، إذاً قد توكِّل إنساناً فيخيِّب ظنّك، لكنّك إذا وكّلت الله ربَّ العالمين فهو الوكيل الحقُّ الذي يغنيك ويرضيك ويكفيك، أرجو الله تعالى أن نتعامل مع هذا الاسم تعامُلاً حقيقيّاً لأنّه لا ينبغي أن تعرف معنى الوكيل وما تعريف الاسم فحسب، فالقضية أكبر من ذلك، المهمُّ أن تَكِلَ إليه أمرك، لا يوجد مؤمن على الإطلاق بإخلاص شديد وبصدقٍ بالغ وكَّل إلى الله شأناً من شؤون حياته إلا ويتولَّى الله أمره.

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه فقال له: يا أمير المؤمنين! إنَّك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال وتركتهم عالةً، ولا بد من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤنتهم إن شاء الله، فقال عمر: أجلسوني! فأجلسوه، فقال: الحمد لله، أبالله تخوِّفني يا مسلمة؟ أمَّا ما ذكرت من أنّي فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالةً فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم وأمَّا ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائي من أهل بيتي فإنَّ وصيتي بهم إلى الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولَّى الصّالحين، وإنّما بنو عُمَرَ أحدُ رجلين: رجلٍ اتقى الله فجعل الله من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجلٍ غيَّر وفجر فلا يكون عمر أولَ من أعانه على ارتكابه، ادعوا لي بنيَّ، فدعوهم وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً فجعل يصعِّد بصره فيهم ويصوِّبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال: بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم، يا بنيَّ! إنّي قد تركتكم من الله بخير إنّكم لا تمرُّون على مسلم ولا معاهِدٍ إلا ولكم عليه حقٌّ واجب إن شاء الله يا بني ميَّلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد

خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النَّار قوموا يا بنيَّ! عصمكم الله ورزقكم، قالوا: فما احتاج أحدٌ من أولاد عمر ولا افتقر.

وذُكِر أنَّ أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد: عِظْنِي، قال: بما رأيتُ، أو بما سمعتُ؟ فقال: بل بما رأيتَ، فقال: توفي عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- وخلَّف أحد عشر ابناً، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر ديناراً، فكُفِّن بخمسة دنانير واشتُري له موضعُ قبرِه بدينارين، وأصاب كلٌّ واحد من أولاده ثمانيةَ عشر قيراطاً، ومات هشام ابن عبد الملك وخلّف أحد عشر ابناً فحصل لكل واحد من ورثته مما خلّفه عشرةُ آلاف دينار، فرأيت رجلاً من أولاد عمرَ بنِ عبد العزيز قد حُمل على مئة فرس في سبيل الله، ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل النّاس.

فأحياناً الإنسان يَكِل إلى الله أمر أولاده وهو على فراش الموت أو يَكل إلى الله أمر بناته أو صحّته، وقد أعجزه العلاج وكاد ييأس، وقد يتألم ويقول: يا رب توكّلت عليك وفوَّضت أمري إليك أنت أعلم وأنت أرحم وأنت أكرم وأحكم، هذه الحال إذا توكَّلت على الله حقيقة -والله- سترى العَجَب العُجاب وسوف ترى أنك أقوى الناس.

لذلك قالوا: إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتَّقِ الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكُن بما في يَدَي الله أوْثق منك مما في يديك، فالذي يتوكل على الله هو أقوى إنسان، والدّعاء سلاح المؤمن وكلنا ضعفاء، ولكنك قويٌّ بالله وغنيٌّ بالله وكريم بالله، فأنت كريم بطاعة الله وغنيٌّ بالاعتماد على الله وقويٌّ بتوكُّلِك على الله؛ لذلك ما توكّل على الله أحدٌ وخيَّب ظنَّه وما توكَّل على الله أحدٌ إلا وكفاه وأرضاه وأكرمه.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها اسم (الوكيل)

وها نحن مع الآيات التي ورد فيها هذا الاسم العظيم، يقول ربُّنا سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣].

يقولون: فلان يتآمر عليك ويكيد لك ويُدبِّر لك لا تنجو منه، وفلان يوغِر صدر رؤسائك عليك، فقل: حسبنا الله ونِعم الوكيل؛ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤].

ألا تكفينا هذه الآية، مهما شعرت أنّ النّاس يكيدون لك السُّوء وأنّهم لك بالمرصاد ويأْتمرون عليك قل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

لمّا نزل النبي ﷺ من الطّائف وقد ردّه أهلها شرَّ ردٍّ، وقد كذّبوه وسخروا منه وأوْغروا صدور سُفهائهم فضربوه، قال له زيد بن حارثة الصحابي الجليل: يا رسول الله! كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ فقال ﷺ: «يا زيد! إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصِر دينه ومظهر نبيه» [زاد المعاد، لابن القيم: ٣/ ٣٠]، يوم جاءت الأحزاب قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب:١٠].

وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب:٢٣].

موضوع التَّوكُّل لا يبدو جلياً واضحاً ولا يظهر أبلجَ إلا في الشَّدائد، وأمّا في حال الرخاء فلا يظهر التّوكُّل، فإذا كان الإنسان له دخْل وصحّة وأموره مُيسَّرة أنَّى يقول: يا رب توكَّلت عليك؟ مستحيل! فالله عزَّ وجلَّ إذا أراد أن يسمع صوت عبده المؤمن يسوق له شبح مصيبة، من أجل أن يركض إلى الله ويلجأ إليه؛ لذلك هذا الاسم لا يبدو إلا في الشدائد، هذا لغير المؤمن أما المؤمن فيتوكَّل على الله في جميع أحواله، في الرَّخاء وفي الشَّدائد، والمرء في الشِّدَّة تُعرف حقيقة إيمانه أو ضلاله وكفره، كما يعرف

يقينه من شكّه. وكذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام:١٠٢].

هذا معنى جديد، فالله على كل شيء رقيب ومالِك فاعبُدوه لأنه على كل شيء وكيل، متوكِّل أمره ورقيب عليه ومالِكٌ لناصيَته، وهذا هو معنى قوله الله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

آية ثالثة قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود:١٢].

فالأمر بيد الله وما عليك إلا أن تُبلِّغ والباقي على الله، فالذي يستجيب يوفِّقه الله والذي لا يستجيب يؤدِّبه الله، وأنت ما عليك إلا أن تُبلِّغ أمر الله كما أمرك.

وهذه آية أخرى، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف:٦٦].

هنا بمعنى أن الله عزَّ وجلَّ شهيد على ما نقول. المعنى الأول مالك الأمور، والمعنى الثاني الرقيب، والمعنى الثالث الشاهد.

وفي سورة الزمر قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر:٦٢].

لا يمكن أن يتفلّت شيء من قبضة الله، فقد تجد إنساناً مُتفَلِّتاً ومخيفاً ويثير الرُّعب بين النَّاس ولكنَّه في قبضة الله -هذا هو الإيمان الصحيح- الوحوش الفتَّاكة والأشخاص العتاة والشريرون هؤلاء كلُّهم بيد الله عزَّ وجلَّ، لا يسمح لهم أن يفعلوا ما يفعلونه إلا بمشيئته وأمره، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ [الأحزاب:٣].

الله جلّ جلاله يطلب منّا أن نتّخذه وكيلاً فهو ربُّ المشرق والمغرب قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل:٩].

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فقالَ المَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أدبرَ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ، فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ» فَقَالَ: «مَا قُلْتَ؟» قالَ: قُلْتُ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ فقال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى العَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ، فإذا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ» [رواه الإمام أحمد].

مثال ذلك طالب دَرَسَ ورَسَبَ فقال: حسبي الله ونِعم الوكيل، هذا قوله صواب وصحيح، فقوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ لا تقولها إلا إذا بذلت كل شيء تملِكه، وبعد كلِّ هذا البذل والجهد لم تنجح عندئذ قل: حسبي الله ونعم الوكيل، ولا تقل: حسبي الله ونعم الوكيل قبل أن تستنْفِد الجهد. إذا لم يدرس وقال حسبي الله ونعم الوكيل، أي: كان كسولاً فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، وأهمل تربية أولاده فانحَرفوا فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، وما عالج ابنه فتفاقم المرض فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فكلُّ هذا الكلام غير مقبول إطلاقاً، إذاً لا تقل: حسبي الله ونعم الوكيل حتى تستفرِغ جميع جهدِك، وتستوْفي كلَّ عملك عندئذٍ قل هذا الكلام، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل:٧٩].

هذه نقطة عميقة المعنى في بحثنا، فتوكَّل على الله لأنّك على الحقِّ المبين، وهذا يعني أنّك إذا كنت منحرفاً ومعتدياً ومسيئاً ومجانِباً للحقِّ فلا يصحُّ منك التَّوكُّل؛ فأحد أسباب التوكل أن تكون على الحقِّ المبين.

شيء آخر قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:١٢].

معنى ذلك أنك إذا عرفت الله واندفعت في مشروع ينبغي أن تتوكَّل عليه، فمن لوازِم معرفته واستقامتك أن تتوكَّل عليه.

قال ذو النون المصري: «التَّوكُّل ترك تدبير النَّفس والانخلاع من الحول والقوة». وقال شقيق البلخيّ: «التَّوكُّل أن يطمئن قلبُك لوَعْدِ الله»، فإذا وعدك الله بالتّوفيق والرّزق والحياة الطّيّبة، فعلامة التَّوكُّل أنّك مطمئنٌّ لهذا الوعد، فأنت إذا وعدك إنسان قويٌّ فقد تقول: هل من المعقول ألا يُنْجز الوعد؟! أما إذا وعدك الله بحياةٍ طيّبة ووعدك بالنّصر واليُسر والتّوفيق والنّجاح، فمن علامة التّوكُّل الاطمئنانُ لوعد الله.

وقال بعض العلماء التّوكُّل: «الاشتغال عما لك بما عليك» وقال بعضهم: «قلوب الزاهدين أوعية للتوَّكل»، وقال بعضهم: «التَّوكُّل انقطاع المطامِع»، فالذي يطمع بما ليس له فهو غير متوكِّل، أما المتوكِّل فهذا الذي يرضى بما قسمه الله له، فهذا من علامات التَّوكُّل، توكَّلْ على الله حتى يكون هو مؤنِسَك ومعلّمَك وموضِعَ شكواك فإنّ النّاس لا ينفعونك ولا يضرونك؛ لذلك قال سيدنا يعقوب: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٦ ﴾ [يوسف:٨٦].

كلّما عظم إيمان المرء لا يشكو همَّه إلا إلى الله، وكلما ضعف إيمانه تجدْه كثير الشكوى، فهذا الذي يشكو همومه إلى كلِّ من يلقاه ضعيف الثِّقة بالله ضعيف الإيمان، إذاً توكَّلْ على الله حتى يكون هو مؤنِسك ومعلِّمك وموضِع شكواك فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك.

الآن موازنة سريعة بين من يتوكل على مخلوق ومن يتوكل على الله، إذا توكَّلت على مخلوق طالبك بالأجر وقد يخونك وقد لا يُفْلِح وقد يكون أضعفَ من المهمَّة التي وكَّلْتَه بها، أما إذا توكَّلت على الله فإنه يعطيك الأجر، تُوَكِّل إنساناً فيُطالِبك بالأجر وإن كان مخلصاً فقد لا يستطيع، وإن كان يستطيع فهو لا يُخْلِص، وقد يخون وقد ينحاز إلى خصْمِك، أما إذا توكَّلت على الله عزَّ وجلَّ فالله تعالى يعطيك الأجر ويكفيك ويرضيك ويُكرمك.

وفي هذا الحديث الصحيح: «توكل الله بحفظ امرئ، خرج في سبيل الله، لا يخرجه إلا الجهاد في سبيل الله، وتصديق بكلمات الله حتى يوجب له الجنة، أو يرجعه إلى بيته، أو من حيث خرج» [أحمد عن أبي هريرة].

ومن دعوات المكروب: «اللهمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ» [أبو داود عن أبي بكرة].

والنبي ﷺ يخاطب فاطمة يقول: «يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» [أخرجه الحاكم عن أنس بن مالك].

نصيب المؤمن من اسم الله الوكيل:

أولاً: أن توقن بعلمه، وبقدرته، وبرحمته، وبمحبته، هذا التوكل، واثق أنَّ الله بيده كلُّ شيء، وأنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيء، وأنَّ الله يحبُّ أن يرحمك، وأن الله يحبك، عليم، قدير، حكيم، رحيم، شرط التوكل أن تعرفه، فاجتهد أن تعرفه من أجل أن تتوكَّل عليه، هذه مرحلة إيمانية، آمنت به الإيمان الذي يحملك على التوكل عليه.

ثانياً: أن تأخذ بالأسباب، هنا المشكلة الكبرى في العالم الإسلاميّ، توكُّلٌ بلا أخذٍ بالأسباب، المسلمون ينتظرون معجزة يقضي الله بها على عدوهم، هذا مستحيل، لا بد من أن تعدَّ للأعداء عدَّتهم.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالتَّوكُّل إيمان بالله، إيمان بقدرته، إيمان برحمته، بعلمه، بحكمته، بمحبته، ثم أخذ بالأسباب وكأنها كلُّ شيء، هذا الأخذ بالأسباب برع به الغربيون، واعتمدوا على الأسباب وألَّهوها، فوقعوا في الشرك، وتركه المسلمون، فوقعوا في المعصية، يجب أن تتوكل عليه بعد أن تعرفه وأن تأخذ بالأسباب.

لا بدّ من التنويه إلى أن التوكُّل محلُّه القلب، أما الأعضاء فينبغي لها أن تسعى.

«إن الله يَلُومُ على العَجْز» [أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك].

التَّوكُّل الحقيقيُّ أن تأخذ بالأسباب وكأنّها كلُّ شيء، ثم تتوكَّل على الله وكأنَّها ليست بشيء، أنت مسافر سفراً طويلاً بمركبتك، ما هو التَّوكُّل؟ أن تراجع هذه المركبة جزءاً جزءاً، المحرك، الزيت، المكابح، أن تراجع كلَّ شيء، وأن تكون جاهزة في أعلى جاهزيّة، وبعد ذلك تقول من أعماق أعماق قلبك: يا رب أنت خير حافظاً، من السَّهل أن تأخذ بالأسباب وتعتمدَ عليها وتنسى الله، أو أن تؤلِّه الأسباب كما يفعل الغرب، ومن السهل أيضاً ألا تأخذ بها وتتوهّم أنّك متوكّل على الله.

النَّبيُّ ﷺ كان من الممكن كما نقله الله نقلة إعجازيّة من مكّة إلى بيت المقدس على البراق، أن ينتقل إلى المدينة، لكن أعطانا درساً لا يُنسى، هيّأ من يأتيه بالأخبار، هيّأ من يمحو الآثار، هيّأ من يأتيه بالزّاد، غيّر طريقه، أقام في غار ثور أياماً ثلاثة، هيّأ راحلة، هيّأ خبيراً، أخذ بالأسباب كليّة، فلما وصلوا إليه توكّل على الله، قال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك].

عليك ألا تتوكّل توكُّلاً ساذجاً، هناك توكُّل اسمه تواكل، هناك توكُّل الكسالى، وهناك توكُّل الجهلاء، الإسلام يرفض هذا التَّوكُّل، عمر رضي الله عنه لقي ناساً من أهل اليمن، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، فقال: بل أنتم المتواكلون، إنّما المتوكِّل الذي يلقي حبَّه في الأرض ويتوكَّل على الله عزَّ وجلّ [ابن أبي الدنيا، التوكل].

ثالثاً: أن تستسلم للنهاية، أنت توكلت عليه ثقة وعلماً، وأخذت بالأسباب، الآن الله عز وجل ييسر أو لا ييسر، يسمح أو لا يسمح، يجيب أو لا يجيب، أنت راض عن الله عز وجل، العلم أولاً والأخذ بالأسباب ثانياً، والرضا بقضاء الله وقدره ثالثاً.

عزيزي القارئ، موضوع التوكل موضوع كبير جداً وذكرنا ما ينبغي أن يُذْكر في هذا الحيز المحدود، لكن نرجو الله تعالى أن تُترجم هذه الحقائق إلى مشاعر وتصرفات وإلى مواقف؛ لأن الاستفادة الحقيقية من دروس أسماء الله الحسنى أن نتعامل مع الله

بطريقة أفضل وبمستوى أكبر وأن نتعامل مع الله بمعرفةٍ أساسها الطَّاعة والاستسلام لله عزَّ وجلَّ.

أيها الإخوة: ما من اسم أقرب إلى العبد من اسم الوكيل وهو على كل شيء وكيل، لذلك وكِّلِ الله وارتح ونم وأرح أعصابك ووكِّلْه وابتعد عن هذه المقلقات، فتوقُّعُ المصيبة مصيبةٌ أكبر منها، أنت من خوف الفقر في فقرٍ ومن خوف المرض في مرضٍ، والمتوكِّل على الله عزَّ وجلَّ سوف يرى أنَّ الله كفاه وأغناه وأرضاه.

الرقيب

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم منوَّناً مطلقاً، غير مضاف، وقد ورد مقترناً بمعاني العلو والفوقية، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب:٥٢].

وقد ورد هذا الاسم مقيّداً، في قوله تعالى عن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة:١١٧].

وفي آية ثالثة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

أمّا في السُّنَّة فقد جاء في الحديث الشّريف: «فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم: وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ

وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ» [البخاري و مسلم عن ابن عباس].

نستفيد من هذه الآية التي ذكرها النبي ﷺ في حديثه الشريف أن تقييم العباد من شأن رب العباد وحده، فلا تجشّم نفسك متاعب تقييم العباد فهذا من شأن رب العباد.

وعند أبي داود من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه علّمنا خُطبة الحاجة، قال: «علّمنا رسولُ الله ﷺ خُطبَة الحاجة: إِنَّ الحمدَ لله. نستعينه ونستغفره. ونعوذ به من شرور أنفسنا. مَنْ يهد الله فلا مُضِلّ له. ومن يُضْلِلْ فلا هادي له. وأشهد أن لا إِله إِلا الله. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إِن الله كان عليكم رقيبا» [أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن عبد الله بن مسعود].

تمهيد عام

لو أنّك التقيت في بيت صديق لك مع رجلٍ لا تعرفه فإنّك تسأله: مَن الأخ الكريم؟ فيقول لك: فلان بن فلان، فهل يكفي هذا لكي تعرفه حقّاً؟ إنك سألت عنه كي تعرف كلَّ شيء، فذكر لك اسمه فقط، تسأله إلى أيِّ مستوى دراسي وصلت؟ وكذلك تحبُّ أن تعرف شيئاً عن ثقافته، أو عن اختصاصه، أو عن سِنِّه، أو عمله، وهل هو متزوج؟ وكم ولداً عنده؟ وأين يسكن؟ فإن عرفت ذلك فقد توفرت لك معرفته شيئاً ما؟ فإذا قلتُ لك: إنَّ الله -جل جلاله- خالق السموات والأرض، فهذا لا يكفي؛ فأنت تحبُّ أن تعرف أسماءه وصفاته، فما من موضوع يعلو على موضوع أسماء الله الحسنى، إذْ رأس الدين معرفة الله عزَّ وجلَّ ولكن كيف تعرفه؟ هل تردد اسمه فقط؟ لا، بل لا بد من أن تتعرف إلى أسمائه وصفاته الحسنى، فلذلك مشروعية هذا البحث أنه لا يكفي أن تعرف أن الله خلق السموات والأرض، فإنَّ هذه الحقيقة يعرفها كلُّ الناس حتى بعض الكفّار، بل عُبّاد الأصنام، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت:٦١].

فالمطلوب ليس أن تعرف أن الله خلق السموات والأرض فحسب، وإنما المطلوب أن تتعرَّف إلى أسماء الله الحسنى؛ فهذه هي مشروعية هذا البحث الذي يُعد في الدعوة إلى الله كالرّأس من الجسد.

والاسم الذي نحن بصدد دراسته الآن هو (الرَّقيب)، فالرَّقيب اسمٌ من أسماء الله الحسنى. وإنَّ المؤمن إذا آمن بهذا الاسم، انعكس هذا الإيمان على سلوكه انعكاساً واضحاً صارخاً؛ فأنت إذا شعرت أنَّك مُراقَب فلا بد من أن تنضبط، فشعور الإنسان بأنه مُراقب، ولو من جهة أرضية، ولو من إنسان من بني جلدته لكنَّه أقوى منه، يجعله منضبطاً، يحسب كلّ حركة من حركاته؛ فكيف إذا أيقنت أنَّ الله جل جلاله هو الرَّقيب! قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١﴾ [النساء:١].

أيُّها القارئ الكريم، أحياناً تكون العقبةُ عقبةَ معرفةٍ، لأنَّ فطرة الإنسان تُعينه إذا عرف، فحُبُّ السَّلامة، وحُبُّ الفوزِ والكسب في الإنسان، كافِيان لحَملِهِ على طاعة الله فيما لو أيقن أنَّ الله رقيبٌ عليه، فالمراقبة حالٌ ذكره العلماء كثيراً؛ هذا الحال يُشعِرك أنَّ الله معك دائماً، وفي الحديث الشّريف أنّ رسول الله ﷺ قال: «... فقال رجل: و ما تزكية النفس؟ فقال: أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان» [البيهقي في السنن].

من معاني اسم الله (الرقيب)

الرَّقيب في اللغة، على وزن فعيل بمعنى فاعل. أي الموصوف بالمراقبة، فعله رقَب، يرقُب، رقابة، أمَّا الرَّقابة فتأتي بمعنى الحفظ، والحراسة، والانتظار، مع الحذر والتَّرقُّب.

وفي القرآن الكريم: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ [طه:٩٤].

الرَّقيب في اللغة بمعنى المُنتظِر، قال تعالى: ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ۝٩٣﴾ [هود:٩٣].

﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ ﴾ أي: انتظروا، فالرَّقيب هو المُنتظِر. ورقيب القوم هو الحارس الذي يُشرف على مراقبة العدوّ. ورقيب الجيش: طليعته. والرَّقيب هو الله الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء:١].

إذا أيقنت أنَّ الله يعلم، فقد حُلَّت كلُّ مشكلاتك؛ ألم يقل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢].

فالله اختار من بين أسمائه اسمين فقال: ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ فإذا علمت أن الله يعلم، فبدافع فِطرتك، وبدافع حُبك لذاتك، وبدافع رغبتك في السَّلامة والكسب والتفوُّق، تستقيم على أمره.

زرتُ مرَّةً محلَّاً تجاريَّاً كي أشتري بعض الحاجات فلم أجد حاجتي، فقال لي صاحب المحلّ: حاجتك موجودة ولكن في الطَّابق الرابع، فوجدت محاسِباً يجلس إلى طاولة وأمامه آلة تصوير، فقد وضع صاحب المحل جهاز مراقبة عليه، فهذا العامل لا يستطيع أن يتحرَّك ولا أن يأكل ولا أن يتمطَّى لأنَّه مراقَب من طرف هذا الشَّخص، كما أنَّ مديرية المرور تكتب أحياناً: الطَّريق مراقَب ليلتزم السّائقون بالسّرعة المحدّدة، فالمراقبة هي التي تجعل الإنسان يقِظاً حذِراً.

في الإدارات الحديثة صار البناءُ كلُّه وحدة صوتيَّة ومرئيَّة، فبإمكان المدير أن يرى كلَّ الموظفين، دخلت بعض المعامل فوجدت كلَّ الغرف مفصولاً بينها بألواح زجاج فقط، فالمدير العام يرى كلَّ الموظفين؛ ولكنَّ المراقبةَ من الإنسان شيء والمراقبةَ من الواحد الدَّيَّان شيء آخر. لذلك بعض العلماء أشاروا إلى حال المراقبة، المؤمن الراقي يشعر دائماً أن الله يُراقبه، وأنه تحت المراقبة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر:١٤].

فالرَّقيب هو المنتظِر؛ والرَّقيب هو الحارس؛ ورقيب الجيش هو طليعته؛ والرَّقيب هو الله تعالى الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء. قال أبو بكر: «ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته» [رواه البخاري] أي: راقبوا وانتبهوا أن تؤذوه في آل بيته واحفظوه فيهم؛ والرَّقيب كذلك هو الخَلَف يقال: نِعم الرَّقيب أنت لأبيك، هذه كلّها معاني الرَّقيب؛ والترقّب، أي: الانتظار، وارتَقَبه: رَصَده، والرُّقُوب الدَّوام على وجه الحفظ، يقال: رقَبتُ الشيءَ، أرقبه: إذا راعيته وحفظته ورصدته، والرَّقيب من الناس الموكَّل بحفظ المُتَرَقَّب، ويقال للملَك الذي يكتب الأعمال ويحفظ الأقوال: رقيب، وفي القرآن الكريم: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق:١٨].

والرَّقيب: العليم، وراقبْتَ الله إذا علِمتَ أنَّه مطَّلع عليك فراعيْتَ حقَّه، هذا كلُّ ما ورد في اللغة عن معنى الرَّقيب ولا بأس من تكرار ذلك لمزيد الفائدة، فهو الذي ينتظر، والحارس، وطليعة القوم، والخَلَف، والرَّاصد، والراعي، والحافظ، والمَلَك الموَكل بكتابة الأعمال، وحفظ الأقوال هو الرَّقيب.

إذا قلنا: الله هو الرَّقيب؛ فماذا تعني هذه الجملة؟ أي أن الله هو الذي يعلم أحوال العباد ويعُدّ أنفاسهم. والله الذي لا إله إلا هو، وأنت مستلقٍ على فِراشك لو خَطر لك خاطر أنْ غداً سأفعل كذا، يجب أن تؤمن وأن تعلم وأن تعتقد اعتقاداً جازماً قطعيّاً، أن هذا الخاطر اطَّلع الله عليه، ولا يستطيع من العباد أياً كان أن يفعل ذلك، إذْ لو أنَّك رأيت شخصاً مستلقياً على فراشه فلا يمكنك أن تقرأ أفكاره، الله ستر أفكارك وأحوالك عن الناس. والنَّاس لهم الظاهر، لكنَّ الله هو الخبير بالسَّرائر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق:١٦].

إنَّ هذا الاسم من أقرب الأسماء إلى المؤمن؛ إنَّك إن اعتقدت أنّ الله هو الرَّقيب فمن اللوازم القطعية للإيمان بهذا الاسم الاستقامةُ على أمره؛ ومتى استقمت على أمره؛ انتهى كلُّ شيء لقوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء:١٤٧].

فيُمكنك عند إرادة حقيقة هذا الاسم أن يكون سبب سعادتك الأبدية، آمنت أنه يراقبك، فاستحييت منه، ولَزِمت أمره؛ فسَعِدت في الدنيا والآخرة. فقد يكون اسم الرَّقيب وحده وأثره الإيجابي فيك سببَ سعادة الدَّارين؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ۝١ ﴾ [النساء:١]، فالمؤمن في بيته مُراقَب، وفي عمله مُراقَب، وهو يعالج المريض مُراقَب، وهو يرفع مذكَّرة للقاضي مُراقَب؛ فمثلاً إن كنت محامياً أتقنت عملك ودافعْت عن هذا الموكِّل دفاعاً قوياً، وراجَعت القوانين كلَّها؛ وإن كنت طبيباً عالجتَ هذا المريض معالجة مُتقنة، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ۝١ ﴾ والله الذي لا إله إلا هو لو أنَّ الإنسان عرف الله حقَّ المعرفة، لحاسب نفسه حساباً عسيراً، لأنه تعالى مُطَّلِع عليه.

إذا كان طبق فاكهة موضوعاً أمام جماعة من الناس، أليس من تمام المراقبة أن تؤثر أخاك وتجعل الحبَّة الكبيرة له؟ لأنك تحت مراقبته في تفكيرك وحركتك، لكنَّ الله تعالى لطيف في رقابته ومعاملتك، أحياناً تكون مع شخص فتتضايق نفسك منه، لكنَّ الله معك دائماً، ودون أن يُزعِجك، وهو معك بلطفه فمن أسمائه اللطيف، فهو معك في بيتك، وعملك، وسفرك، وحضَرك، وفي خلوتك، وجلْوتك، ومع زوجتك، وأولادك، وعند كل كلام تقوله معك يراقبك لكنه لطيف.

الرَّقيب في حق الله؛ هو الذي يعلم أحوال الناس ويعدُّ أنفاسهم؛ وقيل: الحفيظ الذي لا يغفل، والحاضر الذي لا يغيب؛ قد تعرف بعض الأشخاص الأقوياء فتكون لديك أرقام هواتفهم، وربما تقع في حرجٍ في وقت ما فإذا اتَّصلت بأحدهم فيقال لك مثلاً: لقد سافر، فيُسقَط في يدك، وذاك هاتفه مغلق، وأنت في أشدِّ الحاجة إليه، فتأكل أصابعك لسوء حظك، لكنَّك لو اعتمدت على الله فهو دائماً معك في السَّراء والضَّراء، قل: يا رب، يقلْ لك: لبَّيْك عبدي. لن تحتاج بهذا إيصالاً أو قَسَماً أو مذكَّرة أو شهادة، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ﴾ [طه:٧].

اعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك؛ هذا مقام الإحسان. فاسم الرَّقيب يرفعك إلى مقام الإحسان، اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والإنسان

يستحيي؛ في كل أسرة من أُسَرِنا هناك كبير القوم متقدِّم في السِّنِّ ومثقَّفٌ أحياناً، ذو وجاهة ومعتدلٌ وحليم، لو أنَّ هذا الإنسان زارك في العيد، كيف تستقبله؟ كيف تحدِّثه؟ وكيف تجلس معه؟ إنه من عِلْيَة القوم، فتجد أنك تراقب نفسك في الكلام؛ وتنتقي أفضل الثياب، وتجلس جلسة مؤدَّبة فيها توقير، إذا كان كلُّ هذا مع إنسان مثلِك فكيف مع الواحد الدَّيَّان؟ فكلما ارتقى مقام الإنسان دخل في حال المراقبة مع الله عزَّ وجلَّ؛ فهو الحفيظ الذي لا يغفل والحاضر الذي لا يغيب، العليم الذي لا يَعزُبُ عنه شيء من أحوال خلقه، قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحاقة:١٨].

الإنسان مكشوف؛ إذ لا شيء يمكنك أن تخفيه عن الله عزَّ وجلَّ، أما عن البشر فأنت تخفي عنهم ألف شيء وشيء، تخفي عنهم ألف شعور، وألف فكرة، وألف قضيَّة، وألف سرٍّ، تبقى صامتاً ولا يعلم أحد شيئاً عنك أحياناً، لكن تكلُّمك وصمتك عند الله سواء، وبَوْحُك وكِتمانك عند الله سيَّان، إعلانك وإخفاؤك عند الله سواء لأنَّه رقيب.

وقيل: الرَّقيب؛ هو الذي يرى أحوال العباد ويعلم أقوالهم؛ وقيل: الذي يراقب عباده، ويُحصي أعمالهم، ويحيط بمكنونات سرائرهم، ولا يغيب عنه شيء. هذا من معاني اسم الرَّقيب، والإنسان إذا تحقق من اسم الرَّقيب، كان في حالٍ آخر، يستحي من الله عزَّ وجلَّ.

وقال بعضهم: الرَّقيب: هو المطلّع على الضمائر، والشَّاهد على السَّرائر، والرَّقيب يعلم ويرى، ولا يخفى عليه السِّرُّ والنَّجوى.

وقال بعضهم: الرَّقيب: الحاضر الذي لا يغيب، بل رقابتُه قديمة مستمرة. ولهذا قيل: الرَّقيب الذي يسبق علمه جميع المحدثات، وتتقدَّم رؤيته جميع المكونات.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها اسم (الرقيب)

ومن ثَمَّ فاسم الرَّقيب ذكره الله في القرآن الكريم في ثلاثة مواطن: ففي فاتحة سورة النساء قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن الكريم إلا الآيتان التاليتان لكفَتا.

رجل جاء ليتعلَّم من النَّبي ﷺ فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧-٨] فقال: يكفيني هذا وانصرف، فقال النبي ﷺ: «انصرف الرجل وهو فقيه»(١).

فوالذي نفسي بيده أكاد أقول: إنَّ هذه الآية وحدها تجعل الإنسان فقيهاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ هل تستطيع أن تكذب مع هذه الآية؟ وهل تستطيع أن تُدلِّس؟ وأن تغُش؟ وأن تحتال؟ وأن توهِم؟ وهل تستطيع إيذاء الخلق؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾، إذا كنت مراقَباً من قِبَل مخلوق تجد أنَّك تتجنَّب كلَّ ما يؤدي للهلاك فكيف إذا كنت مراقباً من قِبَل الخالق؟

مقام المراقبة يصل بك إلى سعادة الدَّارين الدنيا والآخرة.

والآية الثانية ذكرت في سورة المائدة على لسان سيدنا عيسى عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة:١١٧].

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمرو قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله... الحديث وفيه: فأقرأه رسول الله ﷺ إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل: والذي بعثك بالحق! لا أزيد عليها أبداً ثم أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل أفلح الرويجل» ولأحمد والنسائي في الكبرى من حديث صعصعة عم الفرزدق أنه صاحب القصة فقال: «حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها».

والآية الثالثة: في سورة الأحزاب، قال تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾ [الأحزاب:٥٢].

تُروى قصة مشهورة ذكرها الإمام الرازي: أن أحد الشيوخ كان له جمْع من التلاميذ، وكان قد خصَّ واحداً منهم بالعناية الزائدة، فسَأله بقية التلاميذ عن سبب عنايته الزَّائدة به، وذلك لشدَّة غيرتهم من هذا التلميذ الصغير، وقالوا له: لماذا تخصه بهذه العناية؟ فقال: سأبيِّن لكم ذلك؟ أعطى لكل واحدٍ منهم طائراً وقال له: اذبح هذا الطائر حيث لا يراك أحد؛ فمضَى كل واحدٍ منهم إلى جهةٍ ثم رجع إلى شيخه وقد ذبح الطائر، ما عدا ذلك التلميذ الصغير، فقد رجع إلى شيخه والطائر في يده، وقال: أنت يا سيدي أمرتني أن أذبح الطائر حيث لا يراني أحد، ولم أجِد موضِعاً لا يراني الله فيه، فالتفت الشيخ إلى بقية التلاميذ وقال: من أجل هذا خصصته بمزيدٍ من العناية.

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى ... أما تخشى من عُتْبنا يوم جمْعِنا
أما آن أن تُقلِعْ عن الذنب راجِعاً ... إلينا وتنظر ما به جاء وَعْدنا
فيا خجلتي منه إذا ما قال لي ... أيا عبد سوءٍ أما قرأت كتابنا

نصيب المؤمن من اسم الله (الرقيب)

ذكر الإمام الرازي أنَّ حظَّ المؤمن من اسم الرَّقيب: مراقبة العبد لنفسه وأساسها أن يعلم أنّ الله مطَّلع على نياته وقلبه ودخائل نفسه، وأن يستحضر من مراقبة الله له أنّ الله تعالى معه دائماً، ويراقبه في كل أحواله وحركاته وسكناته وقال: هذه المراقبة مفتاح كل خير، لأنَّ العبد إذا أيقن أنَّ الحق مراقِب لأفعاله، مُبصِر لأحواله، وسامع لأقواله، مُطَّلع على ضمائره وخفاياه، خاف عقابه في كلِّ حال، وهابه في كل مجال، علماً منه بأن الرَّقيب قريب، وهو الشاهد الذي لا يغيب، ولذلك قال أحد العلماء: إن الرَّقيب الذي هو من الأسرار قريب، وعند الاضطرار مجيب.

قال أحد العلماء حينما عقد بحثاً حول مقام المراقبة قال: إن أدب المؤمن مع الله الرَّقيب؛ أن يعلم أن الله رقيبه وشاهده في كل شيء، ويعلم أنَّ نفسه عدوة له، وكذلك الشَّيطان اللعين عدوٌّ متربِّص، وهما ينتهزان منه كل فرصة حتى يحملاه على الغفلة والمخالفة؛ وعليه أن يأخذ حِذره منهما، ويسدَّ عليهما المنافذ والمداخل، حتى لا يقع في فخٍّ واحدٍ منهما، هذا هو أدب المؤمن مع الله في اسم الرَّقيب.

ومن أدب المؤمن في هذا المجال أن يراقب نفسه وحِسَّه وأن يرقب حتى أنفاسه، ويجعل عمله خالصاً لربه بنيَّة طاهرة في أعماله، ويراقب ربَّه في أخيه فلا يُظهر عيْبه.

ويقول ابن عطاء الله السكندري عن اسم الرَّقيب: أفضل الطاعات مراقبة الله على الدوام وفي كل الأوقات.

وقال أبو حفص: إذا جلستَ للناس فكُن واعظاً لنفسك وقلبك ولا يغرنَّك اجتماعهم عليك؛ فإنهم يراقبون ظاهرك، والله رقيب على باطنك.

فالمؤمن الصَّادق؛ يرى أنَّ الله معه، ويراقبه، ويحاسِبه فيَسْتحي منه، فالمحبُّون لله عزَّ وجلَّ لهم أحوال مع الله لا تُوصف، مناجاتهم له وتأدُّبهم معه، فهناك من يتزيَّن قبل أن يصلي لأنه سيقف بين يدي الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف:٣١].

وفي الحديث الشّريف: «إذا صلَّى أحدكم فليلبس ثوبيه، فإنَّ الله أحق من تُزُيِّن له» [البيهقي في السّنن الكبرى عن ابن عمر].

أنا لا أقول هذا انتقاداً لأحد، لكنك تجد بعض الناس يأتي إلى المسجد بأقلّ ثياب عنده، في حين عند أقل حفلة تجده يرتدي أجمل الثياب، المسجد بيت الله، ويوم الجمعة عيد وأنت ضيفه، ومن السنّة الاهتمام بهذا اليوم، بهذا العيد.

يُروى أن عبد الله بن عمر مرَّ بغلام يرعى غنماً فأشار لإحدى الشياه وقال: بعِني هذه الشاة يا غلام، فأجاب الغلام: إنها ليست لي. فقال ابن عمر: قل لصاحب الغنم:

إن الذئب أكل واحدةً منها، فقال الغلام: فأين الله؟ أقول تعليقاً على هذه القصَّة: إنَّ هذا الغلام الراعي وضع يده على جوهر الدين، وأدرك بحسِّه جوهر الدين، ولو أنَّ ثقافته محدودة، فهذا راعٍ وقد تجد إنساناً عنده مكتبة من أربعة جدران، بحيث تعجب لحجمها وتقول: هذا عالِم كبير. فوالله لو أكل درهماً حراماً فلا قيمة لكلِّ هذا العلم؛ ولكنَّ هذا البدويَّ الراعي قال: أين الله؟ نحن بحاجة في هذه الأيام إلى أشخاص كهذا الراعي، بحاجة إلى وَرَع، وإلى مسلم يقيم الإسلام حقيقةً؛ إلى بيت مسلم، وزوج مسلم، وزوجة مسلمة، وأولاد مسلمين، وإلى صدق، وأمانة، وإخلاص دون غش، ولا كذب، ولا تدليس، هذا النموذج وهو ساكت يُعَدُّ أكبر داعية، والذي يصيح في النَّاس صباحاً ومساءً يا أيها الناس اتقوا ربكم؛ وهو لا يتقِّي ربه؛ فهذا أكبر منفِّر؛ فالإنسان المستقيم والملتزم والتَّقيُّ، ولو كان ساكتاً، هو أكبر داعية؛ والفصيح المتكلِّم، والمتحدِّث اللَّبِق؛ والخطيب المفوَّه؛ إن لم يكن ورِعاً، فهو أكبر منفِّر؛ فالقضية عند الله في الصدق، والإخلاص، والتطبيق؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾، هل يمكن لمؤمن يعمل خبَّازاً أن يدخل إلى دورة المياه ولا يُغسِّل يديه بعد خروجه؟ المؤمن لا يفعل هذا؛ لأنَّ العجين سيصبح خطراً على الناس، الأمر الذي جعل المؤمن يتصرف هكذا، هو الوازع الداخلي، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾.

أذكر أنني ألقيت يوماً في المسجد درساً حول الأمانة وقلت: ليس الأمين الذي يؤدي ما عليه إذا كان هناك إيصال، أو سند، أو شهود، أو حساب ثابت، فهذا سلوك مدني، لأنه إذا لم يؤدِّ فالطرف الآخر أقوى منه لوجود السند، ودعوى، وقضاء، وتشهير، أما الأمين عند الله؛ فهو الذي يؤدي ما عليه دون أن يكون مُداناً في الأرض. ولقد جاءتني ورقة وأنا ما زلت في المسجد قال فيها صاحبها: والله يا أستاذ أدّيت عشرين مليون ليرة لورثَةٍ، وهم لا يعلمون عن هذا المبلغ شيئاً إذ مات أبوهم والمبلغ عندي، لأن الله رقيبٌ عليه؛ هذا هو المؤمن، وهناك آباء كثيرون أموالهم في مكان لا يُعلِمون بها أولادهم ولا أزواجهم؛ فإذا مات فجأةً مات معه السّرّ؛ هناك أُناس كثيرون

يعانون من هذا، ويقولون: مات والدنا ولا نعلم عن أمواله شيئاً؛ فالذين لديهم أموال غيرهم إذا كانوا من الذين فقهوا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾ سيأتون إلى الورثة بالمال ويقولون: هذا مال أبيكم.

هذا هو الإيمان، الإيمان يصنع المعجزات، لو أننا شعرنا أن الله رقيبٌ علينا لاستقامت حالُنا جميعاً؛ هل يستطيع بقّال مؤمن إذا وقعت فأرة في صفيحة زيت أن يبيع الصفيحة؟ لا يستطيع! هل تستطيع أن تُخفيَ عيب بضاعتك؟ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾، هل يمكن أن تضع مادةً مسرطنة لغِذاء حتى ترفع ثمنه؟ لا تستطيع، وهل تستطيع أن تضع هرمونات لنَبْتة كي تكبر بسرعة حتى يكون ثمنها مضاعفاً؟ هذه مادة مسرطنة لا يمكن استعمالها إلا تهريباً؛ لو آمنَّا بهذا الاسم لأُلغِيَ الغش من حياتنا جميعاً؛ وهل يستطيع المحامي أن يقدِّم مذكَّرة للقاضي وهو يعلم أن مُوَكِّله كاذب؟ لا يستطيع، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾، وهل يستطيع الطَّبيب أن يرى من المرأة موضعاً غيرَ الموضع الذي تتألَّم منه المريضة؟ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾، لقد رأيت أطباء ملتزمين يقومون بوضع رداء فيه فتحة صغيرة على المريض كي يُشَخِّصوا موضع الألم فقط، هل تستطيع إن كنت مؤمناً وكنت في بيتك وحيداً، وخرجت جارتك تنشر غسيلها بالشرفة المقابلة لك، وهي بثياب متبذلة، وهي في النور وأنت في الظل ولا يراك أحد؛ هل تستطيع أن تنظر وأنت تتذكر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾.

أخ يحضر مجالسنا وهو يعمل في دائرة؛ كان يحضر مجلس علم قصير في كثير من أيام العمل، وفي آخر الشهر طلب إجازة لمدة ستة أيام من رئيسه وقال: لقد استهلكت هذه الإجازة فقال: كيف؟ قال: لأنّني كنت أحضر في بعض الأيام درساً قصيراً عقب صلاة الظهر فجَمعت هذه الساعات فإذا هي بمُعدَّل ستة أيام؛ فوقع رئيسه في دهشة وإعجاب، من هذا النموذج من الشباب ثم قال لي: والله يا أستاذ: لما قَدِمت لحضور الدَّرس القادم وجدت رئيسي في العمل حاضراً درس المسجد. هذه هي التربية الراقية؛

تقديم طلب إجازة جعل المدير العام يحضر مجلس علم، هكذا الدين كلما ازددت مراقبة الله كنت أكثر ورعاً، وأقول لكم مرَّة ثانية: يمكنك أن تكون أكبر داعية في الأرض وأنت ساكت؛ وذلك بأمانتك؛ واستقامتك وإتقان عملك.

هناك أطباء من إخواننا أجروا عمليات معقدة جداً، وبعض العمليات لهم فيها أجر كبير، وبعضها الآخر لا يتقاضون عليها أجراً، أسمع عنهم أن عنايتهم بالفقراء لا تقل فتيلاً ولا قطميراً عن عنايتهم بالذي سيدفع مئتي ألف أجرَ العملية، إذاً بعض العمليات مجانية وذلك لفقر أصحابها، العناية واحدة والإتقان واحد؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾، وهل يمكن لمدرِّس مؤمن أن يهمل التلاميذ من أجل ضآلة الرَّاتب؟! لذلك هذا الاسم يمكن أن يُطبّق في الكثير من الحالات، إذا آمنتم أن الله رقيب فسينعدم الغش والكذب.

العلماء يرون أنَّ المراقبة حال يصير العبد فيه ذاكراً الله بقلبه؛ إنْ شُغل لسانُه، لأن الله مطلّعٌ عليه دائماً؛ وشعور العبد أن الله مطلّعٌ عليه سموٌّ وارتقاء إلى الله؛ فلتكن أيها القارئ الكريم من أهل المراقبة.

سئل بعض القوم: بمَ يستعين الرجل على غضِّ بصره عن المحظورات؟ ففي الطّريق بعض النساء يُبرزن أحسن ما في أجسامهنَّ وتراهنّ عاريات من الطراز الأول، فكيف تغضّ بصرك؟ قال: لعلْمه أن رؤية الحق تعالى سابقة على نظره؛ علمُك أن الله يراقبك هذا أسبق من نظرك إلى الحرام؛ فبهذا تغض بصرك وتستحي من الله، وكثير من صالحي العباد لا يجتمعون مع امرأة في مصعد واحد، وينتظر عودة المصعد أو يصعد الدرج ماشياً لأنَّ المؤمن عفيف؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾.

الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ ﴾ [العلق:١٤].

قال عبد الله بن المبارك لرَجل: راقِبِ الله تعالى فقال: كيف ذلك؟ قال: كن أبداً كأنك ترى الله تعالى، (اللهم! اجعلني أخشاك حتى كأنني أراك أبداً)، وبعضهم كان

يدعو بهذا الدعاء: إلهي أنت الرَّقيب لحركات الأكوان، العليم بخطرات قلوب الإنس والجان، أشرِقْ على قلبي بنور اسمك الرَّقيب، حتى تتزكى نفسي فتتحلى بالتقريب، وامنحني عيوناً تراقب نِعَمك الظاهرة، وتلاحظ أسرارك الباهرة.

فحال المراقبة حال تام وارتقاء إلى الله، إذا وصلْت إليه أوْصلك إلى الجنَّة، وسعدت في الدنيا والآخرة، لأنَّ من لوازم هذا الحال الاستقامةَ على أمره، والاستقامةُ على أمر الله سبب الجنَّة.

الحسيب

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم مطلقاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦)﴾ [النساء:٨٦].

فالله سبحانه وتعالى من فوق عرشه حسيب باسمه وبصفته، له الكمال المطلق في محاسبته لخلقه، وله الكمال المطلق في علوِّ شأنه، وقد ورد هذا الاسم أيضاً مقيَّداً في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)﴾ [النساء:٦].

من معاني اسم الله (الحسيب)

«الحسيب» على وزن فعيل وهذا الوزن من صيغ المبالغة، والفعل، حَسَبَ، يحسُبُ، حساباً وحُسباناً، ولكن دقة اللغة في حَسِبَ ويحسِبُ، ظنّ، ويظنّ، وفي حسَب يحسُب، عدّ يعُد وفي حسُب يحسُبُ، أي كان ذا حَسَبٍ.

واسم الفاعل حاسب، وصيغة المبالغة حسيب، حينما نصف إنساناً بأنه يحاسِب غيره فهو حاسب (اسم فاعل)، لكنّ الله حسيب.

من معاني الحسيب: المكافِئ، ومن معانيه أيضاً: الاكتفاء؛ والمكافئ هو المثيل، نقول: فلان حسيب فلان، أي: مكافِئه ومثيله ونِدُّه؛ والحسيب أيضاً: الذي يكفي، من الاكتفاء، فالله -سبحانه- هو الكافي تقول: أكرمني فلان وأحسبني، أي: كفاني، وأعطاني فوق ما أريد. وتقول: حسبي الله ونِعْمَ الوكيل، أي: أن الله سبحانه وتعالى كافيني؛ أما حُسبانك على الله: بمعنى حِسابُك على الله؛ فالمعنى الأول: المكافِئ. والمعنى الثاني: الكافي. والمعنى الثالث: المحاسِب. من النِّدِّيَّة والمِثليَّة، ومن الاكتفاء، ومن الحِساب. ويكون معنى الحسيب في حق الله تعالى في أعمق معانيه: الكافي؛ تقول: حسبي الله ونِعْم الوكيل، أي: يكفيني ولا أحتاج إلى غيره. فالعباد كلُّهم لو أطاعوا الله عزَّ وجلَّ، كَفاهم أمر دنياهم وآخرتهم.

والحسيب: هو السيِّد الذي عليه الاعتماد. وليس في الوجود حسيبٌ سواه. فقد تعتمد على إنسان يحبُّك، ولكنَّه ضعيف لا يستطيع أن يُنجيك ممَّا أنت فيه، وقد تعتمد على إنسان قويٍّ، ولكنَّه لا يحبُّك. وقد تعتمد على إنسان قويٍّ ويُحبُّك، ولكنَّك لا تصِلُ إليه.

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر:١٤].

فمن اعتمد على غير الله، ضلَّ، ومن اعتمد على غير الله، ذلّ. ومن اعتمد على ماله افتقر، ومن اعتمد على عزِّ إنسان، أُذِلّ.

اجعل بربك كل عزِّك يستقرُّ ويثبت
فإذا اعتززت بمن يموت فإنَّ عِزَّك ميِّتُ

الحسيب: الكافي. والحسيب: النِّدُّ. والحسيب: المحاسِب. وليس في الوجود حسيب سواه، فأقوى قَوِيٍّ في الدُّنيا لو اعتمدت عليه، ربَّما توفَّاه الله وأنت بأمسِّ الحاجة إليه، وربما تغيَّر عليك فجأةً بلا سبب، وربما تنكَّر لك. لذلك من الشِّرك؛ أن تعتمد على غير الله، كلمة حسبي الله ونِعم الوكيل، أي: أنّ الله يكفيني وهو القويُّ. هو

الرَّزَّاق، هو الغنيُّ، هو العليم، هو الكريم، هو السَّميع، هو المجيب، هو الرَّؤوف، هو الرَّحيم، هو المُعطي، هو المانع، هو الرَّافع، هو الخافض، حسبي الله ونِعم الوكيل، أي: أنّ الله يكفيني.

مثَلاً: إذا تعيَّن إنسان بوظيفة دوامها ثماني ساعات، وراتبه الشَّهريُّ ثلاثة آلاف ليرة؛ فهذا لا يكفي للعيش، تجده يبحث عن عَملٍ آخر، وعن طريقة أخرى لكسب المال فهذا المال لا يكفيه، إذاً يبحث عن جهةٍ أخرى. لكنّك إذا اعتمدت على الله كفاك، وأغرقك بالنَّعيم، وطمأنك، كفاك وشَرَّفك، كفاك ورفعك، كفاك وأعزَّك، فكلمة حسبي الله ونعم الوكيل من أفضل الأذكار، وهي من أذكار النبي ﷺ. فإذا سعى الإنسان لجهة ولم يوفَّق فيها؛ ماذا يقول؟ حسبي الله ونِعم الوكيل. وإذا سلك طريقاً ثم رآه مسدوداً؛ فماذا يقول؟ حسبي الله ونِعم الوكيل. والمؤمن يرضى بقضاء ربه، ويعلم علم اليقين أنَّ هذا الطريق ليس في صالح آخرته، لذلك وضع الله أمامه العراقيل والنَّبيُّ ﷺ علَّمنا، فقد كان إذا رأى ما يحبُّ قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات» وإذا رأى ما يكره قال: «الحمد لله على كلِّ حال» [ابن ماجه، عن عائشة] ليس في الوجود حسيبٌ سواه.

﴿ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ ﴾ [يونس:٣٢].

إذ إنَّه لا جهة غير الله تُغني، إمَّا أن تكون مع الله فأنت المكتفي، وإما أن تبتعد عنه فأنت في فقرٍ دائم. وأنت من خوف الفقر في فقر. وأنت من خوف المرض في مرض. وتوقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبرُ منها. حسبي الله ونِعم الوكيل، وليس في الوجود حسيبٌ سِواه.

وقالوا: الحسيب هو الذي انتهى إليه كل شَرَفٍ في الوجود، وهذا معنى رابع تقول: فلان حسيب نسيب، بمعنى مُشرَّف ومكرّم. فأول معنى للحسيب: النِّدّ. والمعنى الثاني: الكافي. والمعنى الثالث: المحاسِب. والمعنى الرابع: الشَّريف. يكفيك شَرَفاً أن تنتسب إلى الله، قال تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ﴾ [إبراهيم:٣١].

ملاحظة: هذه الياء ياء الإضافة وليست ياء النَّسب، ياء النسب كقولك (دمشقيٌّ) نسبةً إلى دمشق، والله أعلم.

وإذا قلنا: ياء نَسَب، أي: منسوب إلى الله عزَّ وجلَّ، أي: نسبة تشريف وتكريم، قال تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [إبراهيم:٣١].

وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣].

فأنت منسوب إلى ذات الله عزَّ وجلَّ نسبك الله إليه وشرَّفك وكرَّمك قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء:٧٠].

فالله صانك فلا تتبذّل. ورفعك فلا تسقط. وشرَّفك فلا تسْفُل. وأعزَّك فلا تذِلّ. وأعطاك فلا تنصرفْ عنه، ولا ترجُ غيره، ولا تتوجهْ إلى سواه.

وقيل: الحسيب الذي يحاسِب عباده على أعمالهم، وهذا المعنى مرّ قبل قليل؛ يحاسِب الطائعين فيُثيبهم على طاعتِه، ويحاسب العاصين فيُجازيهم على معصيتهم، وهو حسيب كلِّ إنسان، فالله هو المحاسِب، وحسابه دقيق، ويحاسب على أدق الدقائق، وعلى أدق الكلمات، وعلى أدق الذَّرَّات قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وإذا أيقنت أنه سيُحاسبك فلا بد أن تخاف منه، وإذا خِفت منه استقمت على أمره، وإن استقمت على أمره أقْبلت عليه، وإن أقبلت عليه سَعِدت بقُربِه، وإذا سعدت بقُربه اسْتغنيت عن الدنيا وما فيها بعد أداء الأسباب، ومن عرف الله زهِد فيما سواه. الحسيب: النِّد. والحسيب: الكافي. والحسيب: المحاسب. والحسيب: الشريف. وكل هذه المعاني لها وجوه تليق بجلال الله وذاته.

بعض العلماء ذكر أنَّ الحسيب فيه ثلاثة وجوه: الأول: أنه الكافي، والعَرَب كانت تقول: نزلت بفلانٍ فأكرمني ما كفاني. سألت امرأةٌ يزيدَ بن المهلب أن يُعطِيَها من ماله فأعطاها وأجْزَل؛ فقال له من في حضرته: لقد كان يكفيها القليل وهي لا تعرِفك، فقال هذا الأمير: إذا كان يرضيها القليل، فأنا لا أرضى إلا بالكثير. وإن كانت لا تعرفني، فأنا أعرِف نفسي.

فإن قلت الله حسيب: بمعنى يُعطيك عطاءً عظيماً، إذا عاش الإنسان ثلاثاً وستين سنة، وأطاع فيها الله عزَّ وجلَّ فهو عاش كعُمُر النبي ﷺ وفي الأربعين تاب إلى الله تعالى واستقام فيكون قد أطاع الله تعالى ثلاثاً وعشرين سنة فإنّه يستحقُّ جنَّة إلى أبد الآبدين؛ فما معنى جنَّة إلى أبد الآبدين؟ وما معنى الأبد؟ العقل لا يمكن أن يتصوّر معنى الأبد، ذلك لأنه لا يفهم إلا حجماً معيّناً، ووقتاً معيَّناً؛ أما الأبد فلا يفهمه. بعض المجرَّات تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئيّة، والضّوء يقطع في الثَّانية الواحدة ثلاثمئة وستين ألف كيلومتر تقريباً، فإذا كان أحدنا في الأرض وافترض أنّ هناك رقم (واحد) في الأرض، وأنَّ هناك أصفاراً إلى هذا النَّجم فما قيمة هذا الرقم؟! هذا الرقم قيمته صفر إذا قيس إلى ما لا نهاية، وهذا الأبد في النعيم ثمنه أن تطيع الله سنوات معدودة فقط، وهذا هو معنى المُعطي فهو يعطي ويُجزل في العطاء. خلقك لجنة عرضها السموات والأرض؛ على أن تُطيعه في هذه الحياة الدنيا. ومن نعمته أنَّه ما حرمك شيئاً وكلُّ شهوة أوْدَعها فيك، جعل لك طريقاً نظيفاً للتَّمتُّع بها، فسبحانه وتعالى ما حَرَمنا النساء بل أمرنا أن نتزوَّج. وما حرمنا المال بل أمرنا بالعمل، وحرَّم عليك الكذب، والزنا، والخمر، والمعاصي التي لا تليق بالإنسان؛ فهذه الطاعات ثمنها الجنّة، إذاً هو الكافي يُعطي فيكفي.

يقول سيدنا علي رضي الله عنه: يا بني ما خيرٌ بعده النار بخيرٍ، وما شرٌّ بعده الجنَّة بشرٍّ، وكلُّ نعيم دون الجنة محقور، وكلُّ بلاء دون النَّار عافية. فالعطاء في الدّنيا لا يمكن أن يُسمَّى عطاءً؛ لأنه ينتهي بالموت، فكلُّ إنسانٍ له قريب وصديق وجار ثم تراه جثة هامدة وبعد ساعتين في القبر. أين غرفة النوم؟ وسيارته ومكانته؟ ومنجزاته؟ كل هذا

انقطع، أيُّها القرَّاء الكرام: لا يمكن أن يُسمَّى عطاء الدنيا بالنسبة إلى عطاء الله في الآخرة عطاءً؛ لأنها عَرَضٌ حاضر يأكل منه البَرُّ والفاجر، والآخرة وعْد صادق يحكم فيه مِلك عادل.

عَنْ سَهْلِ بْن سَعْدٍ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيا تَعْدِلُ عِنْد الله جَناحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ ماءٍ» [رواه الترمذي].

هذا كلام مَنْ؟ كلام مَن لا ينطق عن الهوى، فإذا رأى أحدنا بيتاً ضخماً جداً، أو مركبة فخمة جداً، أو بستاناً رائعاً، أو مركزاً تجارياً كبيراً، وقال: هنيئاً له فقد عظّم شيئاً حقيراً، قال تعالى واصفاً قارون ومن اغترَّ به عندما خرج على قومه في زينته: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص:٧٩-٨٠].

فالحسيب: هو الكافي فإذا قلت: حسبيَ الله ونِعم الوكيل؛ يكفيك مؤونة الدنيا والآخرة، ويكفيك كلَّ الهمِّ، مهما ضاقت عليك السُّبُل ومهما أُحْكِمت حولك الحلقات.

ولَـرُبَّ نازِلـةٍ يضيق لهـا الفتـى ... ذَرْعـاً وعنـد الله منهـا المَخـرجُ
ضـاقت فلـما اسـتحكمت حلَقاتهـا ... فُرِجـت وكنـت أظنُّهـا لا تُفْـرَجُ

وقيل:

كُـن عـن همومـك مُعْرِضـا ... وَكِـلِ الأمـور إلى القضـا
وابْشِـر بخَـيْر عاجِـل ... تنسـى بـه مـا قـد مـضى
فَلَـرُبّ أمـر مُسْـخِطٍ ... لـك في عواقِبـه رِضـا
ولـربما اتسـع المضـيق ... وربـما ضـاق الفضـا
الله يفعـل مـا يشـا ... ء فـلا تكـن مُعْترِضـا
الله عَـوَّدك الجميـ ... ـل فَقِسْ علـى مـا قـد مـضى

أنْ تقول: حسبي الله ونِعم الوكيل، وتردد ذلك، هذا ذِكْر بمعنى الله يكفيني. صحَّتك بيده، وزوجتك بيده، الأقوياء بيده، والضُّعفاء بيده، ومن فوقك بيده، ومن تحتك بيده، طعامك بيده، ورزقك بيده، فإذا قلت: حسبي الله ونِعم الوكيل، قرَّتْ نفسك وانتهى الأمر.

الثاني: الحسيب، أي: المحاسِب. فالله يحاسِب خلقه يوم لِقائه فهو تعالى يحاسُبهم في الدنيا ليُرَبيهم، ويحاسِبهم في الآخرة ليُجازيهم؛ حساب الدنيا تربية، وحساب الآخرة جزاء. هناك قصص كثيرة أسْمعها من أهل الصّلاح والعلم.

ذكر لي أخ عنده معمل ألبسة، قال: علم أحد إخواننا من المسجد أنَّ عندي معمل ألبسة فطلب مني ستَّ قطع، فاعتذرت منه بطريقة غير لائقة لأنني لا أبيع إلا بالجملة، وكأنني شعرت بالهوان، فالكميَّة التي طَلَبها قليلة ولا تملأ العين، فذكر لي هذا الأخ أنَّه مضى عليه شهر تقريباً ما رأى زبوناً واحداً عنده في المعمل، عقاباً له على هذا الصنيع، والله حاسَبَه على هذا الكِبر وهذا الازدراء للآخرين.

وذكر لي أخ من إخواننا عن إنسان كَبرَ وكبر حتى ملك عدداً كبيراً من الطائرات المدنيَّة والفنادق، ولما تشوّفتْ نفسه، قال: لقد وصلت عالياً وأنا حدودي السماء، ولم يمضِ على كلامه اللحظات حتى سُحب من تحته البساط، وشُدّ الحبل، وقُبضت روحه. فالله يحاسب، وهذا المعنى الثاني. فأول معنى: الله يكافئ. والمعنى الثاني: الله يحاسب. فعلى الإنسان أن يضبط لسانه وجوارحه ودخْله وماله وكلَّ حركاته لأن الله يحاسب (حسيب) والصّواب: أنّه كلّما كبر عقلنا ونما إدراكنا يجب أن يزداد خوفنا من الله، وكلّما صغر المرء أمام ربه فالله يعظِّمه أمام الخلق ويعلي شأنه، وكلَّما صغُرنا وتواضعنا وافتقرنا وأعلنَّا عبوديّتنا لله عزَّ وجلَّ، وقلنا: يا ربّ أنا من دونك لا شيء، أنا من غير علمك جاهل، أنا من دون عونك ضعيف، وأنا فقير، أنا الأدنى يا رب وأنت الأعلى، وأنت الكريم، وأنت الغنيُّ، وأنت القويُّ، وأنت العالم، كلما أعلنت عن ضعفك وافتقارك وعبوديّتك رفعك الله، وكلما قلت: أنا وأنا خفضك الله عزَّ وجلَّ.

ذُكر أنْ رجلاً في أوروبا قال متحدّياً: إذا حمل هذا الصفصاف إجاصاً عندها أُعزل من مركزي، وبعد أيام عُزل، فجاء الناس ووضعوا ثمار الأجاص فوق الصفصاف. الله حسيب.

من النَّاس من يكون حِسابه يسيراً إذا كان مؤمناً، فهو من أهل النعيم الدائم. ومنهم من يكون حسابه شديداً على الفتيل والقِطمير وهم البعيدون عن الله.

حدثني محام كان موكّلاً في جريمة قتل، قال لي: بعد سنوات عديدة صدر الحكم على هذا المتّهم بالإعدام، قال لي: لمّا أبلغته الحكم تلقّاه بأعصاب باردة، وهو يؤكد لي طوال هذه المحاكمة أنه بريء من هذه الجريمة، قال لي: هذا الوضع أثار فضولي، فأردت أن أحضر إعدامه، الآن بدأت القصة، صعد إلى الخشبة التي سوف يعدم عن طريقها، وقال: أنا بريء من هذه الجريمة، ولكنّي قتلت رجلاً قبل ثلاثين عاماً، كنت رئيس مخفر في أحد أحياء دمشق، وجاء ضابط فرنسيّ أيام الاستعمار الفرنسي، أعطاني رجلاً سينفّذ فيه حكم الإعدام غداً، أودعته في الإسطبل وقفلت الباب، صباح ذلك اليوم افتقدته، فإذا به قد هرب، فمن شدة خوفي من هذا الذي أعطاني هذا الإنسان، أخذت بدوياً من الطريق وبعت ناقته، وأودعت ثمنها في جيبي، ووضعته مكان هذا الرجل، في اليوم الثاني أخذوه وأعدموه، مضى على هذا الحادث ثلاثون عاماً، واتُّهم بجريمة هو منها بريء وانتهت هذه التهمة بإعدامه.

والحسيب هو: الشريف، تقول: هذا بيت حَسَب ونَسَبٍ بالتعبير الشائع. ومن هو الشريف حقيقة؟ هو الذي لا يرتكب المعاصي، ولا يبخل ولا يكذب ولا ينافق ولا يذلُّ ولا يغتاب، فكلما تنزَّه الإنسان عن المعاصي صار شريفاً وليس الأمر كما في بعض البلدان التي تتوارث الشَّرف، بعض الأسر لا يتزوّجون إلا من أشراف أسرتهم أو قبيلتهم، يقول ابن الورديّ:

لا تقــل أصــلي وفصــلي أبــداً   إنــما أصــل الفتــى مــا قــد حصــل

شرف الإنسان بطاعته لله، وفي الحديث الشريف: «شرف المؤمن صلاته بالليل، و عزه استغناؤه عما في أيدي الناس» [رواه الحاكم عن سهل بن سعد، وصححه].

فاعلم إذاً أنّ شرفك بطاعتك لله ولا شيء آخر. فالحسيب هو الشريف. والشريف: الذي له صفات الكمال والجمال والجلال. وبعض العلماء قال: «الحسيب هو الذي يكفي بفضله، ويصرف الآفات بطَوْله»، وقيل: هو الذي إذا رُفِعتْ إليه حوائج قضاها وإذا حكم بقضية أبرمها وأمضاها، وقيل: هو الذي يعد عليك أنفاسك ويصرف بفضله عنك بأسك.

«الحسيب» يحصي أعداد المخلوقات وهيئاتِها، يضبط مقاديرها وخصائصَها، يحصي أعمال المكلفين في مختلف الدَّواوين، يحصي أرزاقهم، أسبابهم، أفعالهم، مآلهم، أحوالهم.

فالله عز وجل حسيب بالمفهوم الشمولي، عليم، حسيب، يحاسِب، وحسابه واقع لا محالة.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣].

أتعجب ممن يترنم بكلمة: مسؤول كبير! والله لو علم معناها لارتعدت فرائصه.

يقول سيدنا عمر: والله لو تعثرت بغلة في العراق، لحاسبني الله عنها، لِمَ لم تصلح الطريق لها يا عمر؟

عمر بن عبد العزيز رحمه الله دخلت عليه زوجته فاطمة بنت عبد الملك فرأته يبكي، قالت له: مالك تبكي؟ قال لها: دعيني وشأني، فلما ألحّت عليه، قال: ويحك يا فاطمة إني ولّيت أمر هذه الأمة، فرأيت المريض الضائع، والفقير الجائع، والشيخ الكبير، والأرملة الوحيدة، وذا العيال الكثير، والرزق القليل، والمأسور، والمظلوم، وأمثالهم في أطراف البلاد، فعلمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً، وأن خصمي دونهم رسول الله، فخفت ألا تثبت حجتي فلهذا أبكي.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها اسم (الحسيب)

قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ [النساء:٦].

فإذا كنت وصياً على يتيم وله مال وكنت في حاجة، فلك أن تأكل منه بالمعروف، والعلماء قالوا: «الأكل بالمعروف: أن تأخذ حاجتك أو أجر المِثل أيُّهما أقل»، فإذا كان مع اليتيم مئة ألف وأعْمَلْتها في التجارة ورَبِحت عشرة آلاف تعطي خمسة لصاحب المال وخمسة لك، فأنت إن كان يكفيك أربعة فلا تأخذ خمسة، فإذا كان يكفيك خمسة عشر ألفاً ونصيبك خمسة تأخذ الخمسة فقط، هذا إن كنت فقيراً، أما إذا كنت غنياً فعليك أن تستعْفِف. واذكر ولا تنس من الذي سيُحاسبك؟ ومن الذي يعلم ما إذا كنت غنياً أو فقيراً؟ هناك من تجده يحتمي بمال اليتيم ويضعه في التجارة، فإن ربحت تلك التجارة وضع ماله فيها، وإن لم تربح يبقى ماله بعيداً عن الخسارة، ويدّعي أن مال اليتيم ذهب في التجارة، هذا لا يجوز، والنبي ﷺ قال: «لا تقي مالك بماله» [ابن ماجه، عن عبد الله بن عمرو]، لا تجعل ماله دريئة أو حَقْل تجارب. تجد تُجاراً يتَّجرون بأموال غيرهم، فإن كانت هناك صفقة تجارية ولم يكونوا واثقين منها، اشتغلوا بأموال الآخرين ويقولون لك: هذه قسمة ونصيب، والتجارة رِبْح وخسارة، ولم تربح هذه الصفقة، وإن ربحت أدخَل ماله في هذه الصفقة، فمن الذي يعرف هذه الحقائق؟ هو الله، الحسيب الذي يحاسب، هناك حالات بالتجارة، وهناك حالات علاقة بالنساء، وحالات اجتماعية، فلو كان تعاملك مع أذكى إنسان على الأرض فلن يكْشِف نياتك، ولا تصرفاتك في كثير من الأحيان، ولكنَّ الله يعلم فالخلفيّات الخَفيَّات والحقائق لا يعلمها إلا الله.

عندما يؤمن الإنسان أن الله رقيبُه، يصبح لديه دِقَّة في معاملاته تكاد تكون خياليَّة، ويجعل كل شيء في الحسبان.

فالله هو الحسيب المحاسِب قالوا: لا تُحاسِب، اللهُ المحاسب.

رجل كانت له أخت عانِس تسكن معه في بيته، وكانت زوجته تبالغ في إهانتها، فقال: كنت جالساً مرة على سرير، وزوجته إلى جانبه، وأراد أن يشرب الماء، فرَكَل أخته برجله وقال لها: أحضري لي كأساً من الماء، فبَكت من شدَّة إهانته لها أمام زوجته، وفي اليوم التالي سافر إلى مدينة حَلَب وفي الطريق وقع له حادث سير أُصيب بِرِجْلِه اليمنى، فقُطعت من أعلى الفَخِذ، لقد كانت الرِّجْل التي ركل بها أخته ليُهينها أمام زوجتِه. فإذا عتا الإنسان وتجبَّر؛ وأكل أموال الناس بالباطل، فالله هو الحسيب الكبير، وكلما ازداد عقلك وإدراكك ازداد خوفك من الله، المؤمن يَنْخَلع قلبه خوفاً من الله.

مرةً قال لي أحدهم متحدّياً: أنا لا أخاف من الله، فأردت أن أُحجّمه وقلت: يا بني الفلاَّح أحياناً يأخذ ابنه الصغير معه إلى الحقل، ويَضعه بين سنابل القمح، فيمرُّ ثعبان بجانبه فيضع الطفل يده على الثعبان؛ لماذا لا يخاف منه؟ لأنه ليس لديه إدراك؛ فكلما ضعُف الإدراك ضعف الخوف، وكلما ازداد الإدراك ازداد الخوف. وأحياناً تجد الطبيب يُبالغ بغسل الفاكهة وذلك من شدَّة ما يراه كلَّ يوم من الجراثيم والأعراض الإنتانيَّة والالتهابات المعويَّة والإسهالات وأنواع الأمراض؛ فهذا الذي يراه يدعوه إلى المبالغة في التَّنظيف والتَّعقيم؛ فكلما ازداد العلم ازداد الخوف من الله. والله محاسب. وهذا أحد كبار صنَّاع الحلويات في بلد عربيّ، كان يصدِّر طائرة كل اليوم إلى دول الخليج محمَّلةً بالحلويات، دخل يوماً إلى مصنعه ولم يُعجبه صنيع أحد العُمّال، فأخذ تلك العجينة ووضعها على الأرض وعجنها بقدميه ليُعلِّم الصُّنَّاع عرْك العجين، فقال له العامل مُنَبِّهاً: إنك تلبس حذاءً، فأجابه: وماذا... على النَّاس أن يأكلوا من تحت قدميّ؟ بعد شهرين قُطعت رجلاه اليمنى واليسرى، وهو الآن مقيم في بريطانيا، والوقائع كثيرة لا تعدُّ ولا تحصى، وأنا أذكر وقائع وأحداثاً عادية، ولو أنَّ الإنسان لديه قدرة على البحث والتنقيب والدرس لرأى العجب العُجاب. اعمل ما شئت؛ واعلم أنَّ حساب الله في الدنيا حساب تربويّ. أما حسابه تعالى في الآخرة فهو حساب جزائيٌّ، في الدُّنيا يحاسب ليُربي أما في الآخرة فإنه يحاسب ليُجازي.

الآية الثانية قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [النساء:٨٦].

فمشاعر الذين يردُّون التَّحيَّة يعلمها الحسيب وحدَه، هل هي تحيَّة إسلاميَّةٌ دينيَّة أم هي صدرتْ من كِبر أو تواضع أو ردٍّ جميل، أم هي صدرتْ من كراهية أو محبّة أو خداع؟ هناك أشخاص لديهم القدرة على التَّمثيل، قدرة كبيرة جداً، قالوا عن الدبلوماسيَّة: هي التَّعبير عن أسوأ النيات بأجمل الألفاظ. وهي أحد تعريفاتها اللاذعة. من الممكن أن تكون لك ابتسامة شكليَّة، ومصافحة حارَّة وأن تغدر بهذا الذي تصافِحه؛ فهذا السَّلام؛ وراءه محبَّة أو غَدْر؟ أو إخلاص؟ أو انتقام؟ أو طعن في الظَّهر؟ أو كراهية؟ فمن يعرف ويعلم هذه الحقيقة؟ وكلُّ إنسان يقدِر على الابتسامة، ولكنَّ النّيّات لا يعلمها إلا الله، لذلك جاءت الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾.

بعد ردّ التحية، طبعاً معظم الناس يلقون السلام ويردّون السلام، لكن النيّات والخلفيّات والحيثيّات وما بين السطور هذه لا يعلمها إلا الله.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٩].

فإذا خشي الإنسان الله وحده، وتحمَّل المشاقّ، وتجشَّم المتاعب، لأنه خشي الله وحده، وبلَّغ رسالته، ولم يعْبأ برضاء الناس. فمن الذي يعرف حجم تضحيته؟ وحجم ما يعاني؟ طبعاً من السّهولة أن تُرضي النّاس، وأن تنجوَ منهم، وأن تُسْمِعهم ما يحِبّون. لكنّك إذا كنت صادقاً ومُخْلِصاً، ونطقْت بالحق، ولم تأخذك في الله لومة لائم، فربما أتعبك النّاس وثاروا عليك وانتقدوك وطعنوا فيك؛ والله هو الذي يعلم حجم تضحيتك، لذلك، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

الله يعلم أدّق الأعمال، وأدّق الذّرّات والنّقير، والقِطمير، والفتيل، والنقير: رأس النواة المذبب، والقِطمير: غشاؤها، والفتيل: الخيط بين فَلْقَتيْها، فلا تُظلمون فتيلاً ولا قطميراً ولا نقيراً ولا ذرّة ولا مثقال ذرّة من خردل ولا ظُلم اليوم، وما كان الله ليظلمهم، فالله حسيب، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٩].

قال تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٤].

إن تكلمتَ أو لم تتكلم، وإن أبحتَ أو لم تُبح، وإن ذكرت أو لم تذكر، فالله سبحانه وتعالى سيحاسبك، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٣].

فمهما تقلَّب عليك الناس، ومهما اجتمعوا وتآمروا فقل: حسبي الله ونعم الوكيل. فكلُّهم بيد الله عزَّ وجلَّ قال تعالى: ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ [هود:٥٥-٥٧].

مهما اجتمع الناس على أن يضروك، وعلى أن يوقِعوا بك الألم، فقل: حسبي الله ونعم الوكيل، أنت أقوى منهم بالله. يكفينا شرفاً هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال:٦٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [التوبة:٥٩].

من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا، قل: حسبي الله، يكفيني الله، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ ﴾ [الطلاق:٢-٣].

يكفيه، فإذا كان لشخص قضيّة في القضاء، وكانت معقَّدة، وصارت مداخلات كثيرة، وخصمه قويّ، فإذا قال: حسبي الله ونِعم الوكيل؛ فالله هو الذي يدافع عنه، وإذا شعر ببوادر مرض خطرٍ عظيم، وقال: حسبي الله ونِعم الوكيل، فالله يزيح عنه المرض قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ ﴾ [الشعراء:٨٠].

وهذا من أنواع الذِّكر الرَّاقي جداً. أن تقول حسبي الله ونِعم الوكيل، يا ربِّ التجأت إليك، واحتمَيْت بك، واستعنت بك على من يعاديني، وتوكّلت عليك، وأنت حسبي ورجائي وذخري وملاذي.

إن الله عزَّ وجلَّ أمر النبي ﷺ أن يقول: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝١٢٩ ﴾ [التوبة:١٢٩].

وقد أُمرنا أن نقول هذا الذكر سبع مرات. فعن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، سبعَ مرَّات كفاه الله ما أهمَّه صادقاً كان أو كاذباً» [أبو داود].

وبعد فنحن تطالعنا نقطة دقيقة في الموضوع؛ يقول أحد العلماء: «إن كفاية الرب لعبده أن يكفيَه في جميع أحواله وأشغاله، وأجلّ هذه الكِفايات ألا يُعطِيَه إرادة الأشياء»، بل إنّ هذه الكلمة: ربِّ خِر لي واختر لي هي أرقى درجةٍ من أنواع التَّوكُّل. يَسِّر لي ما فيه صلاح في ديني ودُنياي، وهو دعاء الاستخارة، ألم يقل النبي ﷺ ذلك:

عَنْ جابِرِ بْنِ عبدالله رضي الله عنهما قالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمُنا الاسْتِخارَةَ في الأُمُورِ كُلِّها كَمَا يُعَلِّمُنا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ يَقُولُ: «إذا هَمَّ أَحَدُكُمْ بالأمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ

غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلِ: اللهمَّ إنِّي أَسْتَخِيرُكَ بعِلْمِكَ، وأَسْتَقْدِرُكَ بقُدْرَتِكَ، وأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فإنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وأَنْتَ عَلامُ الغُيُوبِ، اللهمَّ إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّ هذا الأمْرَ خَيْرٌ لي في ديني ومَعاشِي وعاقِبَةِ أمري -أوْ قالَ: عاجِلِ أَمْرِي وآجِلِهِ- فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فيه، وإنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّ هَذا الأمْرَ شَرٌّ لي في ديني ومَعاشِي وعاقِبَةِ أمْرِي -أوْ قالَ: في عاجِلِ أمْرِي وآجِلِهِ- فاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ واقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كانَ، ثُمَّ أرْضِنِي. قالَ: ويُسَمِّي حاجَتَهُ» [رواه البخاري].

فإذا علم العبد أنَّ الله هو الذي يكفيه، لم يرفع حوائجَه إلا إليه. ويُعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم. إذا أيقنت أنَّ الله وحده هو الذي يكفي، فإنّك لا تسْأَلُ غيره. فإن الله سبحانه وتعالى سريع الإجابة لمن انقطع إليه، إذاً أنت مُتَّجِه إلى الله تعالى بكلِّيتك، ولا تُعلِّقْ أملك بمن دونه فهو سريع الإجابة. وتوكَّلْ في جميع أحوالك عليه. فأمَّا إذا كانت حاجتك في حق الله خيراً محْضاً كطلب الهداية، والاستقامة، والرِّزق الحلال، والكفاية، فهذا الطلب يُجاب فوراً لأنه في حق الله، وأما إذا طلبت الدنيا فهناك وضْعٌ آخر لعلَّها لا تنفعك، لعلها تؤذيك وتُبْعِدك فلذلك قد يجيبك وقد لا يجيبك، فالأدعية المتعلِّقة بالآخرة سريعة الإجابة. ومن علِم أن الله كافيه لا يستوحش من إعراض الخلق ولا يأنسُ بهم.

يذكر أحد العلماء في اسم الحسيب؛ أن من كان الله له حسيباً، كفاه، والكِفاية التي يحتاج الإنسان إليها كفاية دوامِ وجوده، وليس في الوجود شيء هو وحده كافٍ لشيءٍ إلا الله سبحانه وتعالى، يحتاجه كلُّ شيءٍ في كلِّ شيء. ليس في الكون إلا الله وحده هو الذي يكفي كلَّ الخلائق.

فإنَّه وحده كافٍ لكلِّ شيء لا لبعض الأشياء. وحده كافٍ يحصل به وجود الأشياء، ودوام وجودها، وكمال وجودها، فإذا أردت الوجود، ودوام الوجود، وسلامة الوجود، وكمالَ الوجود، فقل: حسبي الله ونِعم الوكيل. إذا رأيت أنَّ الرَّضيع يرضع من والدته؛ فاعلم أن الله أودع في قلب هذه الأم الرَّحمة وأَسَالَ من ثدييها

الحليب، ولولا ذلك ما كان هذا الطفل مَكْفِيّاً بأمِّه، فإذا بدا لك أن الطفل مكفيٌّ بأمه فهذه كفاية الله له.

نصيب المؤمن من اسم الله (الحسيب)

من أدب المؤمن مع ربه؛ أن يعلم أن الله سيحاسبه غداً على الكبير والصغير، ويطالبه بالنقير والقِطمير، من وراء علم العبد بهذا يحاسِب نفسه إذا عَلِم أنه سيحاسَب، سيحاسِب نفسه قبل أن يحاسبَه غيرُه، ويطالب قلبه بالقيام بالحقوق قبل أن يطالبه سواه، ومتى راقب العبد معنى الحسيب، وتجلّى له نور القريب، انبثق في قلبه نور، فإذا نفسه تُحاسِبه على تقصيره في الطاعة، وتُذكِّره بحساب يوم القيامة.

أرسل رجل مؤمن طعاماً إلى البصرة عن طريق وكيل وقال: بع الطعام بسعر يومه. ولما وصل هذا الوكيل إلى البصرة استدعى التُّجار ونصحوه أن يؤخِر البيع أسبوعاً فقط؛ ويرتفع السِّعر فأخر أسبوعاً وربح أرباحاً طائلة، وبشَّر موكِّله بهذه الأرباح، وجاء الجواب: ادفع الثمن كلَّه لفقراء البصرة فقد دخل على مالي الشبهة؛ فهو حبس الطعام ليزداد سعره فصار مُحتكراً «والمحتكر ملعون» [ابن ماجه، عن عمر بن الخطاب] هذا قول رسول الحسيب ﷺ، وقال: «لا يحتكر إلا خاطئ» [أبو داود، من حديث معمر بن أبي معمر].

غلام لحسان بن أبي سنان كتب إليه أنَّ قصب السكر قد تَلِف فاشترِ السكر، فذهب إلى السوق واشترى السُّكر، وبعدها ربح ثلاثين ألف دينار. وبعد ربحه تذكر أنَّ هذا الذي اشترى منه السكر ما علِم أن السكر أصابته آفة، فباعه بهذا السعر البخس، فقال له: يا هذا قد جاءتني رسالة من غلامي أن قصب السكر أصابته آفة فأَقِلْ هذه البَيْعة، فقال له: أنت الآن قد بلَّغتني، فقال له: كان ينبغي أن أُبلِّغك قبل هذا، وبطلَ شرائي للبضاعة، فقال البائع: قد سامحتك على هذا، فقال: لن أقبل ولا أنام الليل إلا إذا أقلتني من هذه البضاعة.

فكان سلفنا الصالح يحاسبون أنفسهم حساباً عسيراً، وهذا رجل تزوج امرأة ثم تزوج عليها خُفية، فلما عَلِمت الأولى سكتت ثم مات زوجها، فأرسلت نصيب ضرَّتها

من الإرث، فقالت لها ضرَّتها: والله لقد طلقني قبل أن يموت وليس لي عنده شيء. وذاك الراعي قال له ابن عمر رضي الله عنهما: بِعني هذه الشاة، فقال: ليست لي، فقال له: قل له: ماتت، فقال: والله إني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت له: إنها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فأنا أمين عند صاحب هذه الشاة ولكن أين الله؟ هكذا كان السلف.

إذا حاسبنا أنفسنا حساباً دقيقا على الزلّات والهفوات وعلى مستوى القِرش والدريهمات، سلمنا وسعدنا. كان عمر بن عبد العزَّيز رحمه الله إذا كلمه شخص بقضية شخصية يُطفئ السِّراج الذي يوقد من بيت المال، وهذا عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه رأى إبلاً سمينة فقال: لمن هذه الإبل؟ فقالوا: هي لابن عمر، قال: ائتوني به، فقال: لمن هذه الإبل؟ فقال: هي لي اشتريتها بمالي الحلال، وبعثت بها إلى المرعى لتسمن، فماذا فعلت؟ فقال عمر: ويقول الناس: ارعوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، اسقوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، وهكذا تَسْمن إبِلُك يا ابن أمير المؤمنين، بعْ هذه الإبل، وخُذ رأس مالك، ورُدّ الباقي إلى بيت مال المسلمين.

وَيُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخِفُّ الحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا» [الترمذي عن شدّاد بن أوس].

فالله سبحانه وتعالى حسيب يحاسب وحسيب يكفيك؛ يكفيك أمر الدنيا والآخرة، وحسيب يُشرِّفك إذا عرفته ويرفع لك قدْرك، فهذا البحث إن فهمناه وعملنا به، نكُنْ قد استفدنا منه، لأنَّ العلم في الدين ليس هدفاً لذاته، وإنما هو وسيلة لسموِّ النفس بالعمل به، فكلمة حسبي الله ونعم الوكيل تقال عند كل هم وحزن، وعند كل موقف عدواني، أو عند ناس تآمروا عليك فقل: حسبي الله ونعم الوكيل. والله هو الذي يدافع عنك أقوى دفاع، ويرفعك ويُعْلي قدرك وينصرك على خصومك؛ حسبي الله ونعم الوكيل. فالذين عارضوا النبي صلى الله عليه وسلم أين هم؟ في مزبلة التاريخ أبو لهب، وأبو جهل، وأمية بن خلف. والذين أيّدوه ونصروه أين هم الآن؟ في روضات

الجنات، فإياك أن تكون في خندقٍ معادٍ للدين! وأن تتجاوز الحد إياك وإياك! الله عزَّ وجلَّ حسيب ورقيب وخبير. قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾ [الأنعام:١١].

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل:٦٩].

أحياناً المُكذِّب الضالّ المنحرف المعتدي والطاغي يمهِله الله لحكمة يريدها، وأحياناً يبطش به سريعاً لحكمة يريدها، فإذا أُخِّر الجواب وتأخر الجزاء جاءت «ثم» كما في الآية الحادية عشرة من سورة الأنعام، وإن جاء سريعاً ذكرت الفاء التي تفيد التعقيب كما ذكرت في الآية التاسعة والستين من سورة النمل.

ومن أدعية هذا الاسم: إلهي أنت الكافي لمن ركن إليك، القدير والمُتكفِّل لكل من توكل عليك، أنت أسرع الحاسبين، وغوث الطالبين، أشهِدني نور اسمك الحسيب، فأحاسِب نفسي قبل أن أُحاسب، وأُطالبها بالقيام بالواجب قبل أن أُطالب، وحقِّقنا بسِر قولك: حسبنا الله ونعم الوكيل، واجعلني ممن اهتدى سواء السبيل، وخلِّقني بمعنى اسمك الحسيب فأقوم بحوائج إخواني من بعيد وقريب.

ومن ثمرات معرفتك بالحسيب جلّ جلاله أنّه إذا ربَّيت أولادك فاكفِهم، وإن أطعمت الفقير فاكفِهِ، وإن أعطيت زكاة مالك فأعطِ الفقير حتى يكتفي، الإمام الشافعي يرى أن تعطى كفاية العمر كلِّه، وأبو حنيفة يرى أن تعطى كفاية عام. إذا أعطيت فاكْفِ، وأعطِ عطاءً جزيلاً.

يا رب اجعلني ممن اهتدَى سواء السبيل، وخلِّقني باسمك الحسيب فأقوم لإخواني بحوائجهم من بعيد وقريب؛ حتى أتحقق بالشرف والحسب إنك على كل شيء قدير.

الشَّهِيدُ

هذا الاسم ورد في كثير من النصوص القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ:٤٧].

وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣].

وقد ورد مقيداً في آيات كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء:١٦٦].

كما ورد في السنة الصحيحة، في صحيح البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً يقول صلى الله عليه وسلم: «ألا وإنه سَيُجاءُ برجال من أُمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيقول: إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدَك، فأقول كما قال العبد الصالح: وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ قال: فيقال لي: إنَّهم لم يزالوا مرْتَدِّينَ على أعقابِهِمْ منذ فارقتَهم» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عباس].

من معاني اسم الله الشهيد

الشهيد صيغة مبالغة، من اسم الفاعل الشاهد، على وزن فعيل، والفعل شهِد، يشهَد، شهوداً، وشهادة، والشُّهود هم الحضور مع الرؤية والمشاهدة، الحضور الذين رأوا بأعينهم الذي وقع.

فمعنى شَهِدَ، أي: حضر، شهد هذا الحفل فلان، أي: حضره. شهد هذه الصفقة فلان، أي: حضرها. شهد هذه الوليمة أي: حضرها. فالشَّهيد: هو الذي يشهد أي: يحضُر... والذي يحضُر يعلَم، والذي يعلَم يُعلِم.

الشهادة هي الإخبار بما شاهده المرء، شهد فلان على فلان بحق فهو شاهد وشهيد، والشاهد يلزمه أن يبيِّن ما علمه على الحقيقة، وهو واجب يرقى إلى مستوى الفرض.

وفي الحديث: «ألا أُنبِّئكم بأكبر الكبائر - ثلاثاً - قلنا: بلى يا رسولَ الله، قال: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وكان متكئا فجلس فقال: وشهادة الزور ثلاثا أو قول الزور» [البخاري عن أبي بكرة].

والشهادة هي الحُكم، فقد جاء النبي ﷺ إلى بيت أبي السائب وهو مسجّى على السرير، فسمع امرأة من وراء الستر تقول: «رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمَهُ؟ فقلت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ فقال: أمّا هو فقد جاءه اليقين والله إِني لأرجو له الخير. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعَلُ بي؟ قالت: فوالله لا أُزَكِّي أحداً بعده أبداً يا رسول الله فأَحْزَنني ذلك، فَنِمْتُ، فرأيتُ لعثمان عينا تجري، فجئت رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فقال: ذلك عمله» [أخرجه البخاري عن أم العلاء الأنصارية].

فالذي يحكم على الآخرين حكماً قطعياً على مستقبلهم في الجنة أو في النار وقع في معصية كبيرة، سماها العلماء التألِّي على الله، اعلم علم اليقين أن تقييم الأشخاص من

شأن الله وحده، وليكن قدوتك سيِّدَنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة:١١٨].

أما أن الله جلّ جلاله شهيد فهو الرقيب على خلقه أينما كانوا، حاضر، شهيد، أقرب إليهم من حبل الوريد، يسمع ويرى وهو بالمنظر الأعلى، وعلى العرش استوى فالقلوب تعرفه، والعقول لا تكيفه.

وهو سبحانه فوق عرشه على الحقيقة، وبالكيفية التي تليق به، وشهادته على خلقه شهادة إحاطة شاملة كاملة.

الشَّهيد جلّ جلاله هو الذي شهد لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط، كما قال الله عز وجل: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨].

الشَّهيد اسمٌ من أسماء الله الحسنى، والنبيُّ ﷺ وهو سيدُ الخلق، وحبيبُ الحق سمّاه الله في كتابه الكريم شاهداً وشهيداً، فقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٥].

وقال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١].

والذي يعطي ويهب أثمن ما يملك في سبيل الله، وفي ساحات القتال، يُسمَّى شهيداً... والجود بالنفس أقصى غاية الجود، والله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم حينما حدّثنا عن بذل المال والنَّفس في سبيله قدَّم المال على النفس فقد قال تعالى: ﴿ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال:٧٢].

في معظم الآيات التي تحدثت عن البذل، جاء بذل المال مقدَّماً على بذل النفس لأنه أسهل، وفي آية واحدة، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ [التوبة:١١١].

هنا تقديم أهمية، قضية بيع قطعي فبدأ بالأهمِّ فالمهمِّ.

إذاً...هناك معانٍ ثلاثة تُستفاد من كلمة شهيد؛... حضر، وعَلِم، وأعلَم. فالله سبحانه وتعالى بهذا المعنى شهيد، مع كلِّ مخلوق بعلمه، فقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد:٤].

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾... إن كنتم في أطباق الجو، أو تحت أمواج الماء، أو في الصحراء، أو على ظهر اليابسة، في المدن، في السفر، أينما كنت فالله معك. قال العلماء: هذه معيَّةٌ عامة، أي أنَّ الله جلَّ جلاله مع المخلوقات بعلمه.

وقالوا: وهناك معيَّةٌ خاصة فقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾ [الأنفال:١٩].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝١٩٤﴾ [البقرة:١٩٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال:٤٦].

معيَّة الله الخاصة أي: معهم مؤيِّداً، وناصراً، وحافظاً، وموفِّقاً. إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟ فلا أحد معك، أقرب الناس إليك يتنكَّر لك، لكنّ الله معكم مؤيِّداً، معكم ناصراً، معكم موفِّقاً، معكم حافظاً، فقد قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝٦٤﴾ [يوسف:٦٤].

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المرض الذي مات فيه فقال له: يا أمير المؤمنين! إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالةً، ولا بد من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤنتهم إن شاء الله، فقال عمر: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: الحمد لله، أبالله تخوِّفني يا مسلمة؟ أمَّا ما ذكرت من أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم، وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإن وصيّي فيهم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّى الصالحين،

وإنما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى الله، فجعل الله من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غيَّر وفجر فلا يكون عمر أولَ من أعانه على ارتكابه، ادعوا لي بنيّ، فدعوهم، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً فجعل يصعِّد بصره فيهم ويصوِّبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال: بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم، يا بنيّ! إني قد تركتكم من الله بخير إنّكم لا تمرُّون على مسلم ولا معاهِد إلا ولكم عليه حقٌّ واجب إن شاء الله يا بني ميلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا، وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار. قوموا يا بنيّ عصمكم الله ورزقكم، قالوا: فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر.

وذكر أن أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد عظني، قال: بما رأيتُ، أو بما سمعتُ؟ فقال: بل بما رأيتَ، فقال: توفي عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- وخلَّف أحد عشر ابناً، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر ديناراً، فكفِّن بخمسة دنانير، واشتري له موضع قبره بدينارين، وأصاب كلُّ واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطاً، ومات هشام ابن عبد الملك، وخلَّف أحد عشر ابناً فحصل لكل واحدٍ من ورثته مما خلَّفه عشرة آلاف دينار، فرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حُمل على مئة فرس في سبيل الله، ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل الناس.

فالله عز وجل يكون مع المؤمن حافظاً ومؤيِّداً وناصراً وموفِّقاً، وما توفيقي إلا بالله ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤] وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال:٦٢].

أيَّد... ونصر... وحفظ... ووفَّق، هذه هي المعيَّة الخاصة، إلا أنَّ المعية الخاصة مشروطة فقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة:١٢].

إذاً؛ معنى شهيد أي: معك... روي في الآثار أن الله تعالى قال: «يا موسى أتحبُّ أن أكون جليسك؟» قال: كيف ذلك يا رب وأنت ربُّ العالمين؟! قال: «أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحيث التمسني عبدي وجدني».

إن ذكرته فهو معك.

كـــن مـــع الله تـــرَ الله معـــك ... واتـــرك الكُـــلَّ وحـــاذر طمعـــك

وإذا أعطـــاك مـــن يمنعـــه ... ثـــم مـــن يعطـــي إذا مـــا منعـــك

الشَّهيد مع كل مخلوق بعلمه، ومع المؤمن بتوفيقه، وحفظه، وتأييده، ونصره... فهو شهيد، قال تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [طه:٤٥].

فرعون، كان قَتْلُ الإنسان عنده كقتل ذبابة، ولكنَّ الله تعالى قال لكلٍّ من سيدنا موسى وأخيه هارون: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه:٤٦].

وكل مؤمن إن شعر أنَّ الله معه، يشعر بقوَّة لا حدود لها.

قال الصديق لرسول الله ﷺ وهما في الغار: يا رسول الله: لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا. فقال: «يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟» [البخاري ومسلم، من حديث أنس بن مالك] وهي معية الله عز وجل، أفضل الإيمان؛ أن تعلم أنَّ الله معك حيثُ كنت.

إذاً الشَّهيد هو معك... معك علماً إذا كنت مخلوقاً عاديّاً. ومعك حافظاً، وناصراً، وموفِّقاً، ومؤيِّداً، إن كنت مؤمناً، أو صابراً، أو متَّقياً.

من لوازم الشَّهيد؛ أنه يعلم... ومن لوازم الشَّهيد؛ أنه يُعلِم. حَضَرَ، عَلِم، يُعلِم... هو حاضرٌ مع كل مخلوق، في كل زمانٍ ومكان، وهو عالمٌ به.

قال بعض العلماء: «الشَّهيد؛ الأمين بشهادته، الأمين في أداء شهادته» أي: شهادة دقيقة جداً، فالإنسان قد يحضر ويقول لك: والله لم أشعر ماذا فعلوا، كنت معهم ولكني غفلت عنهم. إذا كان الله عز وجل شهيداً فلا تخفى عليه خافية، ولا حركة، ولا سكنة،

ولا خاطر، ولا صراع أبداً، فنفوس العباد مكشوفةٌ له، فقد قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤].

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦].

وبعد، فإلى المعنى الفرعي الآن: الشَّهيد؛ الأمين في شهادته، أي: لا يغيب عن علمه شيء، بالغ الغاية في علمه بالأمور الظاهرة. فهو شهيد حاضر، وشهيد يَعلم، والآن الشَّهيد يُعلِم... فقد قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:١٨].

هنا السؤال كيف يشهد؟... إنسان من جنس البشر، يشهد لك بلسانه؛ فيقول لك: أنا كنت في المكان الفلاني، وفعلاً حدث ما حدث، يشهد لك بلسانه؛ ولكنَّ الله جلَّ جلاله كيف يشهد لك؟ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

قيل: عرفت الله بنقض العزائم. الإنسان الغافل الشارد المشرك؛ يأخذ بكلِّ الأسباب ويعتمد عليها، ويظنُّ أنَّ الأمور تجري على ما يريد، ثم يُفاجأ أنَّ الله أبطل كلَّ مسعاه...

ألا ترون في كلِّ مكانٍ وزمان؛ أنَّ الله يشهد لخلقه ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: بالتعبير المألوف -لا حيلة لِذَكِيّ مع الله-، النجاح بالتوفيق لا بالذكاء. نجاح الإنسان بتوفيق الله، وتوفيق الله باستقامته على أمره، فالله يشهد.

وأمثلة على ذلك... أب توفِّي وترك خمسة أولاد، أكبر الأولاد أخذ كلَّ الثروة، كيف يشهد الله ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يوفِّقُ المظلومين ويمحق الظالم، أما بحسب قوانين الأرض، فالذي استولى على كلِّ المال يجب أن ينمو كلُّ هذا المال عنده، والذي حُرِمَ منه، يجب أن يعيش فقيراً بائساً، يشهد الله للناس أنَّ الأمر بيده.

هو أخذ المال كلَّه... أتلف الله المال وأتلف صاحبه، والذي حُرِمَ منه وليس له إلا الله وفَّقه الله، وكم من أخٍ استولى على كلِّ الثروة، ثم عمل عند إخوته فيما بعد أجيراً فقد أتلف الله ماله كلَّه!! وعلى هذا فقس، يشهد الله لخلقه ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فالأمر بيده.

تجد الأقوياء... يأتيهم بأس الله -جلَّ جلاله- ويدمِّرهم جميعاً والضعفاء ينصرهم. الأغنياء إن أدّوا زكاة مالهم، يبارك لهم في مالهم، وإن لم يؤدُّوا الزكاة يُمحق مالهم.

الإنسان أحياناً لا يملك من الدنيا شيئاً، لكن يملك استقامته، فالله عز وجل يكرمه ويعلي مكانه، يرزقه، ينصره، يؤيِّده. فعندما ينصر ربنا إنساناً ضعيفاً وفقيراً، نَصْرُ الله لهذا الضعيف الفقير شهادةٌ من الله لخلقه؛ أنَّ الأمر بيده، ليس بالمال، ولا بالسلطان، ولا بالذكاء، لا بالحسب، ولا بالنسب، ولكن بطاعة الله عز وجل.

وها أنا ذا أوضح معنىً مهمّاً؛ هناك في الحياة قواعد مادية، هذه القواعد المادية تُخرق، فمثلاً: بحسب الحسابات المادية لو أقرضت مئة ألف قرضاً ربوياً واستعدتها مئة وعشرين وهذه حسابات الآلة الحاسبة، فهذا ربح ولكن الله قال: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ [البقرة:٢٧٦].

أقرضت إنساناً مئة ألف... وبحسب التضخُّم النقدي رُدّت لك أقلّ بعشرين ألف، لكن ربنا عز وجل بألطافه الخفية يحفظ المال، ويُنمِّي المال، ويحفظ صاحب المال، يحفظ له أهله، وأولاده وصحَّته، ويؤيِّده، ينصره، يوفِّقه، فقد قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ [البقرة:٢٤٥].

معناها أنَّ الله شهيد أي: يشهد. أي: يحضر، وحاضر، وعالم والآن يُعلم، يُعلِّمنا أن الأمر بيده، لا بذكائكم ولا بأموالكم ولا بأحسابكم ولا بأنسابكم ولا بتجمعاتكم ولا بكلِّ ما تملكون، الأمر بيد الله، الله مع المحسن ومع الطائع ومع المستقيم ينصره ويؤيده لأنه شهيد ويشهد لنا.

يعني أقرب الأمثلة التاريخية... النبي ﷺ أخرجه قومه إلى المدينة؛ فقريش أقوى قبيلة في الجزيرة... وكذلك فقريش لديها أموال وفيها أبطال وفيها عتاد وفرسان وعدد، والنبي ﷺ ضعيفٌ مستضعف.

لم يستطع إنقاذ عمار بن ياسر من التعذيب يقول: «صبراً آل ياسر فإنَّ موعدكم الجنة» [أخرجه الأصبهاني في حلية الأولياء، عن عثمان بن عفان]. لا يستطيع أن يتدخل، وعندما هاجر هُدر دمه، لمن كانت العاقبة؟

فما معنى أنَّ الله شهيد؟ أي أنَّ قريشاً بخيلها وصولتها وقوَّتها وفرسانها ومؤامراتها، وشدة بأس رجالها؛ دمَّرها الله عز وجل، ونصر النبي ﷺ... وهذا الشيء يتكرر.

أي أنَّك إذا أردت أن تكون أقوى الناس، فتوكَّل على الله. فالله عز وجل شهيد... حاضر، عالِم، مُعلِم... شهيد، يشهد لك.

فمثلاً... تجد شاباً مستقيماً يعرف الله ويخافه، ويتحرَّى الحلال، ويرجو رضا الله، ويخاف سخطه، لا يعصيه، يغُضُّ بصره، يضبط لسانه، يضبط سمعه وبصره، لكنه فقيرٌ، وتجد شاباً آخر ذا قوة ومنعة ومال وأهل ودعم، الله عز وجل ينصر المستقيم، ويُدمِّر المنحرف. ما معنى ذلك؟ إنَّ الله يشهد... ألم يقل الله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية:٢١].

هذا كلام ربنا، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

فهذا قانون سماويٌّ، زوال الكون أهون على الله من أن يُضيِّع مؤمناً. إنَّ هذا الإنسان القويَّ الكافر المنحرِف، الذي يخطِّط لمستقبلٍ رائع. تحقيق ما خطَّط له على المدى البعيد يتناقض مع وجود الله؛ لذلك يُفاجأ الإنسان بأحداث مذهلة.

فقِلاع عُمِّرت سبعين عاماً، تهاوت كبيت العنكبوت. أليس هذا من فعل الله عز وجل؟ ليريكم آياته؟ الله شهيد يشهد لنا ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ العوام يستخدمون هذه الكلمة: «ما في غير الله... الله كبير»، فهذه الكلمات لها مدلول عميق.. يقولون: لا إله

إلا الله، هو المعطي، هو القابض، هو الباسط، هو الرازق، هو الحفيظ...إلخ، فهذه الكلمات لها مدلول عميق، فليس هناك سوى الله، فهناك إنسانٌ قويٌّ جداً ويُؤتى من مأمنه... قال الله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج:١٢].

الشَّهيد: هو الحاضر الذي لا يغيب عنه شيءٌ في ملكه... فقد قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣].

قال لي ذات مرة أحدهم كلمة أعجبتني كثيراً قال: الحمد لله على وجود الله، ووجوده يفوّت على أهل المكر مكرهم، فأحياناً تجد إنساناً لئيماً يتجاهل إمكاناتك، يتجاهل عطاءاتك، يتجاهل ميّزاتك، يضايقك ولكنَّ الله شهيد، اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله، إن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تُصب أهله فأنت أهله.

إذا كنت تعلم أنَّ الله يعلم، فليست هناك مشكلة إطلاقاً. يكفيك أنَّ الله يعلم... فأحياناً يكون للإنسان عملٌ عظيمٌ لكنه لا يظهر. ويُعتَّم عليه بشكل مقصود، فإذا أحضر لم يعرف وإذا غاب لم يفتقد، ولكن الله شهيد.

فإذا كان الله شهيداً، فليست هناك مشكلة... الحمد لله على أنه يشهد كلَّ شيء ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾، فلو افترضنا أنَّ موظفاً... والمدير العام الذي بيده ترفيعه، وزيادة رواتبه، ودعمه، وتقليده المناصب العليا، يعلم إمكانات هذا الموظف، ويعلم عطاءاته، ويعلم دقَّته في عمله، فإذا كان الحاجب لا يعرف... نقول: عرف أم لم يعرف فذلك لا يضيره في شيء.

فأجمل كلمة قالها سيدنا عمر رضي الله عنه عندما جاءه رسولٌ من معركة نهاوند، فقال: حدثني ماذا حدث؟ قال له: والله مات خلقٌ كثير. فقال له: من هم؟ فذكر له بعض الأسماء. فقال له: من أيضاً؟ فقال له: إنك لا تعرفهم. بكى عمر وقال: ما ضرَّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم [ابن كثير في تاريخه].

أنت عملت عملاً طيباً، والناس لم يقدِّروك... ولم يقدِّروا عملك ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾، فعلامة المخلص؛ أنه لا يبحث عن تقدير الناس، ولا عن انتزاع إعجابهم، بل يهمّه أنَّ الله يعلم وانتهى كلُّ شيء، لسان حاله يقول: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي.

هو شهيد حاضر ويعلم... قال العلماء: إذا كان العلم مطلقاً فهو العليم... شهيد يعني عليم علماً مطلقاً، أما إذا أُضيف إلى الأمور الباطنة فهو الخبير، أما إذا أُضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشَّهيد.

الله يشهد ما ظهر، وخبير بما بطن، ويعلم ما ظهر وما بطن.

العلم مطلقاً عليم، العليم بظواهر الأشياء شهيد، وببواطنها خبير.

بعض العلماء يقول: «الشَّهيد؛ الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يعزُب عنه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، مطّلعٌ على كلِّ شيء، مشاهِدٌ له، عليمٌ بتفاصيله».

فأنت أحياناً تلتقي مع مدير عام بمؤسسة يعرف الأمور الكبيرة، أما دقائق ما يجري فلا يعرفها، ويقول لك: ليس عندي علم. لكن مقام الألوهية يقتضي أن يعلم كلَّ التفاصيل، أخفى خواطر الإنسان يعملها الله.

أحياناً الإنسان يعلن عن شيء ويُبطن خلافه. فيزوره شخص ويعلن أنَّ لهذه الزيارة سبباً، كأن يقول: لقد بلغني عنك أنك مريض، ويكون قد أتى في الحقيقة لأن له ديناً عنده، وليطالبه به، فأظهر بذلك شيئاً وأخفى شيئاً آخر... ولكن الله عز وجل يعلم السرَّ وأخفى، يعلم ما أعلنت، ويعلم ما أسررت، ويعلم ما خفي عنك... ما خفي عنك أنت ذاتك والله سبحانه وتعالى هو الشَّهيد؛ لأنه يشهد على الخلق يوم القيامة.

وبعد، فأحدث طريقة في التحقيق أن تصوِّر المخالف وأن تعرض عليه الصورة، فانتهى الأمر بذلك ولا يستطيع أن يتكلم بكلمة واحدة، يقولون له: أنت في الوقت الفلاني وفي الشارع الفلاني خالفت. فلو قلت لهم: لا... لم أكن هناك. أظهروا لك

صورة سيارتك، وهذا هو التاريخ، وهذا هو الشارع. فينتهي كلُّ شيء... فإذا عُرض على الإنسان عمله مصوَّراً، يصمت.

فقال بعض العلماء: «الله شهيد، يشهد لعباده يوم القيامة، يُشهدهم أعمالهم»... وهذا معنى جديد.. يُشهدهم أعمالهم فقد قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٤].

هذه أعمالك، طلَّقت ظلماً، قبضت هذا المال ظلماً، دلَّست بهذه الصفقة، أخفيت هذا العيب، أكلت هذا المال ولا يحقُّ لك أن تأكله، سهرت في المكان الفلاني، أطلقت بصرك في المكان الفلاني، كلُّ الأعمال، وبالتعبير الحديث أعمالك مسجَّلة على هيئة فيلم ملونٍ وناطقٍ مع التاريخ والساعات والمكان والزمان. ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ ﴾... هذا معنى جديد؛ يُشهِدكَ أعمالك يوم القيامة.

لذلك، إن علمت أن الله يراقبك؛ فهذا أكبر دافعٍ لك على طاعة الله... قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٢].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحج:١٧].

بالمناسبة؛ هل تصدِّق أنه من أجل أن تعلم؛ أن الله يعلم؛ هو علَّة وجودك على وجه الأرض، فقد قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢].

في الحقيقة؛ أسماء الله تسعة وتسعون، لكنَّ الله اختار من أسمائه كلِّها اسمين يتعلقان بالعلم والقدرة. إن علمت أن الله يعلم: وأنه سيحاسب، وأنه قوي، لا بد من أن تستقيم على أمره.

أنا أضرب أمثلة كثيرة؛ هل من الممكن وأنت راكب مركبتك والإشارة حمراء، والشرطي واقف معه دراجة، وسيارة الضابطة واقفه وفيها ضابط، والقانون صارم،

والعقوبة شديدة، وأنت إنسان عادي ليس لك قوة... هل يمكن أن تتجاوز الإشارة؟ لا، فهذا شيء مستحيل، إن علمت أن الله يعلم، وسيحاسبك؛ مستحيل أن تعصيه؛ فإن عصيته فلضعف في علمك أنه يعلم، أو لضعف في علمك أنه سيحاسبك، أما إذا أيقنت أنه يعلم وسيحاسبك، لا يمكن أن تعصيه.

لو حللت المعصية تحليلاً علمياً... الإنسان يتجاوز الإشارة الحمراء الساعة الثالثة في الليل يقول لك: لا يوجد أحد لأن الذي يحاسبك لا يعلم، وينطلق بسيارته غير عابئٍ بالإشارة الحمراء إذا كان أقوى من الشرطي ومن رؤسائه، أما إذا كان ضعيفاً، والشرطي يقف أمامه، هل يستطيع أن يتجاوز الإشارة؟ لا، هذا قانون نفسي... أي أنت لو علمت أن الله يعلم، ولا تخفى عليه خافية... وأنه سيحاسبك -لا بد من أن يحاسبك- لا يمكن أن تعصيه، فالله عز وجل شهيد، حاضر، عالم، يُعْلِم.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها اسم الشهيد

ذُكِرَ اسم الشَّهيد في القرآن الكريم تسع عشرة مرة... الله سبحانه وتعالى يقول في سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [النساء:٣٣].

كلُّ حادث، وكلُّ أمر، الله عز وجل شهيد، ويعلم، وسيفصل بين خلقه يوم القيامة. فأحياناً يكون الإنسان طليقَ اللسان، ولديه قوة حجّة؛ ولو بالباطل فيقنع الآخرين، مثل هؤلاء إذا كانوا منحرفين في حياتهم وكانوا معتدين على الآخرين؛ الله عز وجل يسلبهم هذا السلاح، يقول تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ [يس:٦٥].

الله عز وجل شهيد... وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت:٢١].

وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) ﴾ [النساء:٣٣].

فبربِّكم، إذا كنت بحضرة إنسان من علية القوم، فهل تتكلم بأية كلمة أمامه؟ إذا زارك ضيفٌ من علية القوم، وهو شخصٌ محترمٌ، عالِمٍ، عميد الأسرة مثلاً، مكانته كبيرة، منصبه رفيع، أخلاقه عالية، أي أنه شخصٌ متفوِّق؛ إن في علمه، أو في مرتبته، أو إلى آخر الصفات... فهو ضيفك وأنت أمامه، فهل تتكلَّم بأية كلمة؟ هل من الممكن أن تتكلَّم بكلمات بذيئة أمامه؟ أيمكن أن تخاصم أهلك أمامه؟ أيمكن أن تُطلق لسانك بالسباب أمامه؟ إنسان من جنسك ولكن له مكانة، فأنت إذا أيقنت أن اللهَ على كُلِّ شيءٍ شهيد وهو معك فلا يمكن أن تفعل، فأحد أكبر أسباب الانضباط شعور الإنسان أن الله معه... أفضل إيمان المرء أن يعلم أنَّ الله معه حيث كان، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) ﴾ أي كان رقيباً عليكم.

وفي آل عمران يقول تعالى: ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) ﴾ [آل عمران:٩٨].

بعضهم يقول لك: دبَّرت الأمر وعملت كلَّ ما ينبغي وأوقعته في الفخّ، أخفيت عليه العيب، مرّتْ البضاعة بالرغم من العيب الخطير الموجود فيها! يظنُّ نفسه ذكياً، والله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) ﴾، ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) ﴾ أي: شهيد، حاضر، يعلم يُعْلِم، سيجازي، فمعنى ذلك أنك لم تكن ذكياً.

والله آلاف الوقائع والحوادث، إنسان ظن أنَّ هذا العمل يخفى على الله فعله، وظنَّ نفسه ذكياً ثم كُشف ودفع ثمنه غالياً، ولقي جزاء عمله، ودمَّره الله عز وجل، معنى ذلك أنَّه لم يكن ذكياً.

أقول هذا مراراً... الانحراف عدوان؛ فقد يستمر ذلك إلى حين، أما دائماً فلن يستمر، لا بد من أن يكشفه الله، وأن يلقى صاحبه جزاء عمله في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من آيات الله، هذا من دلائل قدرته عز وجل، فقد قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يوسف:٥٢].

سيدنا عيسى -عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام- في سورة المائدة يقول الله سبحانه وتعالى سائلاً إياه ثم يجيب: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة:١١٧-١١٨].

في سورة النساء: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [النساء:٧٩].

فهذا محمد ﷺ، كذَّبوه في الطَّائف، وسخروا منه، وردّوا دعوته، وأغروا سفهاءهم به، آذوه، وضربوه. وجاء بعد الطائف حادث الإسراء والمعراج، رفع الله نبيَّه إلى أعلى عليين، أعلمه أنه سيدُ الخلق وحبيب الحق... قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء:١].

سمع دعاءك ورأى ما جرى لك في الطائف، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ ﴾ [الأنعام:١٩].

أحيانا الإنسان يجهِّز شهوداً أقوياء، يقول لك: فلان يعرف الموضوع، وفلان كان حاضراً، وفلان معي منه إقرارٌ، وفلان كتب لي تصريحاً، ولكن هناك أقوى من كلِّ هذه الشهادات؛ وهي أن يشهد الله لك أنَّك مستقيم ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ ﴾، إذا شهد الله لك أنك على الحق فهذه أكبر شهادة.

ويقول تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس:٦١].

وأنت تصلِّي يعلم الله أنك تصلي، وتقرأ القرآن، تسبِّح، تذكر، تستغفر، تغُضُّ البصر، تأمر بالمعروف، كلُّ عملك في علم الله، وهو يشهد عملك... لكن الله يشهد بما أنزله إليك، أنزله بعمله والملائكة يشهدون ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾. يكفي أن الله يشهد، وفي سورة يونس: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يونس:٤٣].

وقال تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يونس:٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [التوبة:٩٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ ﴾ [الأنعام:٧٣].

أي: يشهد لما ظهر، ويعلم لما ظهر ولما بطن... وقد قال تعالى: ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة:١٠٥].

وقال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ [الرعد:٨-٩].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [السجدة:٦].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) ﴾ [الزمر:٤٦].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [الحشر:٢٢].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [الجمعة:٨].

ملخَّص هذا الاسم الجليل أن الله معكم أينما كنتم، معكم بعلمه، ومعكم بتأييده، إن كنتم على طاعته، معكم بعلمه، ومعكم بنصره وحفظه وتأييده وتوفيقه؛ إن أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وآمنتم برسله، وعزَّرتموهم، وأقرضتم الله قرضاً حسناً.

من لوازم أنَّه معكم أنه يعلم ما تفعلون، يعلم ظاهر العمل، وباطن العمل. ونيات صاحب العمل ومؤدَّى العمل، وخلفيَّة العمل، عملك بكلِّ تفاصيله، وملابساته، وخلفياته، وأهدافه، ومراميه، في علم الله عز وجل.

ثم هو يُنبئك عن عملك في الدنيا والآخرة، ينبئك عن ذاته، يشهد لك أنه لا إله إلا هو، أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد.

إذاً شهيد... يعلم، وشهيد... يُعْلِم، ينبئك أنه لا إله إلا الله، وينبئُك عن عملك بحبِّه لك، فإذا كان هناك شخصٌ مستقيمٌ يشهد الله له أنه مستقيم من خلال التوفيق، وإذا كان إنسان ماله حرام، يشهد الله له بأنَّ ماله حرام من خلال التدمير... يدمِّر له ماله. فقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه:١٢٤].

المعيشة الضنك، شهادة الله للمنحرف؛ بأنَّ هذا القرآن كلامه، ثم هو يشهد لك عن ذاته، وعن أفعاله، وعن كلامه، ويشهد عملك في الدنيا والآخرة، إذاً هو سبحانه حاضر... ويعلم... ويُعْلِم، هذا هو الشَّهيد.

نصيب المؤمن من اسم الله الشهيد

الله هو الشَّهيد يشهد عملك فلا بد أن تكون مخلصاً فيه لوجهه، وعلامة المخلص أن عمله لا يختلف أمام الناس وبينه وبين نفسه، ليس هناك مسافة بين خلوته وجلوته، ولا بين سره وجهره.

المؤمن واضح ولا يوجد عنده موقف مزدوج، موقف معلن، وموقف حقيقي.

المخلص لا يزداد عمله مع المدح، ولا ينقص مع الذم، إن مدحته يبتغي وجه الله، إن ذممته يبتغي وجه الله.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام:١٦٢].

والمخلص يعود عليه من الله السكينة، رفعت عملاً إلى الله تبتغي فيه وجه الله عاد من الله عليك راحة نفسية، سمِّها سكينة، سمِّها راحة، سمِّها انشراحاً، لأن الله عز وجل حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر و الفسوق والعصيان.

والله عز وجل يشهد للمخلص إخلاصه، حينما يوفقه، وحينما يسعده، وحينما يأخذ بيده.

ومن تطبيقات هذا الاسم أنك إذا كنت مدير مؤسسة، مدير مستشفى، مدير جامعة، مدير مدرسة، صاحب شركة، فينبغي أن تكون دقيقاً في جمع الحقائق، ينبغي أن تعلم كلَّ شيء، ينبغي أن تدير هذا العمل إدارة ذكية، ينبغي أن تعرف من حولك، وينبغي أن تحاسب.

أدب المؤمن مع هذا الاسم... إذا علمت أنَّ الله معك، وأنه شهيدٌ عليك، وأنه يسمع كلامك، ويرى حركتك ويعلم باطنك؛ لا بد من أن تتأدب معه. فالأدب مع الله من نتائج إدراك العبد أنه يوقن أنَّ الله على أفعاله شهيد.

العفو

ورد اسم العفُوّ في القرآن الكريم في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء:١٤٩].

وفي آية ثانية: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٩].

وفي آية ثالثة: ﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج:٦٠].

وفي السّنّة الصّحيحة: «قلت: يا رسولَ الله إِنْ وَافَقْتُ ليلةَ القَدْرِ، ما أَدْعُو به؟ قال: قُولي: اللهم إنك عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُ العَفْوَ فاعْفُ عَنِّي» [الترمذي عن عائشة].

من معاني اسم الله (العفو)

فالله سبحانه وتعالى فتح لعباده باب التَّوبة، هو يعلم أنَّ عباده يصيبون ويخطئون، يُقْبِلون ويُدْبِرون، يُحْسنون ويُسيئون، ذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى ركَّب فيهم

الشهوات، وما ركَّب فيهم الشهوات إلا ليرقوا بها إلى الله، لكنَّ هذه الشهوة إن لم يصحبْها نورٌ من الله عزَّ وجلَّ ومنهجٌ قويمٌ تهتدي به فإنَّها مُدَمِّرة، فالشهوات قوةٌ محرِّكة، أو قوةٌ مدمِّرة.

إذاً لا بد من أن تكون التَّوبة من أجل أن تُرمِّم الخلل، ولو تصوَّرنا أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يفتح باب التَّوبة، ووقع مسلم في إساءة فماذا يفعل؟ يزدادُ إساءةً، يفجر، لأنه أيِسَ من رحمة الله، لهذا يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر:٥٣].

أعظم ما في هذا الدّين أنَّ الإنسان مهما بلغت إساءته، ومهما بلغت معاصيه ومهما تفاقمت ذنوبه، ومهما شرد عن ربِّه، ومهما انغمس في المعاصي فبمجرد أن يقول: يا ربِّ لقد تُبت إليك, يقول الله عزَّ وجلَّ: لبَّيك عبدي وأنا قبلت.

فباب التَّوبة مفتوح لمن غلبته نفسه، لمن زلَّت قدمه، لمن طُمِست بصيرته، لمن آثر الشَّهوة فباب التوبة مفتوح... ماذا يُكمِّل فكرة أنَّ هذا الباب مفتوح؟ يكمّلها أنَّ الله عفوّ... لولا أنه عفوٌّ ما فتح باب التوبة.

في القرآن آيات كريمة تتحدث عن التوبة، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء:١٧].

الأكمل والأولى والأصحّ والأصوب أنَّه لمجرَّد أن يقع الإنسان في ذنب يجب أن يتوب فوراً إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿ مِن قَرِيبٍ ﴾ فكلما قلَّت المسافة الزمنية بين الذنب والتوبة كانت التَّوبة أسهلَ، وكلَّما جهِل الإنسان أنَّ هذا ذنب كانت التوبة أسهل، فإذا علم أنَّه ذنب وفعله، ثم إذا فعله تراخى عن أن يتوب كانت التوبة أصعب، التوبة تسهُل إذا ضاقت المسافة الزمنية بين الذنب والتوبة، وتسهُل إذا رافقها جهل، قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنعام:٥٤].

لأن الله عفوٌّ كريم فتح لعباده باب التَّوبة، فالإنسان ليس له عذر في التَّراخي عن توبته، فمهما ارتكب من ذنوب فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء:٤٨].

يغفر كلَّ الذنوب دون الشرك بالله ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ وقد قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر:٥٣].

ولا يعرف قيمة التَّوبة إلا من ذاق طعم التَّوبة، حينما يتوب إلى الله يشعر أنَّ الله قبله، وأنَّ الله أنسى حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلَّها خطاياه وذنوبه.

العفو اسمٌ من أسماء الله الحسنى، مشتق من العَفْو، وهو: القصدُ لتناولِ الشيء.

يقال: عافاهُ... واعتفاهُ، أي: قصده..والعافون: القاصدون، القاصدون باب الكريم يقال لهم: عافون.

والمعنى الثاني: يقال: هذا من عفوِ مالي، أي: من حلاله وأطيبه.

والمعنى الثالث: أعطيته عفواً، أي من غير سؤال.

والمعنى الرابع: عفا مال فلان، أي كثُر.

والمعنى الخامس: العافي هو الذي يمحو ويزيل، ومنه قولهم: عفت الرياح الآثار إذا محتها وأزالتها، والعفو محو الذنوب، وفي الدُّعاء الذي يدعوه ﷺ حين يصبح وحين يمسي: «اللهمَّ إني أسألك العفو والعافية» [أبو داود، وابن ماجه، من حديث ابن عمر]. أي: ترك العقوبة والسلامة.

وفي قاموس تاج العروس: العفو أقلُّ من الصفح، لأنَّ الصفح أبلغ من العفو، والصفحُ لا تأنيب معه، قد أعفو عن إنسان وأُؤنِّبه. فقد يعفو إنسان ولا يصفح.

أحياناً يكون للإنسان في جهة من الجهات صحيفة مسجَّلةٌ فيها سيئاته وسلبياته فإذا أُحرِقت، أو شُطبت، أو طُويت، أو أهمِلت، انتهى الأمر وغدا أبيض الصحائف، العفوُّ هو الذي يمحو السيئات.

لذلك فالمؤمن الصادق يُحدِثُ عند كلِّ ذنبٍ توبةً، وكلما ارتقى الإنسان تقِلُّ ذنوبه عدداً وتقلُّ حجماً، فإذا ارتقى أكثر يكادُ يبتعدُ عن مقارفة الذنوب كليَّة إلا ما كان عن غير قصد أو عن زلةٍ لم تكن متعمَّدة.

العفوُّ هو الذي يمحو السيئات، ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريبٌ من اسم الغفور، ولكنه أبلغ منه، فإنَّ الغفَّار، يُنبِئ عن السّتر، على حين أنَّ العَفُوَّ يُنبِئُ عن المحو، ذنب غفره الله ولم يعاقب عليه، هو غفور، أما عفوٌّ فأبلغ من المغفرة فقد أنساه لصاحبه، ومحاه من ذاكرته، محاه من صحائفه.

المغفرة... ذنبٌ وقعت فيه لكن ربُّنا سبحانه وتعالى لم يُعاقبك عليه لأنه غفور، أما العفو فأبلغ من الغفور، فهذا الذنب لعلَّه يؤلِمك، لعلك إذا تذكّرته تستحي من الله، لعلَّه يُقلقك... العفوُّ محا هذا الذنب كليةً من صفحة نفسك. فلو أن صحيفة مملوءة بالذنوب وكلِ ذنب له عِقاب، نكتب في أسفلها: صاحب هذه الذنوب لا يُعاقب... هذه هي المغفرة، أمَّا أن نأخذ هذه الصحيفة ونمزِّقها ونُلغي وجودها، فهذا هو العفو، فالمغفرة ألا تعاقب على ذنب، أما العفو فأن يُمحى هذا الذنب من صفحة نفسك ومن ذاكرتك، فسيِّدنا يوسف عندما التقى بإخوته الذين كادوا له حينما كان صغيراً، وألقوه في غيابة الجُبِّ، وأرادوا له أن يموت، فعندما التقى بهم ماذا قال؟

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

[يوسف:٩٢].

هذه مغفرة... لكن عندما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف:١٠٠].

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ ولم يقل من الجبِّ، الآن هل غفر لهم أم عفا؟ لقد عفا.. لأنه ما أراد أن يُذكِّرهم بعملهم، فقد تجاهل عملهم كليّةً، لو ذكَّرهم بعملهم ولم يعاقبهم لكان غفوراً، لكنّه لم يذكِّرهم بعملهم إطلاقاً، وهذا من فضل الله عزَّ وجلَّ هو عفوٌّ وغفور؟

أحد العلماء يرى أن العفوَ له معنيان... «المعنى الأول هو المحو والإزالة»... عفت الديار إذا درست، فقد كان العرب ينصبون خيامهم في الصّحراء، وهذه الخيمة يحفرون حولها خندقاً لئلا يدخل الماء إليها إذا هطلت الأمطار، ويسمّون هذا الخندق النُّؤى، فإذا ارتحل العرب من مكان إلى مكان بقيت آثار الدِّيار على شكل مستطيلات، ودوائر، ترمز إلى الخنادق التي حُفرت حول الخيام، بعد حين تأتي الرياح فتعفوها أي تمحو آثارها... وهذا هو أصل معنى العفو.

وعلى هذا فالعفو في حقِّ الله تعالى إزالة آثار الذنوب، أي: تذكُّرها، وتذكُّر الذَّنب قد يحجب عن الرَّبِّ، ولو أنَّ الله لم يُعاقب، لكن لمجرَّد أن تذكر ذنبك تستحي من ربِّك، فمن أسماء الله الحسنى أنه عَفُوٌّ يُنسيك هذا الذنب، وهذه من رحمة الله بنا.

فهل هناك أحد لم يقُل كلمةً غير مناسبة طوال حياته؟ يقول لك: ظللت أسبوعاً كلَّما ذكرت هذه الكلمة ذبتُ خجلاً... وبعد ذلك نسيها، فلو أنها بقيت ماثلةً أمامه لأهلكت صاحبها، فمن رحمة الله بنا أنَّنا ننسى، والنسيان رحمة كبيرة جداً، فأحياناً يقف موقفاً حرجاً ويتكلم كلمةً غير لائقة، و يسمع كلمة قاسية، جارحة، فيقول لك: لم أنم الليل... فكم ليلةً لم ينم الليل؟ ليلةً واحدة فقط، وفي الليلة الثانية تذكَّرها ولكنَّه نام، وفي الليلة الثالثة نسيها جزئيّاً، وبعد أسبوع نسيَها تماماً.

لو أنَّ المواقف المحرِجة، والكلمات الجارحة، والمواقفَ المهينة التي ساقها الله للإنسان رحمةً به لا ينساها أبداً لأهلكتهُ، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ يُنسي، النسيان من العفوّ، ومن دلائل عفوه أنه يُنسيك هذا الماضي.

لذلك فالعفو في حق الله تعالى إزالة آثار الذُّنوب بالكليّة، فيمحوها الله من ديوان الكِرام الكاتبين، فلو افترضنا أنَّ إنساناً له صحيفة أعمال سوداء، ومن يشرف على هذه الصحائف أراد أن يُكرِمه فماذا يفعل؟ يأتي بهذه الإضبارة فيحرقها أمامه، فلم يبقَ أصل لهذه الذنوب فقد انتهت إلى فناء، وهذا للتقريب.

فالله سبحانه وتعالى يمحو ذنوب العبد التائب من ديوان الكرام الكاتبين، أي: الملائكة الذي يكتبون، ولا يُطالبه بها يوم القيامة، ويُنسيهم إياها، حتى من جذر قلوبهم كي لا يخجلوا عند تذكُّرها، ويُثبِّت مكان كلِّ سيئةٍ حسنة قالْ تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٠].

المعنى الثاني في حق الله تعالى: ﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ ﴾ العفوَ، أي: الفضل، فالله عزَّ وجلَّ يمحو ذنوب عباده ويتفضَّل عليهم بفضله، هذا أسموه التخلية والتحلية، التَّطهير والتَّعطير، العفو والرحمة، يمحو ويُكرم، يطهِّر ويعطِّر، يشفي ويزكِّي... إذاً للعَفْو معنيان؛ معنى سلبي، ومعنى إيجابي، السلبي المحو، والإيجابي العطاء.

أحياناً يغسل الإنسان كأساً لها رائحة كريهة مثلاً، أو فيها بقايا طعام، أو بقايا شراب، فإن غسلها جيداً وبعد أن غسلها ملأها شراباً طيِّباً فهذا من معاني العفو... فالعفو لا يعني أنه محا الذنوب، وستر العيوب فقط، لا... بل أعطاك من فضله ما شاء

فوق ما محا، هذا معنى جديد للعفو، أي: عفا محا، وعفا أعطى، هذا من عفوِ مالي... أي: حلالهِ وطيِّبِهِ، أعطيته عفواً... أي من دون سؤال، فمن معاني العفو العطاء، والمعنى السلبي المحو، والمعنى الإيجابي العطاء.

وقال بعضهم: «العفو هو أن تزول عن النفوس ظلمة الزلأّت برحمته، ووحشة الغفلات عن القلوب بكرامته»، وقيل: «العفو الذي أزال الذنوب من الصحائف، وأبدل الوحشة بفنون اللطائف»... إزالة، وعطاء.

أحد الأئمة يقول: «العفوُّ هو الذي يمحو آثار الذنوب، ويُزيلها بريح المغفرة، فهو يمحو الذنوب من ديوان الحفظة، حتى إنّه يُنسيها من قلوبهم ومن قلوب المذنبين... أو هو الذي يترك المؤاخذة على الذنوب ولا يُذكِّر بالعيوب».

هذه كلُّها من معاني العفو... فما عليك إلا أن تقول يا رب لقد تُبت إليك... فإذا قال العبد: يا ربِّ وهو راكع. قال الله: لبَّيك يا عبدي. وإذا قال العبد: يا ربِّ وهو ساجد. قال: لبَّيك يا عبدي، فإذا قال العبد وهو عاصٍ: يا ربِّ تبتُ إليك وأنا عاصٍ. قال: لبَّيكَ ثم لبَّيك ثم لبَّيك.

فلتوضيح الفكرة... الأب إن كان عنده أولاد أبرار طائعون وواحد منهم كان شارداً وعاقاً، فَفَرَحُ الأب برجوع ابنه إليه وتوبته إليه أضعاف مضاعفة عن فرحه بهؤلاء الأبرار، لأنهم سلكوا الطريق الصحيح وانتهى الأمر إلى خير، أما هذا الشَّارد فيتألَّم الأب له أشدَّ الألم، فإذا عاد فرح الأب بعودته، ومن هنا روي عنه ﷺ: «وَاللهِ للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالفَلَاةِ وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ» [مسلم عن أبي هريرة].

وفي الحديث: «يُدنى المؤمن من ربه حتى يضَع عليه كنَفَه، فيقرِّرُه بذنوبه: تَعْرِفُ ذَنْبَ كذا وكذا؟ فيقول: أعرف ربِّ، أعرفُ، فيقول سَتَرْتُها عليك في الدنيا، وأغْفِرُها لك اليومَ، ثم تُطوى صحيفةُ حسناته» [البخاري عن ابنُ عمرَ].

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها اسم (العفو)

اسم العفوُّ ورد في القرآن الكريم في آياتٍ كثيرة، ومن هذه الآيات قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٩].

كلمة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾... أو ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء:١٧]. هذه الكينونة تفيد أنَّ أسماء الله الحسنى قديمةٌ قدم الله عزَّ وجلَّ منذ أن كان الله كان عفوّاً غفوراً... منذ أن كان الله كان عليماً حكيماً... منذ أن كان الله كان على كل شيءٍ قديراً، أي أنَّ أسماءه متلازمةٌ مع وجوده.

وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩].

وقد قيل: تخلَّقوا بكمالات الله. فإذا كان الله عفوّاً فيجب أن تكون أنت عفواً، إذا كان الله حليماً يجب أن تكون أنت حليماً فقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ أي أنت ما تقرَّبت إلى الله بمثل أن تتخلَّق بكمالات الله.

وفي سورة الحج قال تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج:٦٠]، أي: حينما يُظلَم الإنسان.

وفي سورة المجادلة قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة:٢].

هل أدركتم حكمة تلازم اسم العفوّ مع الغفور كثيراً؟ الغفور لم يعاقبك، أما العفو فقد أنساك الذنب كلَّه، وهذا منتهى الإكرام ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾.

قال العلماء: ورد اسم العفوّ مع اسم الغفور، وورد مع اسم القدير، ولله المثل الأعلى فالإنسان أحياناً لا يستطيع أن يعفو، فهناك من هو أقوى منه يحاسبه ويؤاخذه، فإن كان هناك من لا يستطيع أن يعفو، فإن الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾... أي: قدير أن يعفو عن كلِّ الذُّنوب، فقد قال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾، ولذلك ورد في قوله تعالى على لسان سيدنا عيسى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة:١١٨].

أي: أنَّك لو غفرت لهم فلا تستطيع أيَّة جهة في الكون أن تسأل: لِمَ غفرت لهم؟ لأنَّ الله سبحانه وتعالى إلهٌ عظيم، ومن شأن الإله العظيم ألا يُسأل عما يفعل، فالله وحده قديرٌ أن يعفو عنك دون أن يُسأل.

وهناك نقطة بالغة الأهمية في طريق الإيمان، يقول لك إنسان أحياناً: أنا قد تبت إلى الله من هذا الذَّنب، لكن عندما تكون هناك توبة عقب توبة ويعقبها توبة عن الذَّنب نفسه، فتضعف ثقة الإنسان بنفسه، وربما وقعت بينه وبين الله جَفوة، والإنسان حكيم نفسه، فإذا وقع انهدامٌ بينه وبين الله، أو جفوةٌ بينه وبين الله فما العمل؟ أمعنوا النظر فيما سأقوله:

إنسان ارتكب إساءة في حقِّ إنسان، فما دامت هذه الإساءة قد ارتكبها ولم يستسمح فهي حجابٌ بينه وبين هذا الإنسان، لو أنه قدَّم له هديةً ثمينة ففي الأعمِّ الأغلب أنَّ هذه الهديَّة تُنسي الذي أساء إليه تلك الإساءة، فماذا حدث؟ حدث ترميم وجبر، وإعادة توازن، وإعادة علاقات، وحدث محو... وهذا معنى مهم جداً ويحتاج إليه كلُّ مؤمن.

قال ﷺ: «اتَّقِ اللهَ حيثُما كُنتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» [الترمذي، عن أبي ذر].

السيئة هل ينبغي أن نتوب منها أم نتبعها بحسنة؟ فأحياناً الإنسان يقع في الذنب نفسه مرةً أو مرتين، ففي المرة الثانية يخجل ولو تاب، فما الذي يُذهب عنه الخجل؟ أن

يُتبعها بحسنة. فعوِّدوا أنفسكم أيها المؤمنون أنَّ كلَّ ذنب وقعت فيه عن غير قصدٍ بإمكانك أن تتبعه بعملٍ صالح، وهذا العمل الصالح يُنسي صاحبه هذا الذنب، واعتقد أن العمل الصّالح الذي قام به سيفرحه.

فإذا أحرم الإنسان عند الحج بعمرةٍ ثم تمتَّع إلى الحج، فعليه هدي جبرٍ، أما إذا جمع بين الحج والعمرة قارناً فعليه دم شُكرٍ، لأنَّ الله قد قوّاه ومكَّنه من أن يعتمر ويتابع إحرامه إلى الحج ثم يَحُجّ، وهذا قارن وعليه دم شكرٍ، أما إذا اعتمر ثم تحلل من عمرته ولبس الثياب المخيطة وتعطَّر وأكل وشرب وحلق رأسه واغتسل وقصَّ شعره وأظافره، وفي اليوم الثامن من ذي الحجة أحرم بالحج، فيقال هذا متمتِّع، والمتمتِّع عليه هديٌ، هديُ جبرٍ... والقارن عليه هدي شُكرٍ... وسائر الكفّارات في الإسلام هدفها أنَّ هذا الشرخ الذي وقع، وهذه الهوَّة، واختلال التوازن الذي وقع يرمَّم بهذه الصدقة.

وقد ورد أنَّ الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى ألزم نفسه أن يتصدق بدينار ذَهَبٍ عن كلِّ يمينٍ يحلفها صادقاً بها، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة:٨٩].

فأهم شيء في هذا البحث أنَّ الله عزَّ وجلَّ عفوّ، وغفور، فالغفور لا يُعاقب... والعفو يُنسي الذنوب، لكن حينما تزلُّ القدم بك مرةً أو مرتين في الذَّنب نفسِه ينشأ بينك وبين الله حجاب، وهذا الحجاب ما الذي يَهتكه؟ العمل الصالح.. فعوِّد نفسك أن تعمل العمل الصالح كلَّما غفلت، أو أخطأت، أو تسرَّعت، أو تكلَّمت كلمةً قبيحة، أو فعلت شيئاً لا يُرضي الله عزَّ وجلَّ.

لذلك قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود:١١٤].

وعَنْ أبي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «سِتَّةَ أَيَّامٍ ثُمَّ اعْقِلْ، يا أبا ذَرٍّ مَا أقولُ لَكَ بَعْدُ» فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ السَّابِعُ قَالَ: «أُوصيكَ بتَقْوَى الله فِي سِرِّ أَمْرِكَ وَعَلانيَّتِهِ، وإذا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ، وَلا تَسْأَلَنَّ أَحَداً شَيْئاً وَإِنْ سَقَطَ سَوْطُكَ، وَلا تَقْبِضَنَّ أَمَانَةً، ولا تَقْضِ بين اثنين» [أخرجه أحمد في مسنده].

وعَنْ مُعاذِ بْنِ رِفاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبيهِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ قالَ: سَمِعْتُ أبا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه يَقُولُ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ الله ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ حينَ ذَكَرَ رَسُولَ الله ﷺ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، ثُمَّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ فِي مثل هَذَا القَيْظِ عَامَ الأَوَّلِ: «سَلُوا اللهَ العَفْوَ وَالعافِيَةَ وَاليَقِينَ فِي الآخِرَةِ وَالأُولَى» [أخرجه أحمد في مسنده].

وكان سيِّدنا عمر رضي الله عنه إذا أصابته مصيبةٌ كان يقول: الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكُن في ديني، والحمد لله إذ لم تكُن أكبر منها، والحمد لله إذ أُلهمتُ الصبر عليها.

نصيب المؤمن من اسم الله (العفو)

وبعد هذا الشرح الواضح فمن التخلُّق بأخلاق العفو... أن تعفو عمن ظلمك، وأن تُعطي من حرمك، وأن تصل من قطعك، هذه أخلاق المؤمنين فقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

سيِّدنا الصديق... إنسان افترى على ابنته السيدة عائشة رضي الله عنها كذباً في حديث الإفك... فهل هناك إساءةٌ أشدُّ من أن يُسيء الإنسان إلى عِرض أخيه، وهي بريئةٌ وطاهرةٌ وعفيفة؟ ومع ذلك روَّج مِسْطَح هذه القصة وأشاعها في المدينة، وتأخَّر

الوحي في تبرئة السيدة عائشة ثلاثين يوماً، والنبيُّ ﷺ لا يدري ماذا يفعل، وسيدنا الصديق كان يُحسن لهذا الإنسان، فلما وقع في هذه الإساءة الكبيرة الإجرامية نوى أن يَكُف عن الإحسان إليه، فجاء قول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾ [النور:٢٢].

فقد ورد في الأثر:

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإفْكِ مَا قَالُوا فبَرّأَها اللهُ مِمَّا قَالُوا كُلٌّ حَدَّثَنِي طائِفَةً مِنَ الحَدِيثِ فأنْزَلَ اللهُ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ العَشْرَ الآياتِ كُلَّها فِي بَرَاءَتِي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَكانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرابَتِهِ مِنْهُ: وَالله لا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئاً أَبَداً بَعْدَ الذِي قَالَ لِعائِشَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ ﴾ الآيَةَ، قالَ أبو بَكْرٍ: بَلَى وَالله إنِّي لأُحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي فَرَجَعَ لى مِسْطَحِ النَّفَقَةَ الَّتِي كانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ: وَالله لا أنزِعُهَا عَنْهُ أَبَداً [البخاري: ٦٦٧٩].

وعاد إلى ما كان عليه وهذا شيء عظيم، إنسان روَّج الخبر السَّيِّئ عن ابنته وأرجف في المدينة، ثم يُعاتبه الله لماذا كفَّ عن مساعدته؟ هكذا أخلاق المؤمنين... ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

الحقيقة أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يأمرنا أن نعفو عن المسيء فحسب، بل أمرنا أن نُحسن إليه، فقد قال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾.

وكذلك الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

من كان حظُّه عظيماً من الاتصال بالله عزَّ وجلَّ فليحمد الله كثيراً، فسبحان الله عندما يعفو الإنسان عن أخيه يملأ الله قلبه أمناً وإيماناً، أما حينما ينتقم منه فإن الله يملأ قلبه خوفاً وجفوةً، فالمنتقم يعاقبه الله عزَّ وجلَّ، باللعنة والطرد من رحمته وجفوة قلبه والقلق الذي يأكل قلبه، أما الذي يعفو يملأ الله قلبه أمناً وإيماناً فما دمت قد عفوت عنه اشتريته، ولأن يربح الإنسان إنساناً خيرٌ له من أن يربح الدنيا وما فيها.

فالإنسان حينما تعفو عنه تربحه... فسيِّدنا محمّد ﷺ أمر بقتل بضعة أشخاص يوم فتح مكة لأنهم أساؤوا إساءةً ما أساءها أحدٌ قبلهم إلى الإسلام وإلى دين الله عزَّ وجلَّ، منهم عكرمة بن أبي جهل [السيرة النبوية لابن هشام: ٤/ ٤١]... ثم جاء عكرمةُ مسلماً تائباً مستغفراً، فالنبي ﷺ بالغ بإكرامه، وقال له: «مرحباً بالراكب المهاجر» قال ذلك ثلاث مرات [أخرجه الحاكم في المستدرك، والترمذي، عن عكرمة بن أبي جهل].

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كم نَعفُو عن الخادم؟ فَصَمَتَ، ثم أعاد عليه الكلام، فصمت، فلما كانت الثالثة قال: «اعفُ عنه في كل يوم سبعين مرة» [أبو داود عن عبد الله بن عمر].

أنا أرى أن الإنسان إما أن يكون إنسانياً أو عنصرياً، معنى عنصريّ أي يرى لنفسه ما ليس لغيره، ويرى على غيره ما ليس عليه، فهذا الخادم إنسان له مشاعر، له كرامة، له حاجات، ما دمت تعامله كإنسان فأنت إنسانيّ ولو كان خادماً، الخادم عبد من عباد الله جعله الله تحت يديك، وما لم يعامل الخادم كما يعامل الابن فأنت عنصري.

حينما يرى الزّوج أنّ له ما ليس لزوجته فهو عنصريّ، حينما تعامل زوجة ابنتك في البيت معاملة لا ترضاها لابنتك فأنت عنصريّ، عندما تميز نفسك على غيرك فأنت عنصري، المؤمن إنساني يعرف للناس حقهم، يعرف لمن حوله حقه ولو كان تحت يده.

وهناك سؤال يتردد: متى أعفو عمن ظلمني؟ ومتى أطالب بحقّي؟

إذا غلب على ظنك أن عفوك عنه سيصلحه فينبغي أن تعفو عنه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

أمّا إذا غلب على ظنّك أنّ عفوك عنه يزيده غياً وظلماً وطغياناً واستخفافاً فالأولى أن تطالب بحقك وفق ضوابط الشّرع.

فالخلاصة أنّ هذه الأسماء الحسنى يجب أن تزيدنا حباً بالله عزَّ وجلَّ وتخلُّقاً بالأخلاق الحميدة.

المقيت

سمىّ الله جلّ جلاله ذاته العلية في القرآن الكريم باسم «المقيت»، فقد ورد في موضع واحد في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [النساء:٨٥].

من معاني اسم الله (المقيت)

«المقيت» في اللغة اسم فاعل، للموصوف بالإقاتة، فعله الرباعي أقات، وأصل الفعل، قات، يقوت، قوتاً، والقُوت: ما يُمسك الرَّمق من الرِّزق، وما يُقيت الإنسان، ويقيم أوَدَه، وما يجعله يقف على قدمَيه، وما يعينه على مزاولة نشاطه، هذا هو القوت، فالخبز من القوت، والحليب من القوت، لكنَّ بعض أنواع الفاكهة ليس من القوت، هناك طعام أساسيّ وهناك طعام ثانويّ، فالطّعام الأساسيُّ هو القوت، والله سبحانه وتعالى من أسمائه المُقِيت.

بعضهم قال: القوت هو ما يقوِّم بَدَن الإنسان من الطعام، ويجعله قائماً. قال ابن عباس رضي الله عنه: المُقِيت هو المقتدر؛ لأنَّ هذا الإنسان يحتاج إلى طعام، والذي خَلَقه خلق

له الطَّعام، وخلق له توافُقاً بين الطَّعام وجسمه، وخلق أجهزةً في جسمه تأخذ هذا الطَّعام وتمتصُّه، وتستفيد منه. هناك عمليَّة خلق، وعملية توافق، وعملية استقبال. لذلك فالمُقِيت هو المقتدر علماً وقوة، فهذا الحليب الذي تُنتجه البقرة آليَّته معقدة جداً، خليَّة الغُدَّة الثديية يمرُّ فوقها أوعية شعريَّة فيها دم، فتختار من بين فَرْثٍ ودمٍ- وكأنَّها كائن عاقل- من بين الكريات الحمراء ومن بين البولة السَّائلة التي في الدَّم، العناصرَ الأساسيَّة من بروتينات، ومواد دسمة ومواد شحميَّة، ومواد مقويَّة، ومعادن، ليكون الحليب منها. فالذي جعل هذه الكائنات قادرة على إنتاج هذا الحليب، ثم جعل هذا الحليب متوافقاً مع جسم الإنسان، ثم أوجد أجهزة في جسم الإنسان تستقبل هذا الحليب، وتهضمه، وتمتصُّه، وتجعله طاقةً هو الله المُقِيت.

فالأغذية متوازنة بدقة بالغة، الطِّفل الصَّغير إذا ماتت أمُّه قبل أن تُرْضِعه، أو طُلِّقت، أو خافت على رشاقتها فلم تُرْضِعه! وأسقَيْناه حليب البقر المعقَّم، فهناك مضاعفات خطيرة قد تحدث معه في المستقبل، لأنَّ المادة البروتينيَّة في حليب البقر أربعةُ أمثال ما تحْتَمله أجهزة الطِّفل الصَّغير لذلك يصاب بآفات قلبيَّة، وآفات وعائيَّة، وآفاتٍ في الكبد والكليتين، وتُعزَى بعض الآفات القلبيَّة والوعائيَّة والكبديَّة والكَلَويَّة؛ إلى أنَّ الطِّفل حُرِم الرَّضاع من أمِّه، هل تصدِّق أيُّها القارئ الكريم أنَّ حليب الأم يتبدَّل تركيبه في أثناء الرَّضعة الواحدة؟ والآن كلُّ معامل أغذية الرُّضع، تُكتَب على عَبْواتها: لا شيءَ يعدل حليب الأم، إذاً هناك تقدير وقدرة وعلم وحفظ.

فالمُقِيت هو المقتَدر إذ إنه خلق ووفَّق، وأفاد، خلق الطعام، ووفّق بينه وبين خصائص الجسم، وهيَّأ له أجهزةً تمتصُّه لتستفيد منه. فابن عباس يقول: المُقِيت هو المقتدر.

أبو عبيدة يقول: المُقِيت هو الحفيظ، ما الذي يحفظ لك هذا الجسم؟ إنَّه الطَّعام والشَّراب، فلو انعدم الطَّعام لأدّى ذلك إلى الموت. فمِنْ أسماء الله المُقِيت؛ وهو الذي يخلق القوت، ويحفظ الإنسان بالقوت، وهو الذي يقتدر بعلمه وقُدرته على خلق

القوت المناسب، وملاءمته مع الجسم، وتهيئة أجهزة الجسم لامتصاصه. فالمُقِيت: الحفيظ. والمُقِيت: المقتدر علماً وقدرةً. والمُقِيت: هو الذي يخلق القوت.

وقيل: المُقِيت هو الذي يعطي أقوات الخلائق. فلو تفكَّر الإنسان وسأل نفسه: كم من دابَّة تُذبح يومياً لتوفير طعام البشريَّة؟ فلو قدّرنا نصيب الإنسان بخمسين غراماً من اللَّحم علماً أن عدد سكَّان العالم ستةُ مليارات نسمة تقريباً فكم يكون التقدير؟ ومن المحاصيل الزراعية كم طنَّاً؟ بلادنا المتواضعة التي عدد سكانها خمسة وعشرون مليوناً أنتجت ثلاثة ملايين طن. فماذا نقول عن بلاد مثل الصين التي عدد سكانها مليار ومئتا مليون؟ وماذا نقول عن بلاد مثل الهند التي عدد سكانها مليار وخمسة وأربعون مليوناً؟ وكم تُنتج من قمحٍ ولحم وخضراوات وفواكه؟ مَن خلق ومَن أبدع وهيّأ؟ إنّه المُقيت جلَّ جلاله

وقيل: المُقِيت: هو الذي خلق الخلق وساقَ لهم الأقوات. لو أنَّ أحداً أعطاك سيَّارة ومنعك من شراء الوقود لها فلن تستفيد منها شيئاً! إذ إنَّه من لوازم عطاء هذه المركبة إعطاء الوقود من أجل أن تسير بها، فالمُقيت هو الذي خلق الخلق، وساق لهم الأقوات. فما دام قد خلق، فقد رزق. والشيء الدقيق في المعنى والمدلول قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الروم: ٤٠].

لم يقل ثم يرزقكم بل قال: ثم رزقكم بالفعل الماضي طمأنَةً للخلق. كأنَّك أرسلت إنساناً إلى بلد أجنبيٍّ، وأمَّنت له ما يحتاج إليه لمدة خمس سنوات دُفعة واحدة سَلَفاً حتى يطمئنَّ؛ فجاء الفعل ماضياً؛ الله الذي خلقكم ثم رزقكم. فالمُقِيت هو الذي خلق الخلق، وساق لهم الأقوات. وهذه الغَنَمة التي خُلقت لنا، وكلُّ شيء فيها ننتفع به؛ بدءاً من صوفها، إلى جِلدها، إلى لحمها، إلى شحمها، إلى دُهنها، إلى عظمها، إلى أحشائها، إلى قرنيها، إلى رأسها؛ فكل شيء في هذه الدابَّة ينتفع الإنسان به، وهي مخلوقة للإنسان خِصِّيْصَى، ومخلوقة كي تتوالد بسرعة كبيرة، وتحوي أجهزة كأجهزة الإنسان

تماماً، من أجل أن يُعلّمه الله ماذا في أحشائه لتكون وسيلة للتعرف إلى جسم الإنسان من خلالها.

وقيل: المُقِيت: ساقَ قوت الأشباح، وقوت الأرواح. والأشباح جمع شبحٍ وهو الجسم لأنه فانٍ، والأرواح: المقصود بها هنا النُّفوس. كما أنَّ هناك أقواتاً للأجساد؛ فهناك أقوات للنُّفوس، والنَّفس قُوْتُها يكون بالاتصال بالله عزَّ وجلَّ، قوتُها بالسكينة التي يُنزِلها الله على قلوب المؤمنين، وبشعورها بأن الله راضٍ عنها، وبمعرفتها بربها، وبالعمل الصالح الذي تتألق به؛ هذا هو قوت النَّفس. فكلمة قوت، وكلمة مُقيت دفعَت بنا إلى قَفْزة من قوت الأشباح إلى قوت الأرواح؛ من قوت الأجساد إلى قوت النُّفوس، ومن الطَّعام والشَّراب إلى العلم، ومن الفواكه إلى السَّكينة، ومن الماء إلى التجلّي الإلهي الذي يهبط على القلب فيَمْلؤه سعادةً. قالوا: المُقِيت هو الذي خلق الخلق، وساق إليهم الأقوات، وأوْصَل إليهم الضروريات والكماليات، ورَزَقَ قوت الأرواح وقوت الأشباح. وقيل: المُقِيت هو المُتكفّل. أحياناً الإنسان يُطعِم ولكنه ليس مسؤولاً، ولا مُكلَّفاً، ولا مُلزَماً؛ لكنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦].

و﴿عَلَى﴾ تفيد الإلزام الطوعي الذاتي والله عزَّ وجلَّ ألزم نفسه برزق العباد؛ ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فهو المتكفل بإيصال الأقوات إلى الخلق.

وذكر الرَّازي أنّ المُقِيت: هو من شَهِد النَّجوى فأجاب، وعلِم البَلْوى فكَشف واستجاب.

فالمُقِيت هو الذي يخلق القوت، والمُقِيت هو الذي يحفظ الإنسان من الجوع، ومن الهلاك جوعاً، والمُقِيت هو الذي خلق قوتاً يناسب الجسد، وخلق في الجسد أجهزةً تستقبل القوت، وجعل توافُقاً عجيباً بين بنية الإنسان ومكوِّنات الغذاء. يقال أحياناً: هذا الحليب متوافق مع السِّن الفلانية؛ فهو مدروس مع البروتينات والشحوم

والفيتامينات، فصار هناك اقتِدار أساسه العلم والقدرة. وصار هناك حفظ وإطعام ثم هناك قوت القلوب.

وقوت القلوب، أي: معرفة علاّم الغيوب، والاتصال بالله عزَّ وجلَّ. وقوت القلوب الأمن الذي يملأ الله به قلبَ عبده المؤمن، والمؤمن ممتلئ قلبُه أمْناً،وممتلئةٌ نفسُه سكينةً ورضاً واطمئناناً؛ هذا هو قوت القلوب. ومعلوم أنَّه تمرُّ على الإنسان فترات يذهب أين يشاء، ويأكل ما يشاء، ويستمتع بطيِّبات الحياة الدُّنيا، ومع كلِّ هذا الاستمتاع يشعر بجوعٍ روحيٍّ، يريد أن يتَّصل بالله، وأن يرضى الله عنه، فإشباع الجسد لا يُغْني الرُّوح شيئاً، فروحك ونفسك بأمسّ الحاجة إلى قوتٍ خاصٍّ بها. فلو أنَّ شخصاً صلى صلاةً متقنَة بخُشوعها، وانهمرت دموعه في الصلاة، أو قرأ القرآن فشَعر بسعادةٍ كبرى؛ فإنَّه يشعر بالرِّيّ، ويشعر بالاكتفاء، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ قَبِله، وأقبل عليه، وتجلَّى على قلبه، وأنزل على قلبه السكينة، وتطمئنُّ نفسه إلى أنه حفظه وغَفَرَ له وقرَّبه، وهذا هو قوت القلوب.

وهذا مثلٌ آخر أقرب إلى الأفهام؛ لو أنَّ أباً في البيت، وَفَّرَ لابنه ألوان الطعام، وألوان الألبسة، لكنَّه لا ينظر إلى ابنه إطلاقاً ولا يكلِّمه فهل يكتفي هذا الابن بالطعام الذي يأكله في البيت، وبالشراب اللذيذ، وباللباس الجيّد؟ لا يرضيه ذلك ولا يُسعده، لأنّ الابن بحاجةٍ إلى ابتسامة من أبيه، وإلى كلمة عطف، وبحاجة إلى أن يضع الأبُ يده على كَتِف ابنه، وإلى أن يضُمّه؛ فالضَّمُّ ليس طعاماً، كما أنه بحاجة إلى أن يقبّله أبوه، والتقبيل ليس طعاماً.

ووضع يده على كتِفِه ليس طعاماً، والابتسام في وجهه ليس طعاماً، أليس الطفل الصغير بحاجة ماسَّةٍ إلى قوت من نوع آخر، يسميه المربُّون: أن يستَقِيَ الحنان من أمه وأبيه، وأن تضُمَّه أمُّه إلى صدرها، وأن يضعه أبوه في حِجْرِه، وأن يبتسم في وجهه، وأن يضاحكَه، وأن يداعِبه، وأن يلاعِبه، فهذه حاجة أساسيَّة عند الإنسان. وكلما ارتقى الإنسان تصبح حاجته إلى هذا القوت المعنويِّ أشدَّ من حاجته إلى القوت الماديِّ.

والإنسان عندما يقوى إيمانه لا يرى سعادةً أكبرَ من أن يشعر أنَّ الله تعالى يحبُّه، وأنه في عَين الله ورعايته وتوفيقه، إذاً ما أحْوجنا إلى قوت القلوب.

وحينما يفتقر القلب إلى القوت فإنَّه يتصحّر لأنَّ الحياة منعدمة، أحياناً البكاء يجعل الإنسانُ يشعر بسعادة، وإنَّ أرقى بكاءِ الإنسانِ أن يبكي بكاءَ الرَّحمة، ادْخُلْ إلى عالم الإيمان وإلى عالَم القُرب من الله فستشعر بظلال رحمة الله ورأفة حنانه. كنت أدعو في بعض الأدعية: اللهم أخرجنا من وُحول الشهوات إلى جنات القربات، القرب جنَّة؛ العِفّة والاستقامة والصِّدق والأمانة والضبط وأداء العبادات وتلاوة كتاب الله، هذا قرب، وهذه جنَّة، فإذا أكل الإنسان أطيب طعام حتى امتلأ بطنه، ونال من المباحات ما يشاء، ثم لا يلبث أن يشعر بالفراغ ويشعر بالملل والسأم؛ لأنَّ هذه الدنيا صغيرة ولا تملأ قلب الإنسان، ولا تملأ نفسه اللامتناهية؛ فهذه لا يملؤها إلا القرب من الله عزَّ وجلَّ. إذاً فالقوت قوتان؛ قوت للقلوب، وقوت للأجسام. فقُوت الأجساد الطعام والشراب، وقوت القلوب معرفةُ الله والإقبال عليه والقرب منه، أما علمت أنَّ أكبرَ عقاب يُعاقَب به الإنسان يوم القيامة ورد في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ﴾ [المطففين:١٥].

هذا أبٌ على مودَّة بالغة مع ابنه فلو قال له يوماً: اخرج ولا تُرِني وجهك! ألا ترى أن هذا القول هو أكبر عقاب للذي يملك إحساساً، والذي يعرف نفسه أنه عزيز حبيب.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها اسم (المقيت)

ورد اسم المُقِيت في القرآن الكريم مرّة واحدة في سورة النساء قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) ﴾ [النساء:٨٥].

أي حفيظاً ويحفظ أعمال عباده كلَّها. ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ فإن دَلَلْتَ إنساناً على الله، أو دَلَلْتَه على أخ مؤمن، أو عرَّفته إلى أخ صادق، شفعْتَ شفاعةً حسنة،

أي: نَتَجَ عنها خيرٌ عميم، ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾: دلَّلته على معصية أو مخالفة أو على أسلوب لا يُرضي الله في التَّعامل، شفعْتَ له شفاعة سيئة، قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ له: اللام هنا لام الملكية: ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾، سيَدفع نصيبه من هذا الأذى الذي سبّبه بشفاعتِه ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم كل شيء، ويُسجّل كل شيء، ويحفظ كل شيء، ويحفظ لك شفاعتك الحسنة أو شفاعتك السيئة. أحياناً تجد شخصاً ينصح آخر أن يرسِل ابنه إلى بلد أجنبيّ، وابنه مراهق وفي مقتَبل العمر وهناك فساد كبير، فالذي يحصل للابن في تلك البلاد في صحيفة من نصح، لذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف:٢٨].

فأيُّ نصيحة تؤدِّي إلى المعصية؛ فهذه هي الشَّفاعة السَّيئة، وأية نصيحة تؤدي إلى منفعة؛ فهي الشَّفاعة الحسنة، قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [النساء:٨٥].

فإذا نصحت أحداً أن يحضر مجلس علم فكل خير يتأتّى من هذا المجلس في صحيفة الناصِح، ونصحتَ آخر بتركيب أكبر قياس من الصّحون الفضائية حتى يحصل على مئتي محطة تلفزيونية، فكل سقوطه في الليالي الطويلة وراء هذه الأجهزة في صحيفة الناصح.

أما مادة (القوت) فقد وردت مرّة واحدة في سورة فصلت: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت:١٠].

أربعة أيام، أي: أربعة فصول؛ لولا مَيْلُ المِحوَر لما كان هناك فصول! لو أنَّ الأرض مِحورها عمودي على مستوى دورانها لكانت الفصول ثابتةً، هنا صيف سرمديّ لوجود شمس، والأشعة هنا عمودية، وهنا خريف وربيع سرمديان إلى الأبد، أمَّا ميل

الأرض على محورها، والشمس مستقرة عليها من جهة معينة، هنا عمودية فهنا صيف، وهناك مائلة شتاء، فلما عكست الآية صارت هنا عمودية، وهناك مائلة، فميْل المحور جعل تقلّب الفصول وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

وبعض العلماء فرّقوا بين اسم المُقِيت، واسم الرَّزَّاق قالوا: «المُقِيت: هو خالق الأقوات، وموصِلها إلى الأبدان وهي الأطعمة، وإلى القلوب وهي المعرفة، قوت القلوب المعرفة وقوت الأبدان الأطعمة؛ خلقها ووفَّقَها وأوصلها وانتفع الجسم منها»، عملية معقّدة. أحياناً تكون أمامك علبة لحم لكنَّك لا تستطيع أن تفتَحها فأنت لم تستفِد شيئاً، لكنَّ الطَّعام الذي خلقه الله عزَّ وجلَّ يتوافق بشكل عجيب مع حاجات الجسم، وبشكلٍ أشد عَجَباً مع طبيعة الأجهزة التي تستقْبِله.

قال العلماء: «إن المُقِيت هو خالق الأقوات، وموصِلها إلى الأبدان وهي الأطعمة، وإلى القلوب وهي المعرفة»، إلا أنه أخص من الرزَّاق، إذ الرزق يتناول القوت وغير القوت قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة:٨٢].

ومن معاني المُقِيت ما يُكتفى به في قِوام البدن؛ أَكَلَ لُقمتين فشبع واستطاع أن يمشي، فهو بهذا الطعام استطاع التحرك.

ومعنى مقيت؛ أي: مستولٍ على الشيء قادر عليه. تقول: مقيت على هذا البيت بمعنى مُتَمَلِّك زِمامه، أو مُطَّلِع عليه وقادِر على فهم كل خباياه. فإما قدرة، أو عِلم، أو حفظ، أو إطعام.

وقال بعض العلماء: «المُقِيت بمعنى الرزَّاق إلا أنه أخص منه»، فأنواع البهارات هذه ليست قوتاً؛ ولكنها تُحسِّن الطَّعْم. وهناك مكسّرات وهي كذلك ليست طعاماً. أنواع الفواكه كذلك، فهناك أنواع لذيذة الطَّعم؛ ولكنَّها ليست قوتاً، ولكنَّها مبالغة في الإكرام. وهذا من معاني اسم الله (الودود). ويمكن أن تنْطوي الأطعمة الأساسية تحت

اسم المُقِيت. يمكن أن يدعوك شخص إلى الطَّعام، ويُعطيك نوعاً واحداً، ويمكنه أن يضع لك أنواعاً من حلويات، ومقبلات، وأزهاراً على الطاولة؛ هذا كلُّه يزيد على حاجة الإنسان. فتفيأت على مائدته ظلَّ المُقِيت وظلّ الودود. فهناك أطعمة تنطوي تحت اسم الودود وهناك أطعمة تنطوي تحت اسم المُقِيت.

نصيب المؤمن من اسم (المقيت)

وها قد وصلنا إلى موضوع أدب العبد مع اسم المُقِيت. ما علاقتنا بهذا الاسم الجليل؟

الأدب الأول ألا نأكل إلا الحلال الطَّيِّب؛ فالله يُطعِمنا، فلا ينبغي لك أن تأكل إلا الحلال الطَّيِّب.

هناك قاعدة: لدينا شيء حرام لذاته، وهناك شيء حرام لغيره؛ فأكْل الإنسان لحمَ الخنزير، هذا حرام لذاته، أي: لذات الخنزير. وأن يأكل لحم الغَنَم سرقةً هذا حرام ولكن ليس لذاته وإنما لغيره. فالحُرْمة الأولى حُرمة لذات الشيء، والحُرمة الثانية حُرمة لغير ذات الشيء وإنما لطريقة تناوُلِه. وإن كان الطَّعام الذي خلقه الله قد خصَّنا به، إلا أنَّنا لا يجوز أن نأكل منه إلا إذا كان حلالاً بكَسْبٍ صحيح مشروع.

فمن أدب المؤمن مع اسم المُقِيت ألا يتناول إلا الحلال الطيب؛ ليرتفع عند الله ذِكره، ويعظم أجره. هناك أثر يقول: أطِب مطْعَمك تكن مُستَجاب الدعوة.وفي الحديث: «.....ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» [مسلم عن أبي هريرة].

فالمال الذي بحَوْزَتِك ينبغي أن يكون حلالاً. فإذا كان حلالاً، تشتري به طعاماً، عند الله هو طيِّب. وإذا أكلت طعاماً طيِّباً حلالاً من كسب مشروع، خالٍ من الكذب، والغِش، والتدليس، والاحتِكار، ليس فيه تغيير مواصفات، ولا إيهام، ولا حلْف

كاذب، إذا كان الأصل حلالاً -مادةً وطريقةً- طيِّباً؛ عندئذٍ قد طاب مطْعَمك وتكون مسْتَجاب الدعوة.

رُوي أن سفيان الثوري كان يتحرّى الحلال من الرِّزق، حتى كان أولاده يعانون من الفقر فجاءه رجل موسِر بصُرّة مالٍ وقال له: إنَّ هذا مالٌ حلال، ورجاه أن يقبله منه، فقبِله سفيان، وبعد قليل ردّ المال إلى صاحِبِه، فقال أحد أبناء سفيان لأبيه: يا أبتِ أليس لك أولاد بحاجة إلى هذا المال؟ فقال له سفيان: أتُريد أن تأكل وتتنعّم وأبوك يُسْأل عنه يوم القيامة؟

أكاد أقول: إن تسعة أعشار الدين أن يكون الرِّزق حلالاً. فأيُّ كسبٍ للمال؛ المادة التي نتعامل بها مشروعة، والحديثُ فيه صدق، ووفاء بالوعد، وأمانة في الثمن، ونصيحة للمشتري، ولا تدليس، ولا غِش، ولا كذب، ولا احتيال، ولا مُبالغة، ولا تغيير مواصفات، وكلُّ شيء مشروع، هذا كله صيَّر المال الذي تكسبه مالاً حلالاً، وينفعك نفعاً لا حدود له، ويبارِك الله لك فيه برَكَةً ما بعدها بركة.

هناك أدب آخر، ذكر بعض العلماء أن من أدب هذا الاسم أنه إذا أتاك الغداء أن تشهد المُنعِم من خلال النِّعمة؛ فكلنا نأكل لكن إذا جلس الإنسان ليأكل ورأى كأس شاي: مَن خلق الشّاي بهذا الطّعم الطَّيِّب؟ ومن خلق السُّكر؟ ومن جعل الماء صافياً؟ ومن خلق النار نوقِدها لتحضير الشاي؟ وهذا الخبز: من خَلَق القمح؟ وهذا الجُبن، وهذا اللبن، وهذا الزيتون من خلقه؟ شجرة مباركة. أكلتَ أرزاً من خلق هذا المحصول؟ أكلتَ فاكهةً، فمن الذي أنعم بها؟ والمؤمن دائماً لا يرى حين جلوسه إلى المائدة إلا نعمة الله؛ وهذا شعور راقٍ جداً، ولذلك يبدأ الإنسان بالبَسملة، ويحمد الله على هذا الطّعام الذي خلقه الله له وزوَّده به، فإذا انتهى توسل بحمد الله أن يديم النِّعم عليه.

أحياناً: الإنسان، مئة ألف ليرة لا تساوي عنده رغيفَ خبز، فالإنسان أساس حياته الطَّعام والشَّراب؛ فإذا حُرِمَهما وكان معه المال الوفير فهذا لا يساوي عنده شيئاً. إذا كان الإنسان في الصحراء وكاد يموت جوعاً حانت منه التفاتة فرأى بركَة ماءٍ عن

بُعدٍ فأشرق في نفسه نور الأمل، فلما وصل إليها شرب حتى ارتوى. ثم حانت منه التفاتة فإذا بكيسٍ مملوء، كاد يفقد عقله من شدة فَرَحه، ظن أن فيه خبزاً، فلما فتحه لم يجد فيه إلا لآلئ فصاح واأسفاه هذه لآلئ! إذ إنه كان يتمنى الخبز. فاللؤلؤ بالمدينة له قيمة، أما إذا كان بالصحراء وكاد يموت عطشاً؟ فكأس الماء لا يعدِلُهُ شيء، حتى إن الواعظَ ابن السمّاك قال لهارون الرشيد: يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس من الماء إذا مُنِع عنك؟ قال: بنصف ملكي، قال: فإذا مُنِع عنك إخراجه؟ قال: بنصف ملكي الآخر، فهناك نِعم تبدو بسيطة لا أحد يعرف قيمتها؛ فهناك ماء تشربه، وهذا الماء يخرج فضلات بيُسرٍ بلا انحباس. وهناك طعام تأكله، وهذا الطعام تتمثّله ويخرج بلا انحباس، فتَلَقّي الطعام والشراب، وخروج الطعام والشراب بيسر هذه نعمة لا يعرفها إلا من فقدها.

إذاً: من أدب هذا الاسم؛ أنه إذا أُتي لك بطعام فإنّك تشهد المُقِيت الواسع، ومتى عَشِقَتْ روحُك المُقِيت فَنِيْتَ في أنواره، واجتَهَدْتَ في أذكاره، فتأكل الطعام ويتجلى لك واسِع الإكرام.

النبي ﷺ علّمنا أن نأكل ببطء، وأن نأكل ونذكر الله مع الأكل. لأنَّ الإنسان إذا ذكر الله وهو يأكل شكر نِعَمه العظيمة، أحياناً يشتهي الغنيُّ أن يأكل طعاماً إذ يرى أفقر الناس هم الذين يأكلونه، إذا أصيب شخص بالتهاب المفاصل مُنِع من أكل الحمص والفول، وبعض أنواع اللحوم عندئذٍ يرى صحن الحمّص أثمن صحن في الطعام، فحينما يُمنع، ويشتهيه. لذلك عندما يأكل الإنسان دون قيود فليشكرْ؛ فهذه نعمة لا يعرفها إلا من فقدها.

فالمؤمن إذا جلس ليأكل ينتقل من النعمة إلى المُنعِم، ومن القوت إلى المُقِيت. ومن هذا الإكرام إلى المُكرِم.

من التخلّق بهذا الاسم الكريم؛ ألا تطلب حوائجك إلا من الله تعالى، لأنَّ خزائن الأرزاق بيدِه. فعلى الإنسان أن يسأل ربه حاجته كلَّها، فهناك أشخاص تهون

عليهم نفوسهم، ويبذلون ماء وجوههم لغير الله عزَّ وجلَّ، لكنَّ المؤمن لا يسأل إلا الله عزَّ وجلَّ.

وفي الإسرائيليات أن موسى عليه السلام قال: يا رب! إنه ليعرض لي الحاجة من الدنيا فأستحي أن أسألك، قال: سلني حتى ملح عجينك وعلف حمارك.

فأول أدب من اسم المُقِيت أن تتحرى الحلال الطيب، والأدب الثاني؛ أن تنتقل من القوت إلى المُقِيت، ومن النعمة إلى المُنعِم، والأدب الثالث؛ ألا تسأل حاجتك إلا الله تعالى.

بعض العلماء يذكرون أنواعاً من القوت؛ منهم من جعل اللهُ قوتَه في المطعومات؛ فهذا يعيش ليأكل. حياتُه كلها طعام وشراب. ومنهم من جعل اللهُ قوتَه في الطاعات وهمّه طاعة الله عزَّ وجلَّ. ومنهم من جعل اللهُ همّه وقوتَه في المكاشفات والمشاهدات. فهناك إنسان يأكل، وآخر يُطيع، وآخر يُقْبِل، فالإقبال قوت، والطاعة قوت، والطعام قوت. وقد قال ﷺ: «أبيت يطعِمني ربي ويسقيني» [متفق عليه من حديث أبي هريرة]. لكنه طعام من نوع آخر. برَبّكم هناك جلسات -وأنا أعرف ذلك- مباركة وطيبة وفيها تجلٍّ تنصرف منها وأنت منتعِش، وأنت في أعلى درجات السعادة فهذا قوت. قال ﷺ: «لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عزَّ وجلَّ، إلا حَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» [رواه مسلم من حديث أبي هريرة].

فهذه الجلسات التي فيها ذكر الله وفيها صفاء وإخلاص وتواضع هي من القوت الذي ذكره بعض العلماء.

قال بعض العلماء: «القوت ذِكْر الحيّ الذي لا يموت»، وعلماء آخرون قالوا: «إن الله جعل أقوات عِباده وخلقه مختلفة؛ منهم من جعل قوته الأطعمة والأشربة على اختلاف أنواعها، وهم الآدميون وبعض الحيوانات. ومنهم من جعل قوته الطّاعةَ والتسبيح وهم الملائكة. ومنهم من جعل قوته المعاني والمعارف وهؤلاء هم أولو الألباب، وفي العقل نظام يجمع المحاسن كلها».

بقي أن نعلم أن العبد إذا اشتغل بطاعة الله عزَّ وجلَّ، سخَّر له من يعينه على تأمين حوائجِه كلِّها. وأما من شُغِل بشهواته، أوْكَله الله إلى ذاته. فالإنسان المشغول بذكر الله عزَّ وجلَّ قوتُه موفور وحاجاته مُيَسّرة. وهم في مساجدهم والله في حوائجهم، وأما الذي يشتغل بشهواته، فإن الله يَكِلُه إلى ذاته -والإنسان ضعيف- وعندئذٍ يقع في حَيْرة وشُغلٍ وعناء، يقول ﷺ في بعض أدعيته: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» وفي رواية: كفافاً [متفق عليه من حديث أبي هريرة].

ليس معنى هذا أنَّه يسأل الله الفقر، لكن معنى هذا أنّه يريد رزقاً يغطِّي كلَّ حاجاته، دون أموال طائلة يحار في إدارتها، تشغله عن الله عزَّ وجلَّ، فما قلّ وكفى، خير مما كثُر وألهى.

هذا مكان مناسب للتوضيح أن هناك فرقاً بين الرزق والكسب، فالرزق ما انتفعت به، هذه الوجبة التي أكلتها، هذا السرير الذي تنام عليه، هذه المركبة التي تركبها، هذه الثياب التي ترتديها، هذا رزق، ما انتفعت به مباشرة أمَّا الكسب فهو حجمك الماليّ، الرَّصيد، الأموال المنقولة، وغير المنقولة، هذه لم تنتفع بها أبداً لكنَّك محاسب عليها، فرق كبير بين الرزق والكسب.

لذلك في الحياة الدنيا الرِّزق له سقف، لو أنّ معك مئة مليار ماذا تأكل؟ وجبة طعام، كم ثوباً ترتدي؟ ثوباً واحداً، على كم سرير تنام؟ على سرير واحد، كم مركبة تركب في وقت واحد؟ مركبة واحدة، هذا هو الرِّزق، ما تنتفع به مباشرة، لكنَّ الكسب ما حصَّلته في عمر مديد، وجعل لك حجماً مالياً كبيراً، هذا الكسب محاسبٌ عليه كيف اكتسبته؟ وكيف أنفقته؟ مع أنك لم تنتفع به.

لذلك إذا سألتُ شخص، وقال لي: الحمد لله، الله كافيني، حاجتي مؤمَّنة، رزقي يغطي حاجاتي، أقول له: إذاً أصابتك دعوة رسول الله.

«اللهم من أحبني فاجعل رزقه قوتاً - كفافاً» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة].

وعن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كَفَى بالمَرْءِ إِثْماً أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ» [رواه أبو داود].

فأكبر إثم؛ أن تُضَيّع أولادك، وأن تضَيّع نفوسهم، فلا تُعَرِّفهم بربهم، وأن تُضَيّع أجسادهم فتُهْمِل إطعامهم وكِسْوتهم ومُعالجَتهم، فالعناية بالأولاد من أجَلِّ العبادات.

لذلك فأيُّ أب في الأرض يرتاح إذا شبع أولاده، ولبسوا، وكانوا في بحبوحة، لكنَّ الأب المؤمن يتميز من بقية الآباء أنه يقلق لحال ابنه الإيماني، يتمنَّى أن يكون ابنه مؤمناً، يدعوه إلى الصلاة.

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه:١٣٢].

إذا جاء الأب مساء لا يكتفي أن يسأل زوجته أأكل الأولاد، يقول لها: أأكلوا؟ هل صلوا العشاء؟

سيدنا عمر رضي الله عنه لما طُعن، وكان على وشك مفارقة الحياة، الشيء الذي أقلقه أنه قال: هل صلى المسلمون الفجر؟

فأنت -أيها الأب- ما الذي يقلقك على أولادك؟ صحتهم؟ كسوتهم؟ تفوقهم الدراسي فحسب؟ أمَا يقلقك دينهم؟ وصلاتهم؟ واستقامتهم؟

وروى ابن ماجة أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أَطْعَمَهُ الله طعاماً فَلْيَقُلْ: اللهمَّ بارِك لنا فيه، وأطعِمنا خيراً منه، ومن سَقاهُ الله لبنا، فليقل: اللهمَّ بارك لنا فيه وزِدْنَا منه، فإنه ليس شيءٌ يُجْزِئ من الطعام والشراب إلا اللبنُ» [ابن ماجه عن ابن عباس].

هذه مشتقات الألبان من أعظم الأرزاق الإلهية.

هل تملُّون مشتقات الألبان؟ يومياً تأكلها ولا تملُّها، بخلاف أيِّ طعام آخر، فالنبيّ ﷺ إذا شرب اللبن قال: «اللهم زدنا منه».

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ إِنِّي مَجْهُودٌ فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَقَالَتْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ

مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ فَقَالَ مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ الله فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ أَنَا يَا رَسُولَ الله فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ قَالَتْ لَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي قَالَ فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السِّرَاجَ وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ قَالَ فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ قَدْ عَجِبَ الله مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ.

فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٩].

أيها القراء الكرام: كل يوم ثلاث وَجْبات وعندها تعرّف إلى المُقِيت ولا يشغلنّك القوت عن المُقِيت، وبكل مجلس علم هناك مقيت، أنت في البيت تأكل الطعام والشراب؛ يجب أن ترى أن هذه مائدة الله عزَّ وجلَّ. والأكمل أن تُفكّر في كلِّ أنواع الطَّعام كيف خُلِقت؟ وكيف نَمت؟ وكيف طُبِخت؟ وكيف عُولِجت؟ فالنِّعمة تعبِّر عن المُنعِم، والقوت عن المُقِيت.

وإذا دخلت المسجد؛ فهناك قوت آخر. العلم قوت القلوب والاتصال بالله قوت، والعمل الصالح قوت. فالله عزَّ وجلَّ يُقيت الأشباح بالطعام، ويقيت الأرواح بالعلم والمعرفة ونحن عالَةٌ على المُقِيت جلّ جلاله، خَلقنا وخلق لهذا الفم ما يملؤه، وخلق أنفسنا وخلق لهذه الأنفسِ ما يُسْعِدها، فنحن بين لذة الطعام، ولذة القُرب من الله عزَّ وجلَّ. وهذا الاسم المُقِيت يدور مع الإنسان ما دام حياً. لذلك كان النبي ﷺ يعظِّم النِّعمة وإن دقَّت، وكلما عرفت اسم المُقِيت تحترم هذه النِّعمة التي بين يديك، وروي أنه رأى كِسْرَةً ملقاة فأخذها فمسحها ثم أكلها ثم قال: «يا عائشة أكرمي كريماً فإنها ما نفرت عن قوم قطُّ، فعادت إليهم» [ابن ماجه، عن عائشة]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم:٧].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم:٣٤].

فإن الخلق عاجِزون عن إحصائها؛ فلأن يكونوا عاجزين عن شكرِها من باب أولى لأنَّ الإحصاء أسهل، فلو جاءتك مئة هدية في مناسبة وِلادة، جلوسك ربع ساعة يكفيك لكتابة كل ما جاءك من هدايا، أما أن تردَّ على كلِّ هديَّة بثمنٍ يقابِلها؛ فهذه تحتاج إلى جهد كبير. فالله عزَّ وجلَّ أشار إلى أننا عاجزون عن إحصاء النِّعم، بل إننا عاجزون عن إحصاء نعمةٍ واحدة، فلأن نكون عاجزين عن شكرِها من باب أولى.

القاهر

مع اسم جديد من أسماء الله الحسنى، وهو اسم (القاهر)، وقد سمّى الله تعالى نفسه (القاهر) في كتابه الكريم.

وقد ورد هذا الاسم في موضعين فقط في القرآن الكريم في سورة الأنعام، ولم يرِد في السّنّة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٨﴾ [الأنعام:١٨].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [الأنعام:٦١].

من معاني اسم الله (القاهر)

القاهر في اللغة اسم فاعل مِن قَهَرَ يقهَر قهراً فهو قاهرٌ، وقهرت الشيء غلبته، وعلوت عليه مع إذلاله بالاضطرار، تقول: أخذتهم قهراً، أي من غير رضاهم، وأُقهرَ الرَّجلُ إذا وجدتَه مقهوراً، أو صار أمره إلى ذلٍّ، وإلى صغار، وعند الترمذي من حديث

أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال في شأن يأجوج ومأجوج: «قَهَرْنَا مَنْ فِي الأَرْضِ، وَعَلَوْنَا مَنْ فِي السَّمَاءِ قَسْوَةً وَعُلُوًّا» .

النقطة المهمّة في هذا الاسم: أنَّ الله كامل، لا يقهر إلا الظالمين، والمنحرفين، والمتغطرسين، وحينما يرى الإنسان غطرسة لا تحتمل، وعلوّاً في الأرض لا يحتمل، وسفكاً للدّماء لا يُحتمل، وانتهاكاً للحرمات لا يُحتمل، ثمّ يرى قوّة بطشت، وأنهت هذا الظّلم، وذاك العدوان، فإنّه يرتاح أشدَّ الرَّاحة، وهذا من معاني اسم (القاهر).

فلذلك يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء:٨١].

القاهر يقهر أكبر قوَّة تظنّها لا تُقهر، لذلك قالوا: عرفت الله من نقض العزائم، وفي حالات كثيرة ترى إنسانا متغطرسا جبّارا، يتلذَّذ بقتل الأبرياء، وانتهاك الحرمات، يتلذَّذ بهدم البيوت، ثم يقهره الله تعالى إما بالمرض أو بالموت أوبالذلّ.

فالله جلَّ جلاله له أسماء جلال، وله أسماء كمال، والإنسان بطبعه يحبُّ القويَّ، يحبُّ أن يكون مع القويِّ، يحبُّ أن يكون تابعاً لقويٍّ، أن يعتز بالقويِّ، أن يلجأ إلى القويِّ، وأسماء الله كلُّها حسنى، وصفاته كلُّها فُضلى.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

نحن في حياتنا اليوميَّة قد نجد صديقاً طيِّباً جدَّاً، لكنَّه ضعيف، نعجب بطيبه، ولا يعجبنا ضعفه، وقد نجد إنساناً قوياً، لكنَّه ليس بطيِّب، فلا تعجبنا قوَّته مع خبثه، ولا يعجبنا طيب هذا الإنسان مع ضعفه، فمتى نُعجب بإنسان؟ إذا كان في الوقت نفسه من القوّة بحيث لا يستطيع أحد أن ينال منه، ومن الطِّيب والكمال بحيث تتعلَّق النُّفوس به، هذا هو الكمال؛ أن تكون قويَّاً، وأن تكون كاملاً.

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن:١].

هناك إنسان له الملك، لكن ليس له الشكر، وإنسان له الشّكر، لكن ليس له الملك، فلذلك الكمال البشريُّ يتعلق بالكمال الإلهيِّ، وأجمل شيء في حياة المؤمن أنَّه مع

القويِّ، وأنَّه مع الغنيِّ، وأنَّه مع العليم، وأنَّه مع الرَّحيم، وانتماء المؤمن إلى الله عز وجل انتماء حقيقيٌّ.

الإنسان أحياناً يكون ابن ملِك، فكيف يشعر؟ بلد فيه مؤسسات، فيه وزارات، فيه جيش، فيه شرطة، لأنه ابن الملك يشعر باعتزاز، يشعر أنَّ قوَّته من قوَّة الملك، يشعر أنَّ كرامته من كرامة الملك، هذا شعور المؤمن مع الله عزَّ وجلَّ.

لا بدَّ من أن تحبَّ، وهذا من طبيعة البشر، ولكنَّ البطولة أن تعرف من تحبُّ، ومن توالي، ومن تعظِّم، المؤمن يحب الله، ويتعامل مع الخلق جميعاً، وقلبه لله عزَّ وجلَّ.

فالنَّبيُّ ﷺ يقول: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ» [الترمذي عن أبي سعيد الخدريّ وقال: حسن صحيح].

فالمؤمن يعتزُّ بالله، الله عز وجل هو (القاهر)، لكنّه كامل، لا يقهر إلا الظَّالمين، فقد تلتقي بقويٍّ يقهر الطَّيبين، ينتقم من المؤمنين، لكنّ الله عزّ وجلّ كامل كمالاً مطلقاً.

هو القاهر، لكنَّه رحيم، قوي لكنَّه عَدْل، قويٌّ لكنَّه حكيم، فالقوَّة مطلوبة مع الكمال، والذي نلاحظه أحياناً أنَّ العالم الإسلامي معه وحي، معه حقٌّ، معه قرآن، معه تعليمات الصَّانع، لكنّه ضعيف.

لذلك انصرف النَّاس عن المسلمين لأنهم ضعاف.

الإنسان يحبُّ الله، لأنَّ الله كامل وقاهر، فمن كماله جلَّ جلاله أنّه لا يقهر الطيبين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود:٥٦].

حيثما جاءت (على) مع لفظ الجلالة فتعني الإلزام الذاتي.

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦].

(القاهر) سبحانه وتعالى هو الغالب على جميع الخلائق، وهو يعلو في قهره وقوَّته، فلا غالب ولا منازع، بل كلُّ شيء تحت قهره وسلطانه.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون:٩١].

هو الواحد الأحد الفرد الصمد، المتفرد بالقوة والجلال، القاهر فوق عباده.

الله عز وجل حينما قال عن نفسه: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾.

أي هو الذي قهر كلَّ شيء، وخضع لجلاله كلُّ شيء، وذلَّ لعظمته وكبريائه كلُّ شيء.

لذلك فأيُّ إنسان ينازع الله كبرياءه وعظمته يقصمه الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ» [أبو داود].

وفي ضوء هذا الحديث نفهم واقعنا اليوم، فهناك أمَّة قويَّة جدًّاً، تملك من الأسلحة ما لا يوصف، تفردت بقيادة العالم، لا تنطوي على كمال إطلاقاً، تخطِّط لبناء مجدها على أنقاض الشُّعوب، وبناء رخائها على إفقار الشُّعوب، وبناء عزِّها على إذلال الشُّعوب، وبناء غناها على إفقار الشُّعوب، فأن تنجح خططها على المدى البعيد، هذا لا يتناقض مع عدل الله فحسب، بل مع وجوده.

«الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»

ومن لوازم اسم الله القاهر أنّ له العلوَّ والغَلبة، فلو فرضنا وجود إلهين اثنين مختلفين، ومتضادَّين، وأراد أحدهما شيئاً خالفه الآخر فلا بدَّ عند التنازع من غالب وخاسر، فالذي لا تنفذ إرادته هو المغلوب العاجز، والذي نفذت إرادته هو القاهر القادر.

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾.

وهو الذي قهر كلَّ شيء، وخضع لجلاله كلُّ شيء، وذلَّ لعظمته وكبريائه كلُّ شيء، وعلا على عرشه فوق كلِّ شيء.

قال بعض العلماء: (القاهر) أي المذلِّل، المستعبد لخلقه، العالي عليهم، وإنما قال: فوق عباده، لأنه وصف تعالى نفسه بقهره إيَّاهم، ومن صفة كلِّ قاهرٍ شيئاً أن يكون مستعلياً عليه، فمعنى الكلام إذاً غالبُ عبادِه المُذلُّ لهم إذا طغوا، وبغوا، وفسدوا، العالي عليهم بتذليله لهم وخلقه إياهم فهو فوقهم بقهره إياهم، وهم دونه.

فلذلك الحياة مع الإيمان بالله حياة رائعة فيها عزٌّ، فيها قوة، فيها راحة، فيها استسلام، فيها رضا، فيها طاعة.

سيدنا موسى مع أتباعه حينما كانوا في اتّجاه البحر، ووراءهم فرعون بجبروته، بقوته، بأسلحته، بحقده، ولكلِّ عصر فرعون.

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء:٦١-٦٢].

تعلّموا من الأنبياء العظام ثقتهم بالواحد الدّيّان، تعلموا منهم اعتزازهم بالله عزَّ وجلَّ.

في غار حراء، قال الصّدّيق ﵁: يا رسول الله لقد رأونا، قال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» [أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي عن أنس بن مالك].

ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف:١٩٨].

والمقولة التي يرددها معظم المسلمين: سبحان من قهر عباده بالموت، وقد ورد في بعض الأحاديث الشريفة: «بادِرُوا بالأعمال سبعا: هل تُنْظَرون إلا فَقْرا مُنْسيا، أو غِني مُطغيا، أو مَرَضا مُفسِدا، أو هَرَما مُفنِدا، أو موتا مُجْهِزا، والدجالَ؟ والدَّجَّالُ شَرُّ غائب يُنتظَرُ والساعةَ؟ والساعةُ أدْهَى وأمرُّ» [أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة].

هل يمكن أن يستيقظ الإنسان كلَّ يوم كاليوم السابق إلى ما شاء الله؟ مستحيل وألف ألف مستحيل!

سبحان من قهر عباده بالموت، لأن الموت يُنهي كلَّ شيء، ينهي قوَّة القويِّ وضعف الضَّعيف، يُنهي غنى الغنيِّ وفقر الفقير، يُنهي وسامة الوسيم ودمامة الدَّميم،

يُنهي صحَّة الصحيح ومرض المريض، الهدى نعمة مستمرة بعد الموت، وما سوى الهدى نعمة منقطعة عند الموت وتأكد أن أي نعمة وهبك الله إيَّاها ليس معها الهدى تنتهي عند الموت، وليست عطاءً، لأنَّ كرم الله عز وجل لا يمكن أن يكون بنعمة منقطعة، نعم الله الحقيقيَّة مستمرَّة بعد الموت.

وأحياناً يُقهر المرء بالمرض، وأحياناً يُقهر بالفقر، وقد يقهر بالغنى المطغي، كان مستقيماً فانحرف، هذا قهر أيضاً.

والقاهر من أسماء الله الحسنى، يقهر الجبابرة، يقهر الظالمين، يقهر المتجبرين لذلك في بعض الأدعية التي نقرؤها في القنوت: «اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت، فإنك تقضي بالحق ولا يقضى عليك» [أخرجه أبو داوود، والترمذي، والنسائي عن الحسن بن علي بن أبي طالب].

فلذلك كلُّ البطولة أن تتمتَّع بنعمة تُسعدك بعد الموت، أمَّا نعم الحياة الدنيا فتنتهي عند الموت، من بيت إلى قبر، من منصب إلى قبر، من انغماس في اللّذات إلى قبر، أما المؤمن فنعمه مستمرة بعد الموت، وهي متنامية، فالبطولة والتّوفيق والذَّكاء أن تبحث عن نعمة ليس الموت نهايةً لها. يقول سيدنا عليٌّ رضي الله عنه: «فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمدا ﷺ أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه، فقد كذب، وإن قال: أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا».

نصيب المؤمن من اسم الله (القاهر)

ما الخُلق الذي ينبغي أن تتخلَّق به انطلاقاً من هذا الاسم؟

أولاً: الله هو القاهر فاخضع له، لأنَّك في قبضته، وأقلّ خلل في صحّتك يجعل الحياة جحيماً لا يُطاق.

كنت مَرة عند طبيب، جاءه اتِّصال هاتفيّ، من مريض قال له: أيّ مكان في العالم تريد للعلاج، وأيّ مبلغ، قال له: والله لا أمل، الورم في الدرجة الخامسة، لا أمل، فالمرض يقهر، لكنَّ أصعب قهر هو أن يقهرك إنسان.

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام:٦٥].

فالموقف الكامل ما دام الله يقهر كل إنسان أن تكون خاضعاً له، أن تكون في طاعته، أن تكون محبّاً له، فهو يقهر ليربِّي.

نحن في قبضة الله، والإنسان كلُّ مكانته، وهيمنته، وسيطرته، وقدرته منوطة بقطر شريانه التاجي، وكلُّ مكانته وهيمنته وسيطرته منوطة بسيولة دمه، وكلُّ مكانته وهيمنته وسيطرته منوطة بنموٍّ خلاياه، فإذا نمت نموّاً عشوائيّاً فقد تنتهي حياته.

نحن في قبضة الله عز وجل، أحيانا حادث سير ينهي حياة الإنسان، والأصعب ألاّ تنتهي حياته، بل يصبح مشلولا طول حياته، فنحن تحت رحمة الله، نحن في قبضته، فما دام الله قاهراً فينبغي أن ننصاع له، أن نؤمن به، أن نستقيم على أمره، أن نعمل صالحاً.

والنّصيب الثاني للمؤمن من هذا الاسم: لا تكن ضعيفاً، لا تكن خنوعاً، لا تكن مستسلماً، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الشورى:٣٩].

استمدَّ من الله القوة.

هناك إنسان يضعف عن أن يأخذ حقه، يضعف لأقلّ تهديد، أما المؤمن فيعتز بالله. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة:٥٤].

لكن لا تَكِل له الصاغ أصوعاً. ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى:٣٩-٤٠].

أما أروع ما في الآية: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى:٤٠].

فإذا غلب على ظنِّك أنَّ عفوك عن هذا الذي أساء إليك يقرِّبه إلى الله فاعفُ عنه، وأجرك على الله.

أحيانا سائق سيارة يمشي بأعلى درجات الانضباط، فقفز طفل أمام السيارة، ودُهس، الأب يقرّر أن يقيم عليه دعوى، وأن يضعه في السِّجن، لكنَّ معطيات الحادث أن السَّائق بريء وفقير، والخطأ من الابن، لكن تسبَّب هذا السَّائق في موت الطِّفل الصغير، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أما إذا كان أرعن ويتحدَّى النَّاس فلا بد من معاقبته، ليرتدع غيره.

الخبير

اسم الخبير أيها الأخوة ورد في الكتاب والسنة وفي نصوص كثيرة، ففي القرآن الكريم ورد معرفاً، و مقترناً بثلاثة أسماء، باسم الحكيم في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٨].

ومع اسم اللطيف في قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٣].

ومقترناً مع اسم العليم في قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [التحريم:٣].

وقد ورد هذا الاسم منوَّناً غير معرَّف في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٤].

أمّا في السنة ففي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها: قال ﷺ مخاطباً عائشة رضي الله عنها: لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الخَبِيرُ.

من معاني اسم الله (الخبير)

الخبير في اللغة على وزن فعيل، هذا الوزن يدل على المبالغة، إذاً الخبير من صيغ المبالغة فعله خَبَرَ يَخبُرُ خُبراً، وخبرت بالأمر أي علمته، وهناك من أعلمني به، وخبرته أي عرفته على حقيقته بالعمق، بالخلفيات، بالبواعث، وفي صحيح مسلم من حديث أبي موسى الأشعري أنه سأل السيدة عائشة رضي الله عنها قال: فما يُوجب الغسل؟ قالت: على الخبير سقطتَ. أي إنك سألت خبيراً بهذا الموضوع.

الخبير هو الذي يعلم كلَّ شيء ولا يغيب عن علمه صغيرة ولا كبيرة، وهو العالم بكُنْه كلِّ شيء، ومطَّلع على كلِّ دقيقة مهما دقَّت أو خفيت، العليم بدقائق الأمور لا تخفى عليه خافية، يعلم الدَّاء والدَّواء، العليم بظاهر الأشياء وبواطنها، بشكلها وحقيقتها، وبجلائلها ودقائقها، بما تراه عينك وبما يخفى عنها، يقول أحد العلماء: الخبير هو الذي لا تعزُب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجري في الملك والملكوت شيء إلا بعلمه، ولا تتحرَّك ذرَّة ولا تسكن إلا بعلمه، ولا تضطرب نفس ولا تطمئنُّ إلا بعلمه، وقيل: الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء، ولا تتحرَّك حركةٌ ولا تسكن ساكنةٌ في السَّماء والأرض إلا يعلم مستقرَّها ومستودَعها. لكن قد يسأل سائل: أليس هذا هو العليم؟ هذا كلُّه يمكن أن يكون شرحاً لاسم العليم فما لنا نتحدث عن اسم الخبير بما يشبه اسم العليم؟ الحقيقة أنَّ العلماء فرقوا بين العليم والخبير.

فالخبير هو الذي يخبر الشيء بعلمه لكن الخبرة أبلغ من العلم لأنها علم وزيادة، فالخبير بالشيء من علمه وقام بمعالجته وبيّن خصائصه وجربه وامتحنه فأحاط بتفاصيله الدقيقة وألمّ بخصائصه اللصيقة ووصفه على حقيقته، فالعلم نظريٌّ والخبرة عمليَّة.

فالخبير يفيد معنى العليم، ولكنَّ العليم لا يفيد معنى الخبير، لذلك اسم الخبير هو عليم ومع العلم شيء آخر، وسوف أوضِّح عن طريق الأمثلة الفرق بين العليم والخبير، وهناك آية في القرآن الكريم ورد فيها اسم الخبير، وسأجعلها أساساً لهذا البحث، وقد ورد في القرآن لفظ الخبير خمساً وأربعين مرة في خمس وأربعين آية فقال

تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة:٢٣٤].

لو أنَّني أمسكت هذا الكأس ووضعته في هذا المكان، أنتم جميعاً رأيتم أنَّني نقلته من مكان لآخر، فهذا هو العلم، ولكن لماذا نقلته؟ ما الدوافع التي حملتني على نقله، وما الخواطر التي خطرت ببالي حين نقلته، وماذا أبتغي بنقله، وما الباعث على نقله، علمُك أنه انتقل من مكانٍ لآخر هذا يسمى علماً. أمَّا إذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ فهذا يعني أنَّه يمكن أن تعمل عملاً لا يشكُّ أحدٌ من الخلق أنَّه عمل طيِّب، وتكون النِّيَّة ليست طيِّبة، فالله خبير بما تعمل، قد تدَّعي شيئاً وأنت على خلافه، وقد تريد شيئاً في الظَّاهر، ولكن في الباطن لا تريده، وقد ترحِّب بشخصٍ وأنت تُبْغِضه، وقد تَغضب منه وأنت تحبّه، حقيقة العمل ومؤدَّى العمل هي للخبير، فهو الذي يعلم ذلك، فالخبرة هي العلم بدقائق الأمور وببواطنها وبواعثها وبأهدافها البعيدة وبما يخالج فاعلها من مشاعر.

آية ثانية: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة:٢٧١].

من باب الطُّرفة نقول: أسرة تزورها ذات يوم من أيام الشتاء صديقة الزوجة وتجلس مع الزوجة في غرفة مجاورة، يقول الزوج: تعالي إلى هنا فالغرفة هنا أدفأ، يا ترى هل هذا الذي ذكره هو الحقيقة، أم أنّ هناك شيئاً يخفيه ولا نعلمه؟ فالله خبير بالأعمال بحَجمها وتفاصيلها، وبواعثها وأهدافها وأبعادها وبمقاصدها وخلفياتها وجزئياتها التي لا يعملها إلا الله، فالله هو الخبير، قال تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران:١٥٣].

قد تجد إنساناً يعمل عملاً طيباً، وربما ساق الله له بعض المصائب فتقول: لِمَ أصيب وأعماله طيِّبة؟ أنت لا تعلم لأنَّ الله هو الخبير، لم يَسُق الله له هذا الحادث إلا لحكمة بالغةٍ ورحمةٍ به، فالله بما تعملون خبير، مثلٌ آخر؛ طبيب له الحقُّ أن يرى موضع الألم من المرأة، لكنَّه إن نظر إلى موضع آخر لا تشكو منه فهل على وجه الأرض جهة تكشف خيانة بصره؟ لا... إلا الله، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر:١٩].

وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحديد:٢٢].

فإذا أرسل الله عزَّ وجلَّ مصيبة فلا تحزنوا لمجيئها، ولا تفرحوا بما آتاكم، فالله خبير بما تعملون، حكمة الله اقتضت أن يرسِل إليكم هذه المصيبة، إنسان صالح هو في حركة انتقال من بيته إلى مسجده وبالعكس، رزقه الله تعالى مبلغاً كبيراً من المال، هل سيبقى على حاله أم يتغيَّر؟ هذا لا نعلمه، لكنَّ الله يعلمه، فالله خبير بما تعملون، عَلِم ما كان وعلمَ ما يكون وعلمَ ما سيكون وعلمَ ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، إنَّ من عباد الله من لا يصلحه إلا الفقر فإذا أغناه أفسد عليه دينه، وإنَّ من عباد الله من لا يصلحه إلا الغنى فإذا أفقره أفسد عليه دينه، فمن الذي يعلم حقيقة النَّفس؟ كنت مرَّة في طريقي فرأيتُ جداراً منهاراً بسبب هبوب عاصفة هوجاء بلغت سرعتها مئة وثمانين كيلومتراً في الساعة، فهذا الذي بنى الجدار هل يعرف السُّرعة التي ينهدم بها الجدار؟ لا يعرف، ونحن إذا أردنا أن نعرف لا بد من التجارب، فبعض المعامل من أجل أن تعرف مقاومة الآلات، تضعها في ظروف صعبة بمركَبة تنتقل بسرعة مئة كيلومتر وأمامها جدار من الإسمنت المسلّح، طبعاً يحتالون على أن تنطلق من غير سائق، تصطدم بهذا الجدار، فيختبرون مقاومة هذا المعدن وهذا الهيكل على سرعة مئة كيلومتر، ماذا فُعل بها هذا الصَّدم الشديد؟ وإلى أي مكان وصل هذا الصَّدم، ويبنون على هذه التجربة خبرتهم! إنَّ الإنسان الذي صنع هيكل مركبة وغلّفها وهيَّأها، لا

يعرف في حال اصطدامها بجدار مدى تأثير الجدار فيها إلا بعد الاختبار، فنحن لا نعلم إلا بالتجربة، فخبرة الله قديمة، وخبرة الإنسان مكتسبة، والدليل على ذلك أنَّ خلق الإنسان لم يطرأ عليه أيّ تغيير منذ خلقه الله سبحانه وتعالى. فالبشر من العصور القديمة وحتى الآن لم يطرأ تغيير على خلقهم. ولكنَّنا إذا نظرنا إلى سيارة صنعت سنة ألف وتسع مئة مثلاً، ترى بينها وبين التي صنعت سنة ألفين مثلاً بَوْناً شاسعاً غير معقول، فالقطار الأول الذي صنع قديماً ألزمتهم الجهات المسؤولة أن يمشي إنسانٌ أمامه كي يحذر الناس منه حينما يسير؛ فسرعته كانت تعادل سرعة الإنسان أما الآن فالقطار ينطلق بسرعة ثلاث مئة وستين كيلومتراً في الساعة، والتطورات ما زالت تأتي بالجديد، فالإنسان خبرته مكتسبة وحادثة، أما الله فخبرته قديمة بدليل أن كل شيء خلقه الله خلقه منذ اللحظة الأولى في أبدع صورة وفي أكمل حال وما زال على صورته وحاله. قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل:٨٨].

مرة كنت عند أحد إخواننا الكرام الذين يعملون في إصلاح السيارات، ورأيت عندهم قطعة ميكانيكية مُلقاة على الأرض، فقلتُ: ما قصة هذه القطعة؟ فقال: جاءَت وجبة مركبات فيها هذه القطعة، وبعد عشرة آلاف كيلومتر من استعمال المركبة، تكسَّر من هذا المكان وأشار إليه، ويوجد فيها منطقة ضعيفة، والذي صنع هذه الآلة لم يكن يتخيَّل أنَّ هذا المكان ضعيف على التحمّل وبذلِ الجهد، ومنها علمت أنَّ كلَّ تعديل يطرأ على مركبة أو على آلة فهو دليل نقص في الخبرة، والنقص في الخبرة يتلافونه في العام القادم! فالتّحديثات التي تطرأ على خبرة الإنسان دليل على أن خبرته ناقصة ومكتسبة وحادثة، أما خلق الله الكامل والذي لا يزال كاملاً وسيبقى كاملاً فهو دليل على أن خبرة الله قديمة، حليب الأم مثلاً فقير إلى الحديد وهو معدن أساسي جداً في تكوين خضاب الدم، لو فحصنا طحال وليد رضيع نجد أنَّ فيه كمية حديد تكفيه عامين إلى أن يتمكن من أكل غذاءٍ منوّعٍ، فمن فعل هذا؟ الخبير، ولماذا جُعل ثقب بين

الأُذين والأذين في القلب، كشفه العالم بوتال وهذا الثقب وظيفته أنه ما دام الطِّفل في بطن أمه ولا يحتاج هواء ولا يتنفس والرّئة معطلة، لذلك بدل أن يدور الدم إلى الرئة ويعود إلى الأُذين ينتقل من أُذين إلى أُذين، وحينما يولد الطفل تأتي جلطة لتغلق هذا الثّقب، وعندها تنتقل الدورة التي كانت من الأذين إلى الأذين فتصبح من الأذين إلى الرئة كل هذا من صنع الخبير، لماذا لا نجد في أظافرنا وشعورنا أعصاباً حسيَّة؟ فلو كان الأمر كذلك لاحتجنا إلى الذهاب إلى المستشفى لتقليم أظافرنا وقصّ شعورنا ولاحتجنا إلى تخدير. فهذا هو الخبير الذي أعطى كلَّ شيء خلقه، إذ لم يجعل أعصاب الحسِّ في الأظافر ولا في الشَّعر، ولكنَّه جعل أعصاب الحسِّ في العظام! فإذا انكسر العظم تألّم الإنسان أشدَّ الألم، فالشعور بالألم أربعة أخماس العلاج! كذلك لو نظرت في خلق الإنسان وفي خلق الحيوان والنبات لرأيت العجب العجاب، لو ترك الفلاح الشجرة بلا سقيا ما الذي يحصل؟ ستستهلك هذه الشجرة ماء الورق ثم ماء الغصن ثم ماء الفروع ثم ماء الجذع ثم ماء الجذور، وآخر ماء تستهلكه هو الماء الذي في آخر الجذر، فلو كانت الشجرة تستهلك الماء ابتداءً من الجذور لماتت كل الأشجار لمجرد توقفنا عن سقياها مرة واحدة، ولكن الله رحمةً بنا جعل الدورة معاكسة، ولماذا ينكمش الماء إذا بردناه؟ أما إذا وصل إلى درجة أربعة فيزداد حجمه، هذه الظاهرة لولاها لما كانت حياة على سطح الأرض، كلُّ هذا من فعل الخبير، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة:٨].

حتى العدل مع الكافر قُربة إلى الله، قد تقرّبه إلى الإيمان حينما تعدل مع الكافر، فهل كان هذا ابتغاء مرضاة الله أو خوفاً من الإنسان؟ من يكشف ما إذا كان هذا الإحسان صادراً عن خوف من الناس أو عن ابتغاء مرضاة الله؛ هو الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾، وفي آية آخرى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٨].

وقوله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٣].

لو احتال طبيب أسنان على قلع ضرس طفل فمهما يهوِّن على الطِّفل ومهما يداعبه فإنَّ الطِّفل يشعر بالألم، إما بألم الحقنة المخدِّرة أو بألم الضرس مباشرة، لكنَّ الله الخبير إذا أراد تبديل أسنان هذا الطفل فهل يتألم؟ هل يشعر بسقوط أسنانه اللبنية وتبديلها؟.

ويقول الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التوبة:١٦].

الخبير هو الذي يعلم البواعث والخواطر، يعلم الخلفيَّات والملابسات، ويعلم حقيقة كلِّ شيء، ويعلم الاحتمالات، فنحن البشر لا نعلم حقيقة الشَّيء إلا بالتَّجارِب، حتى إذا أردنا صنع دواء نزرعه في الجراثيم كي نتعرف إلى مدى مفعوله، إما أن يقتل تلك الجراثيم فهو فاعل، وإما أن تبقى حيَّة كما كانت فهو غير فاعل، فعلوم البشر كلُّها أساسها التجربة، لذلك سمُّوه بالعلم التجريبي لكن علم الله وخبرته لا يفتقر إلى التجربة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج:٦٣].

آية أخرى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور:٣٠].

فهذا الذي يغض بصره أمام الملأ ويتصنَّع ثم إذا خلا بنفسه مدَّ بصره إلى الحرام، هل يستطيع أحد أن يعرف إخلاص هذا المرء ورياءه؟ لا أحد ولكنَّ اللطيف الخبير أعلم بحاله من نفسه، لذلك قال تعالى في آخر الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

نصيب المؤمن من اسم الله الخبير

إذا علمت أنَّ الله يعلم وهو خبير بسِرِّك وجهرك وسريرتك وعلانيتك وخَلْوَتك وجلْوَتِك وبواعثك وخواطرك ومقاصدك وخلفياتك، والمؤدَّى الذي تبتغيه من عملك، وعلمت أنَّ الله خبير وأنَّك في قبضته، فما التطبيقات العملية لهذا الاسم؟ أنت مكشوف أمامه ولا تخفى على الله منك خافية، علانيتك كسرِّك، وجهرك كسِرِّك، فهذا يجعلك تستقيم على طاعته، ولا تخشى معه أحداً آخر، وهذه هي أول ثمرة للإيمان باسم الخبير، يقول أحد الأئمة: من أدب المؤمن مع اسم الخبير أنَّه مَن عرف أن الله خبير بأفعاله وأقواله وأعماله كان محترزاً في أقواله وأعماله وواثقاً بجميع اختياره، وأنه ما قُسم له لن يفوته، وما لم يُقسم له لن يُدركه، إذاً أولُ ثمرة هي الاستقامة والرضا والاستسلام، ومن أدرك وأيقن «اسم الخبير» يرى أنَّ جميع الحوادث من الله سبحانه وتعالى، فتهون عليه الأمور بخلاف من يضيف بعض الحوادث إلى الحقِّ وبعضَها إلى الخلق، وأنَّه هو الفعال لما يريد، وكلُّ الأمور بيده، من خلال هذا نقول: إنك إذا تيقّنت من اسم «الخبير» وأنَّه المطَّلع على سرِّك وهو عليم بخفيٍّ أمرك وما في صدرك، يكفي لرفع همتك إليه واستحضار حاجتك في قلبك من غير أن تنطق بلسانك وهي فكرة دقيقة جداً، عِلْمكَ أن الله مُطَّلِعٌ على قلبك يجعلك تناديه نداءً خفياً كما فعل سيدنا زكريا ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم:٣].

هناك معنى آخر للخبير، فأنت في دنياك تتحرَّك، وهناك أهداف ووسائل سمح بها الشَّرع لكسب المال، وهناك وسائل غير مشروعة، فقد يبدو لك أنَّ هذه الوسائل التي لم يسمح بها الشَّرع أسرع ونتائجها أضمن وهدفها أكبر، وتتوهَّم أنَّ الطريق التي رسمها الله لك طريق طويلة وهزيلة، فيُقبل هذا الإنسان الجاهل على وسيلة غير مشروعة من أجل كسب المال فيُفاجأ بتَلَف ماله؛ لماذا يا رب؟ فمن أجل الوصول إلى دخْلٍ وفير أنت مكلف بتطبيق منهج الله، فالنجاح ليس بالذكاء وإنما بالتَّوفيق، والتوفيق بالطاعة، فالذي يسرع إلى وسيلةٍ غيرِ مشروعة ظناً منه أنَّها موصلة قبل

المشروعة فهو واهم لأنَّ الله خبير، وهو الذي أمرك بالإقبال عليه، وأنَّ الانغماس في الشهوات شقاوة، وأنَّ كلَّ السعادة بطاعة الله، فكلُّ من اتَّبع الخبير يسعد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

فحينما تسلك منهج الله فإنّك تقطف الثّمار اليانعة، وحينما تحيد عن منهج الله تندم أشدَّ النَّدم لأنَّك أسأت الظَّنَّ بالخبير، فيما يخص الآلات الثمينة والمعقَّدة وعظيمة النفع تعتقد بالبداهة والفطرة دون توجيه أنَّ الذي صنعها هو الوحيد الخبير بها، ولذلك تحتاج إلى كُتيِّب، فإذا كان هذا في شأن هذه الآلة، فما بالك في شأنِ نفسك التي تحوي أسراراً وخفايا لا يعلمها إلا الله، فهي تحوي أفكاراً وشهواتٍ وروحاً وجسداً وميولاتٍ وغرائزَ وطموحاتٍ وقيماً ومبادئَ وكلُّها أمور معقَّدة جداً، أفلا يجعلنا هذا نقول: إنَّ لهذه النفس منهجاً يوجهها ويسددها، إنه منهج الله ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

وفي آية ثانية: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:١٤].

أي ما من جهة ينبغي أن تُتَّبع تعليماتها إلا الصانع وهو الله عزَّ وجلَّ.

فالأمر الإلهي علاقته بنتائجه علاقة علميَّة، علاقة سبب بنتيجة، أضرب مثلاً أنت تركب مركبة تحمل عشرة أطنان، وصلت إلى جسر كتب عليه الحمولة القصوى خمسة أطنان، من الحمق والغباء أن تتلفت يمنة ويسرة لترى إن كان هناك شرطة تراقبك، فليس الموضوع موضوع شرطيّ ومخالفة، الجسر نفسه سيعاقبك، وستسقط في النّهر إن سرت فوقه بهذه الحمولة، فالعلاقة بين السير فوق هذا الجسر بعشرة أطنان وسقوط الجسر علاقة علمية.

حينما تفهم أمر الله الخبير على أنَّ العلاقة بين الأمر أو النّهي من جهة، والنَّتائج من جهة أخرى علاقة علمية؛ علاقة سبب بنتيجة، تكون قد عرفت الخبير.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

أحد العلماء الكبار تكلم عن حظ العبد من اسم الخبير فقال: يجب أن يكون العبد خبيراً بأحواله وبإيمانه وخبيراً بمشاعره وأحوال قلبه، والخفايا التي يتَّصف بها قلبه، وخبيراً بإخلاصه واستقامته، فأقرب شيء منك جسمك ونفسك، فلا بد أن تكون خبيراً بقلبك؛ هذه الخواطر التي تأتيك أمِن قلبك أم من نفسك أم من الشيطان؟ وهل هي وساوس أم إلهامات؟ وهل هذا العمل باعثه الإخلاص أم الرِّياء؟ فينبغي أن تكون خبيراً بأحوالك ونفسك وقلبك، وكسبِك للمال وإنفاقِه، فاسم الخبير يقتضي أن تكون خبيراً بما أنت عليه؛ لأنَّ أول حركة لمعرفة أي مشكلة، هي أن تعرف أنَّها مشكلة ثم تحدِّدها، إذ إنَّك لا تترك عملاً إلا إذا علمت أنَّه ذنب، فقبل أن تترك الذُّنوب ينبغي أن تعلم ما الذُّنوب؟ فأول خطوة نحو إصلاح النفس أن تعرفها وتعرف حقيقتها وألا تنخدع بها.

ما زلنا في الحديث عن حظِّ العبد من اسم الخبير، قال عالم جليل: يجب أن يكون العبد خبيراً بما يجري في عالمه، وعالمُه هو قلبه وبدنه والخفايا التي يتصف بها القلب من الغش والخيانة والتَّطواف حول العاجلة، وإضمار الشر وإظهار الخير والتجمُّل بإظهار الإخلاص مع الإفلاس، ولا يعرف ذلك إلا صاحب خبرة بالغة قد خبر نفسه ومارسها وعرف مكرها وتلبيسها فحاذرها وشمَّر لمعاداتها، فذلك العبد جدير بأن يسمى بين العباد خبيراً، لذلك من عرف أن الله خبير كان بزمام التقوى مشدوداً وعن طريق المنى مصدوداً، وقال أحدهم: من أراد عزّاً بلا عشيرة، وهيبةً بلا سلطان، وغنىً بلا فقر، فليخرج من ذل المعصية إلى عزِّ الطاعة، وقال بعض العلماء: لا ينال الحظ الأوفر من هذا الاسم «الخبير» إلا من كان خبيراً بدسائس نفسه بصيراً بخدائع حسِّه، يعرف الفرق بين خطرات الشيطان وإلهامات المَلَك، بصيراً بإلهامات الرحمن ووساوس الشيطان، وبعض العلماء لهم دعاء يتعلق باسم الخبير، يقول هذا العالِم الجليل: إلهي أنت الخبير بالدقائق والبصائر، والمطَّلِع على السرائر، والناظر إلى الضمائر، تجلّ لي بنور

اسمك الخبير بلا حول مني ولا تدبير، حتى أكون خبيراً بالأمور الغائبة عن الجهَّال، وأنجو من الشرك الخفيِّ وما هو أخفى في الأقوال والأعمال، ويتجلَّى لي مولاي الخبير نِعْم المولى ونِعْم النصير، لذلك فإليك الآية الكريمة: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه:٧].

فمضمون هذه الآية: من لوازم خبرته أنه يعلم ما خفي عنك.

أيها القارئ الكريم: هذا الاسم له تطبيقان أساسيان:

الأول: أن تعلم أنك مكشوف أمام الله، لا تخفى على الله منك خافية.

الثاني: أن تكون أنت خبيراً بأحوالك وخواطرك وقلبك وإيمانك ووساوسك وإلهامات الملائكة، فأنت خبير، وتعلم أنَّه خبير، عندئذ تتحقق لك الفائدة من هذا الاسم الجليل.

فهرس